عبد الكريم ناصيف

الطريق إلى الشمس

- ثلاثيـــة روائيـــة -

-3- الجـــــوزاء

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail : unecriv@net.sy
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.com

تصميم الغلاف للفنان : ريم الخطيب

❑❑

عبد الكريم ناصيف

الطريق إلى الشمس

- ثلاثيـــــة روائيـــــة -

-3-

الجـــــوزاء

<u>من منشورات اتحاد الكتّاب العرب</u>

2000

تنويـــــــه

عن اتحاد الكتاب العـ ـرب، صـ ـدرت الثلاثيـ ـة الروائيـ ـة الطريـ ـق
إلى الشمس" بجزئيها:

1 - تشريقة آل المر: عام .1993
2 - شرق/ غرب: عام 1996.

وهذا هو الجزء الثالث والأخير، بعنوان: الجوزاء.

- 1 -

ـــ واحد أحد!! الله أحد!!

بدأ صاحب البيدر يكيل الحنطة، مالئاً مكياله الخشبي واضعاً إياه في العدل.

ـــ اثنين، يا موفي الدين، تابع بصوت أعلى وهو يمسح المد الخشبي الذي ربما استخدمه أبوه وجده مكيالاً للحنطة والشعير، ثم أفرغه في فم العدل الجائع.

ـــ ثلاثة، يا مجير من الشماتة، نغّم الفلاح بلهجة حورانية سرعان ما عادت بعزيزٍ وهو يتربّع بجانب صبة الحنطة، إلى أولئك الفتيان البداة الذين جاؤوا، ذات يوم من صباه، بغاة طغاة يأمرون "املا العدول.... املا....".

وحين رفض أن يملأ العدول انهالوا عليه بالخيزرانات طامعين في أن ينهبوا حتى الثوب الذي يلبسه: "افسخ الثوب... ملعون الوالدين... افسخ الثوب"، ثم لم ينقذه من براثن الموت إلا ظهور الفارس الملثم الذي تكشف فيما بعد عن شمس، حبيبته....". إيه يا لتلك الأيام!! يا شهد العسل....!!".

وأطلق عزيز تنهيدة كادت تفضحه لولا أن كتمها آخر لحظة، فالرجال المتحلقون حول الصبة، بدافع الفضول من بعض والعمل من بعضهم الآخر كانوا لا يغفلون لحظة واحدة عن حركات التاجر الشامي، الذي يتكلم اللهجة البدوية مثلهم، ويتقن فن الأخذ والعطاء، ويأتيهم كل موسم لينقل حبوبهم إلى المدينة التي تلتهم كل شيء، ودائماً تلتهم كل شيء، سائلة: "هل من مزيد؟!"، اهراءات روما نفسها، سهول حوران، بكل غلالها لا تشبع المدينة، فأين تذهب بها يا ترى؟ في المواسم الخصبة وحين تجود السماء بالأمطار وتجود التربة بالغلال الوافرة يخشون أن تكسد غلالهم. لكن يأتي عزيز وأمثاله فلا يبقى منها

شيء. عشرة جمال كانت تنيخ بجانب البيدر، تنتظر أن توضع على ظهورها الأحمال. عزيز يسمع بعضها يرغي بشيء من قلق، وهي تلتفت يمنة ويسرة كأنها ملت الانتظار، لكن بعضها يرقب كيل الحنطة وإملاء العدول مجتراً مافي جوفه بصمت الخضوع وسكينة التسليم.

اثنان من الفلاحين بدأا ينقلان العدل الذي امتلأ جانباً، الآخرون يشاركون بالكيل والعد، وكلهم مبتسمون متفائلون. على البيدر لا يجوز التشاؤم أو أصيب البيدر بالنحس وضربت الغلة. حسب الفلاحين التجار الذين يأتون من دمشق وليس في ذهنهم إلا أن يستغلوهم ويبتزوهم". المد بعشرين قرشاً"، يقول التاجر الذي لا يشبع وعلى الفلاح المسكين الذي قضى عاماً بطوله يفلح ويبذر، يحصد ويرجد، يدرس ويذري، أن يرضى بالعشرين قرشاً، فيربح التاجر بالمد الواحد أضعاف ما أعطاه للفلاح......

وحده عزيز الذي كانوا يعرفونه باسم "عزو" مختلف. هو لا يساوم ولا يريد أن يبتز، يقول لهم "المد بأربعين قرشاً"... بخمسين"... معنى ذلك أن سعره هكذا!!.. أربعون... خمسون قرشاً في سوق الحبوب في دمشق. منذ سبع سنوات كان قد جاء برفقة صبري البديوي سليل تجار الحبوب في ذلك المحل الواسع من سوق الميدان. صبري قال لهم إن أصله من عرب الرولا وإن صداقة حميمة تربطه به. تلك الصداقة جعلته شريكاً له وجوالاً يتحرك باسمه هنا وهناك من قرى حوران. بعدئذ بدأ يأتي بمفرده فارضاً على الناس احترامه، محيطاً نفسه بهالة من غموض، كاسباً ثقتهم شيئاً فشيئاً حتى صار الأثير لديهم لا يبيعون حبوبهم إلا له"... هذا العام المد بخمسين قرشاً".. بشرهم حين جاء أول مرة، وأشرقت وجوههم، فنصف ليرة للمد تعني لهم الكثير.

ـ صب الشاي لعمك عزو... صب الشاي... صاح الكيال بابنه الذي جاء بإبريق الشاي الكبير وحشد من الكؤوس، فيما توقف شبه لاهث عن كيل القمح..

ـ إن شا الله ماهو حلو؟ قال عزيز مبتسماً للولد الذي بدأ يصب الشاي.

ـ شاي حوراني وماهو حلو؟ تدخل أحد الحاضرين ملوحاً برأسه، فيما انفجر الكل ضاحكين.

عزو يحبها "اكرك عجم" ثقيلة مرة، هكذا قال لهم منذ أول مرة، ومنذ أول مرة خاب أمله ومايزال: "ايه" يتأوه دون صوت، وهو يتذكر كأس "الأكرك عجم"، الذي شربه ذات مرة في القلمون فكاد ينعقد له لسانه... كانوا إذ ذاك

يستريحون: فوزي القاوقجي، سعيد العاص، وبعض القياديين في أحـد بسـاتين قارة، وقد أعدوا القوة اللازمـة لقطـع الطريـق علـى الفرنسـيين الـذاهبين بمصفحاتهم إلى دمشق.. كانت ثورة حماة قد وئدت في المهد، وكان عزيز قـد أوصل "شمساً"، إلى أهلها في البادية حيث كان الأولاد قد سبقوها ثم عاد فالتحق بقائده. شهرين ظلوا متمترسين بجبال القلمون ومعاصيها، يناوشون الفرنساوي ويهاجمون مخافره وجنوده. كان سعيد العاص هو قائد المنطقة هنـاك وكانـت مهمته قطع الطريق على قوات المستعمر وعزل دمشق عـن حمـص، فوجـد فوزي القاوقجي في القلمون المكان المناسب للانتقام من عدو أجهـض ثورتـه الواعدة في حماة.

كان تكتيكهم "اضرب واهرب"... " تفرقوا إذا اجتمع العـدو وتجمعـوا إذا افترق"...وكانت شعاب القلمون ووديانها، جرودها وصخورها، كفيلة بالتغطيـة والتمويه.

ضربات سريعة كانوا يضربون، هجمات مفاجئة وغارات مـن حيـث لا يحتسب العدو، كانوا يغيرون، وكان لهب الثورة في جبـل العـرب يتـراقص مضيئاً لهم حلكة الظلام. سلطان باشا في عرينه يكيل لهم الضـربات، وثـوار الغوطة يحيلون الغوطة إلى غابة للأسود.

"إيه!! حياك الله يا سعيد العاص، أيها القائد الفذ!!"رشـف عزيـز رشـفة سريعة من كأس الشاي شديد الحلاوة خفيف النكهة، فعادت إلى ذاكرتـه نكهـة ذلك الشاي الأكرك عجم الذي أوصى عليه سعيد العاص. هو أيضاً كان يحـب ذلك النوع من الشاي: "يفتح المخ"، كان يقول: "يقبض علـى الأعصـاب مـن جذورها، ثم يشدها فينبهها. "يومذاك كانوا بحاجة لكل مـافيهم مـن أعصـاب وتنبه.... كانوا يكمنون للقوة الفرنسية في ذلك البستان، وكان عليهم ألا يغفلـوا لحظة واحدة، القوة قد تصل في أيـة لحظـة... والمفاجـأة يجـب أن تكـون كاملة..... كأساً كبيرة، كأسين، ثلاثاً شرب سعيد العاص، فهو يخشـى حتـى الاسترخاء...... عزيز شرب كأساً واحدة، وكانت كافية لأن يظل متنبهاً حتـى مطلع الشمس. كان الشاي أكرك عجم حقيقياًـ طعمه مايزال تحـت أضراسـه حتى الليلة... حيث الناس غير الناس، والمكان غير المكان، والمناسـبة غيـر المناسبة. عشرة عدول كان أبو دحدل قد ملأ، وكان لهاثه قد بدأ يعلو ووتيـرة عمله قد خفت فانبرى أخوه يريحه.

فك أبو دحدل إناخته الأشبه بإناخة الإبل القريبة منه، ونفـض شـيئاً مـن

الغبار عن ركبتيه وثيابه، ثم زحف على عجيزته باتجاه عزيز.

ــ أنا لم أتعب...ها!! خاطب أبو دحدل الجمع حوله وكأنما قرأ اتهاماً في أعينهم، هو الذي لا يرضاها واطئة أبداً. إذ رغم سنواته الخمسين كان الرجل يصر على أنه كالشباب قوة واقتدارا.

ــ البركة فيك أبا دحدل، خاطبه عزيز مربتاً كتفه، فالمختار الخمسيني، ذو النساء الثلاث والأولاد العشيرة الذين لا يعرف أسماء بعضهم، كان لطيف المعشر ودوداً، وكانت تربطهما علاقة حميمة عمرها سنوات...... ينزل عزيز في مضافته إذا جاء "الخربة"، ويستضيفه عزيز إذا جاء المختار دمشق.... أنت شباب دائم!! تابع بمسحة من هزل... فقد كان الرجل الخمسيني مايزال يلهث....

ــ غصباً عنك!! رد المختار بمسحة الهزل نفسها... فضحك الرجال المتحلقون وقد اعتادوا مزاح الصديقين... إي مالك علي يمين، شعرة واحدة ما تغيرت منذ عشرين سنة....

ــ وشواربك الّتي ابيضت مختار؟ ذقنك التي شابت؟ تدخل أحد الحضور ممن لم يكن يقل عن المختار ابيضاض شوارب وشيب ذقن.....

ــ الشيب صباغ خارجي يا رجل.... المهم هنا.... وهنا أيضاً، رد المختار وهو يشير إلى صدره ثم إلى ماتحت سرته.

ــ إذا كان قولك صحيحاً لماذا بدأت نسوتك يتهامسن أنك قصرت؟

ــ خسئن... أبو دحدل مايقصر أبداً... أنا مثل ماقال أخي عزو شباب دائم... أشعر الآن وكأني أهجم على القطار... أتذكر أبا شدهان؟

ــ أنا الذي يذكر... رد أبو شدهان الأكثر ابيضاض شوارب وشيب ذقن... يومذاك أشهد لله وبالله... كنت زين الشباب.... فحل الفحول... القصة يعرفها عزيز، فقد رواها له أبو دحدل عشرات المرات.... لكن أحد الفتيان ممن لم يكن يعرفها أثير فضوله فهب حاثاً المختار.

ــ صحيح...عمي أبا دحدل!! ماذا فعلتم يومذاك؟

ــ هــ..هــ..هــ..ي.... هوهأ المختار ضاحكاً، ضارباً الهواء بيديه كلتيهما، نافخاً صدره وكأنه يريد عب ذلك الهواء كله... عينك ترانا ونحن نهجم على القطار...كأنه يوم الحشر... ياوليدي.. ألوف مؤلفة... بالعصي، بالمناجل، بأسياخ الحديد، بالحجارة، أوقفنا القطار، قتلنا جنود الفرنساوي...

ذبحنا رئيس وزرائهم بطوله وعرضه، دعسنا وزراءه بأرجلنا... قتلنا الضباط... معركة خربة غزالة... أشهر معركة بثورة حوران، ماسمعت بها ياوليدي؟... طبعاً، كان الوليد قد سمع بها لكنه، ربما، كان بحاجة لبعض التفاصيل التي تنعش نفسه بما تنفحها من عزة وكبرياء... فتلك الثورة حدثت حين كان هو نفسه في بطن أمه، ومذ ولد لم ترَ عينه سوى "الشيف" الفرنساوي و"الكابورال" السنغالي يجلدان أهل الخربة فلا يرفع واحدهم رأسه. "أين ذهب ذلك الزخم؟ أين وئدت تلك الحماسة التي ألهبت صدور الناس فانقضوا على قطار علاء الدين الدروبي يدمرون ويقتلون؟"..

ــ الناس نعَّجت، قال أبو شدهان وكأنما أدرك ماكان يعتمل في ذهن الفتى .... ماعاد أحد يحتد أو يثور....

ــ كأنهم عجّز هرمون، شباب هذا الجيل..... تابع آخر من الجيل نفسه وهو ينظر باتجاه اثنين أو ثلاثة من الجيل الأصغر سناً، كأنه ماعاد فيه شباب.

ــ لا، فيه شباب... احتج أحد أولئك الثلاثة، لكن مافيه أمل... هناك يأس كامل في قلوب الناس.... في كل مكان اليأس....

ــ صحيح... أخي عزو.... تدخل المختار شبه مقاطع، إيش يقولون بالشام عن هذا اليأس؟ أسبابه؟

ــ القسوة، البطش... أجاب عزيز بعد إطراقة وآهة، فقد أثار كلام الفتى في نفسه شجوناً وشجوناً....

ــ ماتعني عزو أفندي؟

ولم يملك عزو إلا أن ينكمش، فقد كان أكثر مايزعجه أن ينادوه بكلمة أفندي أو بيك... تلك الألقاب التي كان أهل الريف يطلقونها على كل من يجيئهم من المدينة... عشرات المرات توسل إليهم أن ينادوه باسمه مجرداً: "عزو"، "أبا العز"، "أبا الأخضر"، لكن عبثاً... يخرج له أحدهم على حين غرة ويفاجئه بهذا اللقب أو ذاك... بلع عزيز ريقه، بالعاً معه اللقب الذي وقف غصة في حلقه لحظات، ثم أجاب:

ــ تعلمون... ثورات عديدة قامت على فرنسا حين دخلت بلادنا... في جبال اللاذقية، في جبل الأربعين.... في دير الزور، في حماة، هنا في حوران، في جبل العرب... الغوطة، دمشق كلها كانت ثورات ترفض الاستعمار والانتداب... تنادي بالحرية والاستقلال... لكن كلها بطشت بها فرنسا، ضربتها

بقسوة وجبروت... كم دمرت من أحياء!! حرقت من قرى، قتلت من أبرياء...... نسيتم حملة غاملان؟ ثلاثون ألف جندي هاجموا الجبل... حرقوا الأخضر واليابس... هذا البطش هو الذي أخاف الناس، زرع في نفوسهم اليأس....

ـ يعني.... الاستعمار باقٍ.... لا أمل؟ سأل أحد الشبان.

ـ يعني صخرة فرنسا على صدرنا ولن تتزحزح؟ سأل ثانٍ.

ـ أموالنا يأخذونها.... حبوبنا باسم الميرة يصادرونها.... أعراضنا ينتهكونها.......

هدر شاب ثالث.

ـ لا...لا... صاح المختار محتجاً مقاطعاً، لا تقلبوها سياسة.... ثم أردف بنبرة الهمس وهو يميل عليهم ميلة التآمر، هناك آذان صاغية تسترق السمع وأيدٍ... خطها حلو....

ـ ليسمعوا مايسمعون.... وليكتبوا مايكتبون.... لا يهمنا!!... قاطع الشاب الأول وقد ازداد حماسة. ليبلطوا البحر...

ـ لا... يا وليدي!!... سيبلطوننا نحن!! أنا مختار وأعرف جيداً ما في أدمغة الدرك وبواريدهم...

ثم أشار بيده إشارة الإطلاق، مطلقاً من بين شفتيه عدة أصوات مفاجئة:

طخ...طخ...طخ...

وساد الصمت... هنيهة من الزمن لا يكسره سوى صوت القمح يعبأ في المكيال ثم يفرغ في العدل، ورغاء بعير أو بعيرين ربما سئما القعود. كان القمر الذي مايزال هلالاً قد غاب في الأفق الغربي وكانت سماء الصيف مرصعة بالنجوم لألاءة تجذب إليها الأبصار... بصر عزيز ينتقل بين بنات نعش والغرار... نجوم الميزان ودرب التبان المبيض كطريق من ثلج.......

"أهي السماء نفسها التي رأيتها ليلة تل عرار؟"... ويمسح عزيز السماء من جنوبها إلى شمالها..

"وهذه النجوم، أهي النجوم ذاتها التي كنتُ أبثها شكواي، شكوى العاشق المحروم؟ أرسل مع أشعتها الرسائل إلى معشوقتي، شمس؟ "لكن الصمت المهيمن يعيده من جديد إلى الرجال من حوله يتأمل وجوههم... عيونهم... ثمة

خوف.... خوف يراه حيثما يذهب... في دمشق، حماة، أم العيون، ثمة خـوف يصل حد الرعب من مستعمر طاغٍ باغٍ لا يعرف قلبه الرحمة... حسن الخراط الذي ذبحوه ومثلوا في جسده، أحمد مريود الذي حوصر في جباتا ثم قتل ومـن معه عن بكرة أبيهم، سلطان الأطرش الذي حُشِر في الزاوية بعد أن ذبـح مـن ذبح من رجاله، وسيق من سيق إلى السجن، ولم يفلت هو نفسه من الأنشـوطة إلا بشق النفس......

كل ذلك جعل الناس تستكين"... وكيف لا يحتج ذلك الشاب ويثور؟ لـم لا تغلي الدماء في عروقه وتفور؟ ذلك من حقه... لكن هـل مـن حقـي أنـا أن أطمئنه؟ هل من حقي أن أعلنها صريحة: لا تخف... الشعب لم ولن يسـتكين؟ أنا مثلاً لم أستكن... مازلت...".

فجأة ينقطع الصمت وتنقطع معه سلسلة أفكاره.... أخو المختار يعلن إنهاء المهمة بصوت جهوري.

ـ ثلاثة وثلاثون!! البركة كلها يا حنون!!

ـ أعطاك الله العافية!! هب المختار هاتفاً بأخيه متفحصاً صـبة الحنطـة التي مسحت عن وجه الأرض حتى غدت أثراً بعد عين....

ـ سلمت يداك، أردف عزيز وهو ينهض من مكانه، متجهاً إلـى حيـث كانت تنتصب العدول بين صبة القمح التي اختفت والإبل التـي كانـت تجتـر وترغي....

ـ ابدؤوا التحميل، قال المختار مخاطباً أصحاب الجمـال الـذين كـانوا يسترخون بجانب جمالهم، هيا...

ـ الكل هنا؟ تدخل عزيز وقد لفت نظره غياب أحدهم.

ـ عواد!!.. رد أحد الجمالين بشيء من غمز فيما شرع صحبه بتحميـل جمالهم...

"هذا العواد العاشق لا يأتي إلى الخربة إلا وينسل خلسة ليغيب سـاعة أو ساعتين..".

..... وتبسم عزيز في سره وهو يشيح بناظره عن الجمالين، متطلعاً إلـى القرية الملتفة بطيلسانها الأسود تاركة فتحة هنا، وفتحة هناك لمصـابيح ذابلـة شاحبة أشبه بحبابات تنبثق هنا وهناك..."، في أي وكر حبابة، أنت يا عـواد..؟ "كان عزيز قد حاول أكثر من مرة أن يسأل ذلك الفتى الذي لـم يجتـز سـن

المراهقة بعد عن الفتاة التي سحرت لبه إلى درجة تجعله يهرب إليها تحت جنح الظلام وفي كل فرصة تسنح له، لكن عبثاً.... كان الفتى يخشى على محبوبته افتضاح السر فحرم على لسانه حتى ذكر اسمها "حسبي أن أتنسم شميمها".. كان يقول لعزيز كلما سأله عنها: "أهو شميم العرار في نجد؟" يسأله عزيز ويضحك فيتمتم الفتى: "بل هو الخزامى، هو النرجس، هو الياسمين"، ولا يملك عزيز إلا أن يبارك ذلك العشق الذي يسمو إلى مرتبة عبق الخزامى، وأريج الياسمين.

ـــ الله لا كان جابك... أين كنت؟ قال أحدهم في الطرف القصي للجمال... التفت عزيز فرأى على قبس النجوم المتلألئة شبح عواد وهو ينسل مسرعاً إلى بعيره، مسكتاً صاحبه بإشارة سريعة من يده وهمسة خافتة من شفتيه:

ـــ اسكت... اسكت...

ومن جديد، تبسم عزيز وهو ينظر إلى الفتى الذي أسرع إلى أقرب عدل يحمله مع فتى آخر ربما كان يبحث عن شريك. هم عزيز بالتوجه نحوه، يمازحه ويسائله، لكن شبحاً آخر كان مايزال بعيداً في الجهة الأخرى شده إليه. شبح ذئب كان يعرفه جيداً ...مشية الذئب تلك لا يخطئها.... انطلاقة سريعة، بضع خطوات، ثم توقف وتفحص... تأكد من سلامة المكان، ثم اندفاعة جديدة... "هو ذا البطحيش" قرر عزيز ثم شرع يتحرك صوبه.

عزيز لا يدرك ما اسمه الحقيقي، بل لا أحد يدري ما اسمه، الكل يعرفونه بلقبه "البطحيش"، تلك الكلمة التي ربما تجمع كلمتين: "بطح" و"طحش"، وكلتاهما تدل على القوة والقدرة والفتك..."البطحيش"، بالحقيقة، هو هذا كله، يبطح كل مستعمر يجده في طريقه ويطحش كل عدو يلتقيه... ليس علانية أو نهاراً بل خفية وتحت ستر الظلام.

ألم تقل الشاعرة الأندلسية: "فإني رأيت الليل أكتم للسر؟ "هكذا يفعل البطحيش، ينتقل من قرية إلى قرية في حوران.... ومن ضيعة إلى أخرى كي يهاجم دورية أو يغير على مخفر أو ينصب كميناً لعسكري فرنسي...

ـــ مرحباً، صديقي، بادره البطحيش وقد وصل إليه عزيز في الطرف القصي للبيدر....

ـــ مرحباً يا بطحيش... ما الذي جاء بك؟ سأله عزيز وهو يختلس النظر إلى الوراء، ربما خشية أن يكون قد لحظه أحد.

ـــ "الليوتنان" هناك... رد البطحيش بنبرة الهمس ذاتها، واختلاس النظر

ذاته، مشيراً إلى جهة محددة في القرية.

ــ والظروف؟

ــ كلها مؤاتية، أجاب البطحيش بنبرة المطمئن، درت حول البيت ثلاث مرات... معه سائقه فقط، ينام على مقود السيارة، وهو القذر الحقير ــ في الداخل...

وكز عزيز على شفته: "لا شك أن الفتى كان يعنيه، ذلك "الليوتنان" القذر، حين قال: "ينتهكون أعراضنا".. تمتم عزيز دون إفصاح، وهو يتفكر مطرقاً في أمر "الليوتنان بورجيه" الذي ما فتئ يعهِّر نساء القرية واحدة بعد الأخرى، و"دنيا" التي يسهر عندها الليلة إنما كانت زوجة هنية وفية، لكن على وجهها "لحسة لبن"، ولهذا السبب، ربما، لفتت نظر "الليوتنان"، فجاء بزوجها إلى الثكنة يشتغل في المطبخ نهاراً حيناً، وليلاً أكثر الأحيان، فيما هو يفرض نفسه على امرأته ويحتل فراشه...

ــ انتظرني عند البئر... بعد ساعة... همس عزيز لصديقه ثم دار على عقبيه، متمشياً على مهل وكأنما هو عائد من قضاء حاجة.

"هيلا... هيلا..

يا نشامى شيلوا الشيلة"..

كان الفتية، وهم يحمّلون الجمال عدول الحنطة، ينشدون بتناسق وتناغم جعلا قدمي عزيز تتسمران وعينيه تنشدان إلى حشد النحل المتحرك بطنين موسيقي موقع. وعلى ضوء النجوم بدا المشهد لعزيز فاتناً يأسر القلوب.." هؤلاء المساكين شبه الجياع، شبه الحفاة العراة يعملون بكل همة ونشاط، بل إنهم يغنون ويهزجون!! كم هو جبار، الإنسان!!.. من قلب البؤس يصنع السعادة، ومن فكي الحزن يستل الابتسامة!!"...

"والجمل غضبان هايج...... يا ويله اللي يقرب ويله...

هيله.... هيلة...

يا نشامى شيلوا الشيلة"....

كانت خلية النحل تصدر طنينها المموسق، حاملة العدول، رابطة واحدها إلى هذا الجانب أو ذاك من بعير يرغي احتجاجاً على حمل سيوقر ظهره، أو ينظر إلى الرجال مجتراً وقد أسلم أمره لله!! فيما المختار يغدو هنا، يروح هناك، يحمس الشبان، يبدي الملاحظات أو يلقي الأوامر، فخطأ واحد في

التحميل قد يؤدي إلى سقوط عدل وإعاقة حركة القافلة كلها.

ـ هيا يا شباب... حيا الله الشباب!! بادرهم عزيز من جديد، وهو يقترب ، حاثاً مشجعاً. فالقافلة يجب أن تنطلق بأسرع وقت. لكنه مع كلمة "شباب"، أحس بشيء كالوخزة في قلبه. كان قبل سنتين قد رأى أول شعرة بيضاء في مفرقه، حسب بطرفة عين سنوات عمره، فأدرك أنه بلغ الذروة، هناك حيث يتبدل خط الانحدار ويبدأ المرء بالهبوط بعد أن كان في صعود. حينذاك أحس بغصة..."،. "الأربعون...!! الله كيف مضت تلك الأربعون!!" ومرقت في ذهنه صور: اشتباكات، مغامرات، معارك!! ثم مرق عثمانيون وأبو شعيب، فرنسيون وغورو، ثورات وحروب، وهاهو ذا الآن يتحول إلى تاجر حبوب يجوب حوران وينقل حنطتها وشعيرها إلى المدينة.. تجارته مربحة ولاشك، شراكته مع رئيسه القديم اليوزباشي صبري توفر له الراحة والطمأنينة، لكن أهذا ماكان يبتغيه عزيز؟.. كثيراً ماكان يسأل نفسه وكثيراً ماكان يرتد على عقبيه. "ليس للتجارة خلق عزيز..... وليس بأعمال كهذه يجد نفسه عزيز...."، لكن ما إن التقى بالبطحيش حتى شعر أنه وجد نفسه.

هيله.... هيلة...

يا نشامى شيلوا الشيلة"....

جاءت النغمة مختلفة هذه المرة، فتنبه عزيز إلى الرجال وهم يشدون آخر العدول إلى جمال ثلاثة بينها جمل عواد، فيما عواد يشد باستغراق تام الحبل حول سنام جمله ثم ينزل به خلف قائمتيه الأماميتين وتحت بطنه. "كم هو نشيط هذا الفتى؟" جمجم عزيز وهو يرقب الفتى الطويل الناحل، جلداً على عظم"، أهو الفقر وسوء التغذية، أم التعب والإجهاد؟ "إذ ما إن تفتح المدرسة أبوابها في الأول من تشرين حتى يسارع عواد إليها، ينكب على كتبه ودفاتره يجد ويجتهد، ثمانية أشهر حتى يحصل على درجة متفوقة في سلم الناجحين.. هو في الصف الحادي عشر.... يحفظ الأشعار، يعرف التاريخ والجغرافية، الفلسفة والمنطق، الحساب والجبر... مثله مثل الأخضر... هما في صف واحد... يراه عزيز فيتذكر ابنه.... كلاهما يحب الدرس، يطمح لأن يكون شيئاً في عالم العلم والمعرفة، لكن ابنه لا يحتاج لأن يكد ويكدح طوال الصيف. الأخضر في غنى عن هذا كله... أبوه يعمل، يوفر له المال لكي يعيش ويدرس، لكن من يوفره لعواد؟ عواد يعلم ذلك، لهذا ما إن تغلق المدرسة أبوابها حتى يسعى في مناكبها... غلال حوران تنتقل إلى خارج حوران، والجمال واسطة النقل.

لدى عواد جمل فتي قوي... إذن لماذا لا يعمل؟ شهرين أو ثلاثة، يظل عواد يعمل جمالاً، راجداً الزرع من الحقول إلى البيادر، ثم ناقلاً الغلال من البيادر إلى دمشق.... منذ سنتين عرفه عزيز وهاهو ذا الموسم الثالث يبدأ معه... فتى ذكي نشيط صاحب دعابة......شجاع، لطالما دخل قلب عزيز بقصصه ودعاباته.

ـ نمشي، عزو أفندي؟ فاجأه رئيس الجمالة، وقد جاء من خلف واللهاث مازال في فمه.

ـ توكلوا على الله، رد عزيز بنبرة من فرح وقد بات باستطاعته أن يبدأ العودة إلى دمشق.

ـ هـ...ى!! هـ...ى!! ياالله يا رجال!!

ـ هيـ...يتج.... هيـ...يتج هيا.... انهض... راحت أصوات الرجال تتعالى حاضة جمالها على الهبوب من إناختها الطويلة والجمال يتلكأ بعضها وينهض بعضها الآخر لكنها كلها ترغي وتزبد وكأنها تحتج على ما حملوها من أثقال.

ـ تعرفون الطريق، امضوا على بركة الله ولا تزعجوا الجمال/ تابع عزيز، وقد نهضت الجمال، معطياً تعليماته لرئيس القافلة، على مهل!! تصلون بإذن الله ظهر الغد!!

ـ ألن تأتي معنا!؟ تساءل رئيس القافلة بشيء من استغراب..

ـ بل قد أسبقكم! ... قال عزيز، وهو يشعر أن عليه أن يفسر، حصاني في إسطبل المختار. رئيس القافلة يعلم أن حصانه في إسطبل المختار، لكنه لا يعلم أن هناك مهمة أخرى ورجلاً آخر في انتظاره ربما يؤخرانه بعض الحين.

ـ هيا بنا!!... قال له أبو دحدل وهو يمسك بيده، متجهاً صوب القرية.

في المضافة، وجدوا طعام العشاء جاهزاً. أم دحدل تعلم أن سفرتها يجب أن تكون غبّ الطلب دائماً، يحضر الضيف، يقدم له الطعام في الحال، فكيف إذا كان الضيف قد حضر منذ العصر؟

لقيمات سريعة تناول عزيز، غسل يديه، دفع ثمن القمح، ثم ودع الرجال على عجل وامتطى حصانه على عجل، عله يصل في موعده المحدد مع البطحيش.

قبل أربعة مواسم، وفي ليلة صيفية كليلته تلك، كان عزيز يسير بقافلة إبله

إلى دمشق. لم يكن هناك قمر، النجوم وحدها كانت تتلامع في قبة السماء، قبس من ذلك اللمعان كان يصل إلى الأرض، فتتسع أحداق البشر والبهائم لتصنع منه نوراً يضيء لها طريقها. عزيز يذكر كيف استطاع في تلك الليلة أن يرى على ضوء ذلك القبس جسداً ممدداً على الأرض، حسبه في البداية جثة هامدة. فهو بلا نأمة، بلا حركة، لكنه ما إن انكب عليه يتفحصه حتى لفحته أنفاسه الحارة ونبضات كانت ماتزال تروح وتجيء في سكة أقفرها الجدب وعلاها الرمل والغبار. "من أنت؟! ماذا بك؟!.. انهض يارجل".. هتف به ورجال قافلته يتحلقون حوله، لكن الرجل كان أشبه بجثة هامدة... تلمسوه، تفحصوه فإذا بالرجل جراح ودماء، ربما لم يبق في عروقه منها إلا الذماء.. حمله عزيز عن الأرض، وضعه على ظهر حصانه ثم أسرع به إلى أقرب قرية. في الشيخ مسكين كان له صاحب. أوعز للقافلة أن تتابع مسيرها ومضى هو إلى صاحبه. هناك أسعفا الرجل. فحكيم القرية العربي كان يعلم كيف يعالج الجروح، يستخدم الكي والمراهم ويوقظ المغشي عليهم من غشيتهم، أراد عزيز أن يأخذه معه إلى دمشق لكن الجريح أبى".. رأسي مطلوب، وإن رأوني في الشارع عرفوني".. ومكث الرجل في "الشيخ مسكين"، يعالج من رصاصتين خرقتا جسده... الأولى في الكتف والثانية في الخاصرة. ولم يكن عزيز بحاجة لأن يسأله".

كيف، أين، متى؟ "ففي بيت "الشيخ مسكين" عرف عزيز أن الرجل مشهور في حوران، يعرفه القاصي والداني، مقارعته للمستعمر حديث الناس جميعاً، روى له صاحبه من قبل الكثير عن قصصه تلك: هجوم على مخفر، كمين لدورية، اعتراض لقافلة عسكر، بل ذات مرة دخل البطحيش مخدع قائد المعسكر نفسه كما تدخل الأشباح. انتشله من بين ذراعي امرأته، واضعاً رأس الخنجر بين عينيه قائلاً له: "كي تعلم أن باستطاعتي أن أصل إليك أينما كنت، فكف عن ظلمك للناس، أوقف نذالاتك وسفالاتك أو ذبحتك بهذا الخنجر ذبح النعاج"... وكما دخل شبحاً، خرج شبحاً وعينا القائد الفرنسي جاحظتان، شفتاه راعشتان، أسنانه تصطك ولسانه منعقد لا يستطيع النطق، فيما امرأته تمثال من ثلج لا يعرف الصراخ.

تلك القصة أثارت إعجاب عزيز أيما إثارة فانكب على الجريح يلثمه ويشد على يديه.......ومن بين اللثم والشد خرجت كلمات كانت ميثاق صداقة وحب، مهره كلاهما بخاتمه.

ثمانية وأربعين يوماً ظل البطحيش مختفياً في بيت "الشيخ مسكين"، إلى أن

استعاد عافيته، قافلة الجمال تروح وتغدو، عزيز في ذهابه وإيابه يمـر بـه، يقضي معه الساعتين أو الثلاث، يزوده بكل ما يحتاج، يستمع إلـى قصصـه، يروي له قصصه، لقد كان عزيز بأمس الحاجة لرجـل كـالبطحيش، خمـس سنوات كانت قد مضت عليه لم يشم فيها رائحة بارود ولا دخان معركة.

كان البطش الشديد والخسائر الكبيرة في الممتلكات والأرواح قد بثا الرعب في القلوب إلى درجة خرست معها الألسن وشلت الأيدي، فـلا عصـيان، ولا تمرداً... بل لا رأساً يرفع ولا صوتاً يسمع... وكان ذلـك يحـز فـي نفـس عزيز... هو مستكين.... في محله في الميدان يعمل بصمت، في أزقة الميـدان يسير وكل من حولـه يهمس، "امش الحائط، الحائط، وقل يارب الستر"، لكـن في أعماقه كان ثمة بركان.... "هذا الخضوع، هذا الخنوع، إلامَ يستمر؟.. يجب أن تتحرك عزيز".. ، لكن كيف يتحرك والكل جمود؟ كيف يتحـرك والأعـين مصوبة عليه، والآذان موجهة إليه، هو الغريب عن الميدان، الوافد من مكـان غامض وزمان غامض؟

صبري البديوي يشكل غطاءه، يخرس عنه الألسنة... فكيف يثير عليـه تلك الألسنة؟ هو هارب من الفرنساوي.... مبتعد عن حماة، عن أم العيون، بل حتى عن الشيخ نواف والبادية، فكيف ينبه عليه الفرنساوي؟ اسمه غيّره، ثوبـه بدلّه، بل حتى صنعته، علاقاته جددها كلها وقد عقد العزم على أن يخفي ماضيه كله، فلا يأخذه الفرنساوي بذلك الماضي.

لكن، ما إن عرف عزيز البطحيش وسمع قصصه وبطولاته حتى ثار فـي نفسه الحنين لأيام القصص والبطولات.... عقد العزم علـى أن يعيـد سـيرته الأولى من جديد... "اسمع"، قال للبطحيش: "حين تسـترد عافيتـك، وتخطـط لعمليتك الأولى، سأكون شريكك". وهو ما حدث بعد شهرين فقط.

ـــ هــ...يه... أخبارك؟ بادر عزيز صديقه البطحيش شبه هـامس وقـد وصل إليه في المكان المحدد والزمان المحدد.....

ـــ الأمن مستتب... رد البطحيش بنبرة الهمس نفسها وهو يشير إلـى دار قريبة تقف أمامها سيارة جيب، لكنك تأخرت، تابع البطحيش همسه، خفـت أن يذهب "الليوتنان" قبل أن تجيء...

ـــ حانت منيته فأين يذهب؟ رد عزيز ضاحكاً ضحك الهمس... لقد خططا للانتقام منذ زمن.... لكن الفرصة لم تأتِ إلا الليلة. ظلمه، قسوته، ارتكاباتـه، فظاعاته، كلها كانت قد انتشرت في المنطقة شائعات، وأقاويل، "لا يترك امـرأة

من شره"، "يريد أن يجعل من نسائنا كلهن عاهرات"، "لا رجل يستطيع الوقوف في وجهه"..، "يستخدم كل وسيلة للوصول إلى المرأة التي يريد"، وكانت "دنيا" آخر النساء التي يريد...

ــ الخطة؟ سأل عزيز صاحبه وهو يربط حصانه إلى جذع شجرة يتيمة كانت قد نمت في غفلة من الزمان والشياه والناس.

ــ نكمُّ فم السائق أولاً.... شرح البطحيش وهو يلطأ إلى جانبه وأعينهما الأربع على السيارة الجاثمة، بومة في خراب.

ــ ولماذا نكمُّ فمه؟ نقتله وننتهي منه؟

ــ وإذا كان مغربياً أو جزائرياً؟ لا، لا نريد أن نقتل عربياً مسلماً. البطحيش يحسب حساب كل شيء، وهو يميز... هذا حلال، هذا حرام، ذاك خير، ذلك شر. وقتل سائق قد يكون مظلوماً بريئاً جيء به لخدمة الفرنساوي رغماً عن أنفه أمر لا يرضاه وجدانه. وجدان عزيز أيضاً لا يرضاه، لكن عزيزاً يخشى الفشل "ماذا إن قاوم السائق؟ ماذا إن افلح في تنبيه "الليوتنان"؟ التخوفات كثيرة، مع ذلك يفلح البطحيش دائماً في إقناع عزيز، فالمرء يجب أن يكون عادلاً منصفاً، فلا يأخذ امرءاً بجريرة آخر ولا عنزة بعرقوب أخرى.

على مهل بدأ الرجلان يتسللان.. وبحذر شرعا يقتربان، الدار في الطرف الشمالي الغربي من القرية.. يحفها من كلا جانبيها دور وسكان، وأية نأمة قد توقظ النائمين. أية حركة قد تنبه الساهرين.. ثمة كلب أو كلبان ينبحان وبقرة تخور وشياه تثغو... غربي الدار، شرقيها. لكن الدار صامتة، لا كلب ينبح ولا بقرة تخور... زوج دنيا فقير... عاملاً بالمياومة يعمل... ربما لا يملك بقرة ولا شاة.. أهذا ما أغرى "الليوتنان" بزوجته، دنيا التي تطمح لأن تملأ بطنها بما لذ وطاب؟

وتذكر عزيز ذلك الكابيتان الذي سال لعابه على شمس.

نصب الشباك لها، رسم الخطط ودبر المكائد كي يلتهمها، وحين أعيته الحيل، كشر عن أنيابه ومخالبه علناً ثم انقض عليها جهاراً نهاراً.عزيز على ثقة أنه لولا ذلك الخنجر الذي كانت شمس قد خبأته في صدرها والشجاعة التي بقيت لها من ذلك الفارس الملثم، لذهبت لقمة سائغة بين فكيه. "اللعنة عليكم أيها المستعمرون!!...

تحسبون الناس كلهم عبيداً، ونساءهم كلهن إماء، تفعلون بهم وبهن ما

تشاؤون".. وأحس عزيز بدفقة حماسة تملأ جسده كله.

ــ السائق لك، و"الليوتنان لي".. همس عزيز في إذن صديقه وقد صارا على مقربة من الدار...

ــ لم لا نعمل معاً؟.. رد البطحيش مستغرباً اقتراح صديقه الجديد....

ــ لا... لا.. ابق أنت في الخارج، تحرس الطريق وتحمي ظهري..

غِلُّهُ على الكابيتان جيرار لم يكن قد شفي بعد، أحد عشر عاماً كانت قد مضت على تلك الحادثة، مع ذلك، يشعر عزيز بمرارة في فمه وغصة في حلقه، كأنما كانت بالأمس. "كيف يفكر ذلك النذل الخسيس بتمريغ شرفي في الوحل؟ كيف يخون الخبز والملح؟ كيف يغدر بصداقتي وينهش لحم امرأتي؟"...

تلك الأسئلة كانت لا تنفك تطرق جدران دماغه، كلما استعاد تلك الذكرى. وهي، ربما، ما ألهب فيه الحماسة حين سمع بقصة "الليوتنان" الذي مافتئ يعهّر النساء.

على مقربة من السيارة، انفصل الصديقان، البطحيش توجه إلى السائق، وعزيز نحو باب الدار.... نمسين ينسلان بخفة وحذر... بطرفة عين وصل الأول إلى هدفه، وقد تمدد في المقعد الخلفي مستغرقاً في سبات عميق. يد على فمه والأخرى على عنقه ثم شدة من هنا وشدة من هناك، وبدأت الروح تتحشرج، متذبذبة بين الصدر والفم.

ــ منشان الله... دخيل محمد، راحت كلمات متقطعة تفلت من الفم المكموم، والعنق المضغوط...

ــ أنت مسلم إذن؟ همس البطحيش في أذنه سائلاً.

ــ الله أكبر!! أشهد أن لا إله إلا الله وأن......

ــ يكفي... قاطعه البطحيش شاداً الكمامة على فمه، اسكت تنجُ.. وسكت السائق مسلماً نفسه بكليته للرجل قوي الذراعين عريض المنكبين الذي راح يشد الكمامة على شفتيه والوثاق على يديه..

في غضون ذلك، كان عزيز قد تسلق الحائط، ثم انقلب بهدوء وحذر على الجانب الآخر.... الباب خطر.... قد تصر مفاصله الخشبية العتيقة... مصدرة صوتها الصدئ فينتبه "الليوتنان" الغارق في بحر اللذة.

ببطء وثبات اجتاز فناء الدار... على مصطبة أمام الغرف، كان ثمة فراش أو فراشان، وكان أطفال ينامون. داخل الغرفة، كان ضوء مصباح، لطا بجانب الحائط يصيخ السمع، ثمة لهاث وشهقات، اختلس النظر من شـــباك صـــغير... "الليوتنان" آدم يعلو حواءه، ودنيا حواء تعانق آدمها، واللهاث يتســـرب عبـــر الباب الموارب بلا مبالاة: صيحات مكتومة وشهقات معلومة". الويل لـــك أيهـــا العربيد العاهر"، تمتم عزيز وهو يكز على شفته السفلى، مشرعاً خنجره فـــي يده واثباً إلى الباب وثبة نمر حدد مكان فريسته. وثبتان أو ثلاث ثم وقع علـــى فريسته منشباً فيها أنيابه ومخالبه... الانقضاض صاعق، والإنشاب مباغت إلى درجة صعقت معها الفريسة فلم تجد قوة لمقاومة أو وقتاً لصراخ.

ـــ ويلا... بدأت دنيا تحته الصراخ، وقد أرعبها الانقضاض المفاجئ فيما كان خنجر يهبط ويعلو ودم حار ينبجس ويتدفق... لكن قبل أن تكمل صرختها أطبقت يد قوية أخرى على الفم وهمسة مرعبة هدرت في الأذن...

ـــ اخرسي أيتها القذرة أو قتلتك...

وخرست دنيا، ليس بلسانها فحسب بل بكل مافيها... صـــدرها، بطنهـــا، فخذاها، كل شيء همد بعد نشاط وخرس بعد صخب... الرجل الملثم لا تبـــدو منه إلا عيناه... يده فقط تطعن وتطعن فيما "الليوتنان" يســـقط متكومـــاً علـــى صدرها وقد شهق شهقة الموت...

— 2 —

تنتثر أشعة الشمس على الزجاج المعشق، لوحات فسيفساء ونثار قوس قزح. شمس تحب ذلك النثار وتلك اللوحات، تفتح عينيها عليها كل صباح فتشعر بأيد خفية تدغدغ أحاسيسها. هذا الفن الجديد الجميل الذي أبدعته دمشق كم هو متعة للعين وبهجة للناظرين!!...

في المضارب أيام زمان، لم يكن هناك زجاج معشق، ولم تكن الشمس تتكسر على بللور النوافذ، أقواس قزح، وفسيفساء ألوان. في أم العيون، في حماة نفسها، لم تكن شمس قد استمتعت بما أبدعته قرائح الفنانين المبدعين في دمشق. هنا، في هذا البيت الدمشقي العتيق وحده عرفت قيمة الفن والغاية من الفن: إبداع كل جميل ساحر وصنع كل ممتع مثير!! نساء دمشق يضعن الستائر على الزجاج المعشق، فيحجبن انعكاسات الإبداع وارتساماته. شمس أبت منذ البدء إلا أن تعانق الشمس كل صباح عبر مهرجان الألوان ذاك. تفيق، ترخي العنان لخيالها هنيهة من الزمن، تظل في فراشها مسترخية فليس أقسى عليها من أن تهب من نومها على عجل... لحظات الاسترخاء تلك، الانتقال من النوم إلى اليقظة على مهل أروع متعها. الكل يحرصون على ألا يحرموها منها.

وضحة، عزيز، الأولاد كلهم يعرفون حبها للاستيقاظ على مهل والتلبث زمناً في الفراش. وضحة تعلم ماعليها أن تفعله من تنظيف، كنس، مسح قبل أن تفيق عمتها، الشيخة ابنة الشيوخ التي رافقتها مذ كانت في حماة، هي ليست شيخة ولا سيدة بالنسبة إليها، بل هي عمة، أم...............حنانها، سعة صدرها، طيبة نفسها، كل ذلك جعل الحياة لدى "الشيخة" هينة لينة، وجعل وضحة تشعر كأنها في بيت أمها وأبيها، هي تطبخ، تنفخ، تربي الأولاد، وحسبها أن ترضى عليها العمة.

ابتسامة الرضى ترتسم على شفتي شمس وهي تلتحم بعزيز أكثر وأكثر فيما أمواج دفئه تغمر رمال شاطئها المستكين..."ليلة أمس!! آه ما أروعك يا ليلة أمس!!".. وشرعت تنقل ناظريها من فسيفساء الزجاج المعشق إلى مهرجان الجسد الدافئ رافعة عنه الغطاء الخفيف، متفحصة ذلك الجسد العبقري الذي يمنحها الارتواء بعد الظمأ، الراحة بعد التعب والاسترخاء بعد التشنج، فتنتشي غبطة وسعادة. بأطراف أناملها مرت على الكتف المصنوعة من عجين القمح، المشوية كالآجر على نار التنور... بعد الكتف مرت على العضد، لامست عضلته المفتولة ثم الزند فشعره الكث... هنا... بين هذا الزند وذاك العضد تتهصر شمس، تشعر بنفسها تذوب في الصدر تتسرب إلى القلب دفق دم حار يمتزج بدم عزيز ويمضيان معاً إلى مروج الربيع. بتعبد الوالهة تتأمل شمس الوجه الجميل، وهو يشع رضى وابتساماً فتتذكر رابعة العدوية وهي تنظر إلى السماء ثم تنشد: وليت الذي بيني وبينك عامرٌ..وبيني وبين العالمين خراب. ثم بتعبد الوالهة تتشمم شمس رائحة الجسد. أنفها يتعشق تلك الرائحة حيث عبق الرجولة يطغى على كل شيء... من قال إن للأنوثة وحدها عبقاً؟ للرجولة أيضاً عبق، لا يضاهيه في أنف شمس عبق الياسمين ولا النرجس. ليلة أمس تأخرت القافلة.. العاشرة، الحادية عشرة، منتصف الليل، وعزيز لم يصل. لكن كيف تنام وعزيز لم يصل؟.. هي على ثقة أنه سيأتي، فالموسم في نهايته وربما تلك هي آخر القوافل ثم هي مشوقة إليه.. في أحشائها لهب يتراقص. في كل خلية من خلاياها لهب يتراقص. لا تملك إلا أن تنتظر... أيام كانت قد مضت على غيابه، أرسل فيها قافلتين دون أن يجيء.. أحياناً يأتي مع كل قافلة وأحياناً لا يجيء...

هو موسم الحبوب وعليه أن يعمل... لقمة العيش مغمسة بالدم، والحياة صعبة شاقة، لا أحد فيها يطعمك بملعقة من ذهب... عليك أن تكافح لكي تعيش وعزيز يكافح. طوال تموز وآب يظل يكافح.. يذهب ليعود ويعود ليذهب. طريقه في تجارة الحبوب شقها بقوة وجدارة، كما شق ذات يوم طريقه في تجارة الجبن والسمن.. شهرين كل موسم يذهب بالمال إلى حوران ليأتي بحبوب حوران، وهي تنتظره كلما غاب على أحر من الجمر.. "يا إلهي!! أما آن لهذا القلق أن يسكن!! لهذا اللهب أن ينطفئ!!".

هي تشعر بأن تلك اللحظة وذلك الينبوع، حيث كشف عزيز اللثام عن وجهها يوم كانت فارساً ملثماً فتبين له أنها الشمس التي تحتجب خلف قناع.

شمس تشعر وهي في فراشها أنها ما تزال بين يديه هناك، قرب الينبوع بكل ذلك الدفء، بكل تلك الدهشة، تبوح له بسرها، سر الأنوثة التي كمنت طويلاً ثم تفجرت ينبوعاً من عطاء.

حماة، ارتماء العشاق عليها، محاولات خالد آغا امتلاكها، مناورات حسني لاختراقها، خطط الكابيتان جيرار للالتفاف عليها كل ذلك ذهب مع الريح ليظل ذكريات فقط. هي تذكر جيداً يوم مضت إلى البادية، تختبئ بين أهلها من ذئاب الفرنساوي وقد قتلت أشرس تلك الذئاب.. الخنجر الذي غرسته في قلب الكابيتان جيرار كان قد ختم تلك المرحلة العصيبة من عمرها. الدماء التي سالت من صدره على يدها كانت قد شفت غلها، أعادت لها الكرامة التي كادت تفقدها على يديه. في المنزل التقت بعزيز، فمضى بها عزيز زورقاً تعصف بشراعه الرياح.. خرجا من حماة تحت جنح الظلام أودعها حيث الأهل والأولاد، ثم عاد هو إلى الثورة والثوار، فوزي القاوقجي وسعيد العاص... سنتين ورياح الثورة تعصف به... لا يحط في مكان إلا ليرحل، ولا ينتهي من عملية حربية إلا ليبدأ أخرى، وهي تنتظره متنقلة مع أهلها الرحل بين "سماوة" العراق و"بلعاس" الشام، لكن ليس أبعد غرباً، فالدرك الفرنساوي في القرى، وجنده في المدن.. ومن يدري؟ ربما ما يزالون يبحثون عن الخنجر الذي مزق قلب جيرار..

حين جاءتها رسالة عزيز بأن تلتحق به عند الشعلان لم تصدق أذنيها.. الأخبار قبل ذلك كانت فاجعة: الثورة أخفقت وسلطان باشا لاذ بوادي السرحان، هناك في بواطن الصحارى، حيث لا فرنساوي ولا إنكليزي، شمس ظنت أن عزيزاً معه هناك، يطارد حتى الموت.... لكن الرسالة واضحة: "أنا لدى الأمير لورنس في دمشق".. عزيز يدهشها دائماً، يفاجئها بكل مالا تتوقع، آتياً بكل غريب وعجيب.. ربما لتزداد إعجاباً وحباً له، لكأنما ينقصها أن تحبه أكثر!!...

فالثائر الذي قاتل المستعمر من حماه إلى السويداء، مروراً بالقلمون والغوطة يقيم الآن في دمشق؟ كيف؟ لم يكن باستطاعة الرسول أن يفسر... عشرته للبدو وصداقته لأمير الرولا كان طوق النجاة الذي ركبه عزيز إلى بر الأمان...

الأمان في البدء كان مضارب القبيلة، حيث الرولة تنتشر من أطراف عدرا قرب دمشق وحتى آخر بادية الشام.... هي تتحرك أيضاً، حركتها تصل إلى هضبة نجد فلماذا يخاف عزيز؟..

مع الرولا، صار عزو، وصار فرداً من أفراد القبيلة، يعيش في كنف الأمير ضيفاً وصديقاً، ثم هدأ البركان وبدأ المفوض السامي الجديد كأنما يريد أن يطوي صفحة الماضي بأسودها وأبيضها كي يفتح صفحة جديدة..

الصفحة الجديدة جعلت عزيزاً يطمئن ثم يدخل مع الأمير الشعلان إلى دمشق حيث له دار واسعة شاسعة يمكن أن يعيش فيها عشرون عزيزاً دون أن يثيروا الانتباه. من تلك الدار الواسعة الشاسعة شرع عزيز يمتد وينتشر استطالات تتلمس طريقها بحذر وتعرش بحذر على جدار استناد مكين.. جدار استناده الثاني كان اليوزباشي صبري، صديقه الوفي الذي ما إن رآه حتى أخذه بالأحضان فاتحاً له بيته ومحله.

لدى الشعلان كان يعيش، ضيفاً كصاحب المنزل، وصاحب منزل كالضيف، لكنه لدى يوزباشيه القديم بات يعمل.. كان والد صبري قد توفي، وكان الضابط القديم لا يحسن التجارة كثيراً وكان بأمس الحاجة لمن يثق به ويعتمد عليه ومن أجدر من شاويشه السابق بالثقة والاعتماد؟!...

داراً بجواره استأجر، مفاتيح المحل استلم... ولم يكن عليه إلا أن يأتي بزوجته وأولاده، يلم الشمل وتعود الحياة إلى مجاريها سعادة وهناء. ثماني سنوات مضت على لم الشمل، وثماني سنوات أمضت شمس في دارها الدمشقية... تفتح عينيها على الزجاج المعشق، تنعم بمياه الفسقية، وتسعد بليالي العلية القمراء، فبيوت دمشق لا تغفل لحظة من لحظات النهار والليل تريد من أصحابها أن ينعموا بأصباحها وأمسائها، نهاراتها ولياليها، فكيف لا تنعم شمس؟

ليلة أمس، كان يمضها الشوق للحبيب الذي تعبد، وكان موعد القافلة أن تجيء من حوران... أرقة مسهدة انتظرته... وشعور خفي يدغدغها... "عزيز آتٍ الليلة.... لابد من أن يأتي الليلة.... فكيف أنام؟".. كانت تدفع أطياف النوم كلما اقتربت من أجفانها، وكانت تصم أذنيها عن شخير النيام، تغمض عينيها عن صورهم ووجوههم، علها تقوى على الانتظار... ديك من مكن ما، ربما هو في آخر الميدان، أو آخر الشاغور، أطلق لقريحته العنان، لا تدري شمس أكان ذلك الديك كاذباً أم صادقاً، لكن مع صياحه سمعت أذناها صوت باب يفتح على مهل وخطوات حذرة تقترب. حينذاك فقط سكن القلق، انطفأ لهب الانتظار لتدب في أوصالها كلها رعشة الفرح، صانعة لها جناحين طارت بهما إلى عزيز، تلتقي به دون تمهل أو حذر".. آه!! يالذاك اللقاء!! يالذاك العناق!! كم كنت دافئاً حاراً حتى صهرت كل خوف، أذبت كل جليد، نهراً من حمم يصهر

في طريقه كل شيء!!"...

حركة في الخارج، جعلت الحالمة المسترخية تنتبه، وعلى مهل تودع الجسد الدافئ بنظرة والهة أخرى ثم تنسل خارجاً...

ــ صباح الخير، أمي، بادرها الأخضر وهو يترك البركة بعد أن غسل وجهه ويديه بمائها البارد.

ــ صباح النور، حشيشة قلبي، ردت الأم، وهي تطبع قبلة على خده، بلهجتها البدوية التي كانت تأبى أن تتخلى عنها مع زوجها وأولادها، والأخضر أقرب أولئك الأولاد إلى قلبها... أكثرهم تذكيراً لها بالماضي، بمضارب الخيام، بأصالة البادية التي تعشق. هه، أراك مستعجلاً؟...

ــ يجب أن أفتح المحل، عمي أبو فريد مشغول وأبي لم يأتِ...

ــ بل جاء..

ــ حقاً؟ بفرح طفولي يهتف، أبي وصل؟

ــ أجل، لكن القافلة لم تكن قد وصلت بعد.... ردت الأم التي كانت تنتظر كل قافلة على أحرمن الجمر...

ــ الحمد لله!! عشرون قافلة جاء بها هذا العام... أمي أريد أن أراه، قال وهو يتوجه إلى غرفة أبيه.

ــ لا..أخضر... دعه ينم... الليلة جاء متأخراً كثيراً، ومتعباً كثيراً، ولاشك أنه بحاجة إلى النوم...

ــ حسن... اذهب إلى القافلة إذن، واتجه الأخضر من جديد نحو الباب الخارجي، فيما انبثقت وضحة من باب المطبخ، تحمل بيدها "السفرطاس" الذي يحوي طعامه لذلك النهار. خطفه من يدها ومضى مسرعاً.

"الأخضر!!.. ايه!!... أيها الفتى الرشيق الطويل يابن السابعة عشرة، كم أحبك!!"..

ولاحقته بناظريها إلى أن غاب... شمس تحبه حب الوله... ألأنه بكرها والبكر حبيب أول؟ هي لا تدري...

لكن لشد ما يذكرها بأبيه حين عرفته أول مرة... صحيح أن الأب كان مفتول العضلات أكثر، عريض المنكبين أكثر، يوحي بالقوة والمقدرة أكثر، لكنه في كل ماعدا ذلك، كان الابن كالأب، والأب كالابن: لمعة العيون، ارتسامة الشاربين، وضاءة الابتسامة، لون البشرة، غرة الشعر... كل شيء، كل

شيء... وكان الأب يعتمد على الابن... منذ الثالثة عشرة كان يأخذه إلى متجر الحبوب، يعرفه بأسرار المهنة، الأسعار، الزبائن، فلم يبلغ السابعة عشرة حتى بات بإمكان الشريكين الصديقين أن يلقيا قدراً كبيراً من المسؤولية على كاهله.

ـ صباح الخير عمتي، حيتها وضحة، فردت شمس بابتسامة مشرقة عرفت منها وضحة أن عمتها سعيدة... أحضر لك القهوة؟ تابعت المرأة التي دخلت سن الكهولة ولم تعرف غير سيدتها شمس وخدمة شمس... سعادتها من سعادتها وشقاؤها من شقائها...

ـ لا .. اشربها مع عمك، ردت شمس مشيرة بيدها إلى غرفة نومها، وفي الوقت نفسه اتجهت إلى غرفة نوم الأولاد. سرير نواف فارغ، ابن السادسة عشرة، يحب الريف والبادية... يعشق الحياة هناك بعيداً عن الجدران العالية والأزقة الضيقة.. فلا يغادر بيت جده في أم العيون حتى يذهب إلى بيت جده في مضارب الخيام... في أم العيون، ينعم نواف بالطبيعة، بالأشجار، بأقنية المياه يسبح فيها، بطيور البط والأوز يصطادها... جده علي المر يفرح به.. علاقة عشق تربطهما الواحد بالآخر... يجلس معه في المضافة، يخرجان إلى الحقول ونواف يسأل.. يسأل دائماً والجد يجيب... مع جده الشيخ نواف هكذا.. يمتطي ظهر الفرس، يسير مع جده بين المضارب، يتدرب على إطلاق النار. كان السيف قد صار عملة باطلة... لم يعد أحد يستخدم السيوف وكان الشيخ نواف يروي لحفيده الذي أخذ اسمه كيف كانت أمه ذات يوم فارساً ملثماً، يبارز الرجال ويحضر الحروب ويشارك في الغزوات...

مناف مايزال مستغرقاً في نومه.. وصلت إليه شمس، مسدت شعره السبط المائل إلى الشقرة..."، من أين جاءته هذه الشقرة؟" غالباً ماكانت تتساءل ولم تكن تصدق مايرويه عزيز عن شعر أخيه عمران، ذاك الذي كان شديد الشقرة وهو صغير... لكنه لم يبلغ سن الرشد إلا وقد حولت الشمس الحارقة شعره إلى لون الكستناء. جلست شمس على حافة السرير تتأمل ذلك الوجه الرقيق الأبيض نبيل الملامح الذي بدأ زغب شاربيه يرتسم سواداً شاحباً على شفته العليا. كان مناف قد أكمل الرابعة عشرة وكان قد نجح إلى صف "البروفيه"..

بارع هذا الفتى شأنه شأن الأخضر، "مرقت فكرة في ذهنها وهي ماتزال تتأمل الوجه الرقيق نبيل الملامح وتمسد الشعر الذي يميل للشقرة".. كلاهما يحب العلم.. كلاهما يريد أن يصبح شيئاً... آه!! ما أسعدني أن يغدو واحدهما طبيباً... والآخر عالماً أو أديباً!!...

سيقولون حينذاك... شمس... يا أم الطبيب... يا أم العـــالم أو الأديـــب!! آه!! كم سيسعدك ذلك!!".. كان الأخضر قد أصبح على أعتاب البكالوريا. وكان يدرس ويعمل... مثالاً للجد والنشاط، وحده نواف لم يكـــن يحـــب المدرســـة، بصعوبة تعلم القراءة والكتابة.. تشغله القرية والبادية، الطبيعة والناس.. مع ذلك شمس تحبه، بل هي فخورة به... فخورة أيضاً ببدور ابنتها الوحيدة المدللـــة... التي تذهب هي الأخرى إلى المدرسة، ففي دمشق بدؤوا يبعثون البنـــات إلـــى المدرسة... يتعلمن شأن الصبيان... إذن لماذا لا تذهب بدور؟...

بدور ما تزال نائمة هي الأخرى، شمس تتأملها؟ صبية صغيرة ماتزال في الثانية عشرة... .صورة طبق الأصل عـــن الأم بشـــعرها الأســـود وبشـــرتها البيضاء، لكن دون تلويحة شمس... صدرها لما ينهد بعد لكن قامتها تشـــب... يوماً بعد الآخر تنهض لكأنها نخلة في سواد العراق تضرب جذورها في المـــاء ويمنحها الطمي ماتشاء من غذاء. في عطلة الصيف تأخذ بدور راحتها.. تنـــام حتى الظهر، تذهب إلى لداتها، يأتي إليها لداتها، تنمو وتترعرع، نخلة في سواد العراق... الأخضر لا يعرف عطلة.. إن كانت هناك مدرسة ذهب إليها، إن لم يكن جعل محله مدرسته.. أخذ معه الكتب إلى هناك، يقرأ، يعـــب المعلومـــات، يبحث عن المعارف... حتى صار مرجعاً... هي... أبوه... الكل يسألونه عـــن أي شيء، وهو يجيبهم عن أي شيء: كلام جميل يقوله الأخضر: "الشمس ثابتة في مكانها والأرض تدور"... "لكن كيف؟".. تسأله الأم فيشرح ويمثـــل الأرض بجمع يده كرة تدور حول محور في فضاء بالغ الاتساع، الأرض تدور حـــول الشمس والقمر يدور حول الأرض، ويكاد عقلها لا يصدق لكن الأخضر قـــوي الحجة، بارع الإقناع فيعاجلها بآية قرآنية: "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون".. هو ذا الفلك إذن.. وهـــذه هـــي السباحة!! الشمس في مكانها والأرض تدور حولها.. إنه قانون الجاذبية، قـــال لها الأخضر ذات مرة مفسراً، فزاد الطين بلة... هي تعلم أن كلامه صحيح...، لكن أنى لها أن تستوعبه؟ أهو السن؟ شمس تعلم أنها اجتازت عتبـــة الكهولـــة، فكيف لعقل كهل أن يقلب مفاهيمه؟

حين أفاق عزيز كانت شمس قد أنهت جولتها علـــى المنـــزل. اغتســـلت، سرحت شعرها، وتكحلت أيضاً. متثائباً خرج عزيز من الغرفة فبهـــره ضـــوء الشمس وقد صارت في رأد الضحى. رشق وجهه رشقات سريعة بالماء فصحا تماماً... تعب الليل كان قد أخذ منه كل مأخذ ثم جاء الحب بلذائـــذه ليطرحـــه

فراشاً حتى الضحى... احتج عزيز لدى ربة الحب التي طرحته فراشاً، فضحكت وهي تحييه تحية الصباح قبلة على الفم تدعوه إلى إفطار من نوع آخر..

ــ تأخرت كثيراً... لابد أن الجمّالة قد وصلوا وعلي أن أسبقهم إلى المستودع.

بصعوبة جعلته يرتشف قهوته ويتناول لقمة سريعة، لكنه قبل أن يمضي أمسكته عند الباب.

ــ ماذا تريد أن تأكل اليوم؟

ــ من يدك كل طعام طيب، أجابها وهو يتملص مسرعاً.

المستودع في طرف الميدان، تتسع الفسحة أمامه لعشرات الجمال، ينيخونها هناك ".. إخ... إخ"... يصيحون بها فتهبط من عليائها إلى الأرض ثم ينزلون أحمالها ليبتلعها المستودع.

لحسن الحظ كان شريكه قد سبقه، هو الذي يعلم أن القافلة قد تصل في أية لحظة، "تأخرت في الليل فباكرت المستودع في الصباح..." وصلت الجمال، فرغت الحمولات وبعث صبري من يأتي للشبان بأطباق الفول والحمص، طعاماً لا ألذ ولا أشهى لفتيان حوران.

رئيس القافلة حرث طبق الفول حراثة، عواد غرس رأسه في طبق الحمص حتى كاد أن يستعصي على الإخراج... فحول البصل كانت قد كسرت وكانت رائحتها ملء الساحة والمستودع. شمها عزيز قبل خطوات، وحين وصل إلى الساحة، أسعده انكباب الرجال على طعام الإفطار، فالليل كان طويلاً والزاد ماجف ولايبس، إذن كيف لا ينكبون ذلك الانكباب؟؟

المستودع مليء حتى الحافة.... حنطة، شعير، عدس، حمص. الموسم خصب والغلال وفيرة، والشريكان يريدان أن يعملا... شهرين، ظل عزيز يجيء بقوافل الحبوب...

الموسم انتهى، والبيادر اختفت من واجهات القرى، وتلك آخر القوافل التي يأتي بها عزيز. مختار القرية ودعه بالأمس وداع الصاحب الحبيب، رجال الخربة أخذهم كلهم بالأحضان، ثم مضى إلى البطحيش يودعه... أكثر من شهر كان قد غاب عنه، حيطة وتستراً، فاغتيال "الليوتنان بورجيه" كان قد أثار البلبلة ليس في قرية دنيا وحسب، بل في حوران كلها...

أخباره وصلت حتى مسامع صبري في دمشق، بل بدت الدهشة تمسك بمجامعه كلها حين ختم القصة بالسؤال "من تراه ذلك المقدام الذي مايزال يتربص بالفرنساوي"... لم يستطع عزيز أن يجيب حينذاك وإن هم أكثر من مرة بذلك.. لقد كان بينه وبين البطحيش عهد قاطع:

أن يبقى السر بينهما لا يتجاوزهما إلى ثالث.

أنهى الجمالة إفطارهم وبدؤوا يعدون العدة للعودة، صبري أعد حسابهم بالمقابل.... سلم كلاً منهم أجره قطعاً فضية رنانة وأوراقاً خضراء وحمراء أدخلها معه الفرنساوي شرطاً من شروط انتدابه على سورية.

ــ عائد للديرة الآن؟ سأل عزيز الفتى الناحل الطويل وهو يربت كتفه، مدركاً أنه سيفتقده حتى العام القادم..

ــ لا، بل اذهب إلى سوق الهال أحمل الخضار.... رد عواد وعلى محياه سيما الحزن لفراق صاحبه الذي كان يرى فيه بعضاً من أب. تبسم عزيز وهو ينظر إلى الفتى الناحل الذي لا يضيع دقيقة من وقته... نملة في موسم البيادر تنقل الحنطة إلى وكرها ذاهبة آيبة... عواد يأتي بالحنطة إلى دمشق ويعود بالخضار والفاكهة إلى حوران... منشار يأكل الخشب في الذهاب والإياب... الصيف لديه عمل، والشتاء دراسة، قميصه المهلهل، بنطاله المرقع، صندله ذو الإصبع... مظهره كله يدل على مقدار حاجته للمال... فلماذا لا يحمل صناديق الباذنجان والبندورة، الفليفلة وتفاح الزبداني إلى أسواق درعا؟..

ــ بماذا أوصيك عواد؟ انتبه لدراستك.. قال عزيز وهو يشد على يد الفتى الناحل مودعاً، دراستك ولا شيء غير دراستك...

ــ بالتأكيد، همهم الفتى الناحل وهو يعرف قصد الرجل الأربعيني عريض المنكبين الذي بدا الشيب يخط فوديه.. ففي ذهابهما وإيابهما ذلك الصيف، اعترف له بقصة حبه، فتاة برشاقة الغزالة وعيون المها كانت قد سحرت لبه. والدها يبيع الحلاوة والتمر، وعواد يحب الحلاوة والتمر... يذهب إلى دكان الكهل كلما مر بخربة الغزالة". أتراهم سموا القرية باسم الفتاة أم سموا الفتاة باسم القرية؟.. "هو لا يدري، لكنه لم يكن يستطيع المرور بالخربة إن لم يمر بدكان الغزالة. هو محجه ولابد للمرء من زيارة محجه.... نظرة، فابتسامة فسلام، هكذا بدأت قصته مع الغزالة، ثم توقف هناك، لا هو قادر أن يبوح بما في صدره من كلام ليتبع ذلك موعد فلقاء ولا هي قادرة على ذلك أيضاً. وجنتاها كوجنتيه تحمران كشمندر مسلوق حين يقترب منها، بل هو يشعر وكأن

بخاراً ساخناً يخرج منها جميعاً، بخار شمندر أحمـــر.. يخـــرج مـــن قـــدر... باستحياء تنظر إليه... باستحياء تسأل، وهو بعفويـــة وانـــدفاع، يحـــدثها عـــن دراسته...عن البكالوريا التي يريد أن يأخذها، ثم الجامعة في دمشـــق والحيـــاة الجميلة والمستقبل فيما هي تتابعه، توشك أن تطير فرحـــاً، "أريـــد أن أصـــبح محامياً أدافع عن الحق، أنصر الضعفاء والمظلومين"... قال لهـــا آخـــر مـــرة فتوهجت وجنتاها شمندراً أكثر احمراراً وجمراً أكثر توهجاً...

عزيز أصغى إلى قصته حتى النهاية... لكن دون أن يبـــدو علـــى محيـــاه السرور "لماذا؟"... سأله الفتى الناحل الطويل. "لأنك فتى نابـــه أمامـــك دراســـة ومطامح، وعليك أن تحققها..."، "لكأن الحب يعيق المطامح؟"، سأل الفتى ســـؤال المتعجب فأجاب الأربعيني الذي عاش الحب بأحلى صوره وعرف تماماً مايعني. "بالعكس، قد يكون الحب دافعاً عظيماً لتحقيق المطامح"... ثم سرد له طرفاً مـــن قصته مع شمس، الفارس الملثم الذي أنقذه ذات يوم من براثن الموت ثم تكشف له عن فتاة خلبت لبه حبا "إذن، ينبغي أن تشجعني".. استغل الفتى الناحـــل الفرصـــة ضارباً ضربته"... لا.. في حالتك العكس هو الصحيح تماماً"... "لماذا؟"..

"ها.... تسألني لماذا!.. لأن الحب يعني الزواج، والزواج هو المرساة التي توقف السفينة وتثبتها، أتدري مايعني وقوف السفينة؟" .. عـــواد يـــدري، لكـــن الحب يمور موار دمه ويجيش جيشان أنفاسه فكيف يعطي أذناً لناصح؟

ـ تفرغ لدراستك... الآن وقت الدراسة فقط، عاد عزيز يؤكد نصـــيحته، وكأنما يريد أن يربط بين حديثه اليوم وحديث الأمس...

ـ ا... ا... ان... شاء الله.... أجاب الفتى الناحل الطويـــل بتلعـــثم علـــم عزيز منه أن لا علاقة له بالتنفيذ..

ـ بل تعدني.. قال وهو يشير بسبابته إشارة الأمر... لا تفكر بشيء آخر غير دراستك... بعدئذٍ تابع بنبرة مختلفة: المثل يقول: بطيختان لا تمسكان بيـــد واحدة...... والدراسة والحب بطيختان فأيهما تمسك؟

ـ الدراسة؟

ـ تعدني؟ تقسم على ذلك؟

ـ أجل.. أعدك... وأقسم على ذلك...

ـ على بركة الله.. ولا تنسَ... زرني إن جئت إلى دمشق..

ـ إن شاء الله، همهم الفتى وهو يعلم أنه لن يجيء إلى دمشق في الشـــتاء.

بعدئذٍ شد على يد عزيز، ثم دار على عقبيه وأسرع إلى جمله. كان الصحب قد بدأوا بإنهاض جمالهم، وكانت الجمال تهدر وترغي، بعضها فك ركبة وبعضها ركبتين، فيما هب بعضها الثالث واقفاً مرتفعاً بسنامه حتى موازاة حائط المستودع. "وداعاً أيها الصيف!!... وداعاً يا موسماً خصباً قد لا يعود!!"....
فكر عزيز وهو يرى إلى الجمال تتسرب واحداً إثر الآخر وأيدي أصحابها تلوح له تلويحة الوداع..

في الداخل، كان صبري مايزال يحسب جامعاً طارحاً وقد أدى لكل ذي حق حقه. دفتر كبير كان ينبسط بين يديه وأرقام كثيرة كانت ترتسم على صفحاته.

ــ أتعلم مجموع ما اشتريناه هذا الموسم من حبوب؟ دفع الفضول عزيزاً لأن يسأل ..

ــ لم أجمعها بعد... رد صبري وهو يقلب الدفتر أمامه، ملتفتاً إلى أكداس الحنطة والشعير وراءه... لكنها هذا العام أكثر من كل عام...

ــ إذن، ستكون أرباحنا أكثر...

ــ قل... نلبي حاجة الناس أكثر...

وتنهد عزيز راحة وطمأنينة، فرئيسه القديم لم يخيب أمله مرة واحدة... كان دائماً يفكر بالآخرين، لم يره يوماً يتحول إلى تاجر جشع يهمه تكديس المال وكنز الذهب والفضة...

صبري مؤمن أنه مامن غني محتكر ولا تاجر جشع يدخل الجنة حتى يدخل الجمل من خرم الإبرة، قلبه ينبض بحب الغير تماماً كما عرفه في ساحة الميدان....

هو دائماً أول من يضحي وآخر من يستفيد...! أينسى عزيز تلك الأيام ــ ؟..

ــ هـ...يـ.. يه... أين شردت؟ سأله الرئيس القديم وقد رآه يطرق ساهماً..

ــ من كان يظن ونحن نطفئ مستودع القدم ذلك اليوم السعيد أنه سيكون لنا مستودع في القدم؟

ــ هي ذي الحياة دائماً، مفارقات ومفاجآت..

رد صبري، الضابط القديم الذي لم يكن قد وضع في حسابه يوماً، أنه سيعود تاجراً كأبيه يضرب ويحسب بين عدول الحنطة والشعير...

ـ أجل... هي ذي الحياة.... دولاب يدور وفصول تتغير... أتذكر يوم دخلنا دمشق؟.. كان يخيل إلينا أن الدنيا كلها ملك أيدينا...

ـ إيه!!... كم كانت أحلامنا كبيرة!! دولة عربية من جبال طوروس حتى بحر العرب!!

علم واحد، ملك واحد، جيش واحد.... إيه!! رحمك الله يافيصل!!.. كنت تقاتل الاستعمار لتأتي باستعمار أشد وأدهى؟!...

ـ تعلم أبا فريد؟ حتى اليوم أتساءل أحقاً كان مخدوعاً؟ أحقاً استطاعوا أن يغرروا به؟

ـ أجل... حقاً وصدقاً، أنا أعرف... رافقته منذ البدء... ثائراً مخلصاً، يحلم بالحرية الحقة والاستقلال الحق.... لكنه، لم يكن يعلم أن كل من حوله ذئاب غادرة.... لورنس، اللنبي، سايكس، بيكو، مكماهون... كلهم كانوا يتآمرون عليه....

ـ مايثير عجبي أيضاً، كيف استطاعوا أن يضللوكم أنتم، يخدعوكم جميعاً..... وأنتم ضباط متعلمون دارسون؟...

ـ البراءة....كنا أبرياء. وما أسهل أن تخدع بريئاً لم يعرف الخداع والمكيدة من قبل... نحن خارجون من قلب الصحراء... من قلب الطبيعة، من قلب البراءة، وهم ذوو باع طويل في التآمر والكيد، في خدع الاستعمار وأحابيله، فكيف لا يمكنهم أن يخدعونا؟..

هم عزيز بالكلام لكن الرئيس تابع وقد اشتعل حماسة ودفقاً:

ـ تعلم؟.. بالخديعة استعمروا العالم.... بالتآمر والباطل هيمنوا على بحار الأرض... وقاراتها... يضربون هذا الشعب بذاك، هذه الطائفة بتلك ليقطفوا هم الثمار...

ـ صحيح... هذا مايثير انتباهي... نحن هنا لم نقاتل الفرنساوي بل السنغالي والمغربي، الإفريقي والجزائري...

ـ وهذه فرنسا... أدنى درجة من بريطانيا في سلم الاستعمار...

ـ ربما... رد عزيز شبه مقاطع، ربما الإنكليز ألأم وأخبث لكن هؤلاء

الفرنسيين أكثر قسوة وطغياناً، يؤلمك أن واحـــدهم نـــزق أحمـــق... لا يحكـــم تصرفاته عقل أو منطق...

وتجهم عزيز وهو يتذكر الكابيتان كاربييه الذي عاقـــب مدينـــة بكاملهـــا كالسويداء، من أجل قطة.... حبس أهلها وفـــرض علـــيهم الغرامـــات انتقامـــاً لقطة.... صبري نفسه يذكر ذلك، يذكر القسوة والظلم اللـــذين عوملـــت بهمـــا دمشق والغوطة أيام الثورة ومابعد الثورة، يذكر البيوت التي قصـــفت، قـــذائف المدفعية وهي تصب كوابل المطر على حيه، الميدان، حـــي الشـــاغور، بـــاب الجابية، المدينة القديمة كلها، وكأنهم يريدون مسحها عن وجه الأرض.... لكن ذلك مضى وانقضى.... الناس منذ انطفأت نار الثورة رفعـــوا أيـــديهم ولـــووا أعناقهم.. هم يأكلون ويشربون، يبيعون ويشـــترون، وكأنمـــا أســـلموا أمـــرهم للأقدار. تقسيم البلاد تراجعت عنه فرنسا، الميرة خففت منها، الضرائب باتـــت تحسب ألف حساب قبل أن تفرضها، لكن الإنكليز!! الويل لهم أولئـــك الإنكليـــز ماتراهم يفعلون هناك حيث فرضوا أنفسهم دولة انتداب في فلسطين؟..

رأي البطحيش أنهم كانوا يسلمونها لليهود قرية قرية ومدينة مدينة، وذلـــك ماكان يشغله في لقائه الأخير بعزيز. لم يكن الرجل على "الحشيشـــة". حزينـــاً مقهوراً كان لا ينفك يزفر الزفرات الحرى، حين سأله عزيز "مابك؟" أجاب: "أنا حائر، بلدي هنا يدعوني كي أقاتل الفرنساوي وأناجزه، وبلدي هنـــاك يـــدعوني أيضاً.... فلسطين تدعوني يا عزو... الخطر داهم والمؤامرة عليها قاتلة، فهـــل أذهب إليها أم أبقى؟ هل أقاتل مع الذين يقاتلون فيها عدوين لـــدودين: الإنكليـــز واليهود... أم أظل هنا أصارع الفرنساوي؟"...

كانت تلك الحيرة هي التي تقلقه ولم يكن باستطاعة عزيز نفسه أن يحســـم الأمر وينهي تلك الحيرة، كلا البلدين كان يعاني وكلا البلدين كان بحاجة لمـــن يدافع عن حريته واستقلاله، لكن فلسطين مهددة في وجودها...

مئات الآلاف من المهاجرين اليهود كانوا يأتون كل عام، تحت هذا الغطاء، تحت ذاك، كان يهود أوربا، قد غدوا أسراب قطـــا لا يرويهـــا إلا ميـــاه نهـــر الأردن، بحيرة طبريا، والحولة.. وكان هتلر يسوطهم في ألمانيا بشواظ النـــار فيفرون كالحمر المستنفرة ولا يجدون أنفسهم إلا في أيـــدي الوكالـــة اليهوديـــة والمنظمة الصهيونية تسوقهم قطعاناً قطعاناً إلى مرج ابن عامر وسهول حيفـــا ويافا. لكأنها خطة مدبرة، سلســـلة متكاملـــة الحلقـــات، تبـــدأ بهتلـــر وتنتهـــي

بوايزمن....

ذهباً وفضة يحملون معهم... أموالاً طائلة ينفقون فيشترون هـذه البيـارة وذلك الحقل، تلك الأرض وهذا الحي... إلى درجة باتوا معها يشكلون خطـراً حقيقياً.... الناس في الشوارع باتوا يتعرضون للاغتيالات والقتـل، ونسـاؤهم للتحرش والاغتصاب.... كانت النار قد وصلت إلى ثيابهم... حينذاك فقط هبوا يصرخون "نريد سلاحاً، نريد مالاً، نريد تنظيمات ندافع بها عن أنفسنا"...

البطحيش همس في أذنه أنه يرسل لفلسطين أسلحة في القطار بين أكـداس الفحم: في عربات الشحن، بل حتى في سلة سائق القطار، حيث يضع زوادتـه، يخبئ البطحيش المسدسات، وتذهب إلى سمخ، ومن هناك تنتقل غرباً وشـرقاً، شمالاً وجنوباً، "يجب طرد اليهود... ينبغـي مـنعهم مـن تملـك الأرض.... فلسطين لنا فلماذا تأتون باليهود إليها؟ لماذا تغرقون سهولها وجبالها بهـم؟"... كانت صيحات الناس تتعالى احتجاجاً في كل مكان، مما أزعج السادة الإنكليـز فانقضوا على العبيد يلهبون ظهورهم سياطاً وصدورهم رصاصاً. الـدم يجـر الدم، والعرب يأتون من كل مكان لنصرة الشعب المظلوم، ومن غامض علم الله يظهر الشيخ عز الدين القسام ليقود ثورة علـى الإنكليـز واليهـود... هـدفها إخراجهم معاً من فلسطين....

السؤال الذي كان يحير البطحيش بات يحير عزيزاً... هل ألتحق بالشـيخ القسام أم لا؟!"... وأفضى عزيز لشريكه بالسر فلـم يتـردد صـبري لحظـة واحدة..

ـ ولم لا؟ نذهب فنقاتل مع الشيخ القسام؟

ـ حقاً؟!.. أتذهب؟..

ـ وما المانع؟ سعيد العاص ذهب.... الشيخ القسام نفسه جاء مـن جبلـة فلماذا لا نذهب نحن من الشام؟.. قال صبري وقد عاد إلى وجهه الإشراق الذي عرفه عزيز أيام كان يقود فصيله المتقدم في الجيش العربي الزاحف إلى الشام يحررها من نير الاستعمار العثماني...

تداول الرئيس القديم ومرؤوسه الأمر وقد عادا عشرين عاماً إلى الـوراء، يحملان السلاح ويقاتلان.... الرئيس أكثر حماسة من المرؤوس وأكثر حسـماً أيضاً، فكل ما يهمه أن لا تضيع فلسطين.

ـ لكن دعنا نكلم شكري بيك علنا نأخذ متطوعين... اقترح الرئيس وهـو

يشتعل حماسة ..

ـ بيدك حق..شيء رائع أن تذهب على رأس كتيبة من المتطوعين إلى فلسطين!!...

شطت بعزيز الحماسة وهو يتصور أن دمشق كلها ربما تلبي النداء إذا ما طرحا الفكرة على شكري بيك فيذهب مقاتلون أشداء يطردون الإنكليز من فلسطين ويطهرون ترابها من اليهود..

ـ ننهي هذه الحسابات ونمضي، اقترح صبري أخيراً.. وهو يشير إلى سجلات أمامه لم تكتمل حساباتها..

لكن حين أقفلا باب المستودع وتوجها إلى المدينة أدهشهما انقلاب المدينة حالاً على حال... شارع الميدان خاوٍ على عروشه، المحال مغلقة، بل حتى متجرهما، متجر الحبوب مغلق، مراً به فلم يجدا لا أخضر ولا أصفر، سألا أحد الأصحاب...

ـ هـ...ي...هـ...ي... رد الصاحب... ألم تسمعا؟

ـ لا.. ماذا هناك؟ سأل صبري باستغراب أشد..

ـ المدينة خربة... مظاهرات النساء ملء الشوارع..

وأسرع عزيز إلى بيته يبحث عن شمس وقد أحس في الحال بوخزة مسلة، لكن لم تكن هناك شمس.

ـ أين عمتك؟ سأل بكثير من القلق وضحة التي كانت وحيدة في المنزل منهمكة بإعداد الغداء.

ـ عمتي خرجت..

ـ أين؟.. سأل بلهفة أشد وقلق أعظم..

ـ لم تقل لي... عمي.. لا أدري....

وأنى لوضحة أن تدري؟

في الصباح، بعد أن غادر عزيز المنزل، كانت شمس قد جاءت إليها في المطبخ تشاورها في شؤون الطعام "عمك يشتهي المحشي؟"، "إذن نطبخ له المحشي"، كوسا، فليفلة، باذنجان"، "عددت لها شمس" "على راسي عمتي"، أجابت وضحة واضعة كفها على رأسها ثم خرجت إلى السوق تشتري الخضار واللحمة والفواكه، فيما مضت "العمة" إلى جانب البركة تشرب القهوة، وتستمتع بنسيم الصباح العليل..

على جناحين من سعادة.. كانت تحوم شمس في فناء الدار، عيناها تبرقان سروراً وبهجة.. شعور عميق بالراحة يفرش أجنحته على كل مافي صدرها من مشاعر وأحاسيس، هو الشعور نفسه يطغى عليها كلما عاد إليها عزيز بعد غياب....

أهو شعور الاسترخاء بعد التوتر؟ الطمأنينة بعد القلق؟ هي لا تدري، لكنها تدري من تجارب السنين الطويلة أنها لا تعرف راحة إلا بعد أن يعود إليها، ولا تشعر بسعادة إلا وهي بين أحضانه: "آه!! ما أروع تلك الأحضان!! ما أشهى دفق الحب من شفتيك يا حبيبي".. ورشفت شمس رشفة قهوة ساخنة. هي تحب قهوة الصباح على صوت العصافير وهي تزقزق، فسقية الماء، وهي تعزف أنغامها الراقصة، وطيوف الذكريات وهي تتسرب في خلاياها دافئة حميمة..

جلسة الصباح تلك كانت تحبها كثيراً، الدار كلها كانت تحبها كثيراً، أشجار النارنج، أحواض الأزهار والورود، بركة الماء، التي تتلألأ تحت أشعة الشمس وتتلامع على ضياء القمر، زجاجها المعشق، عليتها، شرفتها، "المشرفة" كما كانوا يسمونها.. تحفة رائعة كانت تلك الدار، تجد فيها شمس كل ماتحب وتشتهي... السنون الطويلة التي أمضتها فيها جعلتها تتعلق بها... هي تتذكر أحياناً دارها في حماة، كانت داراً واسعةً أيضاً لكن لم يكن لها هذا التناسق والجمال، ذلك الفن والإبداع.... ولم تكن قد حملت لها مشاكل وجراحاً، هموماً... وغموماً، كما فعلت دار حماة... هي تتذكر حسني أفندي، خالد آغا، الكابيتان جيرار والمخالب التي أرادوا أن ينشبوها فيها كلما حانت الفرصة... تتذكر المضافة التي حملت لها الكثير من المشاكل والمنغصات. هنا، لا مشاكل، ولا منغصات، لا خالد آغا، ولا كابيتان جيرار. مذ سكنت دمشق اختطت لنفسها خطة جديدة، تلتزم فيها بتقاليد الميدان وعاداته.

كانا ما يزالان في طور التخفي،... هي لا تريد أن يعرف بها أحد وعزيز لا يريد أن يفضي بحقيقته لأحد فاقتصر على القلة القليلة من الناس... جيرانهم الأقربون فقط يعرفونهم، آل صبري فقط أصدقاؤهم.... لم يكن باستطاعة عزيز أن يفتح مضافة، ولم تكن الظروف تسمح لشمس أن تخرج سفوراً أو تستقبل الرجال أو تجالس الضيوف.... هنا حرملك، سلملك.... الحدود قائمة والحواجز عالية، البدو بعيدون عن الميدان... وأعراف البدو لا تسري على الميدان، تخرج شمس، تلبس الملاءة السوداء، شأنها شأن كل امرأة في الميدان، لا يتلصص عليها أحد، ولا يتحرش بها أحد. وحده بيت الشعلان كان متنفسها،

فحين تذهب إلى ذلك البيت تعود بدوية آتية من مضارب الخيام. هي هناك شيخة ابنة شيخ، تحدث الأمير وتجالس الرجال وتسمع في المضافة عزف الرباب وقصائد الشعراء. لكن تعود إلى بيتها في الميدان فتعود الحرملك الذي لا يختلط بالسلملك...

أربع سنين ظلت شمس تعيش في أضيق دائرة من العلاقات، كان الخوف مايزال يعشش في صدرها... يعرفون بها، يفطنون لقصتها، فتذهب هباء.... لكن شيئاً فشيئاً بدأ الخوف يتلاشى... أهو اختلاف الليل والنهار ينسي؟ أهي الأحداث تمحو ماقبلها حتى تبهت ألوانه فلا تعود العين تبصره؟ شمس لا تدري. لكن قوانين الحياة وسنن الطبيعية هي التي تسود دائماً...

يتلاشى القديم ليظهر الجديد. حجر يسقط في بركة ماء فيصنع دائرة ثم دائرة. الدوائر تتسع بعدئذٍ وتتسع. دائرة شمس كانت تتسع..... صحيح لم يكن في دمشق المكيساتية أم عمر لكن ثمة حمامات سوق أيضاً وأم خالد وأم قعود..... وفي دمشق جارات لطيفات ظريفات أيضاً يدفعهن الفضول لأن يتشممن رائحة هذه ويتسقطن أخبار تلك.... شيئاً فشيئاً راحت شمس تتعرف إلى جارات وجارات فلم تنته السنون الثماني حتى كانت قد أصبحت معروفة جيداً في أوساط النساء.... على صلة بسيدات المجتمع.... وبأنشطة المجتمع...

كم سرت شمس حين اكتشفت أن في دمشق رابطة للنساء ونادياً يجتمعن فيه ويتحدثن، يناقشن قضايا المرأة وهموم النساء...هناك تعرفت شمس إلى عايدة بيهم، إلى ماري عجمي، وإلى نازك العابد... معهن صارت تلتقي، تحضر أمسيات، تشارك في لقاءات...

وكانت هموم الوطن محور تلك اللقاءات... من قال ان المرأة لا يشغلها سوى هموم المرأة؟

هي كالرجل يشغلها هم الوطن أيضاً، شمس تستمع إلى محاضرات في السياسة، تصغي لما يدور في العالم من أحداث.... تطورات كثيرة حدثت مذ كانت في حماة.... في دمشق لم تعد تشعل المصباح الكازي ولا الشموع.... صار هناك شركة كهرباء.... أسلاك الكهرباء مدت إلى البيوت.... مصابيح الكهرباء أخذت تشع كالشموس.... ومع الكهرباء جاء المذياع الذي ينقل لك أخبار العالم... هتلر، موسليني، ستالين، صار بإمكان شمس أن تعرف كل مايدور في العالم... تعلم من المذياع أخبار الدول والأنظمة والجيوش... نازك مولعة بتلك الأخبار.... في الصحف، في المجلات، في الإذاعة، نازك لا تترك

خبراً سياسياً يفوتها، تطوراً أو حدثاً يمر بها، ونازك صديقة حميمة... شـمس معجبة بها... فتاة في أواخر ثلاثيناتها لكنها لا تفكر بالزواج، فاتها القطار لكن دون أن تبالي.... همها الوحيد أن تنظم النساء من حولها، أن تعمل مـن أجـل توعيتهن، حثهن على المطالبة بحقوقهن والدفاع عن وطنهن، كتلة من الحيويـة والحماسة تلك الفتاة، يمر طيفها بذهن شمس وهي ترشف قهوتها بجانب البركة فلا تملك إلا أن تبتسم.

مع ابتسامتها جاء القرع على الباب.... وشهقت شمس حين فتحت البـاب وظهرت نازك.

ـ معقول!؟... بادرتها شمس وهي تسرع إليها حاضنة مقبلة، الآن فقـط كنت أتذكرك...

ـ هذا مايدعونه التخاطر... أسمعت به؟

-لا.. على كل حال اقعدي.. اشرحي لي ما هذا التخاطر.

ـ لا... لا... ليس لدينا وقت... ولا أنا قـادرة أن أقعـد، ردت نـازك الثلاثينية، العانس، رقيقة العظام، رقيقة الملامح، لامعة العينين، وهي في عجلة من أمرها...

ـ خير ماذا هناك؟...

ـ مظاهرة... الرابطة قررت أن تخرج بمظاهرة نسائية...

ـ لماذا؟ ألم يعد هناك رجال؟ ردت شمس مازحة مستغربة أن تتظـاهر النساء في الشوارع ويقعد الرجال في البيوت.

ـ بل هناك رجال... لكن المظاهرة النسائية أسلم... النسـاء لا يحملـن سلاحاً ولا يقاتلن يعني... مظاهرة سلمية...

ـ رائعة! فكرة رائعة.... هتفت شمس وقد أعجبتها الفكرة فجأة...

ـ أسرعي إذن... النساء بانتظارنا... فلا نتأخر عنهن...

وأسرعت شمس، لبست ملاءتها السوداء على عجل، ثم خرجـت شـابكة يدها بيد نازك. ناسية حتى أنها ربة منزل.

ـ لكن لم تقولي لي... لم هذه المظاهرة؟ قالت شمس وقد تذكرت أنها لـم تعرف السبب...

ـ العراق وقع معاهدة مع بريطانيا يحصل فيها على مايشبه الاسـتقلال.

مصر أيضاً حصلت على مايشبه الاستقلال... ونحن هنا قاعـدون، لا فرنسـا تفكر بإعطائنا استقلالنا ولا رجالنا يطالبون... فقلنا نطالب نحن!!...

ــ عظيم!! يعني نحن خارجون كي نطالب بالاستقلال!!

ــ وبالحرية!! بحقوقنا كشعب، كوطن!!

ــ الله!! هذا ماكنت أحلم بالعمل من أجله!!..

أمام الرابطة، كانت مئات النساء قد تجمعن... وكان الصخب عالياً، حتـى بدا لشمس انه يصل إذن الجوزاء... لافتات كانت قد كتبت بخط أسود عريض: "الاستقلال... الاستقلال"، "الحرية"... "الحرية"...، لا اسـتعمار ولا انتـداب"، "نحن بدنا الحرية"، "سورية أرض الأحرار"....

ــ متى فعلتن هذا؟ سألت شمس وهي تشير إلى اللافتـات وفـي نبرتهـا مسحة من عتاب.

ــ منذ ثلاثة أيام ونحن نستعد... وأسرعت نازك إلى المقدمة فقـد كـان هناك تململ الانتظار.

هو الرق الذي لا ريب فيه، أرادوه فسموه انتداباً. لعلع صوت نازك حـين وصلت إلى المقدمة فرددت مئات الأفواه في الحال: "يسقط الانتداب... يسـقط الاستعمار... تسقط فرنسا". وخلال ثوان بدأت المظاهرات تشق طريقهـا فـي شوارع فغرت أفواهها تعجباً من مظاهرة لم تشهدها من قبل. كانـت الفكـرة جديدة اعترضت عليها نساء من الرابطة وأيدتها أخريات... نازك كانـت أشـد المتحمسات، "ولم لا؟!" قالت لهن. "قبل سبعة عشر عاماً خرجت نسـاء مصـر يتظاهرن احتجاجاً على سياسة بريطانيا واضطهادها، ومناصرة لسعد زغلـول، فلماذا لا نخرج نحن ونثبت أننا لا نقل عن نساء مصر شجاعة ووطنية؟"..

الحجة مقنعة فوافقت الأخريات "مظاهرة سلمية تطالـب فرنسـا بإنهـاء انتدابها وخروجها من سورية"، لم تستأذن النسوة فرنسا كما لم يستأذن رجالهن. لأول مرة كن يردن أن يفاجئن فرنسا والرجال معاً، وبدت المفاجأة صاعقة حين انطلقت حشود متراصة من ملاءات الليل وقد أسفرت عن أقمار لا عد لهـا ولا حصر. الرجال أفواه فاغرة وعيون جاحظة...

شرطة الفرنساوي وجنده مندهشون ذاهلون.... لـيس لـديهم أوامـر ولا يعرفون مايفعلون..... من باب الجابية مروراً بسوق مدحت باشا إلـى سـوق الحميدية....كانت المظاهرة تسير، بتناسق وانتظـام.. الأيـدي تلـوح عاليـاً،

والأصوات تلعلع... هن النسوة الخجولات الحبيبات يطلقن لأصواتهن العنان فتردد جدران مدحت باشا وسقف الحميدية الأصداء أصواتاً أنثوية لم تسمع مثيلاً لها من قبل.

كانت خطة المظاهرة أن تمر بأكبر قدر من شوارع دمشق، تغلق المحال، تشجع الرجال، تحث الشبان على المطالبة بحقوق لا يجوز السكوت عنها، بحرية تؤخذ عنوة ولا تعطى اختياراً. ثم تصل إلى المرجة حيث السراي والمندوب السامي فيوصلن له احتجاجهن ويسمعنه بأذنيه مطالبهن.

المندوب السامي وصله نبأ المظاهرة فانتفض غاضباً."نحن نريد لهم الخير وهم يريدون بنا الشر... نأتي لهم بالحضارة والمدنية فيبعثون بنسائهم يتظاهرن ويشاغبن.... حركوا الشرطة... ابعثوا الجند، فرقوهن... لا أريد مظاهرات، لا أريد احتجاجات..."، راح المندوب السامي يصرخ بكبار ضباطه وأعوانه... فانتشر الضباط والأعوان في الحال ناشرين معهم الجند والشرطة... صفوفاً متراصة من هراوات وبنادق...

شمس في المقدمة، روح الفارس الملثم كانت قد بعثت. قوته، شجاعته، كلها كانت قد توهجت من جديد. جمراً كشف عنه الرماد، ماذا؟ عشر سنين؟ إحدى عشرة سنة مرت على آخر توهج لذلك الجمر؟ ربما، شمس على ثقة أن مائة سنة لا تستطيع إطفاء ذلك الجمر... كل من حولها من نساء شممن فيها رائحة تلك الشجاعة، لمسن روح ذلك الفارس فأسلمن لها القياد ليعلو صوتها كهدير الرعد: "يا فرنسا اطلعي برا... من سوريا الأرض الحرة، لا انتداب، لا استعمار... سورية بلد الأحرار...".

مظاهرة سلمية تقوم بها النساء، لا سكين ولا خنجر، لا بندقية ولا مدفع، وفرنسا بلد الحضارة، تحترم الرأي الآخر، تؤمن بحقوق الإنسان، بحرية التعبير... المرأة لديها في أرفع المراتب، تقبل يدها، تحني لها الرؤوس، إذن لم لا تخرج نساء دمشق؟ لم لا يطالبن بحقوقهن؟

النساء يهتفن مطمئنات أن ضيراً لن يصيبهن فالسلم ينبغي أن يقابل بالسلم.....شمس، وهي تهتف، ترى هراوات الشرطة وسياطهم، مسدساتهم وبنادقهم، لكنها لا تخاف.... هي لا تحمل سلاحاً، النساء كلهن لا يحملن سلاحاً... سلاحهن أصواتهن فقط، يرفعنها مطالبات بحق، فرنسا نفسها تعترف به، فلماذا تخاف شمس؟ كل ظنها أن الجند سيكتفون بدفع النسوة إلى الوراء أو تشكيل سد يمنع الزحف إلى المندوب السامي أو التقدم باتجاه السراي.... لكن

مرة ثانية يخيب ذلك الظن: إذ ما إن تصل النسوة إلى الهراوات حتـــى تنهـــال الهراوات على رؤوسهن. ويختلط الحابل بالنابل....

— 3 —

الشمس في مركز الدائرة، هالات حولها ومدارات، تسير عليها الكواكب وتدور الأقمار، تستمد منها الضوء، والحرارة، تأخذ الطاقة والحياة.... فماذا يحدث إن انطفأت تلك الشمس؟ ما ترى يجري للكواكب والأقمار؟.. فلك شمس كله اضطرب، مداراتها كلها تقاطعت وتصادمت، كواكبها وأقمارها تحيرت في أماكنها وارتبكت، وقد غرق الكون كله في الفوضى والظلام....

بدور أحست بذلك الظلام مذ فتحت عينيها. فليس أحب على قلبها من أن ترى وجه أمها أول ماترى تصطبح به شمساً مشرقة، تشع لها الدفء وتمنح الحنان.... طفولتها الأولى قضتها هناك في البادية حيث الحل والترحال وحيث الأم هاربة، متخفية، وبدور شاغلها الوحيد... لم يكن هناك دار ولا حبيب: عزيز يقاتل في صفوف الثورة أو مختف هنا أو هناك، والدار بيت من شعر تقوم بخدمته وضحة فتنكب شمس على فراخها الذين لم ينبت زغبهم بعد، تزقهم، تحنو عليهم وتفرش جناحيها رعاية وحماية.... لكن... الأخضر، نواف، مناف صبية، والصبية يخرجون إلى الفضاء الرحب، يلعبون، يلهون، يشتبكون مع الصبية الآخرين، ويغيبون، فيما بدور تظل مع أمها أنى ذهبت وكيفما توجهت، في حجرها، بين ذراعيها، على كتفيها، بدور دائماً مع شمس وشمس لا تستطيع فراق بدور.

حين انتقلوا إلى دمشق كانت بدور قد بلغت الخامسة... وفي أحشاء الحي العتيق، الميدان ذي الأزقة الضيقة والدور الكالحة والعليات المتلاصقة عاشت مع أمها غربة من نوع جديد... لم يكن هناك أقرباء ولا أصدقاء... الأهلون في البادية وأم العيون ودمشق غربة تامة... كل مافيها ومن فيها جديد على الأم والبنت فاشتدت العلاقة بينهما حميمية وازدادت الوشائج وثوقاً. الأب يخرج

والأخوة يتفرقون لتبقى البنت لأمها دمية و سلوة... بيدها تطعمها، بيدها تسقيها. في الصباح توقظها بنفسها، تمسد براحتها الدافئة جبينها، تلاعب وجنتيها، تعبث بشعرها، ولا يسعد البنت كصحبة الأم، فتفيض عليها دفئاً وألقاً.

أول مرة ذهبت إلى المدرسة بكت عليها الأم مر البكاء، كما بكت البنت وشهقت ... فهما ستفترقان... وللمرة الأولى تفترقان.. لكن كان يعزي البنت أنها ما إن تفتح الباب عائدة من المدرسة حتى تجد أحضان الأم مفتوحة لها تغمرها دفئاً وحناناً... وفي الصباح توقظها أشعة الحب والحنو يطلقها وجه "الشمس المشرقة" فكيف لا تشعر بمثل ذلك وهي تستيقظ فلا تجد شمسها..؟

الظلام "يصاحبه القرس" والقرس بدأ يشوبه الرعب حين جاء الأب إلى المنزل فلم يجد الأم. "أين عمتك؟" "لا أدري رجعت من السوق فلم أجدها" الصبية الصغيرة توجست شراً وهي ترى أباها يتسمر في مكانه مفاجأ مذهولاً... جواب وضحة زاد سيماه اصفراراً وشفتيه ارتعاشاً". هو إذن خائف عليها؟"... فكرت الفتاة بعجب واستغراب... الأب، في عينيها فارس الفوارس، رجل الرجال.... كيف إذن يصفر وجهه وترتعش شفتاه؟ "المدينة مقفلة والمظاهرات ملء الشوارع، مظاهرات نساء لا رجال"، قال لها مناف بعد أن خرج الأب مسرعاً، ربما يبحث عن ذرة طمأنينة... كان مناف قد خرج قبل ساعة وكانت أخباره مثيرة للرعب..... "أمي في المظاهرة والاشتباكات على قدم وساق مع الفرنساوي". فزاد الطين بلة في عين بدور وفي قلبها، حيث القرس والرعب غابة من أشواك اشتعلت فيها النيران.

ــ دعنا نخرج.. نبحث عنها، اقترحت بدور على أخيها فرد مناف شبه مرتجف.

ــ نبحث عنها.. أين؟

ــ هناك في المظاهرة... بين النساء، ردت بحماسة شديدة، لكنه هز رأسه..

ــ الجندرمة في كل مكان من الشوارع يسدون الطرق ويسوطون الناس بكرابيجهم... أنا نفسي نالني أحد كرابيجهم... قال مناف الرقيق، مرهف المشاعر، وهو يمد يده إلى ظهره يتلمس موضع السوط بأسى وقهر.

مناف، ابن الرابعة عشرة، طالب "البروفيه"، يكره العنف ولا يجد كثير وقت للتفكير بالشغب والمظاهرات... مشاغله تأخذ كل وقته... صحبه يمنعونه

حتى من التواجد في الدار فتلهو معه بدور بعض الوقت.. هو يحـب الهـدوء والسلام وحيثما يكون صخب وضجيج لا يكون. صـحيح إنـه يشـارك فـي مظاهرات المدرسة لكن مشاركة من لا يصرخ ولا يصـيح، لا يصـعد علـى الأكتاف ولا يشتبك مع الجندرمة... ومن يضمن لـه الآن ألا يشـتبك مـع الجندرمة ان خرج؟.. ومع من؟ مع أخته، اليافعة التي بدأ جسدها يتكور، أنثـى لا يعرف ما تجر عليه من ويلات...

ــ ماذا نفعل إذن؟ نقعد؟ هلم مناف!! وحاولت بدور أن تسحبه من يده.

ــ لا... لا فائدة.. قال وهو يتملص، سنكون كمن يبحث عن إبـرة فـي كومة قش... وشعرت بدور بالإحباط...مناف أكبر منها، والأكبر منـك بيـوم أعرف منك بسنة، وهو يحسب جيداً، قراراته حكيمة، كيف تخالفه؟ لكن كيـف تتحمل كسوف الشمس؟ كيف تصبر على فقدان الحرارة والضياء؟ ألا تتحير في مكانها وترتعش؟ ألا يحل على دنياها كلها الظلام؟..

الظلام الذي بدأ خفيفاً شاحباً باهتاً بدأ يزداد قتاماً وقد عادت بعض النسـوة من الحي ممن شاركن في المظاهرة ولم تعد شمس... سألتهن بدور فـازدادت خوفاً.

ــ لم أرها البتة، قالت إحداهن.

ــ رأيتها في الطليعة تهتف ثم غابت عني، قالت ثانية.

ــ لا تسألي.... لا أحد يعرف شيئاً عن أحد... ردت ثالثة.. وهي ما تزال تلهث خوفاً من الجندرمة الذين لا حقوها بهراواتهم حتى شارع الحميديـة ولـم تنج منهم إلا بشق النفس....

مع أذان العصر عاد الأخضر وهو يضحك، فخيل إليها أن أمواج الظلام والرعب والقرس كلها تتلاشى أمام ضحكته.... الأخضر أخوهـا الأكبـر ولا يمكن أن يضحك إلا لخبر مفرح سعيد..

ــ هــ..ى.. خبِّرنا... بادره مناف وقد أحس هو الآخر بزوال الخطر.... علام تضحك..؟

ــ على عواد؟

ــ مابه عواد؟ تدخلت بدور بنوع من الصدمة وقد عاد توجسها للشر.

ــ ذهب يتسوق الخضار فتسوقه الفرنساوي..

وهز مناف رأسه ضيقاً واستنكاراً:

ـ ماذا تقول؟. أخضر؟

حينذاك روى لهم الأخضر بروح دعابته نفسها كيف أغلق المحل حين سمع بالمظاهرة واتجه إلى المرجة.. لكن الزحام والشرطة والجند كل ذلك جرفه إلى سوق الهال وسوق العتيق.. هناك رأى الجمّالة الذين جاؤوا بأحمال الحنطة يحملون الخضار والفواكه وقد أناخوا جمالهم. صخب المظاهرات وأصوات الرصاص والاشتباكات جعلتهم يسرعون في تحميل جمالهم.... وحده عواد كان قد دفعه الفضول لأن يذهب فيستطلع وظل جمله بلا أحمال... حاول الأخضر الاقتراب من المظاهرة لكن النساء أنفسهن كن يمنعن أي رجل من الاقتراب... بحث عن عواد هنا، هناك، لكن عبثاً... فالإبرة داخل كومة قش. أطراف المظاهرة كانت تمتد من سوق الحميدية في الأعلى إلى سوق الهال في الأسفل، أشبه بموج البحر تتقدم كارة على الشاطئ لتنسحب فارة إلى الداخل. حاول الأخضر اختراق أمواج البحر لكنه لم يستطع... كان يبحث عن عواد ولم يكن يعلم أن أمه هناك في طليعة الأمواج كارة... فارة... هم قالوا إن عواداً ذهب يتفرج... حميته لم تسمح له أن يسمع بمظاهرة ولا يشارك فيها.... وإن لم يستطع فليتفرج عليها، وذلك أضعف الإيمان.... لكن الأخضر اضطر لأنّ يوقف البحث حين ارتد عليه الموج في أحد انحساراته جياشاً طاغياً حتى كاد يلقيه أرضاً... أدرك الأخضر أن من العبث الاستمرار... فعاد أدراجه بلا عواد... لكن ما إن وصل إلى سوق الهال حتى وجده خالياً من رفاق عواد أيضاً فالجمالة الذين رأوا الخطر داهماً، وقد لعلع صوت الرصاص قريباً منهم، أسرعوا إلى جمالهم، ينهضونها بأحمالها ويولون الأدبار....

جمل عواد وحده، كان قد ظل نائماً يجتر ويحرك عنقه الطويل ذات اليمين وذات الشمال... ووجد الأخضر نفسه في مأزق... إن ترك الجمل ربما خسره عواد إلى الأبد، وإن أخذه تورط في مأكله ومبيته... كان سوق الهال قد أقفل وكانت المحال كلها قد أغلقت وأصحابها أطلقوا سيقانهم للريح، فمن يعلم، حين ينفجر البركان، أين تقع حممه؟..

حائراً، متردداً، ظل الأخضر هنيهة يقلب الأمر... في نفسه بعض الأمل أن يعود عواد، وفي قلبه الكثير من الخوف أن يصله بعض من شواظ الحمم...

أخيراً حسم الأمر.. صاح بالجمل "هـ... ي... تج... هـ.. هـ... ي... تج"، كما سمعهم أكثر من مرة يصيحون بجمالهم.. فنهض الجمل دون أن يوقف

اجترارِه وحركة رأسه القلقة المضطربة، أمسك الأخضر بزمامه ثم أسرع بــه مبتعداً عن فوهة البركان فيما دوي انفجاراته وصخب حممه ينــذران بالويــل والثبور...

طوال الطريق إلى المستودع ظل الأخضر يضحك... هو يصــبح جمــالاً والجمال يصبح متظاهراً يعارك الفرنساوي ويقاتله... الأخضر علــى ثقــة أن عواداً كان قد شارك في المظاهرة، وإلا أين هذا الغياب؟ بل ربما تفاقم الأمــر سوءاً ووقع في أيدي الفرنساوي...، "إذن... ذهبت في داهية يا عــواد، "كــان الأخضر لا يفتأ يفكر ويضحك.."، و"الجمل.... ماذا تفعل به يا أخضــر؟"... كان يسأل نفسه ويضحك أيضاً... هي ورطة... أن ترى جملاً لا تعرف كيف ترعاه، ورطة مابعدها ورطة.. لكن ما عساه يفعل، وقد وجد الجمل وحيــداً، لا جمل معه ولا جمال!!...

هز مناف رأسه وقد سمع قصة أخيه، لكن الأخضر اهتز كله وقــد ســمع بغياب الأم...

ــ أمي في المظاهرة؟ خرج وهو يدرك جيداً ما معنى اشتباك أمــه مــع الفرنسيين.... ثم جاء الوالد مطرق الرأس متهدل المنكبين، وجهه غمامة مــن ظلام..

ــ ماذا هناك؟

ــ ماذا بك؟

ــ ما أخبار أمي؟

أسرع إليه الأولاد بالأسئلة وقد صدمهم جميعاً أن ينهد ذلك الطود الشــامخ فيحني هامة لم تنحنِ من قبل.

ــ أمكم في السجن!! دون أن يرفع رأسه، غمغمــت شــفتاه الراعشــتان، وكأنما تكرهان نطق تلك الأحرف..

كانت الشمس قد غابت وكانت أصوات المؤذنين ترتفع من المآذن القريبــة مختلطة بالنبأ ــ القنبلة الذي فغرت له أفواه وجحظت عيون... وككــل نبــأ ــ قنبلة... لا يصدقه الناس في البدء فيلجؤون إلى تكذيبه أملاً منهم أو خوفاً، وعاد مناف يسأل:

ــ أبي!! ماذا تقول؟

ــ أقول... أمكم اشتبكت مع الفرنساوي... جرحت واعتقلت. النبأ الثقيــل

صار قنبلتين. وفغر الفم صار فغرين وجحوظ العينين صار جحوظين.

ــ كيف؟

ــ متى؟

ــ من قال ذلك؟ راحت الأسئلة تترامى رشاً ودراكاً، فالأبنــاء يفجعــون بأعز ماالديهم... يصابون في صميم القلب، جرحاً دامياً شديد الإيلام...

روى لهم عزيز ماسمعه عن حماسة الأم وهي تهتف، عن شجاعتها، وهي تتقدم الصفوف، وكانوا في كل ذلك مزدهين تملأهم مشاعر الفخار والعزة، لكن ما إن بدأ يصف لهم كيف نزلت الهراوات على كتفي شمس، ظهرها، صدرها، رأسها، حتى زعقت بدور وقد تفتت قلبها إلى دموع ملء العينين ونحيب مــلء الشفتين.. بدور يمكنها أن تتصور كل شيء إلا أن تضرب أمها، ربــة العــزة والدلال، وماذا؟ تضرب إلى أن تسقط أرضاً فاقدة الوعي؟

حين فتحت شمس عينيها من جديد، خيل إليها أن نور الشمس قد تلاشــى وأن السماء قد استبدلت بزرقتها السواد... طرفت بأجفانها المرة تلو الأخــرى، لا تكاد تصدق: "ماذا حل؟ كيف تبدل كل شيء؟.." تلمست وجههــا، صــدرها، رجليها... كل شيء مايزال في مكانه... تلمست الأرض تحتها.... ليس هنــاك حجارة رصيف....بل إسمنت مصبوب... مدت يدها أبعد.... ثمــة جــدار.... الجدار رطب بارد.... رائحة عفنة... حدقت النظر جيــداً، موســعة حــدقتيها متفرسة في الظلمة. ليس ثمة سماء... لا زرقاء ولا سوداء. بل ســقف عفــن رطب هو الآخر... وكوة هناك... كوة صغيرة مشبكة بقضبان يهــرب منهــا بعض الضوء... "أنا في زنزانة"، وللتو عادت الذاكرة ترمح هائجة مضطربة، يختلط بعضها بالبعض الآخر..."لكن كيف جئت؟ من حملني إلى هنا؟".. وخيل إليها أن طيفاً من ذكرى يعبر ذهنها حاملاً معه صورة غامضة ليد قوية من هنا ويد قوية من هناك تمسكان بكلتا يديها وتجرانها علــى حجــارة الرصــيف... تلمست ثيابها... فأدهشتها مزق هنا ومزق هناك... ثقوب وأوساخ في ملاءتها السوداء... غطاء رأسها ذهب مع الريح"... لابد أن الجند كانوا بمنتهى الرقــة واللطف وهم يجرونني على الأرض". وفجأة تملكها شعور بالرعب "ثمة شــيء غير المزق والأوساخ... سائل!! هذا سائل متجمــد"... وتفحصــته بــأطراف أناملها، ثم براحة كفها.. السائل المتجمد، يمتد من أعلى الرأس، حيث خصلات الشعر قد تحولت إلى كتلة من خثارة... منحدراً مع العنــق.. صــدر المــلاءة فالذراعين فالكمين... "دم!!"... كان من الواضــح أن ثيابهــا كلهــا مضــرجة

بالدم.... وكان الدم قد تخثر في كل مكان ماعدا أعلى الرأس.... فهو مـــايزال دافئاً لزجاً هناك، وكأنه ماء نبعة صغيرة تنز من صخر...

ـ اي.. أنتم يا من هناك!!... بدأت تصيح وهي تنهض عن الإســمنت... ظهرها يؤلمها، يداها تؤلمانها... ووجع في عنقها، وجع في بطنها، رجليهـــا... جسدها كله يوجعها... "ماذا فعلتم بي يا أبناء السفلة!؟... فشمس لم تكن تعلم أن وقع الهراوات على جسدها وجرها على الرصيف الطويل إلى أن وصلوا بهـــا إلى سجن القلعة لم يكونا ليذهبا هباء...

بصعوبة وقفت على رجليها، بصعوبة خطت باتجاه الباب....، "أجل، هـــو ذا الباب... الكوة في الأعلى... وضوء مصباح كهربائي يأتي مـــن هنـــاك".. تلمست الحائط إلى جانبها... الباب في المنتصف حديدي ثقيل... نقـــرت عليـــه بظاهر أصابعها فرن...."الأوغاد يسجنون النساء!!؟"... وارتعش كـــل مـــافي جسدها "لم يعودوا يرعون حرمة ولا يخفرون ذمة!!"، مع ذلك كان عليهـــا أن تعلم أين هي... أن تتواصل مع بشر... الزنزانة المحكمة الإغـــلاق، المعتمـــة الآفاق، الرطبة الجدران توشك أن تقطع عليها الأنفاس... عنقها بـــين أصـــابع جبارة تضغط... تضغط... "أنت أيها الحارس.. افتح أيها الحارس..."، عـــادت تصيح وهي تدق الباب الحديدي وتوجه صياحها نحو الكوة لكن الـــدار قفـــراء نفراء... لا نأمة ولا حركة... "أهي زنزانة في صحراء؟"... وتحولت الرعشة في داخلها إلى رجفة فرعدة... الدم الدافئ اللزج يـــرفض أن يتخثـــر، العتمـــة والبرد من حولها قاسيان، والوحدة وحش فاتك يفتح فكيه هاجماً عليهـــا.... "لا بد من أحد... لا يمكن أن أكون في صحراء".... ومن جديد راحـــت تصـــرخ وقد تملكها هاجس واحد: أن ترى بشراً.... "الجدي الذي يبعق ترضعه أمـــه".. هكذا يقول المثل لكن بعاق شمس لم يأتها بثدي أم يرضعها بل بسطل ماء بارد اندلق عليها على حين غرة، بعد أن فتح الباب على حين غرة أيضاً..

هول المفاجأة وشدة الصدمة أوقعاها أرضاً وهي تشهق محاولـــة التقـــاط أنفاسها من جديد... الماء وسخ، عفن الرائحة، لا تدري من أين جاء بـــه ذلـــك الحارس الرقيق المشاعر المرهف الأحاسيس...

على ضوء المصباح كانت قد لمحته، جندياً جهم الوجـــه قـــاتم الملابـــس، ضخم الجثة ظهر لحظة واحدة من الباب، سكب عليها سطل الماء البارد بدفقـــة هائلة القوة طرحتها أرضاً ثم عاد وأغلقه بصفقة هادرة كالرعد...

ـ يا أخ، أيها الحارس الطيب!! عادت تنادي بنبرة من لطف ومسحة مـــن

رجاء، آملة ألا تثير حفيظته، فيفتح لها الباب دون أن يفاجئها بسطل آخر من الماء..

مرتين، ثلاثاً، عشر مرات كررت شمس النداء، لكن: "لا حياة لمن تنادي"، فكرت أن تعاود الدق على الباب، أن ترفع صوتها بالنداء بل أن تصرخ وتهدد لكن سطل الماء وقف أمام عينيها، مهدداً متوعداً فتراجعت. من جديد أبت اللزوجة الدافئة في أعلى رأسها إلا أن تدفعها قدماً: أرجوك... أيها الحارس الطيب... يا أخ... أنا بحاجة للمساعدة... أسعفوني... دمائي تنزف...

ـ اخرسي، أو فتحت عليك فوهة الجحيم!! جاءها صوت الحارس جهم الوجه ضخم الجثة من وراء الباب فلم تجد أمامها سوى أن تخرس..."سطل الماء وحده مرعب فكيف بفوهة الجحيم؟ لا... لا... شمس... أيتها الحرة الأبية تماسكي.. لا تخبطي، طائر الحر إن وقع لا يخبط".. وعادت إلى ذهنها ذكريات صيد الحر... "شلت يداك يا شمس! كيف تذهبين مع شبان القبيلة، تتسلين باصطياد ذلك الطائر الجميل... تلقين له الحمامة ـ الطعم وعلى ظهرها شبكة إن أمسكت بالحر علقته فلم يستطع خلاصاً... ها أنت الآن حرة تقع في الشباك، وتهاوت على الأرض، حزينة، يفتت قلبها الأسى. "الحرية!! كيف نستبيح لأنفسنا استلاب حرية الآخرين؟... كيف نضعهم في القيود والأقفاص؟".. وجاشت نفسها أسى: "ظلم.. ظلام... ظلم... ظلام... العالم كله ظلم وظلام"... متهاوية جلست على أرض الزنزانة الرطبة تكاد الدموع تفر من عينيها. مرق في خيالها طيف نازك، وجه عزيز، عينا بدور فانفرجت بعض من أساريرها: "لا، ثمة نور، ثمة أمل، ثمة حب".. وبدا لها وهي تتفحص أرض الزنزانة، وجدارها القريب بأنها بأمس الحاجة إلى ذلك الأمل، إلى ذلك الحب، إلى ذلك النور. كانت الرعشة قد بدأت تسري في أوصالها... فماء السطل بلل ثيابها ورطوبة الزنزانة زادت البلل سوءاً، فيما رائحة العفن جعلت روحها أضيق من خرم الإبرة... أرادت أن توسع ذلك الخرم، أن تتملص من تلك العفونة، ذلك البلل، لكن أين تذهب؟ الزنزانة متران بمتر.. يجب أن تكون خنفساء كي تتحرك بحرية.. البرد في أوصالها يشتد... يصل إلى أسنانها فتصطك: "أهو أشد من ذلك القرس الذي ألم ببدور؟...

شمس لا تعلم أن ابنتها تشعر مثلها بالبرد وأن أوصالها ترتعش وأسنانها تصطك... هي تعلم فقط أنه لا يوجد في هذه الصحراء المقفرة سواها.... حدودها ضيقة... متران بمتر. البرد قارس وفي شعرها مايزال سائل لزج

يسيل... "لا تعرف خيره حتى تجرب غيره"... لمع في ذهنها المثـل الشـعبي وهي تتكوم على نفسها مقشعرة البدن، مرتجفة الأوصال،... تـذكرت الغرفـة الواسعة الشاسعة حسنة الأثاث، التي أرسلها إليها الكابيتـان جيـرار... كـان يريدها أن تتهيأ له، بل ربما تتزين وتتبرج حتى إذا ما عاد إليهـا آخـر الليـل وجدها ينبوع لذائذ دافئة ومتع شهية... الحارس يومذاك كان طوع بنانها، جـاء لها بالطعام، بالشراب، بل لو أرادت النبيذ والويسكي لجاء بهما. "أين هو مـن هذا الحارس الجلف الوقح؟"، وفي قلب الظلمة رأت شمس وجه ذلك الحـارس وهو يدخل غرفتها على وجل. لعله كان قد تلقى تعليمات محددة.. لعلـه كـان يعرف الرحمة.... يشفق على مصير امرأة لا يرضاه لأخته أو أمه. وارتعشت شمس من جديد... وهي تستعيد في ذهنها صورة الكابيتان جيرار يدخل غرفتها منتفخ الصدر منتبج الأوداج، طاووساً في عز زهوه. لكن هي الأخرى كانت في عز قوتها وحميتها... الخنجر في طيات ثوبها كان يمنحها شعوراً بالقوة ولا أعظم.... الفارس الملثم لم يكن بعد قد اكتهل أو شاخ... وكان الإنذار وكانـت الطعنة القاتلة في الصدر... "لكن.. الآن من أقتل؟ من أواجه؟ وبماذا أواجـه؟" هي عزلاء... لم يخطر ببالها أن تحمـل خنجـراً معهـا... "آه".. لمـاذا لـم تحمليه؟"... شرعت تقرع نفسها، فلو كان معها خنجر لعاد إليها ذلك الشـعور بالقوة، لكان باستطاعتها الدفاع عن نفسها... بل ربما قتلت صاحب الهراوة ذاك قبل أن يرميها أرضاً... لكن نازك، القيادة النسائية كلها كانـت مصـممة أن تخرج المظاهرة سلمية، دينها اللاعنف دين غاندي الهنـد، وسـلاحها الكلمـة واللسان، كما كان يوصي غاندي الهند.

يبرد الجسد فينكمش على نفسه ويتقلص.. كأنما بتقلصه ذاك تضيق مساحة حرارته.، ويدخل بعضه في بعض كأنه بذلك الدخول يمنع وصول البـرد إلـى اللب فيه. أوصاله ترتجف وأسنانه تصطك لكأنه بتلك الحركة يولد حرارة مـن جديد تصد البرد عنه وتعيد له التوازن... شمس فـي زاويتهـا تمـارس تلـك الطقوس كلها... البلل في ثيابها كلها، والقرس في عظامها، فماذا تملك سوى أن ترتجف أوصالاً وتصطك أسناناً؟ أمام عينيها يرتسم طيف... ذراعاه القويتـان تضمانها، صدره الدافئ يحتويها، موجـة مـن دفء تغمرهـا" آه!! عزيـز!! حبيبي!! كم أنا بحاجة لذراعيك الآن!! كم أنا بحاجة لحضـنك!! لـذلك الحـب الإلهي يشع علي بهجة ودفئاً!! آه!! حبيبي!! أين أنت الآن؟ ماذا حل بك؟ كـم أنت مشغول البال، قلق حزين علي!! الأولاد... حبيبي.... أولادنا!! مـايفعلون

الآن؟ كم يعانون!؟".. واندفعت في عروقها دفقة من دم تلتها دفقة.... الدم الحار لم يعد يخرج إلى السطح من رأسها، بل يسري عميقاً في عروقها، مالئاً الشرايين، الأوردة، الشعيرات. ثواني، دقائق ثم شعرت أن كل شيء فيها يتمدد، ينبسط، ان الدفء يملأ جنباتها فيفك انقباضها ويفرد جسدها من تكومه لتنبعث همتها من جديد "لا...... لن أكون الضعيفة المستكينة، لن أذعن أو أستسلم... سأقاوم حتى النهاية ... سأصمد حتى الرمق الأخير... من أجلكم... من أجلك، حبيبي، من أجلك، وطني!!"

لكن فمها كهف من رمل صحراء لم تعرف مطراً ولا ندى... لسانها، حلقها، كل مافي فمها عوسج وقتاد، كيفما حركته الريح ترك وخزاً وإيلاماً.... وتساءلت، "منذ متى لم أشرب؟" على بركة الماء، مع قهوة الصباح كانت قد رشفت بضع رشفات من ماء عين الفيجة الزلال.... ثم جاءت الأحداث تترى... العطش يفح من كل خلية من خلاياها أفعى تقدح عيناها شرراً.... ثمة شيء آخر أيضاً... جوفها ذئاب تتناهش، عواؤها في أذنيها لكأنها في شتاء تكدست ثلوجه فقطعت عليها الرزق وسدت سبل الطعام..."، منذ متى لم آكل أيضاً؟".. وتذكرت أنها لم تأكل طوال ذلك اليوم. "الأوغاد، حتى الماء والطعام يضنون بهما علي.... يسجنون الناس ويميتونهم عطشاً وجوعاً؟" دفقة من حماس جعلتها تهم بالنهوض لكن جسمها خذلها... كانت حتى عظامها تئن ألماً وتشكو وجعاً، مع ذلك كان عليها أن تنهض، فالعطش والجوع لا يسمحان لها بالقعود... على أربع زحفت حتى الباب... هناك تمسكت بضلع حديدي من أضلاعه، ثم نهضت "من حقي أن آكل واشرب فلماذا لا يعطونني بعض حقي؟ "دفعها السؤال قدماً على طريق الشجاعة والاقدام لكن صورة الحارس الفظ الذي ينفض الناس من حوله رعباً وهلعاً جعلتها تنكمش من جديد مترددة ساحبة قبضة يدها بعد أن كادت تقرع الباب".. ماذا لو رماني بسطل ماء آخر؟" هي بين الإقدام والإحجام ريشة في مهب ريح تلف بها ذات اليمين وذات الشمال.........الخوف شديد والحاجة للطعام والشراب شديدة.... والصراع بينهما أشد ... تُقدِم أم تحجم؟ تلبي حاجة الغريزة أم تستسلم للخوف؟ زمناً لا تدري مداه ظلت أمام الباب... ثمة حركة في الخارج... ربما الحارس نفسه يروح ويجيء، عيناه تقدحان شرراً، ووجهه الجهم غليظ الملامح قبالة بابها يتوعدها شراً.......... "يجب أن أعيش...... من أجلهم يجب أن أعيش...... أن أصمد...... أن أقاوم..... وكيف أقاوم بغير طعام أو شراب؟ كيف أتحمل

هذا الضغط الهائل أسفل بطني؟" فقد داهمتها فجأة حاجة لا مجال معها لإقدام أو إحجام، خوف أو تردد. ودون أن تشعر سمعت شمس يدها تطرق الباب. لم تكن طرقات قوية ولا صاخبة، بل طرقات خفيفة كأنما هي بقية من خوف أو تردد. لكن، يالدهشتها، ويد تسارع إلى المغلاق تفتحه!! ثم ينفــرج البــاب الحديــدي المصمت عن الكوة ذات القضبان. وجه أبيض البشرة حليق الــذقن والشــاربين أطل من الكوة..

ــ أتريدين شيئاً؟ ألك حاجة؟

وفوجئت شمس بالنبرة اللطيفة، والسؤال البشري يدغدغ أذنيهــا...". إذن مايزال ثمة بشر.... ليسوا جميعاً وحوشاً فاتكة"... ونظرت إلى الوجه الأبيض البشرة، حليق الذقن والشاربين يحدق إليها بعينين ســوداوين ملؤهمــا البــراءة والطيبة..

ــ أنا بحاجة إلى كل شيء.. وبحركة لا إراديــة انطــوت علــى نفســها متشنجة عاصرة، رد فعل على تموجات أسفل البطن... فحاجتها للإفراغ كانت قد طغت على كل شيء بعد أن دهمتها على حين غرة...

فتح الحارس الباب وقد رأى الحركة فوجدت شمس نفسها في ممر طويــل ضيق يفصل بين مجموعة من أبواب حديدية إلى اليمين وأبواب حديديــة إلــى اليسار... توقفت متحيرة متلفتة يمنة ويسرة، فأدرك الحارس أنهــا لا تعــرف الطريق إلى المرحاض... بإشارة من يده وجهها ثــم لحــق بهــا وهــي تغــذ الخطى... حين اقتربت من طرف الممر كانت رائحة النشادر وأبخــرة الــتعفن كافية لإرشادها إلى بقية الطريق... نظرت وراءها باستحياء، ثم أسرعت تدخل غابة النشادر والأبخرة تفرغ فيها أحمالاً أثقل من الجبال...

في طريق العودة وجدت نفسها خفيفة نشطة، وقد ارتفعت معنوياتهــا مــن جديد:

ــ أنتم هنا ما تطعمون ضيوفكم؟ ما تسقونهم؟...

سألت بنوع من الدعابة وبلهجة بدوية سرعان ما فوجئت هي نفسها بها، إذ كانت قد تخلت عن استخدامها خارج أسرتها عامدة متعمدة مذ دخلت دمشق.

ــ أنت بدوية؟ هامساً، متلفتاً يمنة ويسرة رد على سؤالها بسؤال ربما كان دافعه الدهشة والفضول، هو الذي فوجئ بها: بدوية في زنزانة إثــر مظــاهرة نسائية في دمشق!!

ــ وابنة شيخ!! أجابته بنبرته نفسها، ربما يشجعها على البوح وجه الحارس السمح وعيناه السوداوان الطيبتان...

ــ حيا الله الشيخة بنت الشيخ... رد الحارس هذه المرة بلهجة بدوية مماثلة...... وكي يقطع الطريق على التساؤل الحاد الذي لمع في عينيها، تابع: أنا أيضاً من عرب بني خالد .... من لبنان.

ــ وما الذي جاء بك إلى هنا؟

ــ إي... هذه قصة أحكي لك إياها بعد.... قولي الحين تريدين تاكلين؟ تشربين؟ ...

ــ أموت جوعاً وعطشاً... منذ الأمس لم أذق طعاماً ولا شراباً... أرجوك..... أنجدني...

وأسرع الحارس ينجدها بعد أن أنار لها مصباح الزنزانة الكهربائي وأغلق الباب على عجل... "لك الله أيتها الكهرباء!! تبددين الظلمة كالشمس، تؤنسين كالحبيب، تبعدين الأشباح والرعب كالأهل، فما أعظم من اكتشفك!!" كانت شمس مذ جاءت دمشق، ورأتهم يستبدلون بمصابيح الكاز مصابيح الكهرباء، معجبة بذلك الإنجاز. لم يكن العالم من قبل قد عرف شيئاً يدعى الكهرباء... فجأة بدأ الناس يتكلمون عن تيار يسري كتيار الهواء أو تيار الماء لكن دون أن تراه عين.. عبر أسلاك من نحاس يسري، يصل إلى البيوت فينيرها، إلى الآلات فيحركها.... لم تعد المرأة بحاجة إلى مكواة الفحم......ثمة مكواة تعمل بالكهرباء، مذياع يتلقى الأنباء من العالم بواسطة الكهرباء، بل حافلات في الطرق تسير على الكهرباء"... الله، ما أروعك من اختراع أيتها الكهرباء!!"...

ــ آسف!! ليس لدي سوى هذه اللبنة وحبات الزيتون!! بادرها الحارس الذي يمت لبني خالد وهو يضع أمامها صينية صغيرة عليها صحنان وزجاجة ماء سرعان ما وجدت يدها تمتد إليها، تضعها على شفتيها ثم تجرع وتجرع حتى آخر قطرة...

ــ شكراً لك!! قالت وهي تعيد له الزجاجة، في عينيها أشد العرفان...

ــ عطشى إلى هذا الحد؟ تساءل وهو لا يصدق عينيه ثم أسرع من جديد يملأ لها الزجاجة. حين عاد كانت قد أتت على صحني الزيتون واللبنة ورغيفي الخبز.... كانت الذئاب التي تعوي في داخلها قد التهمت كل شيء نظرت إليه وهو يحدق إلى الصينية الفارغة فاستحيت...

ـ لا تؤاخذني... الجوع كافر...

ـ بل أنت لا تؤاخذيني... ما لدي سوى ذلك العشاء البسـيط... ورفـاقي كلهم نيام...

ـ لا... الحمد لله... شبعت... وألف شكر لك...

ـ لكن ماهذا الذي على شعرك وثيابك؟ قال الحارس وهو يتأمل خثـرات الدم على شعرها وبقعه على ثيابها... حينذاك فقط تذكرت الدم الذي كـان قـد شغلها من قبل فمدت يدها إلى رأسها.

ـ الحمد لله قد توقف!!.. قالت بفرح طاغ وهي تتلمس الخثرات المتجمـدة على شعرها وقد صارت باردة...

ـ لكن... لابد من دواء لك... من ضماد... ألم يسعفوك؟..

ـ أسعفوني!؟ من؟ أصحابك... أبناء الحضارة والمدنية؟

وأسرع يغلق الباب خلفه دون أن يرد على أسئلتها الساخرة...

شاش،كحول، سائل أحمر... كان يحمل معه وهو يفـتح البـاب ويسـرع إليها...

ـ لابد من تطهير الجرح حتى لا يلتهب، قال وهو يفتح زجاجة المطهـر فتغزو رائحته خيشوميها..

ـ كثر الله خيرك، ردت وهي تستجيب لإشارته، فتحني رأسها ليبدأ غسل الجرح... وخزات إبر اخترقت أعلى جمجمتها هابطة إلى اللب من دماغهـا.. كزت على شفتها كي تكتم صرخة ألم أحست أنها على وشك الإفلات..

ـ يؤلمك!؟.. سألها وقد أحس بانكماشها على نفسها وتشنجها..

ـ كثيراً!!..

ـ لم لم تصرخي إذن؟

وعادت إلى ذاكرة شمس ذكرى مخاضها الأول... الطلق الذي كان يمزق أحشاءها هناك كان يفجر الدموع في عينيها ويرسـل الصـرخات حـادة إلـى شفتيها، لكنها كانت تكتمها كتم عزيز مقتدر... تطبق فكيها الواحد على الآخـر فلا تفلت صرخة، تكز على شفتيها حتى تسيل منهما الدماء... أظافرها كانـت تنغرس في أذرع من حولها من نساء... تضغط، تشد، تتألم، تتوجع، ولا تطلق صرخة. كانت تحسب أنه لا يليق بفارس ملثم مثلها أن يصـرخ... الصـراخ

ضعف وعجز فلماذا تصرخ؟.. لكن ما إن قالت لها القابلة "اصرخي، صيحي".. وأطلقت لحنجرتها العنان، حتى شعرت بأصابعها تسترخي وتوترها يزول..."، فلماذا لا أفعل مثل ذلك الآن؟"...

الخثرات المتجمدة على شعرها والجرح تحته لم يدعاها ترد على السؤال، إذ ما إن وصلت يد الحارس إلى هناك وتقشرت الخثرة السفلى حتى مزقت رأسها موجة ألم أكثر حدة من أن تستطيع كتمها...

ـ آخ!!... انطلقت صرختها، فارتعشت يد الحارس بالقطن والمطهر...

ـ لحظة... لحظة واحدة... الجرح كبير وينبغي تنظيفه...

مع التنظيف، تتابعت الصرخات، وتعالت الآهات، لكن ما إن وضع المطهر حتى أطلقت شمس صيحة توجع شديد، كتلك التي أطلقتها والأخضر يشق طريقه إلى الخارج يوم ولادتها تلك.

وضع الحارس سائلاً أحمر ثم مسحوقاً أبيض أحست معه للتو بأنفاسها تعود إليها بعد أن كانت قد انسحبت منها حتى الشفتين... الشعور نفسه تتذكره حين أكمل الأخضر خروجه تاركاً إياها بلا ألم كأن لم يكن هناك شيء... "يا الله!!.. كيف يأتي الفرج بعد الشدة؟ الخلاص بعد الضيق!!" ثم تبسمت وهي تنظر إلى الحارس الطيب يلف حول رأسها برعاية الأخ وحنانه شاشاً أبيض نظيفاً تصورت معه نفسها شيخاً يلفون حول رأسه لأول مرة عمامة المشيخة البيضاء...

ـ سلمت يداك!! قالت وهو ينهي لف العمامة، لا أدري ما كان سيحل بي لولاك؟

ـ الخير...الخير... قال وهو يتعجل الخروج، كأنما خاف فجأة من شيء.... أتريدين شيئاً الآن؟

ـ سلامتك.. أيها الخالدي الطيب؟

على عجل أغلق الباب وعلى عجل ابتعد... "صحيح، لا تخلو الدنيا، وإن خلت خربت....". لكن سلسلة تفكيرها توقفت وقد قطعها صوت يقول شيئاً ثم صوت الحارس يرد عليه..."، لابد أن نوبته انتهت وهذا هو الحارس البديل...".

في الحال عادت إلى ذهنها صورة ذلك الحارس الفظ وسطل الماء البارد: "لا... لا... لا تدعيه يشعر بوجودك.... نامي شمس"....

كان فراشها بطانية مهترئة وسخة، ولحافها بطانية أخرى أشد اهتراء ووسخاً، مع ذلك شعرت أن النوم سيكون راحتها الوحيدة. كانت قد قضت حاجتها الغريزية للإفراغ، أطفأت ظمأها، أسكتت جوعها، فيما بدأ الجرح يرقد بسلام وهدوء تحت مسحوقه وشاشه... فلم تشعر شمس إلا وهي تستغرق في سبات عميق.... لكن أنى لعزيز أن يستغرق في سبات عميق أو يرقد له جفن؟ كان كالسمكة في البحر يتلوى، يذهب، يجيء، فالفراش شوك موجع لا يمكن لجنبه أن يلمسه... الأخضر ومناف ناما.... لكن عينه هو لم تنم.... بدور تنام بعض الحين ثم ينطلق صراخها فجأة... كابوس مرعب يمسك بخناقها فيسرع إليها يهدئها وينيمها من جديد.. مسكينة بدور لم يرقأ لها جفن طوال النهار... كانت تنشج وتنشج حتى لم يظل في صدرها أنفاس، ولا في عينيها عبرات... ثم ما إن رقدت حتى بدأت تنتابها الكوابيس: "يما... يما".... أكثر من مرة انتفضت من رقادها صارخة، وفي كل مرة كانت تروي له كيف ترى أمها بين مخالب ذئاب تمزق ثيابها، وتهشم وجهها الجميل.... وجه الشمس المشرقة...

ـ هو ذا عينه ما يعذبني، قال لها وقدعادت إلى ذاكرته صورة سوداء قاتمة: سجن حماة... صنوف التعذيب التي لقيها هناك، الكابورال، السرجان، الأجضان، الكابيتان، والحقد الذي صبوه جميعاً على رأسه."أتراهم يصبون على رأسها مثل ذلك الحقد؟ أيضعونها في الدولاب الآن؟ أيشبحونها من يديها ورجليها؟ أيعلقونها بالسقف ورأسها مقلوب إلى الأسفل؟ أيعرونها من ثيابها؟ أيجلدونها بالسياط؟ أيغتصبونها؟".. أسئلة كثيرة كانت تحرقه بشواظها وهو لا يملك لها جواباً. جبال من الهم تحط على كتفيه، براكين من القهر تعتمل في صدره فماذا يفعل؟ أسد يرى لبؤته في قفص... أيعض القضبان بنواجذه؟ أيمزقها بمخالبه؟ عزيز يعلم أنه لا جدوى والقضبان حديد صلب لا تؤثر فيه نواجذ ولا مخالب.

كان الأمر كله قد فاجأه، هو الذي تحدث مع البطحيش عن الذهاب إلى فلسطين وتحدث مع صبري عن المشاركة في الثورة. لم يكن يتوقع أن يقف في طريقه ذلك الطارئ: مظاهرة تقوم بها النساء!!! شرك تقع في حباله شمس!!!! لا، ليس شمساً فحسب... بل سبع وعشرون امرأة... حركة عزيز هنا، هناك، سؤاله هذا، ذاك، بحثه، استقصاؤه كله أدى إلى نتيجة واحدة: النساء السبع والعشرون باقيات في السجن والفرنساوي لن يرحمهن...

"يوم الكابيتان جيرار خلصت شمس نفسها، لكن كيف نخلصها الآن؟" ظل

عزيز طوال الليل يتساءل، هو الذي يعلم أن الأمر أخطر بكثير هذه المـرة... في الماضي كان الكابيتان معتدياً اعتداءً شخصياً لا قـانون وراءه ولا نظـام.. اليوم، شمس هي المعتدية، هي المخالفة للقانون والنظام... تهاجم الدولة؟ تطالب بخروج فرنسا من البلاد، وعصبة الأمم نفسها انتدبتها على البلاد؟... "لا... لا القضية أشد خطورة الآن"..

مع ذلك، لم تذر الغزالة قرنها في الأفق الشرقي حتى كان عزيز ينطلـق ساعياً في مناكبها من جديد...

صبري يعاني القهر ذاته، الصدمة والإحباط ذاتهما، ولا يستطيع أن يتمالك نفسه فيسب ويشتم..

ــ الكلاب... الوحوش يعتقلون نساءنا؟.. يهتكون أعراضنا؟..

ويشعر عزيز أن قلبه بين جنبيه يعتصر... يتفتت دون أن يستطيع شتماً أو سباً.. كلاماً أو صراخاً... صامتاً يريد أن يتحرك، خفية يريد أن يعمل.. علـه يخلص شمسه من براثن الذئاب...

ــ وما جدوى الشتم والسب؟ سأل الرجل المفتت القلب وهو يزفر..

ــ صحيح... بيدك حق... الجدوى للعمل... للحركة..

ــ لكن: أين؟ كيف؟ من نرى؟ من نكلم؟ سأل عزيز رشاً..

ــ شكري بك، أجاب صبري بسرعة واقتضاب، شأنه شأن أيـام زمـان، يوزباشياً يقود فصيل الطليعة في الجيش العربي ويتقدم لتحرير دمشق.........

مضى الصديقان إلى شكري بيك، لكن دون شكري بيك خرط القتـاد.... دوريات الجندرمة في كل مكان، الجند بحرابهم المشرعة يعترضون كل عابر سبيل... في الساحات والميادين مصفحات ودبابات توجه مدافعها إلـى البشـر كلهم....

ــ ماذا هناك؟ لم كل هذه التعزيزات؟

سأل عزيز، لكن اليوزباشي السابق لم يكن بحاجـة لإجابتـه... الشـرر المتطاير من عيون الجند وهالات الرعب المنداحـة مـن جنـازير الـدبابات ورشاشات المصفحات كلها كانت تجيبه وكلها جعلته يقود مرؤوسه السابق بعيداً عن الجندرمة والجند.. كان يريد الوصول إلى شكري بيك، فاتخذ إليـه أكثـر الأزقة ضيقاً وأكثرها تعرجاً وطولاً.... لكن حتـى شـكري بيـك لـم يكـن موجوداً.... بل لا أحد في منزله يرد على قرع الباب أو رنات الجرس....

ـ هل اعتقلوه أيضاً؟ عاد عزيز يسأل وهو أكثر خوفاً وحيرة من قبل.

ـ من يدري؟ رد صبري وهو يرى في الطرف الثاني للشارع مصفحة تصوب رشاشاتها نحو البيت الذي قصداه. لنسرع، لنسرع، تابع صبري، وقد أدرك أن ثمة خطراً يتهددهما.... نسيب بيك، فارس بيك، جميل بيك، كلهم قصدهم الصديقان لكن دائماً لا أحد.... فقط عند جميل بك وجدوا جنائنياً عجوزاً يعمل في حديقة المنزل... وبخوف وحذر أسر لهما:

ـ قد تجدانه في دوما...

ولمعت في ذهن اليوزباشي فكرة.

ـ لابد أنهم جميعاً مختفون...

ـ مختفون؟. أين؟..

ـ إن كان جميل بك في دوما... فنسيب بك قد يكون في مزرعة في الغوطة الغربية وشكري بك في بالا في الغوطة الشرقية...

ـ لنذهب إلى بالا...

ـ نذهب لكن بعد أن نتأكد...

وبدا لعزيز أن اليوزباشي العتيق مازال يحسب جيداً.... فمن يدري؟ قد يتحملان مشقة الذهاب إلى بالا دون أن يجدا شكري بك هناك...

ـ أنت على حق.... ينبغي التأكد...

ولكي يتأكد صبري، كان عليه أن يتصل ببعض معارفه وأصحابه، ولم يكن ثمة حاجة لوجود عزيز ...

ـ اسبقني إلى المستودع.... ألحق بك...

وسبقه عزيز إلى المستودع، فتح الباب الخارجي للساحة ففوجئ... كان جمل عواد باركاً على الأرض، ممدداً عنقه على التراب، وكأنه يستريح من عناء صيف شاق طويل...

ـ عواد!! أجل!! صاحبك أيضاً في السجن، تمتم للجمل الذي حرك رأسه رافعاً إياه ما إن رأى القادم الجديد، بعدئذٍ أرغى بشيء لم يستطع عزيز فهمه.....

كان الأخضر قد روى له قصة عواد الذي اختفى دونما أثر وبعيره الذي تركه أصحاب عواد مولين عنه الأدبار. لكن من يذكر أمراً كهذا والكون كله

عاصفة مزمجرة هادرة؟.. كان عزيز قد نسي قصة عواد وبعير عواد... لكــن هاهو ذا يفاجأ بالحقيقة الواقعة أمامه... رغاء البعير يعلو... وزبده يتطاير.... لابد أنه بحاجة لشيء.... دنا منه عزيز فلم يجد أمامه سوى التراب...

ــ ألم يطعمك الأخضر أمس؟

ولوح البعير بعنقه الطويل يمنة ويسرة راغياً مزبداً من جديد وكأنما يحتج على سؤاله ذاته...

ــ يا إلهي!! كيف يدعك بلا طعام ولا شراب؟ سأله، لكن دون أن ينتظــر جواباً، أسرع إلى المستودع، فتحه، أخرج عدلاً فيه بقية من شعير، وضعه أمام البعير، ثم عاد إلى مضخة الساحة يملأ سطلاً بالماء ويسرع به إلى البعير الذي انكب عليه في الحال يعب ماءه عباً وبرمشة عين، ربما، لم تظل فيه نقطة ماء.

الشعير في العدل، توجه إليه، تشممه قبل أن ينوشه بمشفريه الغليظين ثــم بدأ يلتقم حبات منه لكن بغير حماسة أو إقبال...

ــ ماذا!؟ ألست جائعاً؟ ونظر إليه البعير نظرة شــزراء، كأنــه يســتهجن سؤاله...لماذا لا تأكل إذن؟ لكن البعير لا يرد، بل هو يدنو من الشعير، يــتلمس حباته، يقمقم بعضها وبتردد يدخلها إلى ذلك التجويف الهائــل لكــن بحــذر وخوف..

ــ لعلك هرم لم يبق في فمك أضراس... فكيف تطحن الشعير؟

وكأنما فهم البعير كلامه، حرك أذنيه إلى الوراء والأمام، الأعلى والأسفل، ثم لوح بذنبه إلى اليمين والشمال، ربما مشجعاً إياه على متابعة معروفه....

ــ أأنقعه لك؟ سأل البعير وهو يشير إلى الشعير... أجل... هم ينقعون لك علفك ثم يضعونه كتلاً كتلاً كالكبة للبشر.... فتزدرد واحــدتها دون مشــقة أو عناء... لكن كان من المستحيل على عزيز أن ينقع له شعيره ويصنع له كتــل العلف تلك...

ــ كل شعيرك فليس لك من خيار سواه،، قال لــه وهــو يمضــي إلــى المستودع...فهمومه أكثر بكثير من أن يعطي وقته لبعير ومشاغله أكثر بكثير من أن يجد فراغاً لبعير.... كانت شمس في مركز الدائرة منه وكان هو كوكباً يدور في فلكها، كل مافيه ينجذب إليها، يفكر بها، يبحث عن خلاص لها لتعــود فتمنحه الدفء والضياء.....

في المستودع، انتظر ساعات... لم يعد عليه أن ينقــد الزوجــة والحبيبــة

فحسب... بل ثمة عواد.... ذلك الفتى الناحل الذي ذهب تحت الأرجل... ما شأنه وشأن مظاهرة النساء؟ كيف تورط في ماليس يعنيه؟ "كان عزيز يتساءل طوال الوقت.... ربما من المنطق أن تذهب شمس إلى السجن، هي التي كانت في رأس المظاهرة تهتف وتصيح، لكن ما ذنب فتى كعواد، لا ناقة له ولا جمل؟.. وقرر عزيز أن يخرجه بأي شكل.... مثله مثل شمس، أن يسعى من أجلهما معاً إلى أن يخلصهما من براثن الوحش....

ساعات ولم يأتِ صبري... نفد صبر عزيز... فأسرع يملأ سطل الماء من جديد، يضعه أمام البعير ثم يمضي... ناره لم تعد تحمله وعليه أن يسعى قبل أن تغيب الشمس... لكن عبثاً كان مسعاه، فقد غابت الشمس، ولم يستطع رؤية أحد. شكري بيك، نسيب بيك.. بل حتى اليوزباشي القديم ذهب ولم يعد... كانت المدينة كلها مضطربة منقلبة رأساً على عقب... الناس متجهمو الوجوه... المحال مغلقة... الحركة جامدة.... فقط الدوريات تتحرك، والجند يشرعون حرابهم استعداداً للانقضاض. ذهب عزيز هنا، ذهب هناك وكل همه أن يجد أحداً يشكو له همه... يحمل معه ذلك الهم، يسعى لإخراج شمسه من جب الأموات... لكن مع غروب الشمس تسرب إلى نفسه اليأس، مع الأذان أحس بقدميه تقودانه إلى أقرب مسجد، فركعة بين يدي إلهه قد تحمل له الراحة والاطمئنان...

لحظات خشع بين يدي ربه ولحظات أحس بالراحة والاطمئنان، لكن ما إن غادر باب المسجد حتى عاوده الوسواس". شمس، عواد، يجب أن أسعى لإخراجهما..."، ... لم يقصد منزله،، ففي منزله لن يجد سوى الوحشة والألم والعذاب.. منزل صبري أقرب فأسرع إليه. سأل عن صاحبه، لكنه لم يكن قد عاد... مع ذلك دخل إلى المنزل، استقبله فريد، سقاه القهوة، وجلسا يتحدثان وينتظران....

مع أذان العشاء جاء اليوزباشي القديم:

ـ تأخرت كثيراً!؟..

ـ لم يكن باستطاعتي غير ذلك.. ذهبت إلى بالا...

ـ ورأيت شكري بك؟

ـ بالطبع...؟

ـ أوعدك خيراً؟ أيسعى لإخراج شمس؟

ــ لم تعد القضية قضية شمس...

ــ قضية من إذن؟ سأل عزيز وقد فاجأه جواب رئيسه العتيق.

ــ قضية وطن!!

ــ ماذا؟ كيف؟ عاد عزيز يسأل وقد جحظت عيناه!!

ــ هناك عشرات النساء في السجون...مئات السجناء السياسيين في تدمر، المنفيين في أرواد والجزيرة... المسألة كما يرى شكري بك لم تعد خاصة... بل مسألة عامة ولابد من حلها... حلاً جذرياً...

ــ أجل.. هو على حق... لابد لها من حل جذري، ثنى عزيز وقد عاد يشغله الهم العام... هم ناسه ووطنه...

ــ لهذا السبب... ثمة قرار خطير.... قال صبري وهو يميل عليه شبه هامس..

ــ حقاً؟ رد عزيز بالنبرة نفسها وقد داخله شعور بالفرح، ماهو؟ أخبرني...

ــ إضراب عام، أجاب صبري بإشارات الشمول والتعميم من يديه كلتيهما، فسرت في أوصال عزيز رعشة لم يكن باستطاعته أن يحدد ماهيتها..

في الصباح التالي، بدت دمشق مدينة ميتة ألقت عليها الساحرة طلسمها فتجمدت الدماء في عروقها، مرت عليها بعصاها فتسمرت الدابة حيث هي، والبشر حيث هم تماثيل من حجارة لا نأمة لهم ولا حركة.... أعوان الساحرة وحدهم يذهبون ويجيئون فاغري الأفواه جاحظي العيون... الجماد من حولهم يخيفهم وتماثيل الحجارة تبث في قلوبهم الرعب... هم يتوجسون شراً من كل ما تقع عليه أبصارهم... من وراء كل حجر قد يخرج لهم الموت، من بين الأشجار قد ينبثق الخطر... أشباح تترصدهم في كل مكان تراهم ولا يرونها فماذا يفعلون؟ حركة خافتة، همسة خفية تجعل إصبع واحدهم تضغط على الزناد ويلعلع الرصاص تر... ر... ر... تر... ر ــ ر... وتضحك تماثيل الحجر من السحر الذي انقلب على صاحبه فغدت آلة الرعب ترتعش من الرعب...

لحظت شمس ذلك الرعب على ملامح آلة الرعب... حاولت أن تعلم السبب لكنها لم تستطع... كان الحارس الطيب قد غاب عنها أياماً... "أتراهم عرفوا بتعاطفه معي؟ بمساعدته لي؟"... لكن ظهوره من جديد أثلج صدرها... وأوقف سيل أسئلتها.. في الهزيع الأخير من الليل، وقد علا شخير السجينات

اللواتي عرفت شمس بعض أسمائهن واستطاعت أن تتواصل مع القريبات منهن، فتح الحارس الطيب عليها باب الزنزانة ثم همس:

ـ إضراب عام شامل في المدينة...

ـ ماذا؟

ـ منذ عشرة أيام لا سوق، لا دكاكين، لا ورشات، لا عمل... إضراب تام لم يسبق له مثيل...

ـ لكن... لماذا؟ سألت وهي تريد أن تتأكد..

ـ يقولون: من أجلكن... ولن يتوقف الإضراب حتى يطلقوا سراحكن...

ـ حتى يطلقوا سراحنا؟ فقط؟...

ـ لا... ثمة مطالب أخرى: إعادة المنفيين، إطلاق سراح السجناء السياسيين، إعادة الجند إلى ثكناتهم.... وتوقف الحارس الطيب وهو يتلفت يمنة ويسرة وكأنما أحس بحركة قريبة...

ـ إي... وماذا بعد.. أيها الصديق الطيب!؟

ـ البدء بالمفاوضات من أجل إنهاء الانتداب...

ـ هذا عظيم... هذا وحده يحمل لقلبي الراحة والطمأنينة. ردت شمس بنبرة همس مزدهية... من أجل هذا خرجنا إلى الشوارع..... يجب إنهاء الانتداب.........أو ذهبت تضحيتنا هباء........

الكتلة الوطنية، حزب الشعب، المستقلون، كلهم كانوا قد اتفقوا على إنهاء مهزلة كانت قد كتبتها يدا سايكس وبيكو، وهما يشربان الويسكي ويلهوان بالشقراوات...

مصر كانت حافزاً أولاً... مظاهراتها، إضراباتها، اشتباكات وطنييها مع قوات المستعمر ورجالات الإنكليز كانت قد أرغمت هؤلاء على عقد معاهدة تعترف بحرية مصر واستقلالها... بعدئذ جاء العراق وهو يضغط ويقاتل، يهدد ويتوعد، ورضخ الإنكليز من جديد، "إذن لماذا لا نفعل كما فعلوا؟ لماذا لا نضرب ولا نتظاهر؟ لماذا نرضى بغير الحرية والاستقلال بديلاً؟" كان تساؤل القادة الوطنيين ثم البحث عن جواب. وكان الجواب قرار الإضراب العام الشامل الذي شل المدينة وأوقف الدم في عروق المندوب السامي، ومن حوله من أعوان..

ـ أطلقوا سراح السجناء، ممن لا يشكّلون خطراً على فرنسا... كان الأمر الأول الذي أصدره المندوب السامي، وخرج اثره عواد في الحال. هرول الفتى الطويل الذي ازداد نحولاً في السجن إلى مستودع عزيز... هناك استقبله الجمل مرغياً مزبداً تقدح عيناه شرراً. "تتركني هكذا، لا راعٍ ولا صاحب؟".. ولم يملك عواد سوى الاعتذار. اعتذر لجمله كما اعتذر لعزيز، فالفضول وحده هو الذي دفعه للتفرج... ثم جاء السيل فجرفه مع من جرف: مشاركين ومتفرجين أبرياء ومذنبين.

بعدئذٍ لم يصدق كيف امتطى بعيره وأطلق له العنان مخلفاً وراءه دمشق، بكل مافيها من مظاهرات وإضرابات...

بعد خمسة عشر يوماً، كاد صواب المندوب السامي أن يطير جمع أركانه ثم هدر:

ـ غير معقول... المدينة قفر يباب.... لا أثر فيها لحياة.... أين السكان يا ترى؟.. أين الناس؟ الأسئلة كثيرة لكن أحداً لم يكن يملك جواباً... غمغم هذا، تمتم ذاك، أخذوا، أعطوا، لكن لم يكن ثمة جواب...

ـ لنلبِّ مطالب دمشق... اقترح أحدهم على حذر..

ـ لا... هذا خضوع، احتج جنرال كثير النجوم، كثير الأوسمة... إن خضعنا مرة خضعنا كل مرة...

ـ أجل... ثنى جنرال آخر لايقل عنه أوسمة ونجوماً، أرجلنا فوق رقابهم ولن نرفعها حتى يصرخوا استغاثة واستسلاماً..

لكن المندوب السامي كانت تصله ماتقوله إذاعات العالم وصحف العالم، يصله غمز أمريكا ولمز الاتحاد السوفييتي... سخرية هتلر وهزء موسوليني " فرنسا ضعيفة، عاجزة، قاسية لا ترحم، لا تعرف حقوق الإنسان ولا حقوق الشعوب"، فاقترح هذه المرة، لكن دون حذر، بل بحماسة واندفاع... لم يملك الجنرالات إزاءها إلا أن يوافقوا..

ـ أطلقوا سراح النساء.... هكذا جاء الأمر الثاني.

وفتحت الزنزانات لتخرج شمس طارفة بأجفانها منبهرة وقد بدت لعينيها شمس الحرية، لكن ما جعلها تطرف بأجفانها أكثر وتنبهر أكثر إنما هو المدينة التي كان قد حولها الغضب إلى مدينة مسحورة، كل مافيها جدران مصمتة وتماثيل من حجر.......

— 4 —

هـــــالله... هــــــالله *يــــا مفـــــرّج المصــــايب*

اضــــــرب رصــــــاص *خلـــي رصاصــك صـــايب*

كان شباب متحمسون يــرددون وهــم يهزجــون ويرقصــون بلباســهم الفولكلوري الجميل والكل بانتظار زعيم الشام العائد من المنفــى.... عزيــز، صبري، أهل الميدان، الشاغور، كلهم زحفوا إلى القدم، جمهور غفير من سكان الشام ــ القلب، وجوهها، أعيانها، وطنييها، سياسييها، كلهم جاؤوا منذ الظهيرة إلى الضاحية الجنوبية لدمشق، حيث تقول الأسطورة إن محمد بن عبد الله، وهو مايزال شاباً يحمل تجارة خديجة إلى بلاد الشام، أناخ جمله ثم أرسل بتجارتــه إلى المدينة، دون أن يذهب بنفسه. لماذا؟ لا أحد يدري، فالرسول لم تطأ قدمــه دمشق بل وطأت صخرة في ذلك المكان مــن طرفهــا الجنــوبي فارتســمت بأصابعها الخمس، بأخمصها، بكعبها على الصخرة، وظلت ماثلة هناك إلــى أن قامت ضاحية سكنية سميت بالقدم... تبركاً بقدم الرسول..

ثمة دفوف تدق ومزامير تعزف وسيوف تلعب.... والشبان ذوو السراويل السوداء بإلياتها المترهلة الواسعة كثيرة الطيات يقفزون بها عالياً يلوحون بهــا ذات اليمين وذات الشمال، طاقياتهم البيضــاء، قمصــانهم المخططــة كحمــر الوحش، كوفياتهم المرمية على الكتف، أو المعقودة على الرقاب، كل ذلك لوحة رسمها فنان مبدع لا يملك معها عزيز إلا أن ينتشي فرحاً وسروراً...

إشاعة سرت سريان النار في الهشيم منذ الصباح الباكر... صاحب دكــان ينقلها لصاحب دكان آخر، عابر سبيل يوشوش بها لعابر سبيل آخر... ربة بيت تهمس بها لجارتها "عبد الرحمن الشهبندر.. عائد من مصر اليــوم... الــزعيم

في طريقه إلى دمشق الآن... الدكتور في عمان وسيصل بعد الظهر... الـخ"..
ودون أن ينظم أحد شيئاً أو يقوم حزب بدعوة الناس، أو جند بسوق الرعيـة...
راح الناس يتقاطرون فرادى وجماعات إلى القـدم ينتظـرون قـدوم الـزعيم
المحبوب الذي كان ذات يوم وزيراً للخارجيـة دافـع عـن اسـتقلال الـبلاد
بنواجذه، قاتل من أجل حريتها، وكافح مستعمريها دبلوماسياً لا يشق له غبـار
وثائراً لا يشق له غبار..

كان عزيز قد التقى به وزيراً للخارجية يوم كان فيصل ملكاً على الـبلاد
وكان قد رآه خطيباً مفوهاً يلهب الجماهير حماسة واندفاعاً، لكن حبه له وتعلقه
به ترسخا حتى فاقا كل حد، يوم جمعتهما ثورة الغوطة والجبل.... في بسـاتين
الغوطة وبين أشجارها، عرف عزيز كم كان الدكتور الإنسـان ثوريـاً صـلباً
ومقاتلاً عنيداً لا يعرف الخوف أو التخاذل. ثمانية عشر شهراً ظلا مع الثـوار
يقاتلون الفرنساوي، يكرون ويفرون، يهزمونه وينهزمون أمامه إلـى أن قـرر
جنرالاته بكل وحشية وقسوة أن يدمروا كل قرية تخرج منهـا رصاصـة، أن
يحرقوا كل بستان يؤوي ثائراً فتحول أخضر الغوطة إلى يابس وعامر قراهـا
إلى خراب...

حينذاك انسحب سلطان باشا الأطرش برجاله إلى باديـة الأردن فـوادي
السرحان في جزيرة العرب... ومضى عبدالرحمن الشهبندر إلى مصر، وهـو
يعلم أنها قلب العروبة الحي، وملاذ كل طالب لملاذ...

عشر سنوات كانت قد مرت عليه هناك، يدبج المقالات، يكتـب الكتـب،
يخطب الخطب ولا هم له فيها كلها إلا حرية بلاده واستقلال وطنه، فكيـف لا
تزحف الجماهير لاستقباله اليوم؟..

فجأة ران سكون... الدفوف تجمدت عليها أصـابع الـدقاقين، المزاميـر
خرست تحت أنامل العازفين فاشرأبت الأعناق.... عنق عزيز نفسـه اشـرأب
باتجاه الطريق القادم من الجنوب حيث جاء لأول مرة هدير سـيارات عاليـة
مكشوفة..."، وصل الموكب!!"... تعالت الأصوات من الأفـواه ذات الأعنـاق
المشرئبة وطافت ابتسامات الفرح بشفاهها...

ابتسامة عزيز كانت ترفرف بجناحين من فخار.... "حقـاً الكبيـر يظـل
كبيراً...، كالجبل مهما حتته عوامل الزمن يظل جبلاً". على بعد عشـرين أو
ثلاثين ذراعاً توقف الموكب... من السيارة الأولى نزل عبد الـرحمن.."إيـه!!
الشيب يخط فوديك وشاربيك أيها الزعيم!!!"... خاطبه عزيز دون كـلام، فقـد

كانت صفوف من البشر تفصل بينه وبين الزعيم... وكانت همسات ووشوشات تتواثب هنا وهناك مختلطة مشوشة فلا يصل منها شيء إلـى سـمع الـزعيم المشغول بشيء آخر... إذ ما إن وطئت قدماه الأرض حتى ركع على ركبتيه، في شفتيه ارتعاشة وفي عينيه دموع.... سجد على التراب، يبارك جبينـه بـه، يتشمم أريجه، يتلمس ذراته لتختلط دموع حرى ذرفتها عيناه بذلك التـراب... مرتين ثلاثاً أعاد الزعيم السجود مقبلاً التراب، لاثماً الحصى فيما نزل من معه يحاكيه في مايفعل.... بعدئذٍ نهض فاتحاً يديه رافعاً وجهه إلى السماء، هاتفاً:

ـ حمداً لك يارب، أن أريتني تراب وطني!! الفضل والشكر لك يا الله أن أعدتني إلى أهلي!!... بعد ذلك طغت أصوات هادرة من أنسـاق مـن البشـر راحت تتقدم باتجاه الزعيم وهي تنشد:

طلـع البـدر علينـا .... مـن ثنيـات الـوداع

وجـب الشـكر علينـا .... مـا دعـا لله داع

"أهي النغمة نفسها؟ الأبيات ذاتها التي استقبل بها أنصار المدينة ذات يـوم موغل في التاريخ موكباً آخر؟ أجل عزيز سمع من حكايات التاريخ عن ذلـك الموكب الذي كان يحمل رجلاً عظيماً صنع التاريخ، رجلاً حمل رسالة مقدسـة وقاتل من أجلها............ مضحياً بالغالي والرخيص، قائلاً لعمه: "والله لـو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أتـرك هـذا الأمـر مـا تركته!!؟" وتساءل عزيز من جديد: "أهي رسالة العزة والمجد نفسـها، رسـالة الحضارة والرقي، العلم والنور... أتراه يعيد التاريخ نفسه؟".. عزيـز ممتلـئ حماسة، يحاول الوصول إلى الزعيم، عله يلمسه، يقبله، يهنئه بالسـلامة، إلا أن الزحام يمنعه.... مئات... آلاف الناس يريدون الوصول مثله، والزعيم يصافح هذا، يسلم على ذاك، يقبل ذلك، والحلقة تضيق حوله والصفوف يختلط حابلهـا بنابلها.... لكن على حين غرة أيضاً، وكأنما بإيعاز من عصا سـاحر، عـادت الدفوف تدق والمزامير تعزف، فيما تشكلت من جديد فرقة الفلولكلور الشـعبي، تلوح بالسيوف فينزاح الناس يميناً وشمالاً، وينفتح الطريق أمام الزعيم وصحبه يسيرون نحو دمشق. وأصوات الفرقة تتعالى مغنية من جديد:

زينـوا المرجـة .... والمرجـة لنـا

شـامنا فرجـة .... وهـي مزينـة.

عزيز ردد... صبري إلى جانبه ردد.... وجوه الميـدان، الزعمـاء فـي المقدمة... الكل يصفقون بأيديهم إيقاع النغمة الساحرة ليعود مرة ثانيـة قائـد الجوقة يهدر بصوته مغنياً:

رحبـوا بـالزعيم .... زعيمنـا الأكبـر

دكتورنـا الشـهبندر .... فخـر رجالنـا

وبصوت هادر يشق عنان السماء، راحت الحشود تردد:

دكتورنـا الشـهبندر .... فخـر رجالنـا

بخطى واسعة متعجلة، ربما مدفوعة بالإيقاع الحماسي والنغمـة اللاهبـة سار الموكب إلى دمشق.... عزيز يمسك بيد صبري وصـبري يمسـك بيـد الحواط، ربما كي يشكلوا صفاً متماسكاً لا يخترقه أحد. الموكـب كلـه صـار صفوفاً متماسكة يشد بعضها بعضاً كالبنيان المرصوص.... الزعيم في المقدمة تحيط به هالة من قادة الكتلة الوطنية، حزب الشـعب الـذي أسسـه ذات يـوم وصفوة طبقات المدينة... خطى الزعيم متعجلة واسعة، كأنمـا تدفعـه اللهفـة للوصول إلى المدينة، يلقي بنفسه بين أحضانها، عاشقاً يلتقي بمعشوقته بعـد أن أضناه الهجر والبعاد.....

الطريق مفتوح، لا جند، لا مصفحات، لا درك، لا سنغال...."أيـن ذهـب الفرنساوي؟"... تساءل صبري وهو يلتفت ذات اليمين وذات الشمال.... لم يكن هناك أثر لجندي أو مستعمر. "أتراهم آثروا الغياب؟ أتراهم يخشون صـداماً؟ أم تعلموا الدرس جيداً منذ ذلك الإضراب؟.." يتساءل وهو يسـتعيد فـي ذاكرتـه صورة الفرنسيين الذين كانوا يتخبطون كالمجانين وهم يرون إلى دمشق تتحول أيام الإضراب العام إلى مدينة مسحورة ماتت فيها كل حيـاة... جنـدهم فـي أسواقها لكن أسواقها مغلقة مصمتة لا باب فيها ولا نافـذة، مصـفحاتهم فـي ساحاتها لكن ساحاتها خاوية على عروشها كأنها لم تعرف يومـاً حشـوداً ولا زحاماً، خيالتهم في أزقتها لكن أزقتها خواء وفراغ، فمـاذا يفعلـون؟ أيقـاتلون الحجارة؟ أيسوطون الأرصفة؟.. ستين يوماً ظلت المدينة مسحورة، مدينة مـن تماثيل وحجارة تتمزق لها الأفئدة وتبكي العيون... عيون الصحافة في أوربـا بكت، أصوات الإذاعات لعلعت، الولاويل من هنا وهناك في العالم كله تعالـت عاصفة هادرة احتجاجاً على حال دمشق، مدينة بولس الرسول، مدينـة القـدم والتاريخ... فلم تر باريس بداً من أن تنحني أمام العاصفة..

وصدر الأمر الثالث "ليأتِ وفد إلى باريس". فـي بـاريس، المفاوضـات استمرت أشهراً...كانت مطالب الوفد فيها صريحة حاسمة: لا نرضـى بغيـر إنهاء الانتداب.... نريد الحرية والاستقلال... لكن كان من الصـعب علـى الجنرالات التخلي عن حلمهم التاريخي... القديم قدم الصليبيين: "السيطرة علـى بلاد الشام" فكيف يتخلون عن حلمهم؟

راح الجنرالات يلفون ويدورون، يهددون ويتوعدون لكن بـاريس تـدعي الحضارة، والحضارة عقل ومنطق... ووقعت باريس أول معاهدة تعترف فيهـا بحق سورية في الحرية والاستقلال...

المكاسب التي نتجت عن ذلك الاعتراف:

إعادة الوحدة بين أشلاء البلاد الممزقة، إلغاء الحكم العسـكري المباشـر، إعادة دفة الحكم لرجالات البلاد.... السماح للمنفيـين بـالعودة إلـى الـوطن، والدكتور الشهبندر منفي، فكيف لا يعود؟

يـا أهـلاً وسـهلاً .... وملْيـون سـلامة

رجـع لنـا بالكرامـة ..... زيـن ابطالنـا

كانت الأغنية تتردد وقد وصل الحشد أطراف الميدان، هناك كانت حشـود أخرى قد اجتمعت لتنطلق حناجرها كلها معاً..

يـا أهـلاً وسـهلاً .... ومليـون سـلامة

فيما انطلقت الزغاريد من الشرفات وقد غصت بنساء يذرفن دموع الفـرح ويزغردن زغردات النصر... كانت دمشق قد خرجت كلها لاستقبال بطل مـن أبطالها غاب عشر سنوات عنها، لكنه لم يغب لحظة واحدة عن ساحات النضال من أجلها. كانت دمشق برجالها ونسائها وأطفالها تعيش عرساً للفـرح وعيـداً للنصر ربما لم تعشه مذ دخلتها طلائع جيش التحرير العربي تخلصها من براثن استعمار عثماني بغيض...

شمس نفسها كانت بين النساء المزغردات، آمنة زوجـة صـبري، أولاد هذه، أولاد تلك، فالكل كانوا يريدون رؤية الزعيم... لكن حين وصل الـزعيم، كانت المآذن كلها تدوي بنداء قديم قديم "حي على الصلاة"، وكان الخيط الأبيض قد اختلط بالخيط الأسود فلم تستطع عينا شمس تمييز وجه الـزعيم ولا رؤيـة عزيز..

سار الموكب بالزعيم حتى منزله، رافق عزيز الموكب وكل ما يشغله أن يسلم على صاحبه، أن يأخذه بالأحضان، أن يقبله على وجنتيه، لكن فأله خاب، فالزحام الشديد، لم يسمح له بأي اقتراب أكثر من خمس أذرع وحين عاد إلى المنزل كان يشوب فرحه أثر من حزن...

ـ لا تحزن يا عزيزي...قالت شمس ضاحكة، وقد شكا لها سبب حزنه، تراه غداً أو بعد غد... لكن بعد أيام فقط استطاع صبري وعزيز أن يريا الدكتور العائد من المنفى. كان ذلك مساء وكانت داره العربية تنم عن أصله الطيب ورقة حال أهله... لكنها ككل دار عربية كانت تحوي فسقية الماء، ولم يكن ثمة أعذب من الجلوس حول فسقية ونيسان ينسرب بدفئه في عروق الشجر والورد، الطبيعة والناس... كان اللقاء حميماً، أخذهما الدكتور سريع البديهة، حسن الذاكرة بالأحضان.

-أوه!! يوزباشي صبري!! شاويش عزيزا! ما أسعدني برؤيتكما!! بتلك الطيبة المتأصلة في نفسه استقبلهما، بتلك الحميمية شدهما إلى صدره، رفيقين من رفاق الثورة... ثمة زوار آخرون جلسوا جميعاً حول الفسقية تداعبهم أنسام الربيع، يناغشهم رذاذ الماء ويدغدغ أبصارهم ضياء القمر!! "إيه!! يا للأمسية الساحرة!!" كان لا يفتأ عزيز يبدي إعجابه، يعبر عن فرحه وهو يصغي للزعيم الواثق من نفسه، المتحمس لأفكاره والمليء بالحكمة حتى الحافتين...

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر

ولابد لليل أن ينجلي ولابد للقيد أن ينكسر

ردد الزعيم بحماسته وفصاحته قول شاعر لم يكن عزيز قد سمع به من قبل.. اسمه الشابي.. من تونس.. مات قبل بضع سنوات، لكنه عرف قيمة الشعب وغنى للشعب وآمن بالشعب فلم لا نؤمن به مثله؟ يبتهج عزيز كل الابتهاج وهو يسمع ذلك التغني بالشعب.. "حقاً.. الشعب هو صانع الحياة، هو صاحب القوة الحقيقية، هو الخلود المتجدد الذي لا يفنى، ولا يزول". لكن الدكتور لم يترك له المجال للشرود أكثر.. كانت الحكمة تفيض من شفتيه درراً تخلب الألباب ولم يكن باستطاعة عزيز إلا أن يصغي.

-المجد الشرقي التليد هو مثل النسب الشريف الذي يتغنى به العظاميون لا يجلب لأصحابه منفعة ولا يدفع عنهم ضراً مالم يتعهدوه بأسباب الحياة ويغذوه بالعناصر التي تنميه وتبعث فيه روح الارتقاء من جديد...

-لكن ذلك المجد التليد سيدي، رد اليوزباشي العتيق، هو الأساس الذي ننطلق منه لبناء مجد طارف جديد.

-شريطة أن ننطلق، تابع الزعيم فرحاً بتدخل اليوزباشي، أما أن نتغنى فقط، أن نقلد، أن نظل في مكاننا، وكأننا خلقنا للتقليد والتغني فقط، فهذه هي الكارثة.. وللأسف، نحن لا نعرف غير التقليد.. التقليد يظهر في عوائدنا، في زراعتنا، في صناعتنا، في تجارتنا، في كل شيء. أأذكر لكم قصة رواها لي أحد الأجانب؟

وتعالت الأصوات من كل جانب: نعم.. نعم..

-قال لي ذلك الأجنبي وهو يضرب لي مثلاً عن التقليد في المشرق.. إنه رأى بعينه أحد الفلاحين يحمل البطيخ على دابته فيضعه في أحد جانبي الشريجة ويضع في الجانب الآخر حجراً للموازنة، وحين قال له: أن يقسم البطيخ إلى قسمين ويضعهما في الجانبين بدلاً من حمل الحجر لأنه يتعب الدابة بلا فائدة، شكره على نصيحته، لكنه لم يعمل بها، لأن التقليد احتوى عليه فصده عن الطاعة، والجهالة استحوذت عليه فصرفته عن الرشد، فحين مر في اليوم الثاني كان قد عاود سيرته الأولى وإذ سأله الأجنبي لماذا لم تعمل بالنصيحة؟ قال "هيك عاش أبي وجدي".

ضحك الحضور، لكن ضحك المرارة، فالكل يعلم ما في العادات المتوارثة من قصور وغباء، ضحالة وجهالة كما يعلم ما في التقاليد البالية من أذى وضرر ولكن من يستطيع تغييرها؟.

الدكتور يريد تغييرها، يشن هجوماً صاعقاً على كل بالٍ عتيق، على كل حاجز يعيق تقدم الأمة وحضارتها، وكيف؟ بالشباب.

-الشباب هو سر الأمة والجعبة التي تحوي الميراث من الآباء والأجداد، يتابع الزعيم حديثه الشيق، وهذه الجعبة هي أمانة في أعناقنا، ورأس مال لنا تظهر ميزاتنا به وتتجلى مواهبنا على قدر ما نحسن استخدامه والتصرف فيه.

كلام جميل كان يقوله الشهبندر، ولا يملك عزيز إلا أن يتابعه مفتوناً بأفكاره، مفتوناً بحماسته.. "مثل هذا الرجل هو الجدير، بقيادة البلاد، القادر على إيصال سفينتها إلى بر الأمان..". وانقطعت سلسلة أفكاره على الشهبندر وهو يرد على أحد الأسئلة.

-أقول لك: لماذا الشباب؟ لأن تقدم البلاد وتقدم الشعوب سياسياً وعلمياً

وأدبياً إنما يحتاج إلى شجاعة واندفاع وتضحية قلما تكون في غير الشباب، لا شك أن نظرات الكهول والشيوخ الصائبة وآراءهم الناضجة لها في نجاح الأعمال العامة تأثير أي تأثير، لكن الأعمال الوطنية الكبيرة لا تقوم على غير سواعد الشباب لأن التضحية من مستلزمات هذه الأعمال والتضحية لا يقوم بها إلا الشباب...

صفق الحضور استحساناً وكل كهل فيهم يتمنى أن يعود إلى الشباب لكن الدكتور المتحمس للفكرة تابع:

-أتعلمون من صنع الوحدة الألمانية؟ إنهم الشباب، الطلاب الذين ألفوا فيما بينهم اتحاداً ضم جميع الطلاب في الجامعات الألمانية أطلقوا عليه اسم "بورشن شافت"، وكان الأساس العملي والروحي الذي قامت عليه الوحدة الألمانية والثقافة الجرمانية فيما بعد...

بعد ذاك تحدث الزعيم العائد من مصر عن حياته في مصر، عن اتصالاته، علاقاته، كتاباته في مجلتي الهلال والمقتطف إلى أن سأله أحدهم عن المعاهدة الأخيرة مع الفرنسيين.

-لا يغرنكم حبر على ورق، رد وزير الخارجية العتيق، الاستعمار لا يعترف بمعاهدة ولا يحترم اتفاقاً إلا إذا كان مرغماً إرغاماً أو يخدم مصلحته.

-لماذا وقعوها إذن؟ عاد الرجل يسأل:

-هم خائفون.. هتلر الآن في أوربا قوة صاعدة كالشهاب لا يعلم أحد أين يصل... هو يبني قوة عسكرية هائلة، ينادي بألمانيا فوق الجميع، وهل تدرون ما معنى "ألمانيا فوق الجميع؟".

لم يجب أحد وكأنما أرادوا أن يشرح لهم فشرح: هذا يعني هيمنة ألمانيا على أوربا كلها وربما على العالم.. هتلر يتوسع، في العام الماضي فرش جناحه على النمسا، اليوم على تشيكوسلوفاكيا. إنه يتوسع. يلتهم ما حوله لقمة لقمة فما تراها لقمته القادمة؟.

-هو الخوف إذن!! قال صبري شبه مغمغم، لكن الوزير السابق الراسخ القدمين في السياسة، أحابيلها وكواليسها، استأنف:

-لاشك أن لإضراب الستين يوماً وصلابة شعبنا وتماسكه دوراً هاماً في فرض المعاهدة، لكن وراء هذا كله الخطر الداهم الذي يمثله هتلر في ألمانيا، موسوليني في إيطاليا والمستقبل الغامض الذي ينتظر أوربا ويجبر الفرنسيين

على كسب ود الشعوب المستعمرة حتى إذا ما قامت الحرب لم ينقلب هؤلاء عليهم أو يتحالفوا مع أعدائهم.

-إذن، علينا أن نستفيد من الفرصة الآن فنشدد عليهم النكير علنا نبلغ الاستقلال، تدخل عزيز وقد بلغت الحماسة منه أشدها.

-هذا ما ينبغي أن نبحث فيه مستقبلاً، لكن دون أن ننسى أبداً أن الاستعمار ذئب نهاش غادر لا يفوت فرصة للنهش إلا واستغلها..

بحراً من المعرفة كان الرجل، محيطاً واسعاً من الفهم والثقافة، أنى نقرته يرن..... وكان عزيز متعطشاً للمعرفة والثقافة فنهل منها إلى درجة ظل أياماً يفكر "لماذا نهمل شيئاً كالثقافة!؟ الثقافة هي الأداة التي تصقل عقل الإنسان، فلماذا نغفل تلك الأداة؟" "أنت رجل سيف، لا رجل قلم" رد في داخله لسان آخر كان عزيز يعلم أن الحياة الطويلة التي عاشها للكفاح والصراع، للضرب والحرب لم تتح له أن يتفرغ يوماً لقراءة أو كتابة، فكيف يجد المرء ثقافته دون قراءة أو كتاب؟ حياة القرية، الجيش العربي، الخدمة العسكرية في حماة. العمل في الثورة، الهرب من المستعمر والتخفي بعيداً عن مطال يده، كل ذلك لم يدع لعزيز فرصة يقرأ فيها أو يتثقف.. عمله في التجارة كان يعيقه عن ذلك، إذ كيف يمكن لتاجر يمضي حياته في الحل والترحال أن يجد فراغاً لقراءة أو ثقافة؟ بل حتى عملياته السرية مع البطحيش كانت تشكل عائقاً... شهراً أو شهرين يظل يفكر، يستقصي، يخطط لمثل تلك العملية، وبعد التنفيذ يظل أيضاً شهراً أو شهرين متهرباً من عواقبها.

آخر مرة كاد ينشكف أمره.. خطط مع البطحيش للعملية، كمنا لدورية الجندرمة قرب شلالات مزيريب، وحين وجدا أن الدورية دركيان لا ثلاثة استبشرا خيراً، فقد سدد كل منهما بندقيته على دركي ثم أطلقا النار وهوى الدركيان صريعين لكن سرعان ما نبق ثلاثة آخرون من وراء التلة، ...رأوا مصدر النار فترجلوا عن جيادهم لتبدأ معركة لم ينقذهما منها إلا الوادي العميق الذي رميا نفسيهما فيه تخفيهما شجيرات الأحراج وظلمة الليل." رغم كل شيء يجب أن أقرأ، الثقافة أرقى حاجات الإنسان". وأسرع إلى الأخضر... ابنه يحب القراءة، يأتي بالكتب، إذن، لم لا يفيد منه؟.

-أي خبر سعيد هذا يا أبي؟ أنت تريد كتاباً؟

-أجل.. في المحل التجاري يعذبني الفراغ أحياناً فلم لا أملأه قراءة؟

رد الأب على الابن وهو يتفحص معه كتب مكتبته الصغيرة التي بناها لبنة لبنة...

-العقد الفريد.. ما رأيك تقرأه؟

-أقرأه، أجاب الوالد وهو يأخذ الكتاب الكبير المجلد تجليداً مذهباً جميلاً..

-ماذا؟ تقرأ؟ سألته شمس باندهاش شديد وهي تراه يدخل بالكتاب المجلد المذهب إلى غرفة النوم، فعهدها به لا يدخل إلى غرفتهما سوى جريدة يقرأ فيها أخبار السياسة أو مجلة يتابع فيها طرفة أو نادرة.

-تعلمين؟ مع الشهبندر تشعرين أنك بأمس الحاجة للمعرفة والثقافة...

-بارك الله بالشهبندر، دافعاً يدفعنا للمعرفة والثقافة.

-تريدين الحقيقة؟ بودي أن أراه كل يوم...

-ونحن لا نراه أبداً!؟ كأنما حرام علينا أن ننهل من ينبوع معرفته..

-ولماذا لا ترينه؟

-كيف؟ أين؟ والرجال يملؤون وقته كله؟

-اسمعي.. منذ ثلاثة أيام بدأ يذهب إلى النوادي، يحاضر في الجمعيات، لماذا لا تدعوه رابطتكم النسائية؟

-رابطتنا النسائية.. أجل، هو ذا المخرج.. قالت شمس فرحة وقد أمسكت برأس الخيط..

في اليوم التالي ذهبت إلى الرابطة، رأت عايدة الجزائري، نازك العابد، وعدداً من قيادات الرابطة، طرحت الأمر عليهن، ناقشنه بسرعة وبسرعة اتخذن القرار.

نازك كلفت بمهمة الدعوة، فثمة صلة قرابة ومعرفة وثيقة، وأفلحت نازك في تحديد موعد.

لكن حظ شمس خذلها هذه المرة، فقبل الموعد بثلاثة أيام فقط جاء نواف من القرية... كانت قد مضت عليه أشهر لم يأت إلى دمشق وكانت مشوقة له حتى الموت.... هذا الابن المتوسط القامة المتين البنية الجميل المحيا يسحرها.. هو صورة طبق الأصل عن أبيها نواف!! مذ صار الصبي يافعاً بدا أنه يكره الجدران، يبغض الأزقة والشوارع، يحب الفلاة والبرية... "أنت بري"، صارت تقول له كلما اقترح عليها أن يذهب إلى البرية والمضارب. "خير من أن أكون

مدجّناً" يجيبها مازحاً. ولكي لا يكون مدجناً، عافت نفسه المدينة والمدرسة فبدأ يغادرها إلى القرية حيناً وإلى المضارب حيناً آخر... عند جده، علي المر، فينة وعنده جده الشيخ نواف فينة أخرى... وامسكي به يا شمس إن كنت تستطيعين...

كانت كل مرة ترسل له الأخبار، الرسل، لكنه يأبى أن يأتي... وإن جاء فلكي يظل أياماً ويعود.. لكنه هذه المرة جاء دون أن ترسل له أحداً.

-خير؟ سألته أمه باستغراب.

-افرشي لي بيت العنكبوت لأحط رأسي وأموت، رد نواف وهو يتظاهر بالضعف والضنى.

-بعيد الشر يابني... اطلب وتمنَّ.. بودك بنت الوزير؟ بنت القاضي؟.. بنت السلطان؟. تابعت مازحة وقد تذكرت الحكاية القديمة التي طالما روتها لها جدتها عن الشاطر حسن الذي يضنيه العشق فيأتي طالباً من أهله أن يخطبوا له البنت التي وقع في هواها.

-بل بنت عمي.. قال نواف الذي نفض عنه فجأة غبار الصمت وشد بذراعه كتف أمه التي لا تحب منه أكثر من حركته تلك..

لم تفاجأ شمس، ربما كانت، هناك في أعماق اللاوعي، تتوقع مثل ذلك.. مقدمات نواف كلها توصل إلى تلك النتيجة...

-دملجة؟ سألته وهي مازالت تتفرس في وجهه...

لم يجب، لكنه أومأ برأسه إيجاباً.. آخر مرة زارت فيها القرية مع أبيه رأت دملجة تحوم حول نواف، بل رأت بنات القرية كلهن يحمن حوله... لكنها أحست بحدس الأنثى أن المغناطيس الذي يشد نوافاً إلى دملجة أشد قوة وتأثيراً.. سألت عن ابنها.. في القرية، في المضارب، فسرها أن يكون الجواب "نواف قبلة أنظار البنات.. حلم العذارى كلهن". "ولم لا يكون كذلك؟" تساءلت حينذاك وهو الفتى الجميل، القوي الشجاع، ابن الحسب والنسب، وما عساها تريد الفتاة غير فتى مثله؟ بمن تحلم ان لم تحلم بنواف؟". شمس تعلم أن الفتاة تدخل سن النضج ونصب عينيها هدف واحد: تأمين الزوج، فلماذا لا تسعى دملجة وغير دملجة لأن يكون زوجها نواف؟.

-وأنت؟ تحبها؟ سألته من جديد، لكن هذه المرة بلهجتها البدوية التي تعود إليها من حين لآخر وفي أشد لحظاتها الحميمية...

بشيء من حمرة في الخدين، وإطراقة في العينين، راح نواف يهز رأسه إلى الأعلى و الأسفل، تبسمت الأم لكن بمسحة من مرارة. لم تسأله إن كانت هي تحبه، فحين رأتهما معاً أحست بأن دملجة لا تحبه وحسب، بل تراهن عليه بعمرها كله، ترمي بكل ما في جعبتها من سهام الأنوثة والجاذبية لتصرعه أرضاً.. لكن حينذاك لم يكن قد صرع أرضاً، ففي المضارب كان ثمة زهور، ابنة أخيها سلطان، وكانت هي الأخرى ترمي بشباكها لنواف.. كلتاهما جميلة وكلتاهما تستحق أن يحبها نواف ونواف حائر متردد: أيأخذ ابنة الخال، ابنة البادية والخيام والترحال؟ أم ابنة العم: بنت القرية والاستقرار؟ لم يكن الصراع قد حسم بعد...

إذ ذاك تمنت شمس في سرها أن تنتصر ابنة الخال... لا تدري لماذا؟ لكنها تمنته.. أهي العصبية؟ أهي الجذور التي تضرب راسخة في أعماق تربتها؟ أهي الرغبة في تعويض خسارة أنزلتها يوماً بالقبيلة؟ لا تستطيع شمس الجواب، لكنها شجعت ابنها من طرف خفي أن يحسم الصراع لصالح البدوية الصافية كماء الغدير، الحرة كالطيور الجوارح في ذرى الجبال، لكن هاهو ذا يحسمه لصالح ابنة العم... ولا تملك إلا أن تخالط ابتسامتها مرارة راحت تقطر من الشفتين...

شمس لا تنسى أبداً أن دملجة هي ابنة عليا... وعليا، مذ وقعت عليها عينها أول مرة، قرع في داخلها جرس إنذار.. في زياراتها لبيت عزيز، وهي فارس ملثم، في لقاءاتهما على بيدر، في حقل، على طريق، كانت كل منهما تحدج الأخرى بنظرات الريبة والحذر.. بعدئذ تطورت الريبة إلى نفور والحذر إلى كراهية ثم إلى تهجمات واتهامات حين عرفت عليا حقيقة الفارس الملثم. كانت عليا قد رأت فيها منافستها بل ضرتها. وكان من الطبيعي أن تحمل لها الحقد والكراهية وهاهي ذي الأيام تدور ليقع ابنها في حب ابنتها... ويعيد الحب شبك ما مزقته الكراهية وجمع ما كان قد افترق منذ تلك الأيام.."

"يا لسخرية الأقدار!!" وتنهدت شمس تنهدة طويلة أثارت للتو خوف نواف..

-ماذا.. أمي؟ أنت غير راضية؟ لا توافقين؟

-ليس المهم أن أرضى أنا وأوافق.. المهم أنت؟ أتحبها؟ تحبك؟

-حب العبادة.. أجاب هذه المرة بحماسة واندفاع قاطعاً عليها الطريق.. منذ أن بدأت الذهاب إلى القرية، كنت أشعر أن دملجة تهتم بي، تظل قربي،

ترعاني.. وكنت أنا أفرح برعايتها، أسر بقربها.. حتى جاء هذا الشتاء وبتنا لا نستطيع افتراقاً...

"أجل.. هو ذا الحب الذي يربط بين قلبين فلا يستطيعان بعده افتراقاً" شردت شمس مع أفكارها فيما كان نواف يتابع حديثه عن دملجة، ابنة العم التي اكتشف منذ أشهر فقط أنه يحبها حب العشق وأنها تحبه حب العبادة... شمس تستعيد إلى ذاكرتها لحظة اكتشاف أخرى "عزيز يكشف عن وجهها اللثام وهما بجانب قناة الماء... هي لا تزال ترى بعين مخيلتها عينيه الجاحظتين وفمه الفاغر دهشة، تسمع بأذنها صيحته التي لا تزال تتردد عبر الزمان "الفارس الملثم بنت؟". بعدئذ اكتشفت أن الصداقة التي كانت تربط بينهما كشاب من أم العيون وفارس ملثم من البادية إنما كانت تخفي حباً كامناً في الأعماق يضحك عليهما معاً وهو يمهد لهما الطريق وييسر الأسباب إلى أن تأتي اللحظة المناسبة فيقول لهما "كفاكما تمثيلاً، أنتما ذكر وأنثى لا يجمع بينكما سوى الحب".

نواف الآن يعترف أنه يحبها، وهي تحبه، فهل تستطيع الا أن توافق؟.. هي شمس التي تدين بدين الحب مذ عرفت الأنوثة، شمس التي تخلت عن كل شيء من أجل الحب.. لا.. حيث يكون الحب، تكون شمس "أدين بدين الحب حيث توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني" حسمت شمس أمرها وهي تنظر إلى ابنها العاشق من جديد، وقد سكت، شاعراً، ربما، بأنها ساهمة عنه لا تسمعه..

-وعدتها بشيء؟ سألته بلهجتها البدوية نفسها، علامة الحميمية والقرب..

-إي.. أمي.. قلت لها أروح للشام أجلب أهلي.. رد نواف باللهجة نفسها..

-ولإيش العجلة يا وليدي؟

-ابن الحمود يريد يخطبها إن تأخرت..

"آه.. القصة نفسها دائماً، لكأن التاريخ لا يملك إلا أن يعيد نفسه". وتبسمت من جديد لذكريات بدأت تتسرب إلى ذهنها طافية إلى السطح بعد طول هجوع.. معجون ابن عمها يضغط عليها، على أهلها، على أخيها سلطان، يريد أن يستغل الفرقة، عزيز غائب لا يعرف له أحد مكاناً، لم يبعث خبراً، إذن لم لا يُقدم؟ لم لا يطلب يد شمس؟ سلطان مع ابن عمه، وعده بتقديم يد العون له ويوشك أن يرغم أخته على الزواج منه، لكن شمساً وضعت شرطاً: "أتزوجه شريطة أن نتبارز بالسيف، إن غلبني قبلت به". وذات فجر راحت الروابي تردد صوت

براز، حمحمة خيل وصليل سيوف، ورجل قاتم البشرة قبيح الوجه يرتعد مذعوراً أمام ضربات سيفها وهي توشك أن تلقيه أرضاً..

-هه.. ايش قلت أمي؟ عاد نواف يقطع عليها شرودها فلم تملك إلا أن تبتسم:

-زين، أنا أكلم والدك..

-الليلة!! وغداً نسافر!!

-غداً.. لا أظن ذلك صعب.. سيد نواف، قالت أخيراً وهي تربت كتفه ثم تنهض فقد كان الباب الخارجي يقرع...

وكانت جارتها أم روضة

-أين أنت يا أختي؟ أي والله والله... مشتاقة لك من صميم قلبي، بادرتها أم روضة وهما تدخلان غرفة الاستقبال التي فرشتها شمس على الطريقة الشامية، أرائك ومقاعد وثيرة وستائر تنسدل حتى الأرض مانعة كل أثر للشمس.. "إن كنت في قوم فاشرب في إنائهم"، وشمس في قوم نساؤهم لا يسمحن للشمس أن ترى وجوههن...

فلم لا تفعل مثلهن؟

-القلوب عند بعضها أختي أم روضة، ردت شمس على الجارة التي باتت منذ سنة وأكثر تتودد لها تودداً غير عادي.. "لماذا؟" سألت نفسها مذ لحظت ذلك التودد: هي تذكر دائماً قوله سبحانه "وجعلنا لكل شيء سبباً". إذن، لابد أن وراء ذلك التودد سبباً، ففي دمشق، مدينة الياسمين والفل، لا يفسحون مجالاً كبيراً للعواطف والأحاسيس، كل شيء لديهم بحساب، وكل علاقة لغاية.. في دمشق، المدينة الجميلة التي تحبها شمس، تصول المصلحة وتجول، وحدها المنفعة سيدة الموقف، وحدها تحدد العلاقات والروابط وانطلاقاً منها تبنى جسور وتهدم جسور" ترى، ما الجسر الذي تريد إقامته أم روضة؟" بعد زيارتين أو ثلاث فقط استطاعت شمس أن تجد الجواب: كانت الجارة أماً لخمس بنات، صغراهن في الثانية عشرة، وشمس أمٌ لثلاثة شبان، أصغرهم في الخامسة عشرة، فكيف لا تبحث لدى شمس عن الود والحب؟ في القرية، الفتاة تبحث عن عريسها كما في المضارب تماماً: الحياة حرة مفتوحة، الفتيان يرون الفتيات، يلتقون على طريق الورد، في حقول الشغل، مشاعب الحطب، يفرحون معاً يحزنون معاً، يداً بيد وكتفاً بكتف يدبكون معاً، لكن أين يلتقي فتيان الميدان بفتياتها؟ هنا أيديهن

مغلولة، حركتهن محظورة، الحجاب ضرب عليهن، الأبواب مقفلة في وجوههن، الحرملك لا يلتقي بالسلملك إلا في الحلال.. لكن كيف يجيء هذا الحلال؟

–سمعت الأخبار؟ بدأت أم روضة بنبرة الهمس الحريمية وقد مالت على شمس. غامزة ضاحكة هزت شمس رأسها علامة النفي، فجعبتها منذ يومين خالية من القيل والقال، ومن وشوشات الحريم التي تتناقل الإشاعات عن فلان وعلان، هذا الجار أو تلك الجارة..

–جارنا أبو مرتضى غائب منذ عشرين يوماً.

–لماذا؟ أين؟ تساءلت شمس وقد ساورها خوف أن يكون شر ما قد نزل بذلك الجار الكهل الذي يصلي كثيراً ويصوم كثيراً ويحج إلى بيت الله كثيراً.. سجنه الفرنساوي؟ تابعت شمس تساؤلها.

–أي فرنساوي؟ ردت أم روضة ضاحكة: يقولون انه في حيفا..

–إذن، يشارك في قتال العصابات اليهودية..؟ تابعت تساؤلها وقد ازداد خوفها، كانت القوات البريطانية والعصابات اليهودية قد استطاعت إخماد ثورة الشيخ عز الدين القسام، بعد قتل أبرز القياديين هناك وعلى رأسهم سعيد العاص، ذاك القائد العسكري الذي حزن عليه عزيز كثيراً...

–بل هو يشارك في إغناء الغواني اليهوديات.. تابعت أم روضة ضاحكة مقهقهة..

–الغواني اليهوديات؟

–أجل، يقولون انه وقع منذ زمن في غرام يهودية شقراء... وتجارته، كما تعلمين، هناك في حيفا، يذهب بين الحين والحين لتستقبله بالأحضان صاحبته، يعيش معها، ينفق عليها.... ربما هو قد تزوجها... من يدري؟ ألقت أم روضة سؤالها الأخير وهي تبرم شفتها، بمعنى: "يا مؤمنة على الرجال، يا مؤمنة على الماء في الغربال"..

الجارة، في هذا، على حق.. ففي دمشق، مدينة التجارة والتجار منذ إيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، التجار يذهبون بتجارتهم إلى فلسطين، مصر، اليمن، العراق.... وهناك تطول رحلتهم.. المسافات بعيدة والجمال لا تسير بالمحركات النفاثة، كما أن الرجل يحتاج إلى المرأة.. وكيف يلتقي الرجل بالمرأة إن كان مؤمناً ومؤمنة إلا بالحلال؟ التاجر الدمشقي مؤمن ولهذا السبب،

ربما يتزوج.. بل ربما منهم من يتزوج امرأة في القاهرة وأخرى في صنعاء وثالثة في بغداد حتى إذا ذهب إلى أي مكان منها وجد بيته وحلاله، طعامه وشرابه. شمس تعلم ذلك وتعلم أنه معقول، لكن أن يتزوج أبو مرتضى غانية يهودية، فهذا هو غير المعقول..

–لكنه حاج تقي ورع يصلي كثيراً.. بدأت شمس معربة عن استغرابها.

–لا، أختي شموس، لا... قاطعتها أم روضة ما إن بدأت، لا تخافي إلا من النهر الهادي... المثل يقول: ياما تحت السواهي دواهي...

أجل، شمس التي عرفوها بالميدان أول ما جاءت باسم شموس وظلوا ينادونها به حتى اليوم تعلم أن تحت السواهي دواهي وأن النهر الهادئ هو النهر العميق الغور الذي يمسك بتلابيب من لا يعرف السباحة فيغرقه...

بعدئذ، عادت أم روضة تفصّل قصة التاجر الدمشقي الذي يذهب إلى حيفا يعبث ويلهو مع صاحبته اليهودية فتحلبه حلباً، ثم ختمتها قائلة:

–وليس هو وحده من يفعل ذلك.. بل هناك الكثير من الرجال من دمشق وحلب، حمص وطرابلس. كذلك الرجال الفلسطينيون أنفسهم، تبتز اليهوديات أموالهم، يسلبنهم أراضيهم حتى إذا أبقينهم عظماً بلا لحم ألقينهم للكلاب...

–تفضلي اشربي قهوتك!! قالت شمس للجارة بعد أن جاءت وضحة بالقهوة والماء... فأسرعت ترشف أول رشفة من فنجانها..

–أجل.. أنا أحب قهوتك.. خاصة العصرية..

–عال إذن.. أريدك أن تبصري لي.. أنت بصارة شاطرة، لو كنت مكانك لاتخذت منها مهنة..

–لا، أنا أبصر فقط إذا كنت رائقة المزاج!.. ثم أبو روضة لا يسمح لي.. يقول.. هي خزعبلات..

–اية خزعبلات أم روضة؟ أنت لا تقولين إلا ما ترين..

–إذن.. اسمعي.. بدأت أم روضة تبصيرها وهي تدقق في الفنجان متفرسة متفحصة.... فأصاخت شمس سمعها بكثير من التصنع المازح: عندك طريق وعلى الله التوفيق.... فارس ببيتك يبحث عن فرس مثلك... هي قريبة منك. بابها على بابك.. حمراء بيضاء.. كحلاء جيداء تحت الايد متل حبل الوريد الرزق بمزودة هذه الفرس جيبيها قبل ما يأخذها العسس. مرج أخضر الدنيا قدامك افتحي على المرج الأخضر بابك.. وشردت شمس "كم ينطبق كلامها

على الواقع!! أتراها سمعت ما جاء من أجله نواف؟ أم هو الغيب ينكشف لهـا فتقرأ ما دار بينها وبينه؟".

شيء عندك كان ضايع.. تابعت أم روضة الشاردة من شرودها، واليـوم لاقيته.. طويل، عريض، أخته تعشقه، بعد اليوم لا تفلتيه ..."إذن، لم تكن تقصد نوافاً في كلامها السابق بل تقصد الأخضر". ولم تملك شمس إلا أن تبتسم فـي سرها. كانت أم روضة قد لمحت أكثر مـن مـرة أنـه لا يناسـب روضـة كالأخضر. فرس وخيالها.

بالمزاح، بالمداعبة، كانت تقول "الجار للجار والأقربون أولى بـالمعروف" أو "أختي شموس، لماذا لا نضع جبناتنا على خبزاتك ونقول يا الله؟". إذن، الآن تضع عينها الثانية على نواف، تريده لابنتها الثانية صبحية.. تبصيرتها هذه كلها لتلك الغاية، "مسكينة، أنت أم روضة... لا تدرين أن الريـاح تجـري بمـا لا تشتهي السفن.." لم تكن شمس تسمع ما تهذي به الجارة، فقد انكشـفت اللعبـة وماذا يعنيها ان تدخل تلك اللعبة؟ "نواف لصبحية؟ حسن.. نواف عاشـق متـيم يريد البناء بمعشوقته.. الأخضر لروضة؟ لا، ما حزرت، جارتي أم روضـة. الأخضر لا يفكر بأية فتاة.. ربما حياء وخجلاً، وربما هماً وانشـغالاً. وكانـت شفتاها تفتران عن ابتسامة ملأى بالألغاز وهي تودع جارتها أم روضة...

نواف يتسكع في شوارع دمشق وساحاتها. هو، منذ أربعـة أشـهر، لـم يأتِها... الشوق في صدره يدفعه للتسكع فيها... يتجول هنا وهناك، يرى مـاذا تغير بعده، ماذا استجد... باب الجابية، الحميدية، الحجاز، كلها كانت كما هـي، زحام وباعة، عمال في الساحات وتجار في المحلات والسوق الذي يحجب سقفه المعدني أشعة الشمس مليء بالغادين والآتين، الحواة والمحتالين، بسطات علـى الأرض، بضائع على الحبال، سلع معروضة هنـا وهنـاك، والكـل ينـادون بأصوات تختلط حتى لا يميز المرء واحدها من الآخـر.. ضـجيج وعجـيج، وعازف ناي يعزف أنغاماً ساحرة تضيع في قلب الزحام فلا يسمعها أحد....

على ضفة بردى وجد نواف نفسه.. هناك لم يكن عجيج ولا ضجيج... بل صخب نهر تصطفق مياهه وهي تلطم جنباته.. كان آذار في أواخره، وكان قـد جاء دافئاً كربيع الهند ساكناً كبقر بوذا.. لـم تتحـرك عواصـفه ولـم تهـدر رعوده... شمسه بلا غمائم تهيء شواظها لصيف قاس وتذيب فـي الآن نفسـه ثلوجاً تراكمت على ذرى الجبال... مياه بردى عكرة... تكـاد تصـل حافـة الضفة.. في سنين كثيرة يطوف النهر... ذوبان الثلوج يأتي بمياه فـوق طاقـة

النهر الصغير فتفيض على كلا الجانبين.

وحيداً راح نواف يتأمل النهر المتدفق، سارحاً بخياله إلى غدران وقنوات، سواق ومستنقعات.. هناك في أم العيون حيث الحبيبة، ربما، تتنقل "الله!! ما أحلى تلك المرابع!! ما أجمل العيش في أحضان الطبيعة!!" وتبسم نواف وهو يستعيد في ذهنه آخر مشوار ضمتهما فيه أحضان الطبيعة... "الله أبدع الطبيعة.. وصنع المدينة الإنسان، وشتان بين ما يبدع الله وما يصنع الإنسان!!" وأعجبته الفكرة. هو لا يدري كيف جاءت أو من أين لكنها أعجبته. "سأعمل على العودة غداً" تمتم بكثير من التصميم" إذن.. اذهب إلى أبيك... لا تعتمد على أمك فقط، بل فاتحه هو نفسه بالأمر" وقفل نواف عائداً للتو.

كانا يغلقان المحل، الأب وابنه البكر، فهشا للقادم الجديد وبشا... بالأحضان أخذاه فيما تناول هو يد أبيه مقبلاً.

-كم أنا مشتاق إليك!! قال للأب الذي ضمه بين ذراعيه طويلاً... ثم علق معاتباً:

-لو كان ذلك صحيحاً، لما كنت تغيب عنا الشهور...

-أنا أكره المدينة، أنت تعلم يا أبي!!

الأب يعلم، بل هو نفسه يكره المدينة.. هذه المسارات المحددة، هذه الأزقة الضيقة، تلك الجدران التي تنتصب أمامك حيثما نظرت. كم يكرهها!! كم يريد التحرر منها!! كم يحلم بالانفلات في برارٍ واسعة لا حدود لها يجري على ظهر حصان فيشعر أنه على بساط ريح!! لكن ماذا يفعل؟ الظروف لا ترحم، الحياة تدفعك في هذا المجرى أو ذاك كما يدفع النهر بمياهه دون أن تملك من أمرها شيئاً.

دونما إبطاء، بدأ يسأله عن القرية، الأهل، الأصحاب، الأحباب، وهم يسيرون في طريقهم إلى المنزل، الأب وأبناه، هذا من جانب وذاك من جانب فخيل للأب لحظة من الزمن أنه نسر بجناحين يحلق بهما عالياً فوق الأزقة والجدران... فوق السابلة والزحام... "من مثلي؟ جناحان قويان يحملانني حيثما شئت، بعيداً عالياً كيفما أردت".

في المنزل، تستقبله شمس وماؤها الساخن كالعادة.. هو يستحم كل يوم، ولم لا؟ دمشق بأنهارها السبعة غزيرة المياه وافرة العيون فلماذا لا تستفيد شمس من مياهها تلك نظافة واستحماماً؟ كل عصر، كانت تحمي الحمام.. هنا، ليس

كما في المضارب أو أم العيون تغلي الماء على الموقد.. لا.. الحمـــام جـــاهز يكفي إعطاءه عود كبريت، ثمة زيت كاز، مـــازوت، حطـــب وكلهـــا ســـريعة الاشتعال تعطي ناراً لاهبة تحول الماء إلى متعة ودفء. لم تعد شمس بحاجـــة إلى حمام سوق كما كانت في حماة ولا إلى أم عمر تدلك لها ظهرها... هنا... الحمام عند الطلب، وضحة تحضره بطرفة عين فتستحم شمس ويستحم عزيـــز. شمس تستمتع أن تحممه بيديها، طفلاً بين يدي أمـــه، معشـــوقاً بـــين ذراعـــي معشوقته، بل ليس هناك أمتع من أن تفرك جسده بالليفة والصابون، تسكب عليه الماء، تتلمس بشرته، تتخلل بأناملها شعره، وتحتوي بكل ما فيها مـــن حـــواس ذكورته الهاجعة حيناً، المتيقظة حيناً، تلك التي باتت منذ ما يقرب العشرين عاماً قطب رحاها...

-الشغل زين؟

-الحمد لله. من قنع عاش..

-لكنك اليوم فرح لا قانع..

-نواف أفرحني.. كنت بحاجة إلى رؤيته.

-إلى رؤيته أم إلى أخبار القرية؟ سألت ضاحكة وهي تعلم تعلقه بالقرية.

-الله!! قال عزيز متنهداً متجاهلاً السؤال، كم شعرت بالفرح وأنـــا أســـير بينه وبين الأخضر كأنني نسر أحلق عالياً وهما جناحاي...

-صحيح.. العيال كبرت.. قالت شمس وهي تنوي أن تستغله مدخلاً إلـــى القضية الجديدة..

-فقط، العيال؟ قال مبتسماً وهو يدور على كرسيه الخشبي الواطئ طارفـــاً بأجفانه من بين قطرات الماء المنسكبة على رأسه.

-ماذا إذن؟ أتعني أني أنا كبرت؟ ردت ممازحة وهي تجلـــس القرفصـــاء أمامه لتغدو عيناها في عينيه وشفتاها قرب شفتيه، وضعاً طالما انتقلا منه إلـــى عناق سريع محموم.

-لا.. لا.. لا.. معاذ الله.. أنت لا يمر عليك زمان، ولا يعرفك حدثان.

-أجل.. معك ألغي الزمان.. أشعر كأنني أسبح في الهواء عالياً عالياً وهو تحتي على الأرض، يمد يده فلا يطولني، يقفز إلي فلا يصل.. أنا معـــك أظـــل الصبية الفتية التي لا تكبر، الشباب الدائم الذي لا يشيخ..

-كم أنا محظوظ إذن!! فليس أبغض إلى قلبي من تجاعيد الوجوه وتقوس الظهور!!

-لا.. اطمئن.. معك، وبحبك، أظل الفتية النضرة الغضة البضة..

-وأنا أموت في الفتية النضرة، الغضة البضة، قاطعها وهو يضمها بين ذراعيه فتندلق على صدره مهلبية بيضاء رجراجة..

-يا إلهي! ما ألذك وأمتعك!! غمغم عزيز، فيما بدأت شمس تتملص منه متلفتة متمتمة:

-العيال يسمعوننا.. هم.. بانتظارنا..

-أتدرين شمس؟ تابع الرجل وهو يشتعل شوقاً للمرأة التي ما انفكت تؤجج فيه النار. كل يوم أجد فيك سحراً جديداً، متعة جديدة.. قولي ما السر؟

-الحب.. ردت وهي تكاد تذوب شوقاً للجسد المحموم الذي تملصت منه للتو، حيث يوجد الحب يوجد السحر، التجدد، المتعة.. يوجد كل ما يشتهي الإنسان...

-وأنت، مازال لديك ذلك الحب؟

-متأججاً كعهدك به.. بل تدري عزيز؟ أحياناً.. أشعر كأنني مازلت وإياك بجانب الغدير هناك، في حميا الصبا وجذوة الحب...

-إذن يحيا الحب!! قال شبه هاتف وهو يأخذ طاسة ماء ساخن يسكبها على رأسه...

-هو حي باق.. متجدد إن لم يكن فينا ففي أبنائنا..

-ماذا تعنين؟

وللتو روت له قصة نواف، من جاء بدافع الحب وكله رجاء أن يمدا له يد العون...

-نمد له يد العون.. قال عزيز وقد أبهجه أن يكون نواف امتداداً له في دوحة الحب...

-تخطبها له؟

-أخطبها...

-وتذهب إلى القرية؟

-أذهب...

-غداً؟

-غداً.. ولم تملك شمس إلا أن تفغر فاها عجباً من سرعة موافقة عزيز.

ملء عزيز إحساس طاغ بأن التاريخ يعيد نفسه. هو في السيارة إلى القرية مثلما كان قبل عشرين عاماً يقطع الطريق ذاته لكن على صهوة فرسه الشقراء.. يدفعه شوق عارم للوصول إلى الحبيبة، شمسه المشرقة وبرفقته فصيل عسكر، إيفاء لوعد كان قد قطعه للشيخ نواف..

"أهكذا نواف ياترى؟" وهز رأسه بالإيجاب.. عزيز على قناعة الآن أن التاريخ لا يملك إلا أن يعيد نفسه... الإنسان واحد، في شرق الأرض، في غربها، في قديم الزمان، في حديثه. المشاعر ذاتها تتملك الإنسان، العواطف نفسها تدفع به، الغرائز، الأفكار لم يتغير ولن يتغير شيء... ذلك الحب الذي دفعه إلى شمس ذات يوم يدفع نوافاً الآن إلى دملجة...

التوق، الشوق، الانجذاب، كل ما جعله يطير إلى حبيبته ذات يوم، يجعل ابنه يطير إلى حبيبته اليوم، فماذا تغير؟ ماذا هناك من جديد؟ النسخة نفسها تتكرر، الإنسان ذاته يعود، ترى أليس هذا هو الخلود الذي يبحث عنه الإنسان؟ يجد نفسه في أبنائه، يتجدد في ذريته.. فيرضي في داخله توقاً أبدياً للخلود...

بالأمس أراد أن يسبر ابنه، يسبر عواطفه وأحاسيسه، وهم يتحلقون حول مائدة العشاء. مازحه، سأله الكثير من الأسئلة وكان في كل جواب من أجوبته يجد نفسه، هو عزيز المر يعود فتى نضر العود غض الإهاب يشعله لهب الحب وتحرقه نار العشق فلا يملك إلا أن يبحث عن الماء الذي يطفئها...

"أأنت متأكد من حبك لها؟" سأله فتململ نواف محمر الوجنتين خجلاً من الكلام عن سر دفين غال ربما يكره أن يعرضه للأنظار...؟ ألم يكن هذا هو شأني نفسي، يوم اكتشفت الأنثى في الفارس الملثم، واكتشفت حبي لها!؟ ألم ألزم الصمت أياماً وشهوراً لا أبوح بما في نفسي ولا أريد لأحد أن يعرف ما في صدري حتى جاءت على حصانها الأدهم تطلب إلي أن أخطبها؟" تساءل في سره ثم تابع مبتسماً!! "وهي؟ أتحبك"؟ "حتى الجنون" أجاب هذه المرة بمزيج من الفخار والحماسة "لكنها ابنة عمك، ألا تشعر بها أختاً لك؟" بل أشعر بها نصفي الآخر الذي لا يمكنني العيش بغيره. "وأعجبه جواب نواف" النصف الآخر، أجل، ذاك الذي يشعر المرء بحاجته الشديدة إليه حتى يجده، فإذا وجده أراد التوحد معه، الانصهار فيه. أهو نصف الدارة الآخر، لا يسري فيه تيار كهربائي إذا لم يكن موجوداً؟" هو، عزيز، كان يتملكه ذلك الإحساس، وهو

يناجي النجوم، يخوض المعارك، يقطع الفلوات، كان يشعر أن هنــاك نصــفه الآخر، بعيداً، في مكان ما من البادية. وأن حياته كلها تتوقف على استعادة ذلك النصف، على الالتحام به حتى يسري تيار الكهرباء في دارته وتكتمل دائرتــه من جديد. "وجدك.. علي المر؟ أهو موافق؟" "جدي كاد يطير فرحاً، بل قال لي (سأستعيد بك أباك الذي فقدت)".. أجابه الفتى العاشق، فشرد الأب. "إيه يا أبــاً أعبد!! كم كان بودي أن نعيش معاً!! نحمل معاً أعباء هذه الحياة، نعــالج معــاً سراءها وضراءها.. لكنها الرياح تشتت الغيوم لتتطاير أشــلاء هنــا وهنــاك، وربما لا تلتقي أبداً."

"وأبوها يونس؟ أمها عليا؟" سأله عزيز وهما مازالا على مائــدة العشــاء. لكن هذه المرة أجابت شمس سابقة ابنها، هازة رأسها "عليا!؟ كــان حلمهــا أن تتزوج أباه فكيف لا يكون حلمها الآن أن يتزوج ابنه ابنتها؟" ولم يملك عزيز إلا أن يبتسم.. شعور الضرة مازال يعتمل في داخلها حتى اليوم.. رغــم الزمــان والمسافات، ظلت شمس تشعر أن عليا هي الغريمة التي كرهت والمنافسة التي أبغضت. "لا تخف، أبي!! عمي يونس يحبني، امرأة عمي عليا تعبدني.. البيض المقلي لي، الزبدة لي، فخذ الفروج لي.. أنا المدلل لديها بلا منــافس فكيــف لا توافق؟" "حسن.. دعني أفكر يومين.. ثلاثة" قال أخيراً بنوع من ســبر غــوره. وانتفض نواف للتو "لا، أبي، أرجوك.. وعدتها أن أعود بكم في الحال" وأحــس عزيز بحميا الشباب وحرارة الحب تلفح وجهه "إيه!! هو ذا الشباب: دفق مــن حماسة واندفاع، هو ذا الحب: لهيب من توهج واشتعال" ولــم يســتطع عزيــز الإفلات فقد سارعت الأم تناصر ابنها، "لا ينشغل بالك نواف.. أبوك وافــق أن نذهب غداً"..

وتفرس عزيز في وجه شمس، هي متحمسة أكثر مما تصــور لمشــروع يجمع بين ابنها وابنة المرأة الغريمة والضرة.. "أهي مشاعر الحب تتقمصها من جديد؟".

هو نفسه كان يتقمص تلك المشاعر وهو ينهــب الطريــق نهبــاً إلــى أم العيون.. كأنه لا يصدق متى يصل "أجل الشباب.. حماســة وانــدفاع. الحــب حرارة ولهيب... ليس كحب الكهولة أناة وهدوءاً، ترويــاً وتفكيــراً يضــرب جذوره عميقاً في التربة كسنديانة موغلة في الزمان".

كانت السيارة تدرج بهم وهم في طريقهم إلى القرية وكان نــواف فرحــاً، ساعات ويصل... لم يعد هناك مسافات. كانت الحضارة قد ألغت المســافات...

والطريق إلى أم العيون لم يعد يحتاج إلى أيام وليالٍ... عند الضحى ســاروا... قبل المغيب سيكونون هناك "الله!! ما أروع الحضارة!! ما أعظم عقل الإنســان يبدع كل ما يوفر الراحة للإنسان، يخترع كل ما يسعد الإنسان!!".

كان الطريق حتى حمص معبداً.. لا حجراً ولا حصاة.. حملة الطرق التي شنها الفرنساوي إنما كانت لغاية في نفس يعقوب، عزيز يعلم ذلك، هم يريــدون ربط المدن، القرى، الدساكر، الضياع كلها ببعضها بعضاً، شبكة تسهل الحركة لسيارات الجيش ومصفحات الجند، مع ذلك الطريق حضارة، فيها فائدة للنــاس جميعاً، عزيز لا ينكر ذلك. الإسفلت يجعل السيارة تجري أسرع مــن فرســه الشقراء، تلك التي حزن عليها كثيراً حين ماتت... لكن الطريق الترابــي مــن حمص حتى أم العيون، لم يكن يسمح بمثل ذلك الجــري، الغبــار، المطبــات، الحفر كلها كانت تعيق حركة السيارة، تبطئ من سرعتها حتى ليغدو السير على ظهور الجمال أرحم بكثير...

صدم عزيز وهو ينظر إلى السهول حوله.. أيــن الخضــرة؟ الــزروع؟ الأعشاب؟ الزهور؟ الورود؟ في المدينة ينسى المرء الطبيعة، تغيب عنه ويغيب عنها فلا يفكر بها... كل ما كان يفكر فيه عزيز وهو في دمشق أن آذار خــذل الناس ذلك العام فلم يأت ماطراً هادراً كعهد الناس به بل جاء هيناً لينــاً، دافئــاً ساكناً وكأنه لم يعرف الزمجرة والهدر يوماً. عزيز يحب ربيع أم العيون.. حين تتحول الدنيا كلها إلى مروج من سندس أخضر تزينها أزهار من كــل صــنف وتطرزها ورود من كل لون. هنا وشاح من أقحوان، هناك شريط من نــرجس، هنالك الخزامى، شقائق النعمان ومتع عينيك على مد البصــر مهرجــان مــن ألوان... لكن ها هوذا ربيع أم العيون بلا مروج ولا سندس، بلا مهرجــان ولا ألوان.. وجرض عزيز بريقه متسائلاً بعينيه، فرد الابن:

-كان المطر عزيزاً هذا الشتاء، أبي!! ثم جاء آذار ليزيــد الطــين بلــة.. قطرة مطر واحدة لم تسقط فيه، فامحى العشب وذوت الزروع ظمأ لقطرة ماء.

ونظر عزيز إلى شمس بحرقة وحسرة:

-أتذكرين ربيع أم العيون؟

-أنا التي تذكر... وتنهد كلاهما وهما يســرحان، ربمــا فــي المــروج الخضراء التي كانا يتبارزان فيها بالسيف ويتسابقان علــى الخيــل ولا يشــبع واحدهما من الآخر دون أن يعرفا سبباً لذلك..

لكن خلافاً لجفاف الطبيعة كان ثمة خصب في عواطف الأهل: علي المر، يونس، حفيظة، عليا... الدار التي باتت تغص بالغرف والسكان فاعت كلها تستقبل القادمين بالأحضان.. الكل يقبل ويلثم، عليا تزغرد، وقد طغى فرحها على جميع القيود.. ولم يملك عزيز إلا أن يشعر بغصة في الحلق.. وحدها أم يونس كانت قد افتقدتها الدار. وحدها أم يونس كان قد خطفها الموت.

في الغرفة العتيقة، أول غرفة بناها علي المر، جلسوا ذلك المساء، أحاديث شتى وأسئلة وأجوبة لا تنتهي. كانت الغرفة تزدحم بآل المر، صغارهم وكبارهم، حتى فاضت إلى الغرف الأخرى.. فيونس، بزوجتيه الاثنتين، كان قد ملأ الدار أطفالاً.. دزينة أنجبتها عليا وستة عشر أنجبتهم حفيظة ولولا منجل الموت الذي حصد بعض هؤلاء وبعض أولئك لكان من الصعب أن تحويهم دار واحدة...

اللقاء حميم والشوق عظيم، شؤون كبيرة وشجون كثيرة وعزيزة يريد وصل ما انقطع. هو يجلس بجانب أبيه، ينظر إليه ولا يشبع.. علي المر الذي جاء إلى أم العيون في مطلع الكهولة قوي البنية شديد العزم كبير المطامح، غزا الشيب شاربيه، لحيته، رأسه حتى غدا كتلة من ثلج ناصع. حفيظة نفسها، انطبعت أقدام إوز تحت عينيها وحول شفتيها، كما حفر الحبل والزمن أخاديد عميقة في جبينها.. يونس أيضاً. كان الشيب يخط فوديه "آه منك أيها الزمان يدور دولابك ساكناً صامتاً فلا يشعر المرء، إلا وقد صار في الأسفل.. حيث القاع والتراب!!".

-إذن.. قحط هذا العام!؟ سأل عزيز أباه أخيراً.

-أجل، للأسف، أجاب الشيخ الذي صار رأسه كتلة من ثلج، لكن دون أن يكون قد خف سمعه أو ضعف بصره... بل دون حتى أن تكون قد ذبلت الحمرة في وجنتيه وشفتيه. منذ البداية كان المطر عزيزاً من حين إلى حين كان يهطل لكن خفيفاً عابراً، إلى أن جاء آذار بضربته القاضية

-المثل قديماً قال، تدخلت عليا وهي تزفر، إن أمحلت وراءها آذار، وإن أخصبت وراءها آذار..

-تعني، ليس هناك أمل؟ سأل عزيز أباه من جديد.

-ربما، إن جاءت مطرة الرابع أحيت بعض الموسم...

وأضاء قبس من أمل صدر عزيز... فالرابع من نيسان كثيراً ما يأتي

بالمطر لكأنه من ثوابت الطبيعة... هو يذكر، كم يعقدون من آمال على مثل هذه الثوابت: العجائز، السابع عشر من آذار، الرابع من نيسان كلها مواقيت تحمل للناس المطر، وإن خابت مرة فإنها نادراً ما تخيب..

-والمساحة؟ أقصد... زرعتم كثيراً؟

-أوه.. كثيراً.. كثيراً.. رد هذه المرة يونس الذي كان قد أصبح مزارعاً خبيراً وملاكاً كبيراً، فعلي المر لم يفوت فرصة في وضع يده على هذه الأرض وتلك من سهول خاوية وأراض بور.. وكل ما حول أم العيون سهول خاوية وأراض بور: "قليب الثور، تل الأحناش، أم الرجوم كلها كانت سهولاً بلا أصحاب وأراضي لم يستغلها أحد، إذن، لم لا يستصلحونها، هم الذين جاؤوا من الريحانة هرباً من ظلم العصملي وقلة الأرض وضيق ذات اليد؟

في اليوم التالي، تجول عزيز ورأى بأم عينه كيف نمت القرية وترعرعت، سكاناً وعمراناً... السكان الجدد الذين رفدوها، اللاحقون بهم من هنا وهناك، البدو الذين بدؤوا يتوضعون فيها رعاة لأغنامها، كلهم كانوا قد أسهموا في نموها وازدهارها... كانت السنوات الخصيبة قد تتالت عشراً أو تزيد، وكانت الغلال الوافرة قد فتحت باب الوفرة والثروة، وكان علي المر قد ترجم ذلك كله أغناماً وأبقاراً وخيولاً.. قطيع أغنامه يتطلب راعيين، أبقاره تملأ الدار خواراً والخيول تحمحم وتصهل.. بيت عز صار بيت علي المر.. عزيز يتجول فيه ويذكر الشاة الأولى التي جاء بها إلى تلك الدار.. يذكر الراعي العنزاوي الذي التهم الجبس التهاماً، هتافه مازال في أذنيه "حروش!! يابا.. ما أطيبه الحروش!!".

يصل إلى المطبخ.. خمسة مواقد متجاورة هناك.. قدران يفوران على النار.. ورائحة الدهن واللحم تغزو أنفه.

-مشتاق للمغطوطة؟ تبادره عليا مذكرة إياه بأم رؤوم خطفها الموت باكراً، يهز رأسه بالإيجاب.. في الحال... سأحضر لك رغيفاً في الحال... تتابع، طابعة قبلة هنا وقبلة هناك على وجنتيه أختاً حنوناً لا أكثر... ويضحك عزيز... لذكريات صباه!؟ أم لسرعة فهم عليا؟! أم لرغيف المغطوطة الذي يتراقص بخاره أمام عينيه؟

عليا منهمكة، مشغولة، ذاهبة آتية، أليست أم عروس؟ ويتساءل عزيز "أين عليا" تلك التي كانت تضج شوقاً للرجل وشهوة لامتلاكه؟ تلك التي حاصرتني في المغارة تريد افتراسي؟ غزتني في فراشي والناس من حولنا رقود قد

توقظهم أقل نأمة؟" وأحس بغصة في حلقه... كان الزمن قد أوغل في البعد، وكان كل ذلك قد مضى بعيداً، ربما دون أن يترك أثراً لأقدام.. دملجة زهرة متفتحة، عطرة نضرة كأمها أيام زمان. كلها حيوية ونشاط. عيناها تشعان حباً لنواف كلما نظرت إليه.. "الولد صاحب ذوق.. الفتاة تستاهل" فكر عزيز وهو يحضر نفسه لطلب يد الفتاة.

-البنت ابنتك، رد يونس على الطلب ثم حسم علي المر الأمر.

-هاتوا الشيخ رجب الحمود يقرأ الفاتحة....

أنهى رجب الحمود قراءة الفاتحة فانطلقت الزغاريد تملأ أرجاء أم العيون... لا زغاريد عليا وحسب.. بل حفيظة، نرجس، وحتى شمس التي لم تكن تتقن فن الزغاريد.

-بعد ثلاثة أيام، العرس... حدد علي المر الموعد، إذ كان عليهم أن يعدوا العدة له، يدعوا المعازيم، يأتوا بالشيخ نواف وقبيلته من الغرب حيث بارزت شمس ذات يوم ابن عمها معجون، وبين هذا وذاك أن ينزلوا إلى حماة، يأتوا بالحلي والملابس، بالذهب والعطور جهازاً للعروس.. أياماً ثلاثة لم يعرف فيها عزيز رأسه من رجليه، في حماة كان عليه أن يرى الأصدقاء القدامى، حسني الدباغ الذي ترهل كثيراً.. امتلأ كرشه شحماً ولحماً حتى لم يعد يستطيع حمله.. الدكتور نورس، صابر، المحامي إبراهيم، كلهم رآهم، وشمس وعليا تجهزان العروس!.. لكن حين بدأ العرس: قرع طبل وعزف مزمار، كان عزيز على رأس الدابكين، يمسك بيد شمس ويلوح بمنديله فرحاً حتى الحافة، سعيداً حتى اللانهاية، يدق الأرض بقوة وعزم وملؤه شعور طاغٍ بأنه يجدد الحياة مرة ثانية، يعود للشباب من جديد...

-5-

-أمي، أمي، الفرنساوي.. الفرنساوي، دخلت بدور هاتفة بأمها وقد أفاقت للتو من قيلولتها...

-الفرنساوي؟ ردت الأم وهي تجلس في سريرها، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... هل فعل أبوك شيئاً؟ هل يسأل عنه؟

-لا... أمي، بل هو يسأل عنك.. أنت..

-أنا؟ وماذا يريد مني الفرنساوي؟

-لا أدري، أمي.. لكنه ذلك الضابط الكبير الذي زارنا من قبل.

-القومندان رينو!! قالت وهي تنزل من سريرها إلى الأرض، بعجالة واضطراب تبحث عن ثيابها، أيريد أن يكون جيراراً آخر؟ تمتمت دون إيضاح ثم اتجهت إلى ابنتها تدفعها دفعاً، اذهبي إلى وضحة... دعيها تدخله إلى غرفة الضيوف..

وكما دخلت بسرعة خرجت بدور بسرعة، فيما تابعت شمس بسرعة أكبر ارتداء لباس يمكنها به أن تقابل ذلك الضابط الكبير الذي عرفته أول ما عرفته وهي معتقلة مع النساء السبع والعشرين.. ثلاث مرات ساقوها من زنزانتها الرطبة المعتمة ذات الرائحة النتنة إلى مكتبه فاخر الفرش واسع المدى عالي السقف كأنما بني ليكون مخدعاً للملكة المغناج ماري أنطوانيت، لكن القومندان الذي كان يشارف الأربعين حوله إلى مكتب للتحقيق. كل مرة كان يسألها الأسئلة نفسها: من أنت؟ ما دورك في المظاهرة؟ ما علاقتك بالتنظيم النسائي؟... وكانت كل مرة تجيبه الأجوبة نفسها؟ أجوبة عامة عائمة لكنها صحيحة صادقة لا أثر فيها لكذب.

في المرة الثالثة دعاها للجلوس، طلب لها فنجان قهوة فانكمشت خائفة "أيعيد سيرة جيرار؟" لكنه لم يعد سيرة ذلك الكابيتان الذئب الذي أراد أن يفترس ليلى. بل كان معنياً بأن يعرف المزيد عن شخصيتها، هويتها، ماهيتها. وخيل إلى شمس أنها تسمع جرساً يقرع منذراً بالخطر، وللتو تحولت إلى سلحفاة تحتمي بقوقعتها من الخطر. "لا تخافي.. بل اعتبريني صديقاً لا محققاً.. وحدثيني عن نفسك". لكن كيف تحدثه عن نفسها وهي مذ جاءت إلى دمشق لا تعمل إلا لإخفاء نفسها؟ كيف تعتبره صديقاً وهو فرنسي مستعمر لم تر من أمثاله إلا الشر والويل؟ كيف لا تعتبره محققاً وهي مجرد سجينة يؤتى بها وتؤخذ رهينة الأوامر والنزوات؟ ولم يستطع القومندان الآتي من باريس، الحامل شهادات عالية من معاهد وكليات باريس المدنية والعسكرية أن يستجر السلحفاة من قوقعتها.. كانت شمس قد كزت على شفتها السفلى توجساً من شر قادم، وخوفاً من معركة ضارية تلوح نذرها في الأفق، لكن القومندان الأشقر الرشيق المائل للطول لم يأت شراً ولم يفرض معركة... العكس كان الصحيح، فقد أكد لها أنه لا يكن لها إلا كل احترام، فهي أولاً وأخيراً امرأة تؤمن باستقلال وطنها وحريته، تكافح من أجل استقلاله وحريته. فتحت عينيها إذ ذاك استغراباً لكنه أزال كل استغراب حين شرح لها أن التحقيق ليس مهمته، لكنه لكي يساعد النساء اللواتي زججن في السجن، طلب أن يحقق بنفسه معهن، وأنه لا يريد إلا التخفيف عنهن ومساعدتهن، بل هو سيطلب إخلاء سبيلهن.. "مكره أنت لا بطل"، خاطبته في سرها حينذاك، فدمشق كما أخبرها الحارس الطيب كانت مضربة إضراباً كاملاً، وفي رأس مطالبها لفك الإضراب إخلاء سبيل النسوة المعتقلات.. لكن القومندان عاد فأكد لها أن الإضراب عمل وطني هام وأنه هو نفسه مع كل عمل وطني بل هو ضد المندوب السامي وتصرفاته، هو الذي يرفض حبس النساء وقمع الحريات، ويبذل ما في وسعه لإطلاق سراحهن، كلام جميل لم تستطع شمس معه إلا أن تفغر فاها دهشة. لكن حين جاء الأمر بإطلاق سراحها، دهشت أكثر إذ أشرف القومندان بنفسه على إخراجها من السجن وإرسالها معززة مكرمة إلى منزلها، طالباً إليها فقط أن تسمح له بزيارتها، ولم تستطع شمس أن ترفض... مرتين متباعدتين زارها بعد ذلك تعرف فيهما إلى زوجها، حدثهما عن نفسه، سألهما عن نفسيهما طلب إليهما أن يزوراه، لكنهما لم يفعلا، فلمَ يزورهما مرة ثالثة؟

–مرحباً بك، سيادة القومندان.. رحبت به شمس وليس في ذهنها سوى ذلك

السؤال.

-مرحباً بك... مدام.. شموس.. رد القومندان بلكنته الأجنبية التي سرعان ما ذكرتها بالكابيتان جيرار... فكرت، من لا يأتي معك تعال معه... وكادت شمس تضحك من العين التي استعصت على القومندان فخرجت همزة.. لكن فكرة أخرى كتمت ضحكتها لينطق لسانها دون سابق تصميم:

-أرأيت؟ العين تلفظها همزة... والحاء هاء...

-وماذا أفعل.. أحاول لكن.. لا... أستطيع...

-كي تعلم أن العربية تستعصي على كل أجنبي فكيف تريدوننا أن نسلم لكم قيادنا؟

-ومن قال لكم أسلموا قيادكم؟

-حقاً؟ أنت لا تريد ذلك...؟

-أبداً... بل لا يعجبني فيكم أنتم العرب سوى هذا الإباء، عزة النفس...

"ايه يالعزة النفس!! يا للإباء!! هل ترك الدهر لنا شيئاً منهما!!؟ مئات السنين من القهر، الاستعمار، الظلم، الطغيان.. هل أبقت شيئاً من الإباء وعزة النفس للعرب؟" شردت شمس مع أفكارها حزينة متفكرة فيما كان الكولونيل يتحدث عن إيمانه بأن العرب أمة عريقة بنت حضارة وتستحق أن تفتح لها أبواب الحضارة... شعب من الأحرار، يستحق أن يعطى كل أسباب الحرية.

-تدري؟ أنا لا أصدق أذني؟ قالت شمس ساحبة نفسها من شرودها سحباً وقد أثارها أن يتكلم الرجل عن الأمة العريقة والشعب الحر...

-لا.. صدقي... مدام.. أنا مذ كنت في السويداء، كنت مع الشعب ضد الكابيتان كاربييه... رد القومندان بلكنته الأجنبية المكسرة وعينه التي تخرج همزة، بل أقول لك شيئاً.. حين وقعت حادثة القطة..

-وما حادثة القطة؟ من هو كاربييه؟ قاطعته شمس بفضول شديد هي التي لم تسمع بمثل تلك الحادثة...

-الكابيتان كاربييه كان الحاكم العسكري لجبل العرب وكنت أنا معاونه. كان الرجل متسلطاً مغروراً لديه ما يشبه جنون العظمة وأنا أكره التسلط والغرور فكيف بجنون العظمة..؟ سنين وهو يمارس على الناس ممارسات كريهة يرفضها العقل: يضرب، يقتل، يسجن، يفعل ما يشاء دون أن يحسب حساباً لوجدان أو أخلاق... ذات مرة ضاعت قطته فماذا فعل؟

-ماذا؟ ردت شمس السؤال بسؤال آخر.

فتش بيوت السويداء بيتاً بيتاً ثم فرض حظر التجول على المدينة كلها إلى أن يأتي أهلها بالقطة وحين لم يأتوا بها، حبس مختارها، اعتقل عشرين من وجهائها وألزم السويداء بدفع خمس وعشرين ليرة ذهبية.

-يا له من جبار طاغية؟!! لم تملك شمس نفسها فهتفت وهي تتصور المعاناة التي يمكن لحاكم ظالم أن ينزلها بالشعب!!

-لهذا وقفت في وجهه، حاولت دائماً الحد من ظلمه... وحين سافر في إجازة إلى باريس حرضت الناس على التظاهر ضده مطالبين بعدم إعادته!!

-أنت!؟

-بالطبع.. وتلك هي المظاهرات التي مهدت للثورة!! بل كانت الشرارة التي أشعلت الثورة..

-غريب!! أنت رجل غريب صدقني، وأنا أستغرب ما أسمع!!

-لا.. مدام.. لا تستغربي أم أنت تحسبين أن كل من في فرنسا يحب الاستعمار؟ ظلم الناس؟ قتل الناس؟

-هذا ما أحسب...

-خطأ مدام.. هناك في فرنسا أناس يكرهون الاستعمار مثلكم.. أناس يؤمنون بمبادئ الثورة الفرنسية نفسها، حرية، عدالة، مساواة... وبالتالي هم يؤمنون بالمساواة بين الشعوب، بحرية الشعوب، بحقها في الاستقلال..

-كم يسعدني أن أسمع ذلك.. قومندان!! قالت شمس وهي تتفحصه مدققة النظر، كأنما تريد أن تتغلغل إلى أعماقه فتتأكد أهو صادق أم كاذب؟ في نفسه غاية أم لا؟

-وكم يسعدني أن تصدقي ذلك فتعامليني على أساسه!! مرة أو مرتين فتحت شمس فمها لتقول له "ذات مرة صدقت كابيتاناً" قبلك فعاملته معاملة الند للند والصديق للصديق لكن تبين بعد ذلك أنه مجرد ذئب يريد نهشي"، ومرة أو مرتين عادت فأغلقت فمها وهي ترتعد خوفاً من أن تنبش قصة قديمة من قبر لن تخرج منه إلا أنتن الروائح.

-أ.. أ.. نا.. أ.. صدق.. أفلحت أخيراً في النطق وهي تتلعثم وتتأتئ، فتبسم القومندان وكأنه يعرف أسباب التلعثم والتأتأة.

-أنا أدري أن من الصعب عليك تصديقي، قال بحذر وتمهل، لكن كوني على يقين أنني معكم، مع نضالكم من أجل الحرية، ولهذا السبب أعجبت بكن وأنتن في السجن.. ولهذا السبب طلبت أن نوطد التعارف أكثر، أن نصبح أصدقاء أكثر...

وعادت صورة الكابيتان جيرار من جديد.. صديقاً يأكل مناسف الأرز والفريكة في بيتها وحين تلوح له الفرصة يغرز أنيابه ومخالبه في لحمها..

-يشرفنا.. قومندان.. ردت بتلعثمها السابق وتأتأتها، يشرفنا أنا وزوجي أن تكون صديقاً لنا!!

-صحيح.. أين عزو؟ سأل وهو يتلفت حوله كأنما يبحث عنه.

-للأسف.. كومندان.. عزو في حوران.. هو كما تعلم يتاجر بالحبوب وهذا موسم الحبوب..

-آ.. صحيح.. مدام.. وهو تاجر ناجح.. مثلما كان في الماضي عسكري.. ناجح... قال بتردد ونبرة من سرية أرفقها بابتسامة ونظرة ذات مغزى.

وللتو أحست شمس بشيء في داخلها يتقلص وينكمش.. بركة مائها الساكنة تضطرب وقد سقط فيها أول حجر.

-عـ.. عـ.. سكري.. ناجح!؟ رددت متسائلة.. ما.. ماذا تقول؟

-تدرين، مدام ؟ مذ رأيتك هناك في مكتبي أثرت في نفسي الكثير من الفضول وفي ذهني الكثير من التساؤلات.. قلت في سري يجب أن أعرفك أكثر.. أعرفك عن قرب.. أنت ورجلك وأهلك.. وعرفت.. قال بعد توقف وبنبرة الواثق من نفسه المتيقن من كل حرف ينطق به.

-وماذا عرفت؟ سألت شمس وهي تتصنع الشجاعة، فقد كانت في داخلها ترتعد ارتعادة فأرة فوجئت بقط. وكيف؟ وممن؟ تابعت تساؤلها وكلها إحساس أن القومندان رجل خطير وأن وراء زيارته أهدافاً أكثر خطورة.

-لا، لا يهم ما عرفت، وكيف أو ممن؟.. المهم عرفت شيئاً مما أريد وربما سأعرف الباقي... سأعرف كل ما أريد..قال بعد أن تفحصها لحظة من الزمن وهو يؤكد كل كلمة من كلماته...

واشتدت الارتعادة في داخلها.. نظرته كانت تعني الكثير.. "يا إلهي!! ماذا إن عرف أنني قاتلة جيرار!؟ إذن سيعدمونني!! الفرنساوي لا يسامح.. أقتل ضابطاً من ضباطه، إذن لن أفلت من عقابه!! وما العقاب؟ المقصلة؟ يا إلهي!!

الموت بالمقصلة فظيع!! لا.. لا أريد الموت بالمقصلة!!".

-ما.. ماذا مدام؟ أيزعجك حديثي؟ قال وهو يبتسم ابتسامة سكب فيها كل ما تعلمه في باريس من لطف ورقة تعامل بهما النساء.

-تفضل.. سيدي القومندان.. قهوتك، قالت وهي تسرع إلى وضحة، تأخذ منها صينية القهوة وتقدمها له، متجاهلة سؤاله.

-ميرسي.. مدام.. قال القومندان وهو يقف ملء طوله، وبكل أدب يأخذ فنجان القهوة.. محاولاً هو الآخر أن يتجاهل سؤاله.

"آه!! ليته هنا!! عزيز يمكنه أن يوفر علي التجربة!! يريحني من الجلوس معه وحيدين.. عيناه تتغلغلان عبر مسامي!! تبحثان عن ماضيّ!! عن أسراري!! أتراه يريد ابتزازي؟ يعرف الحقيقة ثم يطلب ثمن السكوت عنها؟!! يا إلهي!! أين عزيز؟ في المرتين الماضيتين لم أشعر بالخوف منه!! كان هنا عزيز، درعاً تقيني!! أما الآن.. فأنا دريئة مكشوفة.. معرضة لكل ما في جعبته من سهام.."

-أنت تشردين كثيراً مدام!! هل هناك ما يشغلك؟ قال بنبرة خاصة وهو يرشف أول رشفة من قهوته.

-لا.. لا.. فقط.. مشاغل الزوجة وقد غاب عنها زوجها، الأم وقد بدأ يبتعد عنها أبناؤها.

-بالمناسبة.. مبروك زواج نواف!!

-كيف عرفت؟ من قال لك؟ سألته وقد زاد خوفها، فالكومندان يعلم عنها أكثر مما تتصور.

-أهو سر، مدام؟

-لا.. لا.. نواف تزوج جهاراً نهاراً... عرسه كعرس ابن السلطان..

-عظيم!! وقد وصلتنا أخبار عرسه!! عرس ابن السلطان!!

"إذن هو يلاحقني؟ "راحت تتساءل وهي تستمع إليه يحدثها عما سمع من أنباء العرس ناظرة إليه بمزيج من تعجب ودهشة". جيرار آخر؟ يريد أن يدخل عالمي؟ يعرف أسراري؟ يا إلهي!! أية مصيبة!! "لكن توقفه المفاجئ عن الحديث جعلها تسارع إلى كسر الصمت.

-كان عرساً رائعاً ليتك شرفتنا بحضوره.. سبعة أيام بسبع ليال لا أحد

يأكل أو يشرب إلا من عرس نواف.. عندكم هناك، قالت وهي تشير بيدها إلى البعيد، لم تعودوا تقيمون مثل هذه الأعراس؟..

-عندنا.. هناك.. رد مبتسماً يشير الإشارة نفسها، لم يعد أحد يؤمن بمثل هذه العادات!! أعراس!! أياماً وليالي لماذا؟ الفتى عندنا يضع يده بيد الفتاة ويذهبان إلى الكنيسة أو السجل المدني، يسجلان زواجهما وينتهي الأمر...

"هو ذا الفرق بيننا، شرق وغرب.." كادت تقول له كما قالت ذات يوم للكابيتان جيرار "والشرق والغرب لا يلتقيان".

-أليس هذا أسهل، أكثر راحة، تابع القومندان حديثه دون أن يعير شرودها انتباهاً.

-بالتأكيد.. أسهل.. وأكثر راحة.. لكن أعود فأسألك: كيف؟ من أين عرفت؟

-لا.. مدام.. أنت أذكى من أن تسألي سؤالاً كهذا..

"أذكى!؟ ليتني كنت كذلك". بدأت تفكيرها الصامت لكنها لم تكمل فقد لاح في ساحة الدار ابنها الأخضر وهو يتجه إلى الغرفة الأخرى..

-الأخضر!! يا لأخضر!! هبت مسرعة إلى الباب وهي تناديه وقد شعرت أن باباً للفرج قد فتح لها.. هي لا تريد أن تجلس وحيدة مع القومندان. لم تعد تحب الجلوس وحيدة مع الرجال..

-مساء الخير، قال الأخضر وهو يدخل فرحاً بنداء أمه، لكن سرعان ما تسمر في مكانه وهو يرى القومندان.

-ابني الأخضر.. أريد أن أعرفك إليه سيادة القومندان.

-بون سوار.. مسيو أخضر!! أنت طالب المدرسة!؟ قال بكثير من العفوية والتباسط وهو يمد يده للفتى النسخة طبق الأصل عن عزيز.. بطوله الفارع وبنيته المتينة وعينيه السوداوين بنظراتهما الحادة كنظرات الصقر..

-بون سوار، مون قومندان!! رد ابن الثامنة عشرة وقد استعاد رباطة جأشه ماداً يده مصافحاً..

-بيان، تري بيان!! أنت تتكلم الفرنسية!؟

-مي.. وي... مون قومندان.. أنا تقدمت لامتحان البكالوريا هذا العام..

-حقاً؟ أنت فتى ذكي إذن!؟

–دائماً الأول في صفه.. تدخلت الأم وفي ذهنها أن تغير الجو كله وتزهو بابنها البارع المتفوق على أقرانه دائماً..

–إذن.. يجب أن تدرس في الجامعة!! تتابع دراستك بعد البكالوريا!!

–أكيد!! قال الفتى فتابعت الأم:

–سيدرس الطب.

–الطب!! لكن.. أين؟ سأل القومندان بشيء غير قليل من الدهشة.

–هذا ما لم نعرفه بعد.. قالت الأم فاكتفى القومندان بهز رأسه وكأنما كان يفكر، أخيراً قال وهو يربت كتف الفتى:

–إن كنت جاداً في دراسة الطب.. أخبرني.. ربما أستطيع مساعدتك!!! ثم نهض مودعاً الأم وابنها قبل أن يتاح لهما أن يسألاه كيف...

الأخضر، مذ دخل المدرسة، لم يكن يتصور نفسه إلا طبيباً يلبس المريلة البيضاء، ويضع السماعة على أذنيه، يمر بيده على المجذوم فيشفى وعلى الكسيح فيقوم، وكان ذلك الحلم يحضه على أن يبرز في صفه... "السرتفيكا" نالها بتفوق، "البروفيه" حاز عليها بامتياز و"البكالوريا" قدمها قبل أسبوعين وكله أمل أن يكون المتفوق كعادته.... في الصيف. هو يعمل مع أبيه، يساعده في تجارة الحبوب، يبيع، يشتري، لكنه في الشتاء طالب وحسب. لا يذهب، لا يأتي، همه الدرس والتحصيل، يسهر حتى مطلع الفجر، يفيق باكراً ولا يعرف غير درسه ومدرسته...

شمس تحب الأخضر كثيراً، تعجب بدأبه ومثابرته، بفهمه ومعرفته... مذ هربوا من حماة إلى القرية والبادية كانت تبدو عليه مخايل الذكاء. جده، علي المر، وضعه عند الشيخ الخطيب يحفظ القرآن، ويعلمه الكتابة والهندي... عند الخطيب برز الأخضر شديد الذكاء، سريع الحافظة.. رفاقه كانوا ما يزالون في جزء "عم يتساءلون" عندما كان هو يقفز قفزات أرنب حافظاً السور القرآنية واحدة تلو الأخرى مرتلاً آياتها بفصاحة الخطيب نفسه... وحين حفظ سورة البقرة أقام له الجد الفخور بحفيده حفلاً لم تشهد أم العيون له مثيلاً... أولاد القرية كلهم تجمعوا في دار الخطيب.. وضع الشيخ المصحف على رأس التلميذ النجيب الذي ختم المصحف بستة أشهر، ربط يديه كلتيهما فوق المصحف ثم جاءت الصبايا بدفوف يدققن عليها ويغنين. مر الموكب بأزقة القرية كلها، وكلما مر بباب خرج أهل الدار يرشونه بالزهور والأرز، بالملبس والسكاكر،

فيفرح الأولاد ويزدادون هزجاً ووثباً والفتيات دقاً للدفوف وغناء، منحنين جميعاً على الأرض يلتقطون الملبس والسكاكر. وحده الأخضر لم يكن يستطيع التقاط شيء، فيداه مثبتتان فوق رأسه والمصحف تحتهما يفرض عليه أن يظل الوقور المهيب الذي لا يرف له جفن. في ساحة القرية توقف الموكب، فك الخطيب وثاق الصبي الصغير ثم قدم له ورقة، فانطلق خطيباً في أهل القرية، يتحدث عن فضائل العلم والمعرفة، عن الفوارق بين العالم والجاهل فيما أهل القرية كلهم إعجاب بالصبي الذي مازال يلثغ... لسانه رغم قدرته على القراءة، لم يستقم بعد.. أحرف عدة لا تخرج منه سليمة تماماً... مع ذلك لم يثر ضحكهم بل إعجابهم... جده علي المر صفق له بحرارة وحماسة. أهل القرية كلهم صفقوا له بحرارة وحماسة، وحين انتهى احتضنوه جميعاً، بالدور احتضنوه، مقبلين لاثمين بل بعضهم رفعه بين يديه ثم قذفه إلى الأعلى كرة تطير في السماء...

سنتين بعد ذلك ظلوا في القرية، وسنتين ظل الأخضر عند الخطيب يقرأ ويكتب، يتعلم الهندي والخط حتى صار خطه يضاهي خط الخطيب نفسه جودة وإتقاناً. مقدرته على الجمع والطرح، الضرب والتقسيم لا تفوقها قدرة.. لكن ذلك كان السقف، ففي القرية لم تكن ثمة مدرسة، لا صفوف ولا شهادات.... لهذا ما إن جاء عزيز ينقلهم إلى دمشق حتى كانت فرحة الأخضر لا تضاهيها فرحةٍ ففي دمشق مدارس وبإحدى تلك المدارس التحق الأخضر يشق طريقه بسرعة النيزك.

ألهذا السبب كانت تحبه شمس؟ قلبها متعلق به تعلق العشق والهيام؟ لا... لا.. أبوه يقول: "ثمة سبب آخر"، ماهو؟ "تسأله فيجيب ضاحكاً" أليس هو نسخة عني أنا الحبيب الأول؟ "صحيح. شمس تعلم أن الأخضر نسخة عن عزيز وأن الحب للحبيب الأول فقط.. مهما نقل المرء فؤاده.

شأنه شأن المنازل، مهما غيّر فيها وبدل... حنينه يظل لأول منزل. كما يقول أبو تمام: شمس ترعى الأخضر، تحنو عليه كما لا ترعى أحداً أو تحنو.. طعامه خاص، تود دائماً أن تطعمه بيدها، تسقيه بيدها..

... تشفق عليه وهي تراه منكباً على كتبه، يقرأ، يدون، يستذكر، ... في بعض الليالي يسهر حتى تصيح الديكة ويرتفع الأذان في المآذن فتسرع إليه "وليدي... أشفق على نفسك... نم قليلاً.. خذ قسطاً من الراحة". وكالطفل الصغير تغمره بحنانها وقبلها ثم تطفئ النور لينام...

في قرارة نفسها، كانت أحياناً تكره جده الشديد ودأبه المتواصل.. تريده أن يرتاح، أن يرى نفسه، يعيش حياته.. هي ترى بنات الحارة يحمن حوله، سرب قطا حول غدير: روضة، فريدة، ميسر، حنان... كلهن يأتين لزيارة العمة شمس.. زيارة بدور.. بهذه الحجة أو تلك يأتين وهي على يقين أنهن لا يأتين إلا لرؤية الأخضر، لاستراق نظرة منه، لاختلاس كلمة، لكنه دائماً يخيب أملهن. روضة تحاول لفت نظره: تحية من هنا، سؤال من هناك وترغمه على رد التحية والإجابة على السؤال، بل هي يوم استقبال الدكتور الشهبندر، استطاعت أن تحشر نفسها بجانبه وتتبادل معه بعض العبارات.. روضة تحبه، شمس ترى ذلك في عينيها، في تلميحات أمها، في كلامها عنه وعنها...لكن ماذا عنه، هو المشغول أبداً، المنكب على كتبه دائماً؟

حين جاء نواف يقول لأمه "مدي لي فراش العنكبوت لأحط رأسي وأموت" كان احتجاج الأب المداعب أن الزواج من حق الابن البكر.. فكيف يتعدى عليه ويأخذ دوره نواف؟ لكن الابن البكر تنازل راضياً عن دوره وبارك لأخيه الزواج. الابن البكر همه الوحيد أن يتعلم. أن يصبح طبيباً...

حين خرج الأخضر من امتحان البكالوريا.. كان على ثقة أنه سينجح بتفوق، لكن كيف سيحقق حلمه الكبير؟ أين يدرس الطب؟ ذلك كان شاغله فكيف لا يفرح وقد وعده القومندان بالمساعدة؟

-حقاً، أمي.. أيساعدني القومندان؟ أتظنينه صادقاً؟ راح يسأل أمه المرة تلو المرة قلقاً وتلهفاً.. ومرة تلو المرة كانت الأم تهز رأسها حيث أشياء أخرى كان قد أثارها القومندان.

-لا أدري... ربما والدك يملك الجواب.. انتظر إلى أن يعود أبوك.. كانت تجيبه كلما سألها..

لكن الأب لا يعود.. هو منذ عشرين يوماً ونيف في الجنوب، يشتري الحنطة والشعير.. يحملها على ظهور الجمال قوافل قوافل.. تأتي إلى مستودع الميدان، تفرغ حمولتها وتعود، وهو هناك متربص مقيم. الأخضر يسألهم عنه فيجيبون "الموسم خفيف هذا العام.. وأبوك لا يريد أن ينعكس ذلك عليه.. هو يتحرك هنا... هناك كي يسبق الآخرين، يدفع سلفاً للفلاحين فلا يبيعون للآخرين".

قبل أن يطلع الموسم، كان الشريكان قد تنبها للأمر. "السنة محل، والغلال ستكون ضئيلة وعلينا أن نؤمن حاجتنا مسبقاً" وأعجب عزيز بالفكرة فتحرك في

الحال إلى أبي دحدل وأبي شدهان.. شرقي حوران، غربيه يمد يد العون لهـذا الفلاح المحتاج أو ذاك المعتاز، ويدفع سلفاً ثمن غلالهم. "السلف" طريقـة فـي البيع يعرفها الفلاح ويضطر لممارستها على الدوام. فهو الفقير دائماً، الذي يجد نفسه رهن العوز والحاجة دائماً لا يملك إلا أن يبيع غلاله قبل جنيها.. الشـعير يكون ما يزال زرعاً أخضر في الأرض، الحنطة لم تسبل بعد، مع ذلك يبيعهـا صاحبها مراهناً على أنها ستعطي سنابل في كل سنبلة مائة حبة.. بثلثي الـثمن يبيعها الفلاح أحياناً وبنصفه أحياناً أخرى، التجار يستغلون حاجتـه فيفرضـون عليه السعر الذي يشاؤون لكن عزيزاً لا يفعل ذلك... صبري نفسـه لا يوافـق على استغلالهم، "نعطيهم الآن ثم نحاسبهم بسعر الموسم" كان يقول لعزيز وكان عزيز يمضي بوجدان راض وضمير مرتاح إلى أصحابه في حوران يقدم لهـم السلفة وينتظر الموسم تاجراً أثيراً وصديقاً صدوقاً.

في الخربة، الطيبة، أم المياذن، نوى، داعل، كان الصديق الصدوق يجـد أصحابه وقد هيؤوا له غلالهم، وكان يعبئ العدول لتحملها الجمال إلى الشـام.. قافلته نفسها، جماله ذاتها، جمالوه ذاتهم يعملون معه كل عام، فعزيز لا يتخلـى عمن يعمل معه. وحده عواد لم يستطع العمل هذا الموسـم.. فـالفتى الطويـل النحيل كان يقدم البكالوريا.. لكن سوء حظه، أو ربما شدة فقـره جعلتـه يقـع صريع المرض.. أهي سوء التغذية؟ فقر الدم؟

عواد لا يدري.. ما يدريه هو أنه قدم ثلاث مواد وكل شيء على ما يرام، لكن ما إن جاءت المادة الرابعة حتى أحس بدوار في رأسـه ثـم خلـل فـي توازنه... أفاق بعده فإذا هو في الغرفة الطينية البائسة التي استأجرها في درعا كي يقدم امتحانه...

أسبوعاً كاملاً ظل عواد طريح الفراش.. صريع الحمى...

وزائرتي كأن بها حياء.... فليس تزور إلا في الظلام.

هو في النهار واهن ضعيف، ناعس يغالب النـوم، بـارد الجسـم بـارد الأطراف لكن ما أن يجيء الليل حتى تأتي الحمى لاهبة تئج أجاً فيـئج معهـا جسمه أجاً...

"يضيق الجلد عن نفسي وعنها.... فتوسعه بأنواع السقام"

وهكذا ظلت، تغيب في النهار لتعود في الليل.. سبعة أيام بسبع ليال، ثم ما أن ولت حتى كان امتحان البكالوريا نفسه قد ولـى. لكـن نظـام الامتحانـات

الفرنسي رحيم... لعلهم هناك في فرنسا كانوا يعلمون مسبقاً أن عواد بن عايد العوايدة سيمرض في الامتحان ويتعذر عليه إكماله.. فخرجوا بفكرة "الإكمال". يرسب الطالب بمادتين أو ثلاث في فحص الصيف فيقدمها في فحص الخريف. فكرة جميلة أحس بها عواد، كأنما هي المن والسلوى نزلت على قلبه وآلى على نفسه أن يتفرغ للدرس لا يعمل في نقل الحنطة أو الشعير، جمّالاً أو عتالاً إلى أن يؤمن نجاحه.

عزيز زاره أكثر من مرة في منزله، ربت كتفه مباركاً، حاشراً بعض النقود في جيبه صديقاً مساعداً يشفق أكثر ما يشفق على الفتى المكافح الذي توفي أبوه وهو ما يزال في اللفائف فأبت أمه إلا أن تنشئه خير تنشئة حتى لو كدحت ليل نهار، تفلح أرضها وتزرعها كالرجال، تحصد وترجد كالرجال لتثبت كل يوم أنها أخت الرجال.

عزيز فرح بقراره، بتفرغه للدراسة، هو يريد له النجاح كما يريده للأخضر... "لكن المسكين حظه عاثر!!" كانت أمه لا تنفك تردد" لم تأته الحمى إلا يوم الفحص، "وكان عزيز حزيناً على حظه العاثر، كما كان يفتقده، مثلما يفتقد البطحيش...

البطحيش يفتقده أهل درعا، حوران، بل الحاكم الفرنسي، قائد الجندرمة، الجندرمة أنفسهم يفتقدونه... فالمنطقة مذ غاب، قبل عشرة أشهر ونيف، لم تسمع بغارة مفاجئة على مخفر، لم تشهد قتل ضابط أو إطلاق نار أو تفجير قنبلة، وكأنما في الأرض السلام وفي الناس المحبة... بعضهم قال انها المعاهدة أتت أكلها، اقتنع الناس بها وقبلوا بنودها.. بعضهم الآخر كان يؤكد أنه هدوء الانتظار والتربص... يرقب الناس سلوك الفرنساوي أهو جاد حقاً في إعطاء البلد استقلاله أم هو ثعلب مراوغ؟" وبانتظار الجواب كانت قد توقفت العمليات.... لكن القلة منهم كانت تعرف الحقيقة... عزيز من هذه القلة، هو الذي بات يداً وحيدة.. واليد الوحيدة لا تصفق، يده الثانية البطحيش والبطحيش كان قد ذهب إلى فلسطين.

كان العرب يسمعون من هناك نداء الاستغاثة وكان بعضهم يلبي، فيما بعضهم يصم الآذان... من جبلة انطلق شيخ أسمر البشرة أبيض اللحية، أسود الجبة ومعه كوكبة من فرسان مدججين بالبنادق والرصاص.. اتخذ من يافا موقعاً له، جمع حوله الرجال، شيباً وشباناً وكلهم يشتعلون حماسة للوقوف في وجه يأجوج ومأجوج ذاك الذي جاء من الغرب ولم يجيء من الشرق+... جند

صفر الوجوه، سود القلوب كانوا يتحركون مع يأجوج ومأجوج، يلتهمون الأرض، يلتهمون البيارات، يلتهمون الثروات... سماسرة يغرون ويبتزون، نساء يغرين ويغوين، عصابات تهدد وتقتل ولا يملك رجال فلسطين إلا أن يخضعوا للتهديد والابتزاز، للإغراء والإغواء. شيخ جبلة، أسمر البشرة، أبيض اللحية، أسود الجبة، حث الرجال، شحذ الهمم، شحذ معاولهم، يريدهم أن يبنوا سداً في وجه يأجوج ومأجوج... فأرغى الريح الأصفر وأزبد "لا أحد يقف في وجهي... أنا الريح الأصفر أمر على الأخضر فييبس، اليابس فيحترق.. أنا الطوفان يكتسح أمامه كل شيء"..

في قلب ذلك السد كان البطحيش، صخرة صوان لا يحتها سيل ولا يخرقها رصاص.. أشهراً ظل يقاتل.. عصابات، إرهابيين، شتيرن، آراغون... يهوداً، انكليزاً، كلهم أعداء كانوا وكان البطحيش يعرف كيف يقاتل الأعداء.

في الليل يمكن أن تمر دورية جند فيرسل لها قنابله حجارة من سجيل تجعلها كعصف مأكول... في النهار يقنص.. بندقيته ألمانية حديثة، يده ثابتة لا تهتز.. وتل أبيب جارة يافا، تمر عصابة فيصوب إلى الرأس ويجندل الرأس، حواجز طيارة يرفعها في وجه المعتدين فيصفي المعتدين.. السماسرة يهاجمهم، تجار الأرض يباغتهم، عاهرات يهوذا يرعبهن فالمعركة معركة حياة أو موت ولا رحمة لمن يهددك بالموت....

المعركة واضحة، الأهداف واضحة والشيخ أسمر الوجه أبيض اللحية أسود الجبة يحددها بدقة: طرد يأجوج ومأجوج، منع الجراد من أن يغرز في التراب... يبيض ويفقس في الأرض.. المؤامرة كبيرة، هو يعلم ذلك، ويحدث رجاله بذلك... لكنه يقول بكل ثقة وإيمان "لا يموت حق وراءه مطالب.. فكيف إذا كان وراءه مقاتل؟" وكان الرجال كلهم يتحولون إلى مقاتلين... بل لقد رأى البطحيش، بأم عينه، النساء يتحولن إلى مقاتلات... نساء يافا، حيفا، القدس.. كن يقفن جنباً إلى جنب مع الرجال، يزودنهم بالطعام، يحملن الذخيرة، يضمدن جراحهم، ويزغردن.. يهتفن ويزغردن كلما حقق رجالهن نصراً...

"لن ندعهم يغتصبون أرضنا"، كانت النسوة يرددن وراء الشيخ أبيض اللحية، "نروي ترابنا بدمنا ولا نفرط بذرة منه". وحين بدأ الجند صفر الوجوه أتباع يأجوج ومأجوج بالتساقط، دبر بعضهم مكيدة "نرسل لجنة"، "فيك الخصام وأنت الخصم والحكم"، رد الشيخ أبيض اللحية.. "لا.. اللورد بيل رجل نزيه محايد"، وضحك الشيخ المهيب "لو يد جورج يفاوض لو يد جورج، هكذا قال

سعد زغلول ذات يوم" وتابع الشيخ القتال... يده تقترب من رأس الأفعى، تشد على العنق، تكاد الأفعى تلفظ الأنفاس.. لكنها تفح صارخة، تستغيث، فيشدد رجال بيل النكير على الشيخ، يضربونه بقوة على اليد التي تشد على عنق الأفعى... وبيل يلوح براية المهادنة والصلح "تقسيم البلاد إلى ثلاثة أقسام" قسم ليأجوج ومأجوج وقسم لكم وقسم يظل تحت حمايتنا.." وتتعالى الصرخات من جديد رفضاً لحل أشبه بالكارثة.... واحتجاجاً على مكيدة تكاد تنفذ.. رأس الأفعى يفح فرحاً وقد اقتنص الاعتراف الأول بدولة يأجوج...

"ترفضون اقتراحنا!؟ تعصون أوامرنا؟ خذوا إذن"، عربد زبانية بلفور، الرجل الذي أعطى مالا يملك.. فانهمرت عربدتهم على الرافضين رصاصاً وقنابل راحت تمزقهم إرباً إرباً.. إحدى تلك الرصاصات أصابت عظم الفخذ من البطحيش فألقته أرضاً يروي دمه التراب...

أحد رفاقه حمله نازفاً حتى الثمالة، وضع له الأعشاب التي تقطع النزيف، سقاه الدواء الذي يحفظ اللحمة ما بين الروح والجسد فأبت روحه أن تفارق جسده...

بعدئذ، نقل إلى أقرب قرية، أسعفه المجبّر، عالجه الحكيم العربي وهناك ظل شهوراً طريح الفراش.... ثم ما إن بات باستطاعته أن يسير على رجليه حتى كان كل شيء قد انتهى: السدود كلها انهارت، ويأجوج ومأجوج يعيثان فساداً في فلسطين.

-البطحيش يريدك، همس فتى يافع في أذنه دون أن يعلم كيف، أو من أين جاء.

-وهل عاد؟ صرخ صرخة فرح كادت تفشي السر. فعلى البيدر، حوله، كان بضعة رجال وفتيان.. وكانت القافلة على أهبة الاستعداد محملة بالحنطة والشعير... الليلة صيفية قمراء، بدرها يحتضن أشعة الشمس فينسكب فضة على الأرض ويشع ألقاً ساحراً للأبصار آخذاً بالألباب.

-أجل... هو حيث تلتقيان عادة... قال الفتى ثم أسرع بالانسحاب. كان عزيز يريد مرافقة القافلة، فقد انتهى الموسم وأخذ عزيز ما يريد من حبوب.. لكنه البطحيش... الرفيق الغائب فكيف لا يطير إليه؟..

الكرك حي متشابك البيوت، ضيق الأزقة، متصل الأسطح، حتى ليشكل كتلة واحدة في وجهك يذكرك بقلعة الكرك ذاتها، تلك التي ظلت تتوسط الفيافي

قروناً وقروناً مشرفة من عل، شامخة أبية، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها.. في عمق الأعماق من تلك القلعة وفي أبعد زاوية من أحشائها كـان البطحـيش يتمدد على حصيرة عتيقة، عكازه إلى جانبه، فالفخذ لم يعد كما كان.. والرحلـة مضنية من القرية المطلة على البحر إلى هضاب العدو، من جبال السامرة إلـى وادي الأردن.. بحيرة طبريا عبرها بزورق صياد، اصطاد له سمك المشط ثـم شواه على رمل الشاطئ الشرقي.. "آه يا لطبرية الرائعة!! يا لمياهها الدافئـة!!! يا لسمكها الشهي اللذيذ!! "كان البطحيش يسري في الليل ويسير فـي النهـار.. قبل طبريا كان الإنكليز، حماة اليهود وصنائعهم، وبعد طبريا كان الفرنسـاوي حلفاء الإنكليز وأنصارهم... فكيف يظهر البطحيش؟ هو يعلم أن الفرنسـاويين يترصدونه. غيابه تلك الفترة لا يعني نسيانهم له... هم أرباب الحقد والانتقـام، أينسون حقدهم عليه وحبهم للانتقام منه؟ مع وادي اليرموك سار.. أتان صـبور حملته على أوعر الطرق واجتازت أضيق المسالك.... وتحت جـنح الظـلام، حين يتحول الكرك إلى بعبع يخيف الفرنساوي فلا يقربه جند ولا درك، تسـلل البطحيش إلى عمق الأعماق ذاك، إلى عش النسر تلك الزاويـة القصـية مـن أحشاء الكرك...

عزيز يعرف مسالك الكرك، يعرف دورب عش النسر. جاءتـه الهمسـة فأمر القافلة بالمسير ومثلما انسل البطحيش انسلالاً فعل عزيـز ذلـك إلـى أن وصل إلى العش. بالأحضان استقبله البطحيش، وبالقبل أغرقه عزيز.

-حمداً لله على سلامتك!! أي فراغ تركت!! أي خـوف عليـك خفـت!! وانسابا جنباً إلى جنب نهرين من شوق. صاحت ديكة الليل وسـكتت شـهرزاد عن كلامها المباح ولم تصح ديكتهما ولا سكتا عن الكلام، مباحاً وغير مباح.

كان عزيز يشتعل قلقاً لمعرفة ما جرى وما يجري على أرض فلسطين... الغموض يلفلف كل شيء... لكن البطحيش بـات قـادراً علـى كشـف ذلـك الغموض: الانتداب البريطاني على فلسطين جاء لغاية واحدة: تقـديم فلسـطين على طبق من فضة لأبناء يعقوب... بريطانيا وضعت خططاً سـرية محكمـة وحكامها اليهود ينفذون تلك الخطة: اضطهاد اليهود في أوربا.. طرد هتلر لهـم من ألمانيا إنما كله لهدف وحيد: دفعهم للهجرة إلى فلسطين... ولكي يحققوا ذلك بيسر وسهولة يزرعون في أذهانهم أن الرب يهـوه يفـتح لهـم البـاب علـى مصراعيه لتحقيق حلمهم بالعودة إلى أرض الميعاد... أليسوا شعباً بـلا أرض؟ إذن ليذهبوا إلى أرض بلا شعب...

-لكن، ثمة أناس في فلسطين، فأين يذهبون؟ سأله عزيز وهو يتنهد حسرة.

-في نظرهم، هؤلاء مجرد غوييم... أجاب البطحيش الذي بات يعرف الكثير عن اليهود وفلسطين

-غو.. ماذا؟ قال بتعجب وقد فاجأته الكلمة.

-غوييم... أي... بهائم.. قطعان من السائمة ليست من البشر في شيء... وكادت عينا عزيز تخرجان من محجريهما...

-كيف إذن يسكتون عليهم؟ لم لا يفجرون بهم الأرض والسماء؟

-هم يحاولون.. وإلا ما الذي فعله الشيخ القسام؟ رجال الثورة؟ الكل هناك يعلن أن البلاد كلها، الشعب كله، على مفترق طرق، إما النصر والحياة وإما الهزيمة والموت...

-إذن، لم توقفت الثورة؟ لم لم يستمر القتال؟

-حين ينتهي وقود النار هل تسأل لماذا انطفأت؟. بدأ البطحيش بنبرة من أسى، بعدئذ شرح لعزيز كيف تكالبت قوى جبارة على الثورة الوليدة: عصابات اليهود من جانب وجنود الاحتلال من جانب آخر، لا مبالاة الحكام العرب من جهة وسكوت العالم من جهة أخرى، حتى سقط رجالات الثورة واحداً تلو الآخر وانهارت قواها شيئاً فشيئاً. بعدئذ جاءت الضربة القاضية: الكتاب الأبيض الذي أصدره البريطانيون وليس له من غاية سوى خداع العرب وإسكاتهم إلى حين.

-كم كان بودي أن أكون معك فأقاتل بجانبك، قال عزيز وهو يتنهد متحسراً على فوات فرصة من فرص العمر.

-عزيز، الاستعمار واحد، في سورية، في فلسطين.. الاستعمار واحد، نقاتله هنا فكأننا نقاتله هناك...

هز عزيز رأسه مثنياً على الفكرة، ثم اعترف لصديقه أنه طوال غيابه لم يستطع إطلاق رصاصة واحدة، شاكياً له فتور همة الناس وتسليمهم بالأمر الواقع، على أمل أن تعطيهم فرنسا حريتهم واستقلالهم...

-الحرية تؤخذ ولا تعطى، قال البطحيش بحرقة وألم... والاستقلال لا ينال إلا على جسر من التضحيات..

-نعاود معركتنا إذن؟ سأل عزيز بفرح شديد، وكأن انقطاعه عن مقارعة الاستعمار كان غمه الأكبر..

-بالتأكيد... سورية يجب أن تتحرر.. البلدان العربية كلها يجب أن تتحرر... الآن أنا على قناعة تامة أن فلسطين ستضيع لأننا ضعفاء، مجزؤون، مستعمرون.

بعد ذلك، تشعب الحديث شعباً شتى ثم لم يتوقف حتى بانت الخيوط الأولى للفجر، لكن قبل أن ترقد أجفانهما كانا قد تعهدا أن يتابعها سيرتهما الأولى: مقارعة للاستعمار لا تهدأ.

عاد عزيز إلى دمشق فتبين له للتو أن عليه أن يقارع الاستعمار، ليس في ساحات القتال وميادينه السرية فحسب، بل في بيته ذاته.

-أطلت الغياب وأنا بأمس الحاجة إليك، بادرته شمس هامسة وقد خلا لهما الليل والفراش..

-أنا أيضاً بأمس الحاجة إليك.. بأحر الشوق إليك، رد عزيز وهو يأخذها بين ذراعيه شاداً ضاماً، لاثماً مقبلاً وكل ما خطر بباله أنها حاجة الجسد وشوق الحب.

-لا، لا ما هذا قصدت، غمغمت شمس وهي تتملص من بين يديه. انكمش عزيز متشنجاً وكله استغراب أن لا تكون شمس متحرقة شوقاً للقياه، أن لا ترمي بنفسها بين ذراعيه لتذوب توقاً ورغبة.. "إيه!! أهو السن أطفأ نار الحر!؟ أهو الزمان ولى برغائب الجسد ولهب الروح".. كانت عيناه تخاطبان الحبيبة بهمس خفي لا تسمعه الآذان بل تقرأه العيون عاتبة لائمة.. فالحب في قلب عزيز كان ما يزال راسخ الأركان، ضارباً جذوره عميقاً في تربته البكر.. فكيف لشمس أن لا تستجيب؟ كيف لحبها أن لا ينفجر حمماً وقد التقيا بعد غياب؟ هو يذكر أن أجمل ساعاتهما تلك التي يلتقيان فيها بعد غياب.... أحلى أيامهما أيام لم الشمل... لكأن الفرقة تضرم نار الحب، البعاد يدفعك للالتحام فتعمل على محو المسافات، على الانصهار في بوتقة الحب من جديد...

-ماذا؟ زعلت؟ سألته وقد رأت انكماشه وتشنجه.. وحين لم يجب متفحصاً إياها متفكراً، تابعت.. أرجوك، عزيز، حبيبي، لا تؤاخذني.. ثمة أمر خطير يشغلني..

-أمر خطير!؟ يشغلك؟ ردد وقد استنفر شيء في داخله فجأة.

-أجل.. القومندان رينو!! بدأت لكن دون أن تكمل، كأنها لا تدري كيف تنقل له الخبر.

-ماله القومندان رينو؟

-جاء لزيارتنا في غيابك... أجابت، كأنما سهّل سؤاله عليها الجواب..

-كابيتان جيرار آخر!؟

-هذا ما فكرت فيه، لكن يبدو أن الأمر أخطر من ذلك أيضاً.

-كيف عرفت؟ ماذا قال؟ بدأ أسئلته لكنها قطعت عليه الطريق مشيرة بيدها أن:

مهلاً.

كلمة بكلمة ولحظة بلحظة، نقلت شمس لعزيز زيارة القومندان فارتسمت على محياه سيما الخوف.

-هكذا إذن!؟ عرف أنني كنت عسكرياً؟

-بل عرف كل شيء عن عرس نواف، عن القرية.

-وحماة؟

-لم يأت على ذكرها، لكن الأمر واضح: زيارته ليست لوجه الله، بل تقربه كله منا ليس لوجه الله.

-عزيز يعلم أن مخاوف شمس في محلها، فالسر الذي حرصا على إخفائه طوال اثني عشر عاماً مهدد بالإفشاء الآن.. هو يعلم أنه ما من أحد يعرفه، لكن إن أمسك القومندان برأس الخيط، تقصى وبحث، ألا يصل إلى نهاية الخيط؟ لكن... من أعطاه رأس الخيط؟ صبري؟ مستحيل... لورنس؟ أجل... ربما، فالكولونيل صديقه ولعله استدرجه فزلق لسانه بما يكشف شيئاً عن ماضيه. لكن كيف له أن يكشف السر نفسه وهو لا يعرفه؟ اطمأنت نفس عزيز قليلاً، وبنوع من المكابرة، استجمع شجاعته، وبصوت أجش قال:

-لا، لا تخافي.. سرنا في بير عميق لا يمكن أن يصل إليه أحد..

-ما عدا هذا القومندان.. ردت شمس وهي تزفر زفرة حرى، انه ثعلب مراوغ لا تدري كيف يحفر الأنفاق للتحرك تحت الأرض هنا، هناك، فلا يراه أحد... عزيز... يجب أن نعرف من حديثه عنا.

-ما أحسبه إلا لورنس.

-إذن، يجب أن نتأكد من لورنس...

في الأيام التالية، صار ديدن عزيز أن يذهب إلى لورنس، لكن الأمير

غائب... ولا أحد يدري أين؟ ربما هو في البادية، ربما كان في نجد، في بيروت، فالأمير واسع العلاقات، كثير الارتباطات، سندباد رحلات.. لا يحط في مكان إلا ليرحل... يحب الحياة، يحب الجديد، يحب التغيير.. تستهويه الحضارة، تجذبه الكهرباء، أنوار باريس، لندن، لكأنما تعاف نفسه كثبان الرمال ومضارب العربان، داره الواسعة في الحي الذي سمي باسم عائلته تعج بالناس.. عبيد سود، بدو سمر، رجال بيض، خدم، حشم، ضيوف، أقارب، لكن دون أن ينقصهم شيء: الطعام، الشراب، المال، كل شيء يظل متوفراً لهم وكأن الأمير على سدة عرشه.

-هو في القاهرة، أسر له أحد عبيده الأقربين، وعجب عزيز. لكن عجبه ازداد أكثر حين عرف السبب. أسمهان تغني هناك وهو يحب أسمهان.

-أمن أجل أسمهان يذهب إلى القاهرة؟ لم يملك عزيز إلا أن يتساءل، فقد بدا له الأمر مثيراً للاستغراب. هو يحب الطرب، يستمتع بالغناء لكن أن يتحمل مشقة السفر إلى القاهرة كي يسمع غناء بدا له أكثر من مثير للاستغراب...

لورنس يخالفه الرأي، هو يتباهى بحبه لأسمهان وتحمله مشاق السفر إلى القاهرة لسماع صوتها الرخيم الذي، كما يرى، لم يعرف العالم مثيلاً له.

-آه!! صرح الأمير لصاحبه: ذاك الذي ظل ينتظره أكثر من عشرة أيام!! لو سمعتها وهي تغني:

"أهوى...

يا من يقل لي أهوى

أسقيه بايدي القهوة.."

إذن لحلقت في السماء طرباً ونشوة.. هز عزيز رأسه موافقاً على كلام الأمير، وكل ما يشغل باله أن ينتهي من أخبار الطرب ورحلته إلى أسمهان كي يتفرغ لحديثه عن رينو وما تحدثا عنه هو ورينو.

لورنس لا يتذكر تماماً ما تحدثا عنه.. طلب إليه عزيز أن يتذكر، عصر لورنس دماغه عصراً لكنه لم يخرج إلا بصورة مشوشة غامضة:

-هو يعلم أنك لست من الرولا.. ثم أراد التأكد مني...

-وأكدت له؟ سأله عزيز بدهشة...

-كان الحديث عرضياً و.. بدأ الأمير ثم جلس بعد اتكاءة وكأنما تذكر..

أجل.. أجل... هو حلفني إن كنت من الرولا أصلاً أم لا.. ولم أستطع أن أكذب.. لكن لماذا تسأل عزو؟ ألحق الأمير سؤاله إلحاقاً فتلجلج عزيز واضطرب..

-لا.. لا.. لا شيء.. رد عزيز باقتضاب مؤثراً الصمت على أن يزلق لسانه بكلمة.. لكن حين خرج كان على يقين أن القومندان يتقصى عنه هو وشمس.. ليس من الآن بل من قبل وأن استقصاءاته دافعها الشك والريبة.

-دعنا نرحل، اقترحت شمس وقد عاد عزيز بجواب لورنس المشوش الغامض.

-ماذا؟ سأل عزيز فاتحاً عينيه على سعتهما.

-نرحل، نترك دمشق إلى حيث لا يجد لنا القومندان أثراً...

-وبيتنا؟ أرزاقنا؟ تجارتنا؟.

-حياتنا أثمن، عزيز.. وهي مهددة بالخطر!!

-إلى هذه الدرجة خائفة.؟

-وأكثر عزيز.. أنت تعلم، ميتهم لا يموت.. واستقصاءات القومندان ليست عبثاً.. لابد أن لها غاية: مقتل جيرار. هو ولا شك لغز محير مازالوا يعملون على حله حتى اليوم... وإذا حلوه هلكنا.. أنا وأنت هلكنا. وبدت شمس خائفة أكثر من أي وقت مضى.

-يا حيف!! الفارس الملثم يخاف إلى هذا الحد؟ عقب عزيز بنبرة فيها مزيج من معاتبة وتشجيع.

-فارس ملثم!!؟ إيه.. سقى الله تلك الأيام!! حين كان الفارس الملثم قلباً كالصوان وزنداً كالفولاذ!! بمفرده، يملك الشجاعة لأن يواجه جيشاً.. هو الذي لا يخاف على نفسه أبداً. لكنه اليوم يخاف على الزوج والحبيب.. الأبناء والبنات..

وحده الفرح أنساها الخوف، أنساها الخطر، أنساها القومندان رينو... فقد طلعت الصحف في الصباح التالي بأسماء الناجحين في شهادة البكالوريا وكان اسم الأخضر في رأس القائمة...

وللتو لعلعت الزغاريد في أرجاء الدار..

ثلاثة أيام بثلاث ليالٍ ظلت الدار تعج بالمهنئين والمهنئات. الحلويات

توزع، المشروبات تقدم، القهوة تصب والفرحة ملء الدنيا.. شمس تود لو كانوا في المضارب.. عند الشيخ نواف، إذن لذبحت لنجاح الأخضر خرافاً وخرافاً.. لكن في المدينة!!؟ الجدران تسد الآفاق، البيوت تتزاحم، الأزقة تضيق بالناس ويكتفي عزيز بجوقة الفرح، تأتي في المساء، يلعب فتيانها بالسيوف، يرقصون ويهزجون، ومع رقصهم وهزجهم يرقص عزيز، ترقص شمس، تحلق بأجنحة الفرح.. نساء الحارة كلهن يحلقن معها فرحاً فليس في كل يوم ينال أبناء الحارة شهادة البكالوريا. الكتّاب هو غاية المنى، المدارس تعد على أصابع اليد الواحدة في البلاد كلها، الأمية متفشية، فكيف لا تفرح شمس وابنها ينال البكالوريا؟

-ابني.. حبيبي.. رفعت لي رأسي!! كانت تردد كلما رأته عبر الزحام وبعد الزحام، وكان يرد فرحاً وزهواً.

-وسأرفع رأسك أكثر!! سأجعلك أم الطبيب!!

-أجل.. أريد أن أكون أم الطبيب!! وتغزو رأسها نشوة لم تغزها من قبل كما ترى في عيني روضة فرحاً لا يضاهيه فرح.. ينكتم كلما سمعت بكلمة طبيب...

عزيز يكاد يطير فرحاً هو الآخر.. يشعر أنه هو الذي نجح، هو الذي سيصبح طبيباً. شعور لم يعرفه قط!! "أهذا هو الامتداد؟ التجدد؟ الاستمرار؟". هو يشعر أن ابنه يحقق ما كان هو نفسه يحلم بتحقيقه.. يشعر أن الأخضر هو امتداده عبر الزمان، امتداده عبر المكان فكيف لا يفرح؟ بوده لو كان في القرية أيضاً، إذن لأقام الأعراس ولجاء بالطبول والزمور، ولذبح الخراف والجديان!!" آه!! يا للقرية، أمداء واسعة وآفاق شاسعة!! تتواثب فيها وتتقافز، تهتف وتفرح فيردد العالم كله أصداء فرحك!!".

مع الفرحة عاد السؤال يدور في المنزل "كيف يصبح الأخضر طبيباً؟ أين يدرس؟" كانت جامعة دمشق ما تزال وليدة كلية الطب فيها ما تزال تحبو، فكيف يحقق الفتى حلمه؟

سألت شمس صديقتها نازك فأجابت:

-في القاهرة.. يمكنه أن يذهب إلى مصر، يدرس الطب هناك. لكن حسبة بسيطة أجراها عزيز وشمس جعلتهما ينكمشان خوفاً، القاهرة بعيدة وهي بحاجة إلى نفقات ربما لا يستطيع عزيز تحملها، ومضى الأب بفرحه وهمه إلى الدكتور الشهبندر.

-عظيم!! هتف الزعيم فرحاً بالنبأ!! ألف مبروك!!

-بارك الله فيك ياسيدي!! رد عزيز يشيله جناحان من الزهو والفرح، لكن المشكلة أنه يريد أن يدرس الطب!!

-وأين المشكلة؟ سأل الرجل المستنير الذي يجد حلاً لكل مشكلة، في بيروت جامعة أمريكية تدرّس الطب. أنا نفسي درست فيها، وهذه هي بيروت.. رمية حجر!!

وبدا لعزيز أن الحل معقول.. كلية دمشق لم ينصحه أحد بها، لكن بيروت قريبة فعلاً والجامعة فيها أمريكية، جهاز التدريس، الإدارة، كل ما فيها كأنك في نيويورك، هكذا قال الدكتور الخبير الذي درس فيها قبل ثلاثين سنة ما يريد الأخضر أن يدرسه اليوم.

-والنفقات؟

-بيروت رخيصة!! يعيش كأنه هنا.. ثم يمكنني أن أزكيه هناك فيساعدوه!! قال الطبيب وهو يتذكر كيف درس هو نفسه بمساعدة الآخرين دون أن يكلف أهله أي عبء.. أهذه هي الحياة؟ يساعدك الناس لتساعد الناس؟ إنها السنة التي لا يملك أحد لها تبديلاً، وخرج عزيز وهو يكاد يطير فرحاً. لقد وجد الحل...

لكن ما إن وصل إلى المنزل حتى وجد في انتظاره حلاً آخر. كان القومندان رينو يتصدر غرفة الضيوف، وكان معه الأخضر، فيما سارعت شمس لاستقباله قرب الباب الخارجي.

-لقد عاد.. عزيز... أنا خائفة.. الرجل لن يتركنا سيعكر فرحنا.. فماذا نفعل؟

-دعينا أولاً نرَ ما يريد.

هدأ عزيز الزوجة التي عاودها الخوف من رجل ربما يستغل المناسبة كي يبحث ويتقصى لكن بكل لطف ودماثة بدأ الرجل الحديث.. مباركاً.. مهنئاً، فرحاً سعيداً حتى بدا وكأنه أكثر فرحاً وسعادة منهما، بعد ذلك توجه إلى الفتى، وبفرنسية رقيقة ناعمة بدت أشبه بنغمات أوتار، راح يحدثه ثم يسأله.. الأخضر يجيب والقومندان فرح بإجاباته. أخيراً توجه إلى شمس.

-مدام، لقد وعدتك بمساعدته وأنا عند وعدي.. قال مخاطباً الأم التي كانت طوال ذلك الحديث تنقل ناظريها بين ابنها والقومندان انتقال مشاعرها بين

الفرح والخوف. "معقول!؟" تردد السؤال في جمجمتها وهي تفتح عينيها دهشة وتعجباً... كان خوفها من القومندان قد أنساها وعده بالمساعدة فلم تأت على ذكره لعزيز، وكان تفكيرها بالسر الذي يبحث عنه القومندان قد غيَّب عن ذاكرتها كل ما عداه.. لكن ها هوذا يأتي مهنئاً مباركاً وقبل هذا وذاك يؤكد التزامه بالوفاء بالعهد.

-أية مساعدة، سيادة القومندان؟ سارع عزيز للتدخل وقد فاجأه قول لم يسمع به من قبل...

-هذا الطالب النجيب سيدرس الطب على حساب الحكومة.. أجاب الرجل وهو يربت ظهر الفتى الذي بدا وكأنه على وشك الطيران.

-يدرس الطب على حساب الحكومة؟ هتف الأب والأم هتاف التعجب والفرح.

هز القومندان رأسه هز التأكيد، مخرجاً من جيبه ورقة ختمت بخاتم الحكومة وكتبت بلغة لا يستطيع فك حروفها عزيز أو شمس...

-أجل... قال، وهو يسلم الورقة للطالب النجيب، وهذه منحة باسمه يدرس بموجبها الطب في باريس...

-6-

"يا إلهي!! أي اختراع رائع هذا الذي يسمونه البريد!!" كانت شمس لا تفتأ تكرر مذ جاءتها أول رسالة من الأخضر تطمئنها على وصوله بالسلامة إلـــى باريس. وكلما أبدت إعجابها بذلك الاختراعِ الرائعِ كان عزيز يــزداد ضـــحكاً. "البريد موجود منذ القدم وليس هو اختراعاً جديداً.. أيـــام الخلفـــاء الأمـــويين، العباسيين، كان هناك بريد وموظفو بريد!!" "صـــحيح، لكـــنهم كـــانوا ينقلـــون مراسلات الدولة بين الولايات والعاصمة، الأطراف والمركز... ولـــيس كهـــذا البريد الذي ينقل رسائل الناس كلهم إلى الناس كلهم وبسرعة لا تقل عن سرعة الحمام الزاجل" "هه!! أمسكتك!! الحمام الزاجل!! بعظمة لســانك قلــت هــذا!! بسرعة الحمام الزاجل، وماذا كان يفعل الحمام الزاجل؟". على هذا النحو كـــان الزوجان يتناقشانِ. عزيز يصر على أنه ليس هناك من جديد بـــل كلـــه قـــديم يتطور شيئاً فشيئاً وشمس مفتونة باختراعات جديدة تفرزها الحضارة كل يـــوم: بدءاً من البريد وحتى الطيارة، السيارة، الهاتف، الحاكي، الإذاعـــة، الكهربـــاء، والقائمة تطول وتطول.

"من يصدق؟ هذه الرسالة خطتها يد الأخضر قبل خمسة عشر يوماً؟ خلال نصف شهر فقط قطعت تلك المسافات الطويلة.. عبرت بلدان أوربا كلها لتصل إلينا هنا في دمشق!!".

شمس مفتونة بما يتفتق عنه العقل البشري، عن ابتكارات كان يحلـــم بهـــا الإنسان... بساط الريح، المرآة السحرية، افتح يا سمسم، كلهـــا أحـــلام كانـــت تراود الإنسان مذ عرف الأحلام، ثم هاهي ذي كلها تتحقق.. بهذا الشكل أو ذاك تتحقق. شمس تسمع الأخبار، الأحاديث، الأغاني من مذياع لا يزيد حجمه عـــن سحارة بندورة... حسبها أن تدير قرصاً صغيراً ليأتيها صوت المـــذياع الـــذي

يتكلم من لندن "هنا، هيئة الإذاعة البريطانية ثم ينقل أخبار العالم" تشامبرلين طار إلى باريس ليلتقي بنظيره الفرنسي.. هتلر يستعرض قواته العسكرية الهائلة.." وإذا أرادت أن تشنف أذنيها بصوت سيد درويش أو عبده الحمولي وضعت أسطوانة على الحاكي ثم أدارت إبرة.. "إبرة تخرج صوتاً رخيماً وموسيقا عذبة، كيف؟ يا إلهي!! فقط لو أعرف كيف؟" ولم يكن باستطاعة عزيز أن يشرح لها كيف.. نازك، صديقتها حاولت، لكن وقفت في النهاية عاجزة إزاء استفساراتها الكثيرة فاكتفت بأن زجرتها ضاحكة "تريدين العنب أم قتل الناطور؟" هي تريد العنب، صحيح لكن الإنسان خلق وكله فضول وحب استطلاع... حين ركّبوا لها الهاتف في المنزل، بلغ فضولها أشده. وطوال أيام ظلت ولا شاغل لها إلا أن تدير مقبضه، ترفع السماعة ليأتي صوت السنترال "نعم.. من تريدين!؟ أي رقم تطلبين؟" وتطلب أم فريد، جارتها أم قعود، زوجها في المحل.. متعجبة، مندهشة، تتحدث وكأنها لا تصدق أنها تتحدث، لا تصدق أنها تسمع. وحين باحت بعجبها ودهشتها تلك، تنطع عزيز للشرح "افرضي عندنا قط، رأسه في البيت وذيله في المحل، إن دعست أنا على ذنبه ماذا يحصل؟" "يموء، يصرخ"، ردت شمس "عليك نور"، تابع عزيز شبه هاتف "يطلق صوتاً، وهكذا الهاتف: قط يدعسون على ذنبه هناك فتسمعين صوته هنا" "لو أسمع صوت الأخضر فقط!! لو يحدثني من فرنسا!!" راحت شمس تتمنى "لا، أنت طماعة، شمس" رد عزيز مداعباً "حسبك أن رسائله تأتيك بانتظام فتعلمين كل شاردة وواردة". شمس تعلم أنها طماعة، أحلامها كبيرة.. دائماً، لا تفتأ تتنقل من حلم إلى حلم، وكأنها تجسد البشرية التي ما فتئت مذ وجدت تحلم، تطلق لعنانها الخيال، فتتخيل الأفضل، تحلم بالأحسن ليعمل العقل بعد ذلك على تحقيق الأفضل والأحسن...

-ما هذه خالتي؟ سألت روضة الخالة شمساً وهي تجلس إلى جانبها، قرب المدفأة.

-رسالة الأخضر الجديدة، تدخلت بدور ابنة الرابعة عشرة غامزة ضاحكة... تقرأها ولا تشبع منها أبداً، مثل بعض الناس...

-اذهبي.. اذهبي.. هاتي لنا إبريق شاي... زجرتها أمها بنبرة المداعبة، فقد كانت نار المدفأة تغري بشرب الشاي. خرجت بدور دون تردد "عطشان الشاي يرويك.. بردان الشاي يدفيك" كان الكل يقول ذلك، مردداً الدعاية في الإذاعة البريطانية، وكان شباط البارد يدفع المرء للبحث عما يدفئه.

-ماذا يقول؟ ما أخباره؟ سألت روضة على استحياء وهي تشير بإصبعها إلى الرسالة، وكأنها لا تعرف عنها شيئاً..

-بخير.. صحته جيدة.. دراسته ممتازة يقول انه أنهى دورة اللغة.. صار يتقن الفرنسية مثل الفرنسيين.. بدأت شمس بزهو يبرق في عينيها، ويد تحرك الرسالة يمنة ويسرة متشممة رائحتها كلما اقتربت من وجهها.. فيما كانت عينا روضة تلاحقان الرسالة وكأنما هما مشدودتان إليها بخيط سري..

-يخلي لك إياه خالة... الأخضر شاطر.. ذكي.. علقت الفتاة بنبرة الهمس وكأنما تخجل أن ترفع صوتها..

-طوال عمره هكذا.. في الشهر العاشر بدأ يتكلم وفي الثاني عشر كان يمشي.. عند الكتّاب كان أبرع التلاميذ وحين أدخلناه المدرسة هنا أدخلوه مباشرة في الصف الثالث.

-أعلم.. خالة.. هو حكى لي ذلك..

-صحيح!؟ كان يحكي لك؟ سألتها شمس وقد داخلها استغراب مفاجئ.

-أحياناً، عندما كنا صغيرين.. كنا نلتقي.. وكنا نلعب معاً..

شمس تتذكر أن روضة كانت تأتي كثيراً إلى المنزل.. بدور أصغر منها بسنتين والأخضر أكبر منها بثلاث، بين بدور والأخضر، كانت روضة تجد ضالتها من لعب ولهو، تسلية وتفريج. أخواتها في المنزل يصبنها بالضجر، كلهن بنات، لا يعرفن غير الزعيق والصراخ.. وأمهن لا تنفك تلاحقهن "دعي هذا" "افعلي ذاك"، "اذهبي هناك" "تعالي هنا" فلماذا لا تهرب؟ في منزل الخالة شمس لا أحد يلاحقها، لا أحد يأمرها، بل الكل لطيفون دمثون، يعاملونها بكياسة.. الأخضر أكثرهم لطفاً وكياسة.. هو يجيب على أسئلتها، يلبي رغباتها، فيما بدور تعطيها كل ما لديها من ألعاب، تلعبان معاً كلما وجدتا الفرصة. في الصيف ينضم إليهما الأخضر، يلاعبهما الاستغماية، تختبئان عليه في بيت المؤونة، تصعدان إلى العلية لكنه سرعان ما يكتشف مكانهما، يمسك بهما ليأتي دوره هو في الاختباء. ذات مرة كانت تختبئ في خزانة الثياب وكانت تحسب أنها في مأمن، تستند على باب الخزانة وتصيخ السمع. لم يكن هناك صوت، لكن فجأة فتح باب الخزانة ووجدت نفسها تهوي في أثره.. زعقت لكن سرعان ما انكتمت زعقتها وقد صار فمها على صدر الأخضر ورأسها بين يديه، ثم انقلبا معاً على الأرض وقد احتضن كل منهما الآخر، أهو خوف عليه؟ أم رغبة

في الالتصاق به؟ روضة لا تتذكر، كل ما تتذكر أنها كانــت لحظــة عجيبــة، أحست فيها أنها تمتلك الدنيا كلها بيديها وهي تحتضن الأخضر، تحــس بــدفء جسده لصق جسدها، بدفء أنفاسه قرب وجهها، فيما لمعت أمنيــة خفيــة فــي رأسها "ليتنا نظل هكذا فلا نفترق أبداً"، لكن بمثل تلــك الســهولة، هيهــات أن تتحقق الأماني. بدور بالمرصاد جاءت فنهضا عن الأرض ينفضــان ثيابهمــا ويضحكان. لكن منذ تلك اللحظة صار الأخضر بالنسبة لها ينبوع الدفء الــذي لا تريد أن تنهل إلا منه. كانت في العاشرة يومــذاك، ومنــذ العاشــرة صــار الأخضر حلمها الجميل يرفرف معها في فضاء غرفتها كلما همت بالنوم، وتفتح أجفانها على طيفه كلما استيقظت.. معاً ترعرعا، هي والطيف، معاً كبرا هــي والحلم... متباعدين حيناً متقاربين حينــاً آخــر... كانــا ينمــوان.. طفلــين، فمراهقين.. ثم ما إن خط الشعر شاربيه حتى جاء السفر..

على حين غرة جاء.. هو طموح.. يريد أن يصبح طبيباً، حدثها مذ كــان صغيراً عن حلمه ذاك، لكنها لم تكن تظنه سوى حلم.. إذ كيــف يمكــن لفتــى رقيق، ناحل العود، غض الإهاب، أزغب الشاربين أن يصــبح طبيبــاً؟ كانــت كثيراً ما تتساءل "الطبيب ينبغي أن يكون رجلاً قوى البنية عريض المنكبــين، جهم الوجه، مقطب الجبين، كث الشاربين، أبيض الشعر، وأنى للأخضر مثــل هذه الصفات؟".

لهذا ربما، كانت مطمئنة أن حلمه لن يتحقق أبداً وأن الأحلام غالباً ما تظل أحلاماً... ولهذا ربما، لم تكن تعترض على أحلامه، بل لم تكن تناقشها.. فذات يوم سيجد نفسه أمامها، هي روضة الحلوة المحبة، ولن يجد له خياراً ســواها. لكن هاهو ذا الحلم تحقق.. على حين غرة، خرج عفريت من قمقم، وقال لعلاء الدين "شبيك لبيك، عبدك بين يديك.. اطلب وتمنّ، "وتمنى علاء الدين أن يذهب إلى فرنسا يدرس فيها الطب، فحمله العفريت إلى هناك أمام سمعها وبصــرها وهي لا تملك إلا أن تقف مذهولة تكاد لا تصدق ما ترى.

–ضعي حطباً، بدور.. قالت الأم لابنتها وقد أحست بالنار تهمــد.. كانــت الفتاة قد جاءت بالابريق، وضعته على مدفأة الحطب ثم دارت علــى عقبيهــا، هامة بالخروج.

–تأمرين.. يماً.. ردت البنت بلهجة أمها البدوية التي كانت تــداعبها بهــا أحياناً، ثم عادت تقرفص إلى جانب المدفأة تلقمها قطعاً حطبية عبــر فوهــة لا تشبع.

-قرأتها لك بدور، أليس كذلك، سألت الأم روضة التي كانت تتطلع إلى الرسالة وتشرد حيث لا تدري شمس.

-ثلاث مرات، أسرعت بدور للرد ضاحكة وهي تغادر الغرفة من جديد.

-لا تصدقيها، خالة، مرة واحدة قرأتها لي.. ردت روضة بنبرة التملص..

-وماذا في ذلك؟ مرة.. مرتين، ثلاثاً.. أنا أعلم أنه ابن حارتك ورفيق طفولتك.. وهو غال عليك.. فماذا إن كنت تهتمين بأخباره؟

"رفيق طفولة فقط؟ غال علي وحسب؟ آه يا خالة لو تعلمين ما أكن له في قلبي!؟" بدأت أفكار تعبر دماغها، لكن سرعان ما نفضت رأسها وهي ترى إلى الخالة تتأملها..

-لا شيء.. أكيد.. هو ابن حارتي.. ولم تستطع أن تكمل. كانت عينا شمس تحدقان إليها متغلغلتين في العمق وعلى نحو بدا لها كأنها تحاول أن تكشف الغطاء عن كل ما تخبئه هناك في العمق.

فجأة تذكرت شمس يوم رأتهما معاً متجاذبين متقاربين يكاد واحدهما يحشر نفسه في الآخر...

-هو ابن حارتك فقط؟ عقبت شمس مبتسمة وقد خطر لها أن تدخل معها في لعبة استغماية، فتقلب الأدوار...

وأطرقت الفتاة أرضاً فيما تحولت وجنتاها إلى بركتي دم "ماذا أقول؟ كيف يمكن للساني البوح بما في نفسي؟". شمس تعرف معنى هذه الإطراقة، تعرف معنى ذلك الاحمرار، تتذكر يوم خلعت ثياب الفارس الملثم وعادت فتاة إلى جناح الحريم.. كانت وجنتاها تحمران كلما فكرت بعزيز أو تحدثت عن عزيز!!" ايه فوز!! أتذكرين يوم كنت تسألينني عن حبي له فلا أدري ما أقول!!؟ أنا الفارس الملثم الذي خاض المعارك وواجه الرجال وبارز الفرسان كنت أتعثر وأتلجلج كلما أردت ذكره أو هممت بالبوح بما في النفس!؟".

-الشاي، خالة، هتفت الفتاة فجأة، وقد فار الإبريق على النار..

أسرعت شمس تبعد الإبريق عن المدفأة.. وهي تضحك.

-هذه المدفأة كالتنور!! سرعان ما يغلي عليها الشاي.. إلى جانب المدفأة راحت تصب الشاي، وهي تتذكر مواقد النار التي كانوا يشعلونها هناك في المضارب.. حيث الحطب أعواد سرعان ما تشتعل وسرعان ما تنطفئ، ليتحول الموقد إلى رماد. هنا.. الحطب من أشجار الغوطة، يقطعونها قطعاً متساوية

جميلة، وفي المدفأة تتوهج ناراً وجمراً، هو خير علاج لبرد الشتاء.

-لكن خالة، أنا لم أفهم.. هل هو سعيد هناك؟ سألت الفتاة على حين غـرة وهي تنظر من جديد إلى الرسالة.

-بالتأكيد.. ولم لا يكون سعيداً؟ ردت الأم وقد أحست بظلال شك توشح سؤال الفتاة.. فتى يحقق طموحاته ويحول أحلامه إلى واقـع، كيـف لا يكـون سعيداً؟ ألم تسمعي ما قال: سألت الأم وهي ترفع الرسالة أمام عينيها قارئة فقرة من فقراتها.

-كل شيء هنا جميل يا أماه!! المدينة، الطبيعة، الغابات، النـاس.. ولـم تستطع روضة أن تتابع ما تقوله شمس. إذ سرعان ما شرد خيالها إلى الفتيـات هناك "هن من يقصد بالتأكيد... فتيات باريس باهرات الحسن والجمال.. الكـل يؤكدون ذلك فهل سيقع في شراكهن؟" لكن الأم قطعت عليها شرودها وهي تقدم لها الرسالة.

-انظري.. بنفسك.. ألا يبدو سعيداً من كتابته؟ خطه، أحرفه نفسها ألا تدل على مقدار راحته وسعادته؟

ونظرت الفتاة إلى كلمات الرسالة المنظومة عقداً من لؤلؤ وجمان... "مـا أشد الحسرة في قلبي!! لو أستطيع فقط أن أقرأ" لكن أباها لم يعلمهـا القـراءة والكتابة.. هو لم يكن يؤمن بذلك.. ولِمَ تقرأ الفتاة وتكتب؟ ألكي تسـهل عليهـا مكاتبات الغرام؟ تكتب الرسائل للفتيانِ وتقرأ رسائل الفتيان؟ أمها علـى قناعـة تامة بكل ما يقول أبو روضة "البنت للبيت والزواج، لا للمدارس والخواجـات". وظلت روضة وأخواتها أشبه بإن وأخواتها دون تعليم. في غفلة مـن شـمس، مررت روضة الرسالة أمام وجهها، تشممت رائحتها، لثمت الأحرف السـوداء المسطورة بانتظام ودون أن تشعر سالت دمعتان من عينيها.. التفتت شمس فلـم تملك إلا أن تشفق..

-أتريدين أن توصيه بشيء، سألتها وهي تشدها بـذراعها إليهـا، إشـفاقاً وحباً.. الليلة سأكتب له رسالة..

-أوصيه أن يحذر من الفتيات هناك، ردت الفتاة على عجل.

-أنت تغارين عليه؟ علقت شمس ضاحكة..

-بل أخاف عليه.. فالكثيرون يتحـدثون عـن بائعـات.. لا أدري مـاذا يسمونهن... وعن أمراض زهـ... زهـ...لا أدري ماذا يسمونها...

وتبسمت شمس من جديد مربتة كتف الفتاة شادة إياها إليها.

-بائعات هوى!؟ ومرض الزهري!!

-أجل.. الكل يقولون انهن يغوين الرجال فلا يفلت أحد... وأنه مرض خطير لا يشفى منه أحد...

-وحده الأخضر لا تخافي عليه.. هو ابني وأنا أعرفه.. ما من امرأة تستطيع أن تغويه.. وجاء صوت عزيز جرس إنذار. كان يرد تحية وضحة بصوته الجهوري الأجش فهبت الفتاة ملء طولها وهي تعلم أنه في طريقه إلى امرأته..

-عن اذنك خالة، قالت لشمس وهي تتجه نحو الباب.

-مع السلامة، روضة، لكن روضة توقفت عند العتبة وبنبرة الرجاء غمغمت.

-لا تنسي خالة.. سلمي لي على الأخضر كثيراً.

-بالتأكيد، هو نفسه لا ينساك في رسائله، يهديك دائماً سلاماً خاصاً، فكيف ننساه نحن؟ ردت شمس وهي تهز رأسها للفتاة التي أسرعت في الخروج وقد ازدادت احمرار وجنتين وإطراقة رأس.

قبلة على الوجنة اليمنى ثم أخرى على الوجنة اليسرى.. عادة ألفاها مذ تزوجا.. يعود عزيز إلى المنزل فتستقبله شمس بالقبلات. في البداية كانت القبل من نصيب الفمين المتشوقين دائماً والشفاه المتحرقة دائماً، وكانت تلك القبل تتحول إلى عناق وربما حمل بين الذراعين وانصهار بالأحضان، لكن شيئاً فشيئاً بدأت تتحول إلى الوجنات وإلى قبل هادئة ربما بدافع العادة أكثر مما هي بدافع الشوق.

-ما لها روضة خرجت على عجل؟ سألها وهو يخلع المعطف والطربوش مقدماً إياهما إليها...

-حياء العذارى، ردت ضاحكة وهي تعلقهما على المشجب.. كان قد ترك عادة لبس العباءة والفروة في الشتاء. مذ غادر حماة ترك تلك العادة، تجار دمشق يلبسون المعطف والطربوش وإن كنت في قوم اشرب في إنائهم.. إذن لماذا لا يلبس المعطف والطربوش ويبدو واحداً من تجار دمشق؟.

خرج عزيز إلى الصنبور يغتسل ويتوضأ.. لم يعد هناك حاجة لأن تصب له الماء على يديه ورجليه.. الصنبور وفر عليها ذلك العناء.. عبر أنابيب

وتمديدات تأتي المياه من نبع الفيجة.. حسب شمس أن تمد يدها إلى الصنبور تفتحه فينسكب الماء قوياً كالرصاص غزيراً كالشلال "يا إلهي!!" هتفت يوم وصلت المياه إلى منزلها أول مرة" الماء يصل إلى خدمتي وأنا في مطبخي!! أي شيء رائع هذه الحضارة!! أي إنجاز عظيم هذا الإنجاز!!" وطوال أيام ظلت تأتي إلى الصنبور، تفتحه ثم تغلقه، تفتحه ثم تغلقه وتطرب أيما طرب لصوت الماء وهو ينسكب قوياً كالرصاص غزيراً كالشلال، تتأمله وتتحسر على نساء هناك في البادية، في القرى، يقطعن المسافات الطويلة إلى أن يردن الماء.. ويذقن الأمرين قبل أن يوفرن نقطة الماء..

"الله أكبر! الله أكبر!" ارتفع الأذان من المئذنة القريبة، فأسرع عزيز ينهي وضوءه ويتجه إلى المسجد حيث يحرص أن يصلي المغرب دائماً في الشتاء.

على العشاء فقط عاد عزيز يسألها عن حياء العذارى، ذاك الذي جعل روضة تمر بقربه مسرعة لا تلوي على شيء.

–الفتاة تحب الأخضر.. بدأت شمس مائلة عليه هامسة رغم أنهما كانا وحيدين على العشاء. فمناف وبدور عند الجيران وكل في فلك يسبحون.

–وأين هي من الأخضر؟ رد عزيز باستغراب، كأنما لم يخطر بباله من قبل أن شيئاً يجمعهما..

–يبدو ثمة شيء، فليس هناك رسالة منه لا تحمل سلاماً لها..

–لكنها أمية لا تقرأ ولا تكتب..

–الحب لا يميز بين أمي ومتعلم.. فقير وغني.. بدوي وحضري وغمزت بعينها غمزة خاصة أعادته إلى مضارب الشيخ نواف والفرس الشقراء التي طارت به مع فصيل عسكري يطلب يدها زوجة وحبيبة.

–صدقت.. الحب لا يعرف تفرقة ولا تمييزاً عنصرياً.. لكن.. هل قال شيئاً؟ هل اعترفت بشيء؟

–لو تأخرت دقائق كنت سأجرها إلى الحديث.. أجعلها تعترف..

–المهم ألا يكون قد وعدها بشيء.. أنت تعلمين.. تتعلق البنت وتنتظر، وهو قد يطول به الزمن، من يدري؟

–هذا ما أريد التأكد منه.. أم روضة جارتي مثل أختي.. والبنت مثل بنتي.. ولا أريد لها أي أذى.

-هذا ما أقصده.. ربما تكون قد بنت قصوراً في الهواء وهو..

-لا.. لا.. هو ليس بريئاً.. قاطعته شمس مبتسمة ملوحة برأسها، أم أنكم معشر الرجال تضعون اللوم دائماً على النساء؟ حواء هي التي أغوت آدم.. هي التي أطعمته التفاحة، أنزلته من الجنة.. وأنتم مساكين أبرياء لا ناقة لكم ولا جمل..

-الله!! الله! الفارس الملثم يتكلم بهذه الطريقة؟ منذ متى، يا مهجة روحي، يا حبة عيني؟ وشرع يدغدغها مداعباً وهي تضحك وتبتعد متجنبة حركات يديه..

-أرأيت؟ عاشر القوم أربعين يوم تصير منهم.. قالت بلهجتها البدوية التي لا يمتعها كالعودة إليها من حين إلى حين، وكلما حشرت في الزاوية، ربما تعبيراً عن أخص خصوصيات نفسها الكامنة هناك في الأعماق.

-بالمناسبة.. احزري من زارني اليوم!؟ سألها وهو ينكمش قليلاً كأنما تذكر شيئاً يدعو للانكماش.

-لو كنت في المضارب لحزرت.. لكن هنا.. في دمشق.. بدأت جوابها، لكن فجأة خطر لها خاطر فتوقفت لحظة ثم تابعت، من؟ عواد؟

-عواد!؟ مسكين!؟ رد عزيز وقد بدا على سيماه الإشفاق، مذ أخفق في الحصول على البكالوريا العام الماضي صار وكيل معلم مقسماً الأيمان المغلظة ألا تراه عين حتى يحصل عليها..

-من الذي زارك إذن؟

-القومندان!!

-رينو! صاحت شبه فاتحة عينيها.

-أجل.. رينو! رد وهو يطلق زفرة طويلة.

-لم نرتح منه إذن؟ سألت شمس وهي تزفر زفرة أكثر طولاً.

-لا راحة لمؤمن إلا بلقاء وجه ربه، قال عزيز بين المازح والجاد.. بالأمس فقط عاد من بيروت فأراد الاطمئنان علينا.

-حين عطست الفأرة بادرها القط "اسم الله"، فردت الفأرة "أرحنا أنت من شرك ونحن بألف خير من الله.."

-ما أحسبه سيريحنا.. بالعكس هو يقترح علي أن آخذه الشهر القادم إلى

الريف والبادية.. فقد حدثه بعضهم عن جمال الطبيعة هناك في الربيع..

-أحسن!! يذهب هناك، يسأل ويتقصى.. لابد أنه مصر على معرفة السر..

-وهذا ما يخيفني.. الرجل له هدف ولا يثنيه شيء عن بلوغه ذلك الهدف.

لكن القومندان كان يبدو في غاية الكياسة، يتصرف في غاية الدماثة والأدب.. بل هو لا يلتقي بشمس مرة إلا وينحني على يدها يقبلها كما يفعلون هناك في الشانزليزيه وفرساي، حاول الزوجان الابتعاد عنه أكثر من مرة، بل اقترحت شمس في البداية الرحيل عن دمشق لكن الظروف.. المتغيرات جعلتها تنسى الاقتراح. الرجل يتقرب بذكاء وحنكة.. بلطف وأدب إلى درجة لم يستطيعا معها إلا أن يكونا لطيفين مؤدبين.. هو حضاري، سلوكه حضاري، حواره، مفاهيمه، أفكاره كلها حضارية تفحمك، وهناك خدماته!!

عزيز لا يحتاج إلى شيء من السراي، الدرك، التعليم إلا ويسارع إليه فيسارع الرجل إلى تلبية حاجته.. "ثم هناك خدمته الجلى.." عزيز يقول لشمس كلما تحدثا "المنحة التي أمنها للأخضر لا تماثلها خدمة!!" فالقومندان الذي عرض مساعدته على الأخضر بكلام عرضي عابر، سرعان ما شمر عن ساعديه ونزل ساحة العمل والجد حين ظهرت نتائج الامتحان. استصدر له القرارات التي يحتاج، أخرج له الجواز. أنهى ترتيبات السفر. بل حمله معه بسيارته إلى مرفأ بيروت.. ثم زوده برسائل توصية وتزكية ورافقه مع أمه وأبيه إلى متن السفينة يودعونه هناك.

يومذاك طغى على عزيز الشعور بالعرفان والامتنان إلى درجة كاد ينسى معها شكه وريبته. "أخوك لا يخدمك مثل هذه الخدمة" "إنها بألف خدمة".. "هي دين له في عنقي حتى الممات"، كان لا يفتأ يكرر وكانت شمس لا تملك إلا أن تسكت. الحيرة تأكل لسانها والعجب يذهب بقدرتها على الحكم.. لم يكن الرجل في الفترة الأخيرة يلح على شيء أو يشير إلى ما يريب... سلوكه لا غبار عليه.. كلامه عسل مصفى.. فلماذا تخاف منه؟ لقد باتت على ثقة أنه مختلف عن جيرار.. هو لا يعاملها كأنثى، لا ترى في نظرته نزوة أو شهوة. إذن لماذا تلبسه لبوس جيرار؟ ألا يعقل أن يكون نزيه الغاية عفيف النفس، لا بغية له فيها ولا مطمع!؟. الظروف كلها تغيرت.. هي نفسها تغيرت.. شمس تشعر بذلك.. لم يعد الرجال يتلمظون حين يرونها، ولم يعودوا يدورون ويلفون لإغوائها، حسني، خالد، إبراهيم، جيرار.. كلهم مضوا مع حماة وأيام حماة. هي الآن في

دمشق.. رجال مختلفون، مجتمع مختلف.. ثمة حدود بينها وبين الرجال.. هامش لا يجرؤ أحد على تخطيه.. صبري، أبو روضة، الجيران، الدكتور الشهبندر، القومندان، كلهم لا يحاولون تخطيه.. "أهو الحرملك والسلملك الذي حرصت على الحفاظ عليه؟ أهو السن"؟ كثيراً ما كانت شمس تتساءل وهي تنظر إلى وجهها في المرآة، إلى صدرها، إلى جسدها فيخيل إليها أنه لم يتغير شيء.. ما يزال الوجه مشعاً كالشمس توهجاً وألقاً، الشعر أسود فاحم يحيط بوجهها كما تحيط الهالة بالبدر، الصدر كاعب كصدور العذارى.. جسدها حين تتأمله في الحمام الدافئ أو في سريرها العريض يجعلها تتنفس الصعداء راحة وطمأنينة وهي تراه لا يزال مشدود العضلات، متماسك الجلد، أهيف الخصر، أملس البشرة، لا تجاعيد فيه ولا تغضنات.. تماماً كما يقول لها عزيز "أنت المرأة التي لا يجرؤ الزمن على الاقتراب منك" إذن لم اختلفت نظرة الرجال إليها؟ لماذا لم تعد مضطرة إلى الدخول في معارك معهم؟ كل منهم حيوان مفترس وهي الفريسة؟ صحيح أنها هنا لم تفتح مضافة لهم، لم تكن تجالسهم، لكن ثمة مناسبات كثيرة التقت فيها برجال، انفرد بها رجل، مع ذلك ظل الاحترام هو الرابطة التي تربطها بهم، الأدب، الكياسة.. "فلماذا؟" كانت دائماً تتساءل "هل السر بي أم بهم" "هل ذهبت "الكوكيت" اللعوب مني إلى الأبد؟ "جيرار وصفها ذات يوم "بالكوكيت" ولم تكن قد انتبهت لنفسها يومذاك.." ربما كانت الأنثى في داخلي تتصرف بما لا يملك معه الرجل إلا أن يثار؟ "الإغراء مطية إبليس.. وما من آدم إلا ومن الممكن أن يكون مطية إبليس.. وما من آدم إلا ويجد في الأنثى حواء تلوح له بالتفاحة ومن تراه لا يحب التفاح؟!". لعل حادثة جيرار قتلت فيها الكوكيت... هي تتذكر جيداً كيف وجدت نفسها حبيسة داره، الحارس على بابها ولعلعة الرصاص في أذنيها.... ساعات طوالاً ظلت ترتعد وهي تنتظر في أي لحظة أن يفتح جيرار الباب، وبالقوة والسلاح يفترسها.. "هو غبي" كثيراً ما كانت تردد وهي تستعيد تلك اللحظات "لو دخل شاهراً مسدسه، مزق ثيابي عن جسدي واغتصبني اغتصاب القوي المقتدر، ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ كيف كان لخنجري أن ينقذني؟" هي تعلم أن استهتاره ولا مبالاته هما اللذان أنقذاها من براثنه، لكنها تعلم أيضاً أن فرائصها كانت ترتعد.. طوال انتظارها له، ثم وهي تنقض عليه بالخنجر، بعدئذ وهي تعبر أزقة الليل والخوف لاطئة من جدار إلى جدار.. ألهذا السبب ماتت فيها الأنثى؟ انقطعت عنها الدورة الشهرية فلم تحبل بعد ذاك ولم تلد؟ شمس لا تدري.. كل ما تدريه أن خوفها تلك الليلة كان شديداً.. هو نوع من ذاك الخوف

الذي يقطع الجوف..

لقد قطع جوفها، مزق أحشاءها وربما قتل البييضات في مبيضها، فكيف تحبل أو تلد؟ كيف لا يتغير سلوكها مع الرجال؟ كيف لا يتغير سلوك الرجال معها؟.

الاحترام، الهوامش، الحدود، ذلك ما بات يميز علاقتها بالرجال... الكل يعرف حده ويقف عنده، وهي سعيدة، راضية. عزيز يملأ عليها حياتها.. حبه ما يزال ملء جوانحها، لكنه حب من نوع جديد... هو عميق هادئ كنهر النيل... لا صخب، لا زبد، لا اضطرابات.. مياه هائلة تجري بطيئة متمهلة، لا يعرقلها شيء ولا يعكرها شيء. لكن يظل السؤال "لماذا تقرب هذا القومندان؟" "لماذا خدماته لنا؟" "لماذا رغبته في أن يعرف ماضينا؟" "لماذا الحاجه على الدخول في حياتنا؟" كثيراً ما كانت شمس تطرح تلك الأسئلة على نفسها لكن الأكثر بكثير هو طرحها إياها على عزيز فيقلبان أوجه المسألة ليظلا حائرين، وتظل الأسئلة حائرة.

دخلت وضحة الغرفة، حملت العشاء وقد انتهى الزوجان منه.

-تريدان الشاي عمي، عمتي؟ سألت وضحة الزوجين بلهجتها البدوية التي لم تغيرها ولم تبدلها.

-اي.. لكن شاي ثقيل.. أكرك عجم، أجاب العم باللهجة نفسها كي لا يبدو نشازاً. فيما اكتفت العمة بهز رأسها للفتاة التي عنست وكبرت، سمنت وترهلت وهي تخدمها، رفيقة لا تفارقها في حل أو ترحال.

-تدري، أنا خائفة من هذا القومندان.. قالت شمس ما إن أغلقت وضحة الباب وراءها.

-معك حق.. الرجل يخوّف ويحير، عقب عزيز وهو يطرق أرضاً ثم تجذب عينيه نار المدفأة فيمسك بالملقط يحرك عبر فوهتها قطع الحطب التي تحولت إلى جمر متوهج..

تلك الحيرة والخوف هما اللذان دفعا شمساً لأن تفكر بالهرب "لكن المشاكل لا تحل بالهرب، "قال لها عزيز حينذاك"، المشكلة يجب أن نواجهها كي نحلها لا أن نهرب منها لتلاحقنا ثم تقضي علينا". الأحداث نفسها جاءت متسارعة لتدعم رأى عزيز..

القومندان يتطوع من تلقاء نفسه لخدمة عزيز وشمس. لا يطلب حاجة، لا

يبتغي جزاء ولا شكوراً فلماذا يهرب عزيز؟ صحيح، هو خائف بل خوفه مزدوج.. خوف تعرفه شمس وخوف لا تعرفه البتة.. إذ لم يكن عزيز يلتقي بالقومندان مرة إلا ويتساءل في سره "أهو يشك بماضيّ أم بحاضري؟ أيتقرب لحل لغز قديم أم لغز جديد؟ "ذلك أن علاقته مع البطحيش، وان تمكن حتى ذلك الحين من إخفائها، هي التي كانت تشغله وهي التي كان دائماً يضعها في الحسبان" ماذا إن كان الفرنساوي قد وقع على أثري؟ عرف شيئاً عن أعمالي تلك؟". صحيح أن غياب البطحيش أشهراً طويلة، ولجوء عزيز إلى السكينة، طمأنه قليلاً، إلا أن الصحيح أنهما، بعودته، عادا إلى العمل من جديد. كان الإغراء أقوى من أن يقاومه عزيز، وكان البطحيش قادراً دائماً أن يلوح بذلك الإغراء. إذ لم يمض على زيارة عزيز للوكر المختبئ في أحشاء الكرك شهر أو شهران حتى دعاه الداعي لعملية جديدة كانت حصيلتها جندياً سنغالياً وعشر بواريد أخذها الصديقان اللذان كان قد تملكهما هاجس فلسطين وحاجة أبناء فلسطين للسلاح. لكن إن كان الفرنساوي قد ظل عاجزاً عن معرفة سر عزبز والبطحيش، هل يعني ذلك أنه عاجز عن البحث والتقصي؟.

عزيز يساوره خوف الحاضر بقدر ما يساوره خوف الماضي. هو يعلم أن للقومندان يداً في الاستخبارات وأنه قد لا يكون سوى شرك نصبه الفرنساوي للإيقاع به. "قد يكون أصدقاؤك كلهم مزيفين، لكن ثق أن أعداءك كلهم حقيقيون" عزيز لا يدري ممن سمع تلك الحكمة لكنه على يقين أنها صحيحة... "مزيفون!! أجل ما أكثر الأصدقاء المزيفين.. يأتي إليك الصديق، يسبغ عليك القبل، يعطيك الحلاوة من طرف لسانه، لكن ما إن تحين اللحظة حتى يلدغك، فما الذي يضمن ألا يلدغك القومندان؟".

القومندان يتحرك.. يغيب.. يظهر.. هو في بيروت حيناً، في باريس أحياناً وفي دمشق أكثر الأحيان... المندوب السامي يثق به.. فرنسا نفسها تكلفه بمهام خاصة... كلهم في دمشق يعرفون ذلك.. عزيز سأل الزعيم، سأل صبري، سأل ذوي الشأن فأكدوا كلهم أن القومندان راسخ الأقدام، عميق الجذور، موضع ثقة دولته. إذن، كيف يمكن أن يكون موضع ثقة عزيز أو شمس؟.

مع ذلك ظل السؤال: لماذا أرسل الأخضر إلى فرنسا؟ لماذا مهد له الطرق كلها؟ قدم له تلك الخدمات كلها؟ فأخبار الأخضر مفرحة كل الافراح.. ما إن وصل إلى باريس وقدم رسائل التوصية حتى وجد كل عناية وترحاب من إدارة السوربون ومن الدكاترة الأساتذة... راتبه عال يعيش به عيش الأمراء، مسكنه

مؤمن، حاجاته مقضية، بل حتى أخت القومندان سارعت إليه، عرضت عليه صداقتها، عرفته بزملاء وزميلات، دعته إلى منزلها، عرفته بأهلها. "جانيت فتاة رائعة، هكذا كتب لهم في آخر رسالة "تقدم لي كل عون.. لا تبخل علي بجهد أو وقت" وعادت الحيرة من جديد "ترى ما هو ذلك القومندان؟ ملاك أم شيطان؟ ينوي بنا الشر أم يريد لنا الخير؟" أسئلة تحير فكيف يمكن لعزيز وشمس إلا أن يكونا رهن الحيرة والشك؟

-تريد رأيي.. لا تأخذه معك إلى القرية.. قالت شمس وهي ترشف الشاي الذي جاءت به وضحة.

-لو كان الصيف لتهربت.. رد عزيز وهو يتنهد.. بحجة العمل.. التجارة.. يمكنني التهرب لكن الآن ولا عمل سوى القعود في المحل.. بماذا أحتج؟

-بأية حجة.. المهم أن تبعده عنا، عن ماضينا..

-صحيح، لكن كيف؟ بعد كل ما فعله لنا من معروف نقول له: اذهب عنا.. لا نريدك.. ألا يثير هذا شكوكه أكثر؟

شمس تعلم أن هذا يثير شكوكه أكثر، لكن ماذا تفعل؟

-لا أدري.. المهم أن نحمي أنفسنا منه.. هو نار والاقتراب من النار خطر.. ألا تذكر يوم دعوناه إلى الغداء؟ سألته شمس:

-وكيف تراني لا أذكر؟ أجاب عزيز وهو يهز رأسه، رغماً عنه كان قد دعاه.. فالخدمة التي هي بألف خدمة كانت تثقل كاهله وكان يريد أن يردها له بهذا الشكل أو ذاك. يومذاك كان والده علي المر قد جاء من القرية يودع الحفيد الذاهب إلى فرنسا وكان يرافقه نواف، الحفيد الآخر الذي تزوج واستقر في القرية، قوة لجده علي المر وعوناً لعمه يونس... وكانا يحملان معهما خرافاً، فقطيع الأغنام الذي بدأ بنعجة عزيز العنزاوية بات يعد بالمئات، وبات باستطاعة علي المر أن يذبح لضيفه الخروف والخروفين دون أن يرف له جفن فماذا يحمل معه إلى الشام؟ أقل من ثلاثة خراف؟

عزيز شال برأسه زهواً... ثلاثة خراف تصنع وليمة، بإمكانه أن يدعو لها أعيان القوم ووجوههم فيعيد عزيز عزه. الدكتور الشهبندر، فارس الخوري، صبري العسلي، جميل مردم، كلهم دعاهم عزيز كما دعا شريكه -صبري وعلى رأس الضيوف كان رينو.

يومذاك، كان القومندان في أوج فرحه، يمازح هذا، يضاحك ذاك، يتباسط مع الكل، يكيل المديح للمضيف حاتم الطائي، جوداً وكرماً، ثم أبى إلا أن يأكل الثريد بيده "أنا أحب العرب.. أحب طريقتهم في الأكل.. فلا يكون وسيط بين الإنسان وطعامه.." قال إذاك مبرراً إقباله على الطعام بيده رغم الشوك والمعالق التي كانت من فضة والتي حرصت شمس أن تزين بها المائدة.

"لورنس كان كذلك"، قال عزيز معلقاً، وقد تذكر ذلك الضابط الإنكليزي الذي كان يرافق الأمير فيصل في حملته لتحرير الشام. "أتعرف لورنس؟" سأله فجأة القومندان وقد اكتسى وجهه سيما الجد. ارتبك عزيز وتعثر وقد أدرك أنه أخطأ، فالقومندان لا يحرص على شيء حرصه على الغوص في ماضيه، وها هو ذا يعطيه أدوات الغوص كلها.. ما أنقذه هو تدخل صبري... صديقه وشريكه "أنا الذي يعرفه... وأنا الذي حدثه عنه"، بدأ متضاحكاً وفي نيته إبعاد الكرة عن مرمى عزيز، هو الذي يعرف عنه كل شيء"، "كان يأكل بيده ثم يمسح بها لحيته ويقول: صابون العرب لحاهم" وضجت المائدة بالضحك...

مع ذلك لم يفوت القومندان الفرصة، حين خرج يغسل يديه وجاءته شمس بالمنشفة "أنت مشبعة حضارة ومدنية.." قال لها شبه منحن إعجاباً بطعامها وشرابها" أنا لا أصدق أنك جئت من البادية إلى دمشق مباشرة.. ألم تعيشي في مدينة أخرى من قبل؟".

شمس تذكر ذلك السؤال، لكنها لا تذكر جيداً كيف تخلصت من جوابه. شيء كالرعب تملكها للتو فارتعدت مفاصلها.. لا... لا.. يمكن أن يكون ذلك السؤال بريئاً.. هي تعرف ذلك.. لكن ماذا تفعل وهي لا تستطيع قطع الصلة بالقومندان ولا تستطيع نكران جميله؟

-محيّر هذا الرجل.. محيّر.. رددت أخيراً وكأنما تردد لنفسها.

-بالتأكيد، رد عزيز وهو يلاعب الجمر بالملقط، لكن ما أظنها إلا لعبة ذكاء فرضت علينا، ولابد لنا من أن نلعبها..

-أمي، أبي، قاطعتهما بدور، الصبية الكاعب، وقد دخلت الغرفة لاهثة مقطوعة الأنفاس.

-ما بك.. بدور.. ماذا هناك؟ سارعت شمس للإجابة فيما بدا على الأب سيما التعجب والاستغراب.

-روضة خرست..

-خرست؟! ماذا تقولين؟ صاح الأب والأم معاً.

-أجل... لم تعد تستطيع النطق.. صارت خرساء... ووجدت شمس نفسها تهب ملء طولها.. وألف دافع يدفعها لأن تمضي إلى روضة الخرساء..

وصلت شمس فوجدت أم روضة تلطم صدرها وتسفح الدموع نائحة.

-تعالي.. انظري.. أختي.. شموس.. روضة خرست.. ما عاد لسانها ينطق بحرف.. خرساء روضة صارت.. خرساء.. وأمسكت بها شمس من كتفيها تربتها مهدئة..

-توكلي بالله.. أم روضة.. هو خرس عارض ولا شك.. روضة كانت عندي العصر.. ما أحلاها!! بلبل يغرد!!

-البلبل الآن صار حجراً.. لا ينطق.. لا يسمع.. لا يفهم.. تعالي انظري أختي شموس. وسارت أم روضة بصاحبتها إلى داخل الغرفة، حيث كانت روضة وسط حلقة من أخوات ثلاث والكل يشهقن ويبكين..

-روضة؟ ماذا بك خالة؟ أسرعت شمس إليها هي لا تصدق ما تراه.. لكن روضة اكتفت بفتح فمها والارتماء بين ذراعي شمس. شدتها شمس إلى صدرها لحظة مربتة ظهرها، ثم أبعدتها عنها، ماسحة بيديها الدموع عن وجنتيها.

-هه.. تكلمي.. بدأت شمس وكلها حب وتشجيع.. روضة.. قولي.. ماذا بك؟

فتحت روضة فمها على سعته، لسانها تحرك بين سقفه وأرضه، لكن دون أن يخرج إلا خليط من أصوات مبهمة خرساء تحاول النطق فلا تستطيع..

-يا إلهي!! روضة!! قبل ساعتين فقط كنت عندي، كان لسانك ينطق، وكنا نتحدث، ما الذي جرى؟ انطقي.. تكلمي.. حاولي..

لكن محاولاتها باءت بالفشل من جديد.. ومن جديد عادت دموعها تنهمر ونواحٍ أمها يتعالى. وجه روضة شاحب كوجه تمثال، عيناها جاحظتان رعباً وهلعاً.. ربما هي نفسها لا تصدق أنها صارت خرساء. أخواتها لا يصدقن.

-لكن كيف؟ كيف حصل هذا؟ سألت شمس الأم وقد يئست من البنت.

-هكذا فجأة، أختي شموس!! بدأت الجارة تشرح وهما تجلسان بجانب روضة.. بعد المغرب جاؤوا يخطبونها لابراهيم ابن أبي إبراهيم النجار.. أنت تعلمين!! أبوه جار أبي روضة.. عنده ورشة نجارة يصنعون فيها الموازييك

والمعشقات والمنمنمات.... أبو إبراهيم معلم في النقش، والحفر على الخشب.. كدت أزغرد فرحاً.. أنت تعلمين... البنات يجب أن يتزوجن والولد عريس لقطة.. إبراهيم تتمناه كل بنت.. لكن حين نقلت لها الخبر انكمشت وارتعدت.. اصفر وجهها وغمغمت "لا.. أمي.. لا أريده. " صرخت في وجهها" ويلك!! ترفضين إبراهيم؟ فلم تزد أن قالت "لا أريده.. لا أريد أن أتزوج". وخشية الفضيحة ذهبت إلى أبيها قبل أن يقرأوا الفاتحة. قلت له "البنت لا تريده" وفي الحال هاج وماج حالفاً بالسبعة الأبراج، ليقطعن عنقها ان سودت وجهه أو كسرت كلمته.. حاولت تهدئته، لكنه رماني جانباً حاملاً ساطوره، أنت تعلمين ساطور الجزار الكبير وأسرع إليها. رأته ففتحت فمها تستنجد لكن لم تخرج كلمة الاستنجاد... بل صرخة رعب مبهمة لم تنطق بعدها بحرف.

-هو الخوف إذن!! سألت شمس وهي تنظر إلى روضة التي كانت ما تزال شاحبة الوجه فاغرة الفم دامعة العينين، تمثالاً للذهول والرعب..

-الخوف.. غير الخوف.. لا أدري.. لكنها فضيحة، أختي شموس.. فضيحة.. ماذا سيقول الجيران عنا؟ أية إشاعات سيتناقلونها؟

-قولي مصيبة.. أم روضة.. هذه مصيبة.. ليقل الناس ما يقولون.. ليشع الجيران ما يشيعون.. المهم أن تعود روضة سليمة.. أن يرجع لسانها فينطق..

-صحيح.. لكن هذا العريس ذهب.. إبراهيم طار من يدنا، ماذا أفعل أختي شموس.؟

ماذا أفعل؟

-لا تفكري بهذا.. أم روضة.. فكري ببنتك الخرساء.. كيف تعيدينها؟ كيف تشفينها؟

-صحيح!! كيف تشفى؟ هل تشفى؟ يا للمصيبة!! يا للكارثة!! وعادت أم روضة تلطم صدرها وتنوح من جديد، فيما عادت شمس إلى روضة تحتضنها، تمسد خدها، ماسحة دموعها، محاولة إزالة الرعب من عينيها.

-لا تخافي.. روضة.. أنت ستتكلمين.. فقط انظري إلي.. اسمعيني... وتوقفت شمس وقد خطر ببالها خاطر.. أم روضة! قالت وهي تلتفت إلى جارتها، خذي البنات واخرجن.. دعيني مع روضة لحظة...

لم تكذب أم روضة الخبر.. غريقاً يتعلق بحبال الشمس، أشارت إلى البنات أن يتبعنها ثم خرجت بهن، وكأنما راودها الأمل نفسه بأن تفك عقدة لسانها.

-هه.. أخبريني.. ما الذي جرى؟ سارعت شمس إلى حثها على الكلام وقد خلا لهما الجو. فتحت روضة فمها من جديد تريد أن تتكلم لكن من جديد استعصى عليها الكلام، باروده استعصى رصاصها فوقف في بيت النار لا يدخل ولا يخرج.. همهمة وهمدرة، اختلاط أصوات ومحاولات نطق.

-أ.. أ.. أ.. تبعتها هأهأة.. هـ.. هـ.. هـ.. ثم شعور بالعجز فيأس فانهمار دموع من جديد.

-خفت من ساطور والدك؟!!؟

وهزت روضة رأسها دافنة إياه في حضن شمس وشمس تدرك أن الخوف يعقد اللسان.. هي تذكر قصصاً رويت وأحداثاً وقعت عن تأثير الخوف ذاك الذي يحيل الشعر الأسود إلى أبيض. أجل، الخوف يشيب الشعر فكم هو فظيع هذا الخوف!! كثير من الناس حبس لسانهم الخوف فلم يعودوا ينطقون.. في قبيلتها أكثر من بنت انعقد لسانها في موقف كهذا.. خافت من أب أو فزعت من أخ فانعقد لسانها.. هناك في المضارب يدعونها الحبسة والحبسة تعالج..

بل هي أحياناً تشفى دون علاج، بالملاطفة، بالكلام الجميل، بالمعاملة الحسنة، تشفى الحبسة.

-هيا.. روضة.. لا تخافي الآن.. نحن وحيدتان.. انطقي.. حاولي.. راحت شمس تحسّها وهي تمد يديها إلى شفتيها ولسانها، مثيرة، محرضة، وكأنما تريد أن تعلمها كيف تنطق.. روضة تحاول، تفتح فمها على مصراعيه، تطلق الهواء من رئتيها آمرة حنجرتها بترديد الأصوات المفهومة.. لكن فجأة تشعر وكأن حبالها الصوتية أوتار جلدية في ليل صقيعي، يمر بها الهواء فلا يحرك ساكناً.. روضة أحست بذلك الجليد مذ وقعت عينها على ساطور أبيها يحمله بيده ويدخل غاضباً مزمجراً. "هي تريد أن تروى لشمس كيف صرخ بها: ترفضين إبراهيم؟ لماذا؟ قولي.. "تريد أن تصف لها كيف كان الساطور يلمع في يده، الغضب يلمع في عينيه، الموت يلمع هنا، هناك في فضاء الغرفة، تريد أن تحكي لها ما فكرت به، لكن كيف ولسانها لا ينطق؟ روضة تعي لحظة بلحظة ما حدث معها بعد ذلك.. تريد أن تحكي لها ما فكرت به "أأقول له أحب الأخضر؟" لمع السؤال في ذهنها فارتعدت من أخمص قدمها حتى قمة رأسها" إذن هو الموت؟ لكنني لا أريد إبراهيم.. لا أريد سوى الأخضر.. أحب الأخضر.. أحب الأخضر ولا أرضى بديلاً عنه "لكن زمجرة جاءت أكثر حدة وغضباً "قولي.. هيا.. تكلمي.. لماذا ترفضين إبراهيم؟ "وتراجعت روضة أمام

أبيها نحو الزاوية.. "أبي.. أرجوك.. فقط لا أريد إبراهيم".. صار للبنات لسان ينطق...." زمجر الأب من جديد". رأي بمن يتزوجن.. يرفضن.. أو يقبلن.. قسماً لأقطعن لسانك إن ترفضي.. هيا.. تريدين إبراهيم أم لا؟ تكلمي.. أجيبي. "كانت روضة قد صارت في الزاوية، محشورة كفأر في جحر، الساطور فوق رأسها يلمع كحد السيف والموت يتراقص أمام عينيها شيطاناً للرعب، فتحت فمها تريد أن تتكلم، أن تجيب.. أطلقت الهواء من صدرها.. أمرت حبالها الصوتية أن تقول "كما تريد يا أبي!! أنا بأمرك يا أبي!!" وخيل إليها أنها نطقت العبارة التي علمتها إياها أمها من قبل فالأب لا يعصى والبنت لا تملك إلا أن تقول له "كما تريد يا أبي!! أنا بأمرك يا أبي" لكنها لم تسمع صوتها.. ربما هي نطقت العبارة لكنها لم تسمعها.. كانت تريد أن تبعد شبح الموت... وتلك العبارة وحدها تبعد شيح الموت.. "إذن لماذا لا أقولها؟" ومن جديد أمرت حبالها الصوتية بترددها.. فعينا الأب بدتا أكثر غضباً وسيما وجهه أكثر احتقاناً وهو ينتظر جواباً لا يجيء.

–ماذا قلت؟ انطقي.. تكلمي.. هدر صوته من جديد.. فيما كانت يده تتحرك بالساطور عالياً تريد أن تهوي... من جديد فتحت فمها تريد أن تتكلم.. لكن من جديد لم يخرج جواب ولم يسمع صوت... لا أبوها سمع صوتها ولا هي سمعته. إذن، أين ذهب ذلك الصوت؟

–أ.. أ.. أ.. هـ.. هـ.. هـ.. وحده ما خرج من فمها في المرة الثالثة والرابعة والوالد يزداد غضباً وزمجرة، إلى أن أدركت أن حبالها الصوتية تخذلها، لسانها يخذلها عاجزاً عن النطق. في اللحظة نفسها، ودون أن تشعر، أطلقت صرخة حادة وقد ملأ عينيها ذعر أشد من ذعر الموت ثم سقطت أرضاً، وكأنما تبحث فيها عن النطق ذاك الذي أضاعته، فكيف تعيده إليها شمس؟ أنى لمحاولاتها أن تجدي نفعاً وقد عقد لسانها الخوف؟

في الأيام التالية صارت روضة شغل الحي الشاغل، صندوق فرجة يريد الكل أن يتفرجوا عليه... وكان ذلك كل ما تخشاه أم روضة، الفضيحة... مذ توقف لسان روضة عن النطق خشيت الفضيحة.. "أية إشاعات!! أية أقاويل!! أية فضيحة" كانت لا تفتأ تكرر وقد وجدت نفسها عاجزة عن التصرف.. تستقبل النساء الآتيات لمواساتها في ابنتها أم تطردهن؟ كسيرات حزينات يأتين لمشاركتها في مصابها، فهل تردهن على أعقابهن؟ يذرفن معها الدموع، يلطمن خدودهن، فكيف تشك في عواطفهن؟ فتيات الحي، نساؤه كلهن يفتحن أعينهن

تعجباً من لسان روضة الذي عجز عن النطق فجأة، حاولن حل عقدتـــه، فـــك عقاله.. لكن بدا وكأن العقدة لا تحل، والعقال مشدود على نحو لا فكاك له..

-خذيها إلى الطبيب، قالت شمس لجارتها وقـد ذهـب هـول الصـدمة الأولى...

-وماذا يفعل لها الطبيب؟ هي حبسة لسان وما يفهم الطبيب بحبسة اللسان؟ ردت أم روضة التي لم يكن الطبيب قد دخل مخّها يوماً، فالأطبـاء دجـالون، مشعوذون، لا يعرفون شيئاً.

-هناك طبيب، صديق عزيز، يفهم كثيراً..

-لا.. لا.. الأطباء كلهم لا يفهمون..

-لكن، صدقيني.. هذا غير شكل، الدكتور عبد الرحمن يفهم، دارس برا.. وهو صديق عزيز.. نأتي به إلى روضة يراها ولا نخسر شيئاً..

وكادت أم روضة تقتنع... إلا أن الجارات الأخريات تدخلن..

-لا.. لا.. حرام أن يكشف عليها رجل، قالت إحداهن.

-ولماذا الطبيب؟ هي ستشفى من تلقاء ذاتها، قالت أخرى:

-ولماذا لا تأخذينها إلى الشيخ عمر؟.. قالت ثالثة..

وانطلقت أصوات أخرى في الحال تثني على الاقتراح العبقـري، الشـيخ عمر حجة الميدان والشاغور، بل دمشق كلها، يكتب الحجب التي لا يقف فـي وجهها شيء، يرقى الرقى التي لا تخيب.. التعاويذ حرفته، التمائم شـغلته... الأمراض كلها يشفيها، السخونة يرفعها، البرص يزيله بل حتى العقم يجتثه من جذوره.. كثير من النساء العاقرات ذهبن إليه وخرجن منجبات مخصبات كتربة الغوطة.. الأهم من هذا كله أنه "مخاوي" الجن.. وأن هؤلاء يسلسون له قيادهم فلا يعصاه أحد منهم..

سألت شمس الجارة التي أبدت حماسة شديدة للاقتراح، فراحت تتكلم عـن مقدرات الشيخ عمر، أعماله ومعجزاته تلـك التـي تصـل حـد المعجـزات والكرامات..

-عجباً.. جارة.. كيف تسألين هذا السؤال؟ حصانك نشيط قوي، يجري هنا وهناك، فجأة يتوقف في مكانه عاجزاً عن الحركة، ما الذي يكون قد جرى له؟

-ماذا؟ ردت شمس وهي لا تدري قصد الجارة من مثالها ذاك.

-أحدهم عقل قائمتيه، ربطهما معاً بعقد أو حبل فعجز الحصان عن الحركة.. صح؟ سألت الجارة على حين غرة النساء من حولها.

-صح، جاء الرد من النساء جميعاً وقد تحمسن للفكرة والمثال.

-هكذا اللسان، تابعت الجارة منتصرة مزهوة، يتكلم ويتحرك إلى أن يأتي جني فيعقده.. وتلك هي الحبسة..

-صدقت جارتنا.. أم محمد الحداد صار معها ذلك.. وذهبت إلى الشيخ عمر.. من أول مرة فك عقدة لسانها وعادت صحيحة سليمة من جديد..

-خلاص، أم روضة خذيها إلى الشيخ..

-أجل.. جارة.. ليس لك إلا الشيخ.

-الشيخ مضمون أختي أم روضة، بجلسة واحدة يطرد لك الجني ويعيد اللسان إلى طبيعته...

راحت التعليقات تترى من هنا وهناك، إلى درجة وجدت شمس نفسها حصاة في وجه تيار، لا تملك إلا أن تسلم أمرها له.

-بالتأكيد، هو جني مريد، قال الشيخ عمر وهو يفحص الفتاة التي كانت تفتح فمها أمامه عاجزة عن الكلام.

-والعمل سيدي الشيخ؟ سألت الأم واللهفة ملء عينيها، أرجوك، سيدي الشيخ... أنقذها سيدي الشيخ ولك كل ما تريد.

-لست أنا من يريد، بل هو الجني المريد، قال الشيخ أبيض اللحية، أعجف الجلد وهو ينقر بعصاه جانب وجه الفتاة.. لقد دخل هنا ولن يخرج إلا بعمل.. عمل صعب.. وفدية كبيرة.

-أنت تأمر.. سيدي الشيخ..

-الخميس تعودين إلي ومعك خروف لا يخالط سواده ابيضاض ولا قرنيه اعوجاج.

-تأمر، سيدي الشيخ

-ولا تنسي أن تأتي بجام من البخور وقنينتين من العطور، ثلاث من عصي الخيزران وخمس من الذهب الرنان..

-تأمر، سيدي الشيخ..

يوم الخميس عادت أم روضة بابنتها حاملة جاماً من البخور وقنينتين من

العطور، ثلاث عصي من الخيزران وخمساً من الذهب الرنان.

-ادخلي إلى هذه الغرفة، أمر الشيخ، المتربع على دكته العالية، روضة التي كانت تقف أمامه، شاحبة الوجه، مرتعدة الفرائص، همت الأم بالتحرك معها، إلا أن صرخة "قف" غاضبة سمرتها في مكانها.

-وحدها تدخل الغرفة، تابع الشيخ، أم تظنين أن الجن يخرجون في حضور الإنس؟ أحنت الأم رأسها طاعة وخضوعاً، فيما كانت عيناها تتابعان ابنتها بإشفاق وهي تتخطى خائفة وجلة عتبة الغرفة الأخرى.

عبق البخور ملء الغرفة، دخانه شبه حجاب، روضة لا ترى من ورائه شيئاً، لا تميز شيئاً، الوجل في قلبها يجعلها تهم بالجري كأرنب مذعور لكنها لا تتجرأ. تتلفت وراءها إلى الأم الخائفة المشفقة فتشجعها الأم بحركة من يدها وغمغمة من شفتيها لا تفهمها روضة، فيما الشيخ فص ملح وذاب..

يدان كأيدي الفتيات أمسكتا بيدي روضة، ناعمتا الملمس، طريتان لم تعرفا كدحاً ولا شقاء.. نظرت روضة عبر دخان البخور وعبقه فرأت غلامين، ربما هما في سنها أو أصغر.. قادها الغلامان إلى لوح في صدر الغرفة.. أومأ لها أن تنبطح عليه.. دون تردد انبطحت الفتاة، وجهها إلى الأرض يداها إلى الجانبين.. لوح الخشب تحتها صلب قاس، لا يخفف من قسوته حصيرة أو حشية. أحد الغلامين شد وثاق يديها إلى عمود عند رأس اللوح، الآخر فعل ذلك برجليها عند أسفله.. بعد ذلك سمعت الشيخ يهمهم بشيء..

رفعت رأسها فرأته يلوح بمبخرته إلى الأعلى والأسفل، اليمين والشمال. الشيخ يتحرك حول اللوح، الدخان ملء خيشوميها، ملء عينيها، ملء صدرها، وتسعل، تعطس، ثم تهمد. شفتاه تتمتمان بشيء لا تسمعه روضة.. الغلامان يتحركان إلى الوراء، كل منهما في زاوية يرقب الشيخ وهو يلوح بمبخرته، قاذفاً إياها إلى الأعلى، مطيحاً بها إلى الأسفل، مغمغماً مهمهماً. الدخان يتكاثف والعبق يشتد، وشيء كالدوار يبدأ في رأسها.. أنامل من خدر وغشيان تمتد إلى أصابعها، إلى عينيها، إلى أذنيها لتتحول الدنيا كلها إلى شيء من سديم، هيولى لم تعرف التشكل بعد.. أخيراً سمعت صوت الشيخ وهو يدمدم، خافتاً مبهماً في البدء ثم عالياً واضحاً فيما بعد.

- شمروخ، ممروخ.. يامن لا تلبس حرير.. ولا جوخ، لماذا جئت إلى ذلك البيت؟ وماذا فعلت بهذه البنت، تباً لك! تباً لك! تدخل إلى الإنسان فتخرس اللسان... اخرج أيها الجان، يا سليل الشيطان!! شمروخ ممروخ! تباً لك!! تباً

لك!! ملعون ابن ملعون!! اخرج يا مأفون!! النار مهواك وجهنم مـــأواك!! تبـــاً لك!! تباً لك!! شمروخ ممروخ!! شمروخ ممروخ!! لكن فجأة انتفض كل ما في جسد روضة.. فجأة توقفت عن أن تسمع أو ترى، وقد سرت في جسدها موجة وجع شديد.. كانت عصا الخيزران قد بدأت تنهال على ظهرها، كتفيها، ردفيها، فخذيها.. بسرعة وقوة كانت تنهال الضربات وابلاً من مطر صيفي لـم تملـك معه روضة إلا أن تصرخ، صوتها يشق عنان السماء، جسدها كله يتخبط فوق اللوح وهي تحاول الهرب.. لكن أنى لها الهرب ويداها موثقتان؟. أنى الهـرب ورجلاها مقيدتان!؟ العصي قاسية لا ترحم.. ضرباتها موجعة.. تشعر روضـة أنها تحفر عميقاً في جلدها والشيخ الهرم لا يتعب..

حاولت روضة أن تستغيث، أن تقول له: ارحمني.. لا تضـربني.. لكـن عبثاً فلسانها المنعقد لم تنفك عقدته. العقال الذي يشده إلـى لهاتهـا لـم تحلـه الضربات، هي تصرخ، تصيح لكن صراخ الخرساء وصياح معقودة اللسـان، ماذا تفعل؟ الألم شديد.. ظهرها أسياخ من نار، إليتاها شواظ من لهـب وهـو يضرب، يضرب، عصاه تتكسر، فيسرع الغلام بعصا جديدة، الثانيـة تتكسـر فيسارع الغلام الثاني بعصا ثالثة والشيخ يعاود الصراخ: شمروخ ممـروخ يـا صاحب الجلد المسلوخ.. اخرج أيها الجان، يا سليل الشيطان!! لا!! لـيس مـن عينها، ويحك تفقأ عينها.. ويشتد هلع روضة.. تود لو تستطيع مد يـدها إلـى عينها تحميها من الجني.. لكن يدها موثقة.. فترتعد وتتلوى والعصـي تنهمـر عليها وصرخات الشيخ تلعلع من جديد.

لا.. لا تخرج من أذنها ويحك!! تجعلها طرشاء.. ثـم تنهـال الضـربات موجعة حارقة كشواظ النار.. لا تخرج من أنفها، لا تخرج من يدها، لا تخـرج من بطنها.. اخرج فقط من إصبع رجلها الصغرى. اخرج.. اخرج.. اخـرج.. وتغيب روضة عن بقية الصرخات وقد بات لضربات الخيزران وقع أشد إيلاماً من أن يتحمله وعي إنسان.

-7-

–عواد!! هتف عزيز فرحاً وهو ينهض لاستقبال الشاب الطويل النحيـل، أشقر الشعر والشاربين، أهلاً بك في دمشق.

–أهلاً بك عمي أبا العز.. رد الشاب النحيل الطويل وهو يقبل كتفي الرجل الذي لم يكن قد مضى على رؤيته له أكثر من عشرة أيام. فطوال موسم البيدر، كان عواد يعمل كالعادة جمالاً يحمل عدول الحبوب من الجنوب إلى الشـمال: الموسم خصب نقل فيه عزيز الكثير من الحنطة والشعير ملأ بهمـا مسـتودعه أولاً ثم باع الباقي لهذا التاجر أو ذاك. كان عواد قد قدم فحص البكالوريا مـن جديد، وكان رسوبه مرتين قد زاد من تصميمه على النجاح أكثر وأكثر. أواخر نقل الموسم أعلنت النتائج وكم كانت فرحته كبيرة حين رأى اسمه على صـفحة الجريدة!! كم كانت فرحة أمه الأرملة كبيرة، وهم يبشرونها بنجـاح ولـدها!! أخيراً أثمرت جهودها!! امرأة مات عنها زوجها تثبت للناس جميعاً أنها قـادرة أن تعمل في الأرض، أن تربي ولدها خير تربيةٍ بل أن تعلمه كما لا يسـتطيع الرجال تعليم أبنائهم. عرس كبير أقامته له.. عزيز حضر ذلك العرس، قدم لـه ذا القرنين هدية النجاح ثم دبك في المرسح كما لم يدبك من قبل.

–هه.. بدأ التسجيل؟ سأله عزيز وقد أجلسه قربـه علـى كرسـي القـش الصغير فيما عدول الحنطة والشعير ترتفع في المحل أكداساً أكداساً..

–أ.. أجل.. لـ.. لـ.. لكنني.. خائف..

ودون أن يفصح عواد عن خوفه، كان عزيز قد أحس في نبرتـه تلعثمـاً وتردداً.

–خائف.. مم؟

-يقولون.. الحقوق بحاجة إلى دوام والدوام بحاجة للإقامة في دمشق.. وأخشى أنني لا أستطيع ذلك...

-لماذا لا تستطيع؟ تعال.. أقم عندي.. اعتبر بيتي بيتك..

-سلمت عمي عزو.. لكن..

-لا.. لا تقل لكن.. بيتي واسع بل هو فارغ.. الأخضر في فرنسا.. نواف في القرية.. فلماذا لا يسعك.. ولداً من أولادي؟

-أنا أعرف شهامتك وكرمك عمي أبا العز!! وأشكرك كل الشكر على هذا العرض!! قال عواد وهو يمسك بيدي عزيز عرفاناً وامتناناً رافعاً إياهما يكاد يقبلهما.. لكن أفضل.. وفجأة توقف لكأنما غصت حنجرته بالكلام...

-هه.. قل.. ماذا تفضل؟ سأله عزيز وقد رآه يتوقف متردداً من جديد..

-أفضل أن أجد عملاً.. قريباً.. رد عواد وقد استعاد تماسكه.. هنا في المدينة أو ضواحي المدينة، فأدرس الحقوق وأؤمن مصروفي.. أنت تعلم.. العجوز لا تستطيع ذلك في دمشق.

-العجوز كفت ووفت.. تعبت وشقيت.. حتى أوصلتك إلى هنا.. صحيح.. عليك أن تريحها الآن.

-لذلك قلت أشتغل وأدرس، فأضرب عصفورين بحجر واحد..

-نعم الرأي، قال عزيز معجباً بفكرة الفتى الناحل الطويل.. لكن ماذا في ذهنك؟ أي عمل تريد؟

-هذا ما جئتك نبحث فيه.

-اسمع عواد، قال بعد أن توقف قليلاً متفكراً.. ما رأيك تعمل هنا.. معي؟ سأله وهو يشير بيده إلى المحل.

-هنا..؟ عمل مؤقت!؟

-إذن تريد عملاً دائماً؟

-أجل عمي أبا العز.. وظيفة في الميرة.. في السراي... معلم وكيل كما عملت العام الماضي...

-هو ذاك... هتف عزيز مثنياً.. أجل.

معلم!؟ بيدك حق.. عمل أخف وأنظف!!

-هل تستطيع مساعدتي عمي أبا العز؟ أتعرف أحداً يمكنه تعييني؟.

-أعرف.. أجل.. أعرف.. رد عزيز دون حتى أن يفكر.. عواد طلب منه خدمة فهل يتقاعس؟

هو يعرف رجالاً من بني وطنه، يمكن أن يطلب منهم هذه الخدمة، لكن هل يستطيعون تأديتها؟ شريكه صبري؟ الدكتور عبد الرحمن؟ جميل مردم؟ كلهم لا يملكون من أمر البلد شيئاً.. أكثر من مرة رآهم يخذلون أمام عنت ليوتنان أو كابيتان فرنساوي، فلماذا لا يقصد رأس النبع؟

-انهض معي.. أشار له وهو ينهض، ثم سرعان ما أغلقا المحل ومضيا يغذان الخطا. بالترحاب استقبلهما القومندان رينو وقد فاجأته الزيارة فهش لها وبش..

-أنا لا أصدق.. عزو يزورني!! قال القومندان بلكنته الأجنبية وهو يجلسهما على مقعد وثير ليجلس وراء طاولته..

كانا، مذ أرسل القومندان الأخضر إلى فرنسا، يلتقيان.. لكن القومندان دائماً هو المبادر، هو من يذهب إلى عزيز في المحل، يزوره في بيته، يفرض عليه نفسه...

-حقك علينا مسيو قومندان!! بدأ عزيز وهو يجرب مخزونه من الدماثة التي حاول اكتسابها ذات يوم في حماة، لكن خالد آغا والكابيتان جيرار قطعا عليه الطريق حينذاك. الحقيقة، زيارتكم واجبة...

-صحيح.. زيارتنا واجبة.. مع ذلك لا نراك.. إذن لا بد هذه المرة، جاءت بك الأمور الصعاب... قال ضاحكاً وهو يشير إلى الشاب النحيل الطويل الذي كان عزيز قد قدم اسمه، لكنه لم يستطع حفظه..

وشرح عزيز الأمور الصعاب التي جاءت به فضحك من جديد..

-معلم!!؟ بسيطة يا رجل!! قال بكثير من الاستهانة، ثم التفت إلى عواد، اعتبر نفسك معلماً منذ اللحظة، ومد يده ببطاقة تحمل اسم القومندان بأحرف سوداء متراكبة توحي بالرهبة والسطوة، ثم كتب عليها شيئاً، بعدئذ تابع: تأخذ هذه إلى وزارة التعليم.. تسأل عن مدير التعليم الابتدائي.. تعطيه إياها وهو يكمل البقية..

بيد مرتعشة، أخذ الشاب الطويل النحيل بطاقة القومندان، فيما انهمرت عبارات الشكر منه، من عزيز الذي وقف هو الآخر مستأذناً.

-أين تذهب أنت، أبا الأخضر؟ اجلس يا رجل.. قال القومندان وهو يمسك

بيده إلى امتدت إليه تودعه..

-لا.. شكراً.. سأذهب معه.. هو لا يعرف أحداً ولا يدري كيف يتحـــرك في دمشق..

مكرهاً قبل القومندان رحيله، فقد كان يرغب في انتهاز الفرصـــة أكثـــر.. عند عتبة الباب فقط تذكر..

-صحيح، قال القومندان فجأة، أنا مسافر بعد غد إلى بـــاريس.. إن كنـــتم تريدون أن ترسلوا شيئاً للأخضر!؟

-بالطبع نريد.. رد عزيز وهو يعلم أن الأم لا يسعدها كأن ترسل لابنهـــا أشياء وأشياء..

-إذن هيئوه.. وغداً مساء.. أمر بكم.. قال القومندان وكأنما اعتاد المرور بهم دائماً..

في وزارة التعليم لم يجد عزيز وعواد الشخص المطلوب.. انتظراه ساعة وبضع الساعة، لكن أحدهم همس في أذن عزيز أن مدير التعليم الابتدائي فـــي جولة وأنه لن يعود قبل الغد.

-هو حظي التعيس! تأفف عواد وتأوه، أنا أعلم.. هو حظي التعيس!!

لكن عزيز ضحك مربتاً كتفه:

-ولماذا هذا التشاؤم؟ لم تجده اليوم تجده غداً؟

-أخشى أن حظي العاثر يلاحقني!! أنا متشائم عمي.. لا أصدق أن الحـــظ سيقف إلى جانبي يوماً!!

-حظ!! حظ!! ما هذا الذي تقوله عواد؟ سأله ساخراً ملوحاً برأسه، وهمـــا يغادران مبنى التعليم.

-الحظ حقيقة أكيدة عمي أبا العز.. ابن الرومي كان يؤمن بـــالحظ.. بـــل كان يتطير من القطة السوداء أو الوجه القبيح إذا اصـــطبح بـــه فـــلا يخـــرج يومذاك !!؟

-لا.. لا.. دعك من ابن الرومي وتطيره.. لا تتشاءم، عمـــرك.. واســـمع مني.. حظنا هو ما نصنعه بأيدينا..

عند باب الجابية بدا عواد متردداً.

-أذهب إلى القرية اليوم وأعود غداً، قال بشيء مـــن تلعـــثم، رداً علـــى

نظرات عزيز المتسائلة.

-بل تنام عندي الليلة وغداً تتابع.. قال بشيء من شرود في البدء، بعدئـذ انتفض وبنبرة من عتاب ولوم تابع: لكن ما خطبك؟ ألم أقل لـك اعتبـر بيتـي بيتك.. أنت في مقام الأخضر.. متى جئت إلى دمشق أنت ضيفي.. ابـن مـن أبنائي..

وارتعش شيء في داخل عواد.. ما هذه الأريحية؟ ما هذا الكرم؟ لماذا إذن في حوران يحذروننا من أبناء دمشق؟ الشامي يزدرينا؟ يأنف منـا؟ بخيـل... شحيح.. لا يعرف الكلب باب داره.. أتراهم يشنعون على الشوام زوراً وبهتاناً؟ "لكنه نظر إلى عزيز فتذكر فجأة أنه ابن ريف وفد قبل سنوات فقط إلى دمشق، فلم يملك إلا أن يبتسم "هي ذي أخلاق الريف إذن، لا أخلاق المدينة. "ثم مضى بخطى واثقة إلى بيت عزيز.

فرح به مناف فرحه بأخيه الأكبر، كذلك فرحت بدور، ففي بيـتهم شـاب متعلم يحمل "البكالوريا". أيضاً فرحت شمس فقد حمل لها رائحة الأخضر.. لكن كم كان فرحها عظيماً حين نقل لها عزيز خبر القومندان:

-سأصنع له الكبة والمحشي واليبرق.. ردت للتو بحماسة الأم التي تظـن أن ابنها في غيابها لا يجد طعاماً أبداً...

-كبة!! محشي!! يبرق!! ماذا تقولين، شمس؟ الرجل ذاهب إلى فرنسـا لا إلى كفر سوسة.

وتبين لشمس أنها لا تستطيع أن ترسل له من الطعـام إلا مؤونـة يمكـن طبخها فيما بعد، فالقومندان سيسافر بحراً، ورحلة البحر تستغرق العديـد مـن الأيام.

رسالة سريعة كتب عزيز لابنه نقل له فيها حـب الأهـل والـوطن هـو المشوق بالتأكيد لأخبار الأهل والوطن.

لكن الرسالة الطويلة كتبتها الأم باثة بعض ما في صدرها مـن مشـاعر وأحاسيس: سألوا أعرابية: من أحب أبنائك إلى قلبك؟ فقالت: المـريض حتـى يشفى والصغير حتى يكبر والغائب حتى يعود..

الأخضر بكرها... حبيبها الأول وهو الغائب فكم تكن له من حـب!! كـم تحمل من مشاعر وأحاسيس، هي الأم التي باتت ترى الحياة من خلال أبنائهـا، تتنفس عبر أنفاسهم، تعيش لهم وبهم. بود شمس لو تستطيع أن تطـوي الأرض

طياً فتصل إلى الأخضر، تأخذه بين ذراعيها، تشمه، تضمه.. "يا لرائحتك أنت يا فلذة الكبد!! كم أتوق لشمها، عبق الياسمين!! "كتبت له شمس" يا لعينيك يا أخضر! كم أنا مشوقة إلى بريقهما، إلى حورهما حيث الأبيض والأسود يتقابلان، نهاراً ساطعاً وليلاً حالكاً... بني!! كم أحن لسماع صوتك يشنف أذني.. لدفء أنفاسك تدغدغ عنقي، وأنت تلقي بنفسك في أحضاني.

طوال بعد الظهر ظلت شمس تكتب. تتوقف لتتابع، وهي تتمنى لو أكملت دراستها كي تمتلك ناصية اللغة فتكتب بطلاقة وانسياب، لكن، وهي تكتب، تستعصي اللغة أحياناً وتحرن.. فرساً لم تروض بعد.. فتكتب بالعامية "سيضحك علي الأخضر"، رددت لنفسها وهي تعيد قراءة الرسالة.

–كتبت بالعامية.. قالت لعزيز، والكتابة للفصحى.. آه!! ليتني أتقن الفصحى!!

–لا تخافي!! الأخضر لن يعتب علينا.. طمأنها عزيز، الذي كتب هو الآخر بالعامية، حامداً ربه أنه يستطيع الكتابة، فمعظم أقرانه لا يستطيعون فك الحرف.. بالمناسبة، هل كتبت له عن روضة؟

–بالطبع!! مذ حصل لها ما حصل كنت أنوي أن أخبره.. لكنني تريثت. الآن أخبرته... حرام!! يجب أن يعلم!!

مع الرسالة، أعدت شمس رزم البرغل، الشنكليش، الموالح، الحلويات، البن..

–هو يحب القهوة العربية كثيراً.. قالت للقومندان وهي تشير إلى كيس البن الذي طلبت من البائع أن يكثر من الهال فيه.. وهناك لا تصنعون القهوة العربية..

–صحيح.. هناك نشرب النسكافيه..

–لهذا، يطالبنا كل مرة بالقهوة.. أكثروا من القهوة.. أكثروا من الهال، تابعت شمس ثم لوحت برأسها، صحيح،.. المرء على ما تعود.

–أف.. أف.. ما هذا كله؟ أشار القومندان إلى الرزم الأخرى بكثير من الاستغراب.

–لا تؤاخذنا.. رد هذه المرة عزيز، وهو خجل بعض الشيء.. أم ترسل لابنها الغائب! إذن.. بودها لو ترسل له كل ما تطول يدها من أطعمة ومأكولات..

-لكن ما هذا؟ قال وهو يبتعد بأنفه عن رزمة كانت تصدر روائح لا يستطيع أنف إلا أن ينكرها.

-شنكليش.. الأخضر يحبه كثيراً.. ردت الأم باندفاع، فضحك القومندان ملء شدقيه..

-أوه!! لكن أخشى أن يهربوا منه، هناك، في فرنسا، إن شموا رائحته!!

عزيز نفسه كان قد احتج لدى شمس "ليس حسناً أن نحمل قومنداناً مثله أشياء كهذه!!"

رائحة الشنكليش كريهة منفرة لكن لا فائدة.. فقد تحولت شمس إلى مجرد أم لا يعنيها إلا رضى ابنها وسروره.

-أنت تمزح أم جاد؟ سألت شمس وقد خشيت فجأة أن يكون في ذلك إزعاج له. فالرجل كريم معهم، نبيل، دمث ولا يحسن بك أن تلحس صاحبك كله إن كان عسلاً.

-بل هو جاد.. تدخل عزيز ضاحكاً قبل أن يتاح للقومندان الرد..

-لا.. السؤال لماذا تبعثين مثل هذه الجبنة العفنة.. وفي فرنسا ثلاث مائة نوع من الجبنة.

-صحيح، ردت شمس بحماسة خاصة، لكن ليس فيها هذا النوع الذي يحبه الأخضر.

-هو ذا ذوق الشرق الذي يختلف فيه عن الغرب... علق القومندان وهو يجلس على المقعد الوثير في غرفة الاستقبال يرشف القهوة ويبتسم..

-الشرق والغرب.. هي ذي المشكلة دائماً. بدأ عزيز وهو يرى في القومندان مرة ثانية رجلاً جاء من الغرب لاستعمار الشرق، رجلاً مختلفاً كل الاختلاف، بل خصماً معادياً، مع ذلك ما من صداقته بد.

-ذات مرة، دار نقاش في منزلنا وكنا نتغدى، تدخلت شمس عائدة بذاكرتها سنين عديدة إلى حماة وإلى الكابيتان جيرار، لكن نظرة من عزيز ملؤها الخوف والتحذير جعلتها تقلع عن إكمال الحديث... فتح القومندان عينيه على سعتهما حاثاً إياها على الاستمرار.

-اي.. دار نقاش؟ حول ماذا؟

-الشرق والغرب، ردت وقد رأت أنه ليس بإمكانها إلا أن تستمر.. هل

يلتقيان أم لا؟ فما رأيك أنت سيدي القومندان؟.

–قبل أن أقول رأيي.. من تراه كان المحاور؟ وأين؟ وماذا كان رأيه؟

ووجمت شمس كما وجم عزيز أمام أسئلة القومندان التي انهمرت رشا عليهما ليريا فيهما ظلال الشك القديم وهي تعود إلى عيني القومندان ولسانه.. كأنما بحثه عن اللغز ما يزال هو المحرك الأساسي...

–لا.. لا يهم.. سارع عزيز للرد، وهو يشعر أن ثمة ورطة أوقعت شمس نفسها وأوقعته فيها.. المهم أن تعطينا رأيك أنت..

–رأيي.. الشرق والغرب مثلما هو الشمال والجنوب جهتان لعالم واحد، لا فضل فيه لجهة على أخرى ولا امتيازاً لطرف على آخر...

–رائع!! مسيو قومندان!! رائع!! هتفت شمس، وقد سرها جواب القومندان.. تعني أننا سواسية.. متساوون..

–بالتأكيد مدام.. كلنا بشر.. والبشر سواسية متساوون..

–لماذا تستعمروننا إذن؟ لماذا تعتبرون أنفسكم فوق ونحن تحت.. أنتم كل شيء ونحن لا شيء.

–من قال ذلك؟ رد القومندان وقد وجد نفسه فجأةً في موقف الدفاع يشير له المدعي العام بإصبع الاتهام، أنتم أيضاً شعب عريق الحضارة.. أنا أعلم ذلك.. وأدافع عنه.. أريد لكم الحرية كما أريدها لشعبي.. صدقوني.. لم أكره يوماً كالاستعمار ولم أقف يوماً إلا مع تحرر الشعوب واستقلالها.

–أنت تكره الاستعمار، تؤمن بتحرر الشعوب، عادت شمس للسؤال وهي تريد أن تحل لغز الرجل.. مع ذلك أنت تخدم الاستعمار، تنفذ خططه وبرامجه.. أليس في هذا تناقض؟

–ربما ظاهراً.. مدام.. لكن في الباطن.. بالحقيقة... لا..

–كيف والاستعمار يجعلنا على طرفي نقيض.. ظالم ومظلوم، ناهب ومنهوب، مستغِل ومستغَل؟

–معك حق مدام.. معك حق.. الاستعمار يفرقنا.. يجعلنا أعداء.. لكن الإنسانية نفسها تجمعنا.. الحضارة البشرية تشد الأواصر بيننا، توحدنا.. أنا أؤمن بذلك، مدام، وحين ينتهي الاستعمار من العالم سنجد أنفسنا أبناء إنسانية واحدة، عالم واحد ومصير واحد..

-الله!! هذا هو الحلم، هتف عزيز وقد سحرته الفكرة.. لكن هل يتحقق؟

-لم لا، إن استطعنا أن نقيم حكومة واحدة تحكم العالم بالعدل وتسوسه بالقسطاس؟

-معقول؟ قومندان رينو؟ أنت تفكر هكذا؟ سألت شمس هذه المرة.

-أكيد.. مدام.. أنا أؤمن بالإنسانية، بالأممية، وبسهولة يمكن الآن صنع حكومة تحكم العالم.. عصبة الأمم في سويسرا، ألا تظنان أنه يمكن تطويرها لتحكم العالم؟

-تطويرها، وهتلر يهددها الآن؟ سأل عزيز وقد تذكر للتو تعديات هتلر الأخيرة على قوانين عصبة الأمم وتحدياته لقرارات عصبة الأمم...

-هتلر خطر.. خطر ولا شك.. لكن إن لم يكن هناك هتلر؟

-كيف، وهو الآن النجم الصاعد في السماء؟ سألت شمس، هي التي تعلم كم بات يتحدث عنه الناس... كم صار الشغل الشاغل للناس.. بعضهم يحبونه، بعضهم يكرهونه، بل إن بعضهم يبنون آمالاً كبار عليه، "سيخلصنا من بريطانيا وفرنسا كلتيهما.. سينهي الاستعمار في العالم.. سيعيد الحق إلى نصابه في الأرض.. سيخلص العالم من اليهود ويقضي على الأشرار". فقد كانت إذاعته التي تأتي قوية هادرة لا تفتأ تعد الشعوب بالحرية والاستقلال، تتكلم عن تطهير العالم من المستعمرين والمستغلين.. تحريره من الطغاة الظالمين..

-هو نيزك.. هتلر نيزك.. يصعد بسرعة.. صحيح.. لكن الصحيح أنه سيحترق بسرعة.. رد القومندان الذي كان يعلم ما يفعله هتلر بأوروبا بل وما ينوي أن يفعله هناك.. فالتقارير التي كانت تأتيه، الأخبار التي كان يسمعها، معلومات الجواسيس التي كان يطلع عليها، كلها كانت تؤكد أن هتلر يبني قوة عسكرية فريدة من نوعها في التاريخ.. قوة يريد منها أن تصنع رايخاً ثالثاً يهيمن على العالم كله وحجته: "عرق أنقى شعب أرقى" إذن لماذا لا يكون الألمان سادة العالم وهم لب العرق الآري وجوهره؟

عشرات الأسئلة انهالت على القومندان من عزيز وشمس فقد وجداها فرصة للاستفسار عن شغل الناس الشاغل: هتلر وحزبه النازي الذي بات في القلب من اهتمام العالم، في القلب من اهتمام مجلاته، إذاعاته.. فهو لا ينفك من حين إلى حين يفجر لغماً هنا، لغماً هناك.. بهذه الحجة، بتلك، هو يمد أذرعه الأخطبوطية إلى ما حوله في أوروبا.. مهدداً العالم كله بالانفجار، باثاً الرعب

حتى في قلب تشامبرلين بريطانيا، تلك الإمبراطوريـــة التـــي لا تغيـــب عنهـــا الشمس.

القومندان يعلم ما يشكله هتلر من خطر.. وهو يجيب على الأسئلة بصـــدق وبصراحة.. ما عدا سؤالاً واحداً لم يستطع الإجابة عليه.

-هل سيفجر هتلر الحرب؟ وإن فجرها هل يفكر حقاً باجتياح فرنسا؟ سأل عزيز فلم يملك القومندان إلا أن يقشعر بدنه وهو يتصور الأهوال التي يمكن أن تجرها حرب كهذه على بلاده، الدمار الذي يمكن أن توقعه في بلاده.. ولرغبته في التخلص، نهض وهو ينظر إلى ساعته:

-المعذرة.. تأخرت ويجب أن أذهب.. قال وهو يمضي على عجل، فـــي أثره أمانة مرسلة إلى باريس وأبوان يحمّلانه السلام إلى فلذة الكبد في باريس.

القومندان يحفظ الأمانة ويرعى العهد.. هو يشعر أنها أثقل على ظهره من الجبل، ألم يقولوا "حملوا الجمل أمانة فناخ تحتها"؟ القومندان كـــذلك، خشـــي أن ينيخ تحت الأمانة فسارع يتصل بالأخضر لكنه لم يجده، "هـــو طالـــب مجـــدّ، والمجدّ يظل طوال النهار في الجامعة، ردت عليه البترونة، صاحبة "البنسيون". في المساء بلغته الخبر فأحس الأخضر بأنسام منعشة تدغدغ وجهه "رائحة أمي وأبي!! شميم أهلي ووطني!! آه كم أنا مشوق لكم يا أهلي ووطني!!" ولم يجـــد نفسه إلا وهو يطبع القبلات الحـــرى علـــى وجنتـــي "البترونـــة " العجفـــاوين المتخددتين.

-أنت مسرور؟ سألته العجوز ذات الجلد المتجعد والوجنتين المخددتين وقد فاجأتها قبلاته.

-كثيراً!! كثيراً، هتف وهو يكاد يطير فرحاً.

-إذن، هو بانتظارك غداً، الساعة العاشرة صباحاً..

ومن جديد قبل البترونة قبلات حرى ثم مضى إلى غرفته.. كانت تلك هي الغرفة الثالثة التي يبدلها خلال عام. "البنسيون الأول" كان بعيداً عن جامعتـــه، وكان لجهله بالمدينة يريد أي مكان يؤويه، لكن لم يمـــض شـــهران حتـــى ذاق الأمرين، باريس كبيرة واسعة ممتدة ولا يعقل أن تكون جامعتك فـــي شـــرقيها ومسكنك في غربيها، فأسرع يبحث عن بنسيون جديد. البنسيون الجديـــد كـــان قريباً شروطه كلها مناسبة إلا أن صاحبته كانت فظة غليظة القلب فلم يملـــك إلا أن ينفض من حولها. نظام صارم قاس كانت تفرضه على البنسيون حتى ليخيل

إليك أنك في ثكنة عسكرية... وهي الجنرال الأعظم... كل شيء لديها بنظام: الطعام، النوم، الاستيقاظ، الحمام، المرحاض. ولم يملك الأخضر إلا أن يعجب: كيف يمكن أن يكون المرحاض بنظام؟ هل يمكن للمثانة والشرج أن يلتزما بنظام؟" لكنها هي كذلك.. تريد أن تكون المهيمنة المسيطرة وكل ظنها أنها في بنسيونها ربان سفينة لا يخرج أحد في سفينته عن طاعته.

في "البنسيون" الثالث وجد الأخضر ضالته.. خمس دقائق أو ست تفصله عن جامعته. الماما كلارينس هي الرعاية ذاتها، الرأم والحنان ذاتهما حتى لتذكره بأمه شمس.. في الصباح توقظه حسب الطلب.. غداؤه، عشاؤه، كل ما يحتاجه يأتيه إلى غرفته، فكلارينس ليست كالمدام رولان تلك التي تلزم كل من في البنسيون بالجلوس إلى مائدة الغداء أو العشاء وفي وقت محدد لا يزيد دقيقة ولا ينقص. كلارينس عجوز في الستين، خاضت غمار الحياة بكل ميادينها وساحاتها، بدءاً من ساحة الفلاحة والزراعة وحتى ساحة بيع الهوى. كان أصلها الريفي يأبى إلا أن يظهر عفوية وطيبة وكانت قد تنقلت بين جنوبي فرنسا وشمالها، سنين طويلة تشردت وارتحلت.. في الحرب الأولى عرفت طعم الجوع والخوف وهربت من الجوع والخوف إلى باريس. استقرت أخيراً في باريس. تعرفت إلى رسام يدمن المونمارتر ومن بيت ذلك الرسام صنعت بنسيونها بعد أن أسلم الزوج وداعته.

البنسيون مريح، غرفة الأخضر مريحة، حاجاته مقضية، طباخ وخادمة يقومان بكل ما يحتاجه النزلاء والماما البترونة تعرف كل نزيل: ماذا يحتاج، كيف تلبي حاجاته، فاستعذب الأخضر المقام.

النهار في الجامعة، الليل في غرفته.. الأخضر سعيد.. دورة اللغة مر بها بنجاح، الفصل الأول من سنة الطب بدأه.. هنا كل شيء يوظف لخدمة الإنسان، لتوفير راحة الإنسان... الأخضر يشعر بطعم مختلف للحياة. في ما حوله، الناس أحرار، لا أزمات لديهم، لا هموم، لا مشاكل.. بل عمل.. كل يمضي إلى عمله، حتى ليتعذر على الأخضر أن يجد امرءاً يتسكع في شارع أو يجلس في مقهى يشرب النارجيلة أو يلعب النرد. حقاً!! أين مقاهي النارجيلة؟ أين يلعبون النرد؟" سأل جانيت ذات مرة، وقد مضى عليه بضعة أشهر في باريس. ضحكت جانيت ضحكة القهقهة ثم هزت رأسها "نارجيلة!! نرد!! عم تتكلم، أخضر؟" سألته، ملؤها التعجب، وكأنها تسمع كلمات غريبة لم تسمع بها من قبل، ماما كلارينس كانت قد سمعت بها لكنها أكدت له " لن تجد في فرنسا من

يدخن نارجيلة أو يلعب نرداً.. هذا شغل العاطلين الباطلين عن العمل" وعاد الأخضر بذاكرته إلى الشرق حيث تفترش ضفتي بردى مقاهٍ لا عد لها ولا حصر...

ملؤها النارجيلات وطاولات النرد. كان الأخضر قد تعرف إلى باريس، شوارعها، ساحاتها، معالمها، ففي الجامعة أوقات فراغ وثمة أيام عطل لا يقضيها كلها في القراءة والكتابة. كان يريد أن يعرف جيداً عاصمة الفرنساوي، ذلك القوي المهيمن الذي يستعمر بلاده... وكان قد اكتسب أصدقاء زنوجاً، صفراً، بيضاً، حمراً، فالفرنساوي القوي يبسط سلطانه على بلاد شتى من قارات شتى.

الأخضر لا يهتم بالسياسة كثيراً لكنه ليس جاهلاً بها تماماً... جلساتهم في "بوفيه" الجامعة، في النادي، لدى بعضهم بعضاً، تجره إلى النقاش في السياسة، إلى تناول مسائل راهنة وقضايا ساخنة، فكيف يظل جاهلاً بالسياسة؟ ثم إنه في بلد المستعمر ولا يغريه كأن يعلم ذلك الفرق الحضاري الذي جعل من وطنه مستعمراً ومن الفرنساوي مستعمراً.. فوارق كثيرة لمسها الأخضر لمس اليد.. أشياء كثيرة لم تكن قد وصلت إلى دمشق وجدها في باريس، منجزات حضارية لا تعرفها دمشق تعرفها باريس.. وبات الأخضر على يقين "المسألة مسألة حضارة.. على أي درجة من درجات سلم الحضارة أنت، يتحدد وضعك: أعلى أو أسفل، مستعمِر أو مستعمَر، مستغِل أم مستغَل؟" ووجد في ذلك كل حافز لأن يحصل على المزيد من العلم والمعرفة.. "الحضارة هي العلم، هي المعرفة.. بقدر ما نكسب منهما نرتقي سلم الحضارة".

-هه.. قل لي.. كيف أنت؟ دراستك؟ بادره القومندان رينو، وهو يستقبله في الموعد المحدد.

-أنا بخير.. لا أملك إلا أن أشكرك، سيدي القومندان.. وقدم له كشفاً بما فعل وما أنجز بعد أن جاء إلى باريس.

-عظيم!! كنت عند حسن الظن إذن؟ وكما توقعت!

لكن الأخضر كان مشوقاً لأخبار الأهل، متلهفاً لمعرفة الأحوال هناك.. في بلده حيث يسكن القلب وتهيم الروح، ولم يكن الأخضر ليشبع من حديث القومندان وهو يروي له أخبار الأهل والوطن.. كان يستمع وكله آذان صاغية، وكان يود لو يظل يحدثه حتى آخر الليل... لكن القومندان مشغول.. لديه موعد هام مع جنرال في القيادة.. اعتذر من الطالب واعداً إياه بلقاء ثانٍ قبل أن يعود.

أعطاه الأمانة ضاحكاً من الشنكليش الذي أرسلته له أمه.. ففتح الأخضـــر فمـــه سروراً ودهشة، لكن السرور الأكبر كان بالرسالة التي قدمها له.

في عب اللحم وضعها الأخضر، وهو لا يصدق متى وصل إلى غرفتـــه.. لكن قبل أن يصل تلقته كلارينس وقد لفتت نظرها علبة الكرتون الكبيرة التـــي حملها بشق النفس..

-أوه!! ما هذا أخضر؟ قالت بلهجتها الجنوبسية التي تـــرفض أن تحـــول الراء إلى غين كما يفعلون في باريس.

-هذه من الأهل.. هناك في دمشق. وأسرع الأخضر يفتح العلبة، يخـــرج الحلويات.. الموالح.. ثم يبدأ بتوزيعها على أصحابه النزلاء..

-أوه!! لا.. لا.. ما هذا قصدت.. دعها لك.. هي من أهلك وأنـــت أحـــق بها، لكن الأخضر لم يرد على الماما كلارينس..

-بالعكس، مشاركتكم تسعدني أكثر، قال الأخضر وهو يقدم لهـــم المـــوالح والحلويات التي لم يروها ولم يعرفوا مثيلاً لنكهتها من قبل.

-أنتم عرب كرماء.. أنا أعرفكم.. تحبون العطـــاء وتكرهـــون البخـــل.. حسبك.. حسبك.. قالت له الأم كلارينس وهي توقف سيل أريحيته ثم تحمل معه العلبة إلى غرفته. "تحبون العطاء لكن أنتم تحبـــون الأخـــذ.. فضـــيلتنا الكـــرم وفضيلتكم البخل...

أليس هذا ما يميزنا عنكم.. نحن الشرق وأنتم الغرب؟".

كان الأخضر يخاطبها سراً، وهو يدخل بقية الحاجات التي جـــاءت مـــن دمشق تحمل أريج دمشق. على ســـريره اســـتلقى، أخـــرج الرســـالة وشـــرع يتشممها.. "آه!! بالشميم العرار!! يا لعطر الفل!! يا لعبق الياســـمين!!" بيـــدين مرتعشتين فض الرسالة، وبعينين شبه مغرورقتين بدأ يقـــرأ.. ســـعيداً بأخبـــار الأب.. بنجاح تجارته.. مسروراً بنجاح منـــاف أخيـــه، بنجـــاح بـــدور إلـــى "البروفيه".. كل شيء على خير ما يرام.. ديباجة الرسالة حملته عاليـــاً علـــى بساط الريح. "سلام سليم أرق من النسيم وأحلى من العافية على قلب الســـقيم".. "أجل.. سلامكم أحلى من العافية وأرق من النسيم فكـــم أنـــا مشـــتاق إلـــيكم!! "خاطبهم من بعيد وهو يتابع قراءة الأسطر التي خطتها يد الأم.

".. تخص وتهدي روحكم الزكية وأنفاسكم البهية". "إيه! إن هـــذه إلا أنـــت أيتها الأم!! يا أزكى روح وأبهى نفس!! يا نبع الحنان الـــذي لا ينضـــب! يـــا

سلسبيل الحب المتدفق أبداً شلالاً من دفء وعطاء!!"

لكن فجأة توقف الأخضر.. "خبر مزعج سأنقله إليك.. أنا أعلم أنه مزعج، لكن لا بد من أن أخبرك به... مسكينة روضة ابنة جارتنا خرست.. أصبحت عاجزة عن النطق". ومن جديد أعاد قراءة الأسطر وهو لا يصدق ما يقرأ. "روضة صارت خرساء!! بكماء!! صماء!!؟ لا.. الأم لا تقول انها صماء.. بل عاجزة عن النطق، تهمهم، تدمدم، تخرج أصواتاً لكنها تظل مبهمة لا يستطيع أن يفهمها أحد.. لكن كيف؟". الرسالة تروي حادثة الخرس بكثير من التفاصيل "جاءها عريس!! رفضته أمام الأم لكنها خافت أن ترفضه أمام الأب... انعقل لسانها وعجزت عن الإفصاح!! "معقول هذا يا ربي!؟" راح الأخضر يتساءل وهو يقلب الرسالة بطناً لظهر وظهراً لبطن"... روضة الصبية المرحة، الشيطانة المهذارة، ذات اللسان بأربع شعب تصاب بالبكم!؟ تصبح عاجزة عن الكلام؟ يا إلهي!! أي لغز هو الإنسان!! "ومن جديد راح يبحث في الرسالة عما يحل ذلك اللغز، لكن الأم لم تكن قد كتبت له شيئاً.. فكرت أكثر من مرة أن تكتب له "هي تحبك، تريدك أنت ولا تريد سواك، ولسوف تنتظرك إلى أن ترجع إليها" لكنها خشيت أن يؤثر ذلك في ابنها، أن يشعره بالذنب، أن يعيقه عن متابعة دراسته، فصمتت. إشارة وحيدة فقط كانت قد سجلتها في زاوية مهملة من الرسالة "الدكتور الشهبندر يعالجها الآن.. هو يقول ان السبب سيكوروجي.. لا أدري ماذا". ولم يملك الأخضر إلا أن يضحك.. بعدئذ تابع. "ثمة شيء في نفسها تخفيه وهو ذاته ما يمنعها من الكلام!!" "أهو تلميح من أمي لي!؟ ماذا تريدني أن أفهم منه؟"..

طوال بعد الظهر، ظل الأخضر يفكر حزيناً شارداً إلى درجة لم يسمع معها الصوت الناعم الذي كان يسأل عند الباب:

-الأخضر هنا؟

-أجل!.. هنا.. تفضلي جانيت.. ادخلي.. ردت الماما كلارينس، لكن الأخضر لم يسمع الرد.. لم يسمع وقع الخطى المقتربة، بل لم يستطع التخلص من شروده إلى أن دخلت جانيت الغرفة شبه هاتفة:

-أوه!! أخضر!! أين أنت؟ لم أرك اليوم في الجامعة؟ وقبل أن يتاح له الوقت للنهوض من سريره، كانت جانيت قد وصلت طابعة قبلة على خده الأيمن ثم أخرى على خده الأيسر، دافعة به إلى النهوض..

-كنت عند أخيك، رد الأخضر وهو يقف على الأرض بشيء من تعثر.

–القومندان رينو جاء؟ سألته بتلك اللامبالاة التي تميز أهل الغرب.

–لم تعلمي.. إذن!؟ جاء أمس وجاء لي بحاجات وحاجات من دمشق.. أتشربين القهوة العربية؟

–أشرب.. أجابت الفتاة المرحة ضاحكة، لكن بشرط.. وتوقفت لحظة تنتظر سؤال الأخضر عن الشرط، لكنه لم يأت فاستأنفت: ألا تكون مرة..

–مرة!! لا.. لا.. حلوة سأصنعها لك حلوة.. كالعسل.. قال وهو ينحني على علبة الكرتون، يخرج كيس البن ثم يمضي به إلى المطبخ فليس يسعده كأن يشرب فنجان قهوة مع جانيت... الفتاة الرشيقة ذات العشرين ربيعاً والعينين الزرقاوين والشعر الأشقر حتى درجة الصهب، تلك التي كانت أول من تعرف إليها في باريس.

جانيت تدرس اللغات الكلاسيكية والأدب الكلاسيكي في السوربون، وعليها اعتمد في التسجيل بالجامعة، كانت له العون في فصل اللغة، ساعدته في شراء الكتب، في تعريفه بباريس، مدينة الحضارة والنور، جانيت لم تبخل عليه بشيء.. هي فتاة ذكية شجاعة واثقة من نفسها، واسعة الإطلاع ورغم أنها لا تكبره أكثر من عامين إلا أنه كان لا يملك إلا أن يندهش كلما دخلا حواراً أو علقا في نقاش. كانت تعرف الأدب اللاتيني، الأدب الإغريقي وتقرأهما بلغتهما الأم.. إن أرخى لها الحبل حدثته عن هوميروس، سوفوكليس، فرجيل وأسماء أخرى لم يسمع بها من قبل. هي معجبة بشعر الرومان لكنها معجبة أكثر بمسرح اليونان وفلسفتهم.. وهي لا تفتأ تبحث وتستقصي.. ذات مرة جاءت فرحة "أتعلم، ماذا اكتشفت اليوم؟" "ماذا؟" سألها الفتى الشرقي الذي كانت تفاجئه دائماً باكتشافاتها: أعظم فلاسفة الأغريق إما أنهم من الشرق أو درسوا في مدارس الشرق.. في مدارس حمص، صيدا.. صور أي عندكم في بلادكم.. وشعر الفتى الذي لم يكن قد درس الأدب الكلاسيكي ولم يتعمق في معرفة حضارة الإغريق بكثير من الزهو "صحيح!؟ أنا لا أعرف ذلك" أجابها الفتى فاندفعت تحدثه عن فيثاغورس، زينون، أفلاطون، إلى أن فاجأته من جديد بقنبلة أخرى "كما اكتشفت أيضاً أن الإغريق أخذوا حسابهم وآلهتهم عن البابليين، علوم الفلك والهندسة عن المصريين بل حتى أبجديتهم أخذوها عن الفينيقيين!! يا إلهي!! كم هو عظيم الشرق إذن!! كم له من فضل علينا هنا!! على البشرية جمعاء!! "حينذاك شعر الأخضر بزهو شال معه رأسه عالياً كما شعر باحترام شديد للفتاة التي تبحث وتستقصي كي تعرف وتعترف. "لكن لماذا لا يعترف

الغرب بذلك؟ لماذا يعتبر أن أصل الحضارة الإغريق؟" سأل الفتى الــذي كــان يعرف بعض الأشياء عن أهمية الشرق، بلده، في صنع الحضارة البشرية كلها، هو الذي وضع أسس الحضارة ورفع أعمدتها عالياً.. ومن جديد اعترفــت لــه "لعله الكره والحقد، لعله الصراع القديم على السيطرة علــى العــالم: إغريــق وفينيق، رومان وهانيبال.. إسلام وإسبانيا.. صليبيون وعرب. فكيــف يعتــرف الغرب بفضل الشرق؟ "ذلك جعله يكبرها أكثر.. هي تدهشـــه، تبهـــره أحيانـــاً بأفكارها المختلفة، بآرائها الجديدة، بل يشعر أنه عاجز عن اللحــاق بأفكارهــا أكثر الأحيان.

فارت القهوة على النار فابتعد الأخضر بالدولــة قبــل أن تطــوف علــى حوافها.. رائحة القهوة تنعشه، تحمله بعيداً إلى الشرق حيث البخــور والهــال، المسك والعنبر وتلك الروائح التي لا يشبع المرء من شميمها.. صينية القهــوة، الفناجين أعدتهما له الخادمة التي حاولت أن تصنع عنه القهــوة "بــل أصــنعها بيدي.. كي تخرج عربية أصيلة كما أشتهي"، وقدم للفتاة الرشيقة ذات العينــين الزرقاوين فنجاناً يتصاعد بخاره تنشقته فانفرجت أساريرها.

-شيء منعش!! هتفت وهي ترشف الرشفة الأولى. حقاً!! لا شيء يضاهي القهوة العربية الأصيلة!!

طرب الأخضر للإطراء، فانبرى يقدم لها من كل مــا أرســلته الأم فــي الشرق: بقلاوة، كل واشكر زنود الست، بللورية، بعدئذ جاء دور الموالح: البزر الأبيض، الأحمر، الفستق الحلبي، السوداني بل هم بأن يقــدم لهــا الشــنكليش والبرغل، لولا صيحات الاحتجاج التي تعالت منها.

-ماذا؟ تريد أن تحشوني حشواً؟ ما أطعمتني حتى الآن يكفيني ثلاثة أيام!!

وضحكا كلاهما... كانت الفتاة قد أكلت بنهم، شربت بنهم، فكل ما قدمــه لها جديد.. تتذوق هذا.. تجده لذيذاً تتذوق ذاك، تجده ألذ وكله جديد طيب.

-إذن كم في الشرق من أشياء جديدة علينا غريبة عنا؟ سألت وهي تــتلمظ إثر قطعة من البللورية شعرت بها تذوب ذوباناً في فمها...

-الكثير!! الكثير!!

-تعلم.. أنا أشعر أن كل شيء لديكم مختلف.. كل شــيء لــديكم أصــيل عريق: القهوة العربية، السمنة العربية، الخيول العربية.. تــرى هــل الرجــل العربي كذلك؟.

وشعر الأخضر بدفقة دماء حارة تصعد إلى وجنتيه.. هو لا يدري إن كانتا قد احمرتا لكنه يدري أنه أطرق استحياء!! هذه الفتاة.. كم هي جريئة شجاعة!! "فكر وهو يشيح بوجهه ويبتعد بناظريه. هو يعلم أنها تعرف ما تريد وتعمل على تحقيق ما تريد.. كما يعلم أنها تعرف الرجال ولها تجارب كثيرة مع الرجال.. بعض أصدقائها يعرفهم.. يراها وهي تذهب معهم.. ذاك شأنها الخاص.. وفي الغرب لا أحد يتدخل في شأن خاص.. علاقته بها تبتعد عن كل شأن خاص. هي أحياناً تأخذه بالأحضان حين يلتقيان، تقبله من فمه، تتأبط ذراعه وهما يمشيان، تلتحم به أكثر وأكثر لكن خجله كان يجعله يبتعد، يحاول تجنب المزيد من الالتحام وكانت جانيت تحترم خجله.. تغمز منه أحياناً لكن تحترم رغبته أكثر الأحيان.. ذات مرة سألته "ألم تتعرف إلى فتيات هنا؟ ألم تقم صداقة مع إحداهن؟ "وهز رأسه نفياً" الفتيات بحاجة إلى فراغ وأنا لا فراغ لدي، وقتي كله لدراستي" وتبسمت حينذاك. هو يذكر ابتسامتها حتى اليوم، كما يذكر امتداد أناملها الناعمة الدافئة إلى خده تمسده برفق ثم تتشبك في أنامله.

–هه.. أخضر.. ما لك لم تجبني؟ الرجل العربي فحل أصيل كحصانه أم لا؟ سألته وهي تمسح أصابعها بمنشفة بللها الأخضر بالماء..

–لا.. لا.. أ.. دري.. بما.. أجيبك.. قال متلعثماً محمر الوجه والعنق..

–إذن.. دعني.. أجرب، قالت وهي تنهض عن كرسيها، ملؤها الحيوية والحماسة...

ذهبت إلى الباب المفتوح، أغلقت مصراعه على مهل، وعلى مهل حركت الرتاج إلى أن أخذ مكانه، وعيناها على الأخضر كأنما تقولان له "انظر. الباب الآن مغلق نحن في أمان".

–جانيت، ماذا فعلت؟ قال، وعيناه تتجهان إلى الباب.

–ما يجب أن أفعله.

–وكلارينس؟ الخادمة؟ النزلاء؟ ماذا سيقولون؟

–لا.. لا عليك.. هنا لا شأن لأحد بأحد، قالت وقد ركعت على ركبة واحدة أمامه. أمسكت بيده ثم رفعتها إلى شفتيها.. حرارة هائلة شعت من أصابعها، من شفتيها. هو خائف، حائر يحاول الابتعاد.. لكن أين يبتعد وذراعاها طوق حوله، وجهها لصق وجهه، تلامس بخدها خده، تندلق بصدرها على صدره فيشعر بما يشبه الارتجاف "يا إلهي!! في المنزل وأمام سمع الناس

وبصرهم!؟"

-لا تخف، قالت جانيت وكأنها تعلم ما يدور في ذهنه.. الناس هنا ليسوا كناسكم في الشرق، يتدخلون في شؤون الآخرين الخاصة.. هنا.. تغلق الباب عليك يصبح المكان ملكك، لا يسمح أحد لنفسه بانتهاك حرمته، فاطمئن.. خذ راحتك كما تشاء.. مارس حريتك بالشكل الذي تشاء..

-راحتي!؟ حريتي!؟ بدأ يردد، وهو يرتعش من أخمص قدميه حتى قمة رأسه، فقد صار أتون النار فوق فخذيه لكن كيف؟ وأخوك؟

-وما شأن أخي؟ سألت وهي تنهض عن فخذيه عتباً ولوماً.

-أغدر به؟ أخونه بأخته؟ لا.. لا.. هو أسدى إلي معروفاً ومن الغدر أن أرده له ولوغاً في عرضه، تمريغاً لشرفه.. وانطلقت قهقهة عالية...

-غدر؟ تمريغ!؟ قالت من بين أمواج قهقهتها.. عم تتكلم يا صديقي؟ نحن هنا في الغرب ولسنا هناك في الشرق.. مثل هذه المفاهيم اندثرت لدينا وبادت.. هنا، شيء واحد يعنينا هو الحب.. السعادة.. الرضى.. ولن يسعد أخي كأن توفر لي الرضا والسعادة، كأن تمنحني الحب!!

في رأسه ما يشبه الدوار، يسمعها الأخضر، مذهولاً، مبهوتاً متسمراً في كرسيه، فيما هي تخلع قميصها الزهري ذا التشجرات الخضراء... تحته لم يكن غير حمالة نهدين.. الصدر أبيض محمر كبركة من أرجوان، البطن ضامر أخمص، كأنه لم يعرف يوماً الطعام، السرة غمزة ذقن ترسل ألف إيماء.. هو لا يملك إلا أن ينظر.. احمرار وجهه، ارتعاش يديه، خفقان قلبه، كل ذلك لم يمنعه من استراق النظر.. يطرق لحظة لكن عينيه تنشدان إلى الأعلى لحظات.. ثم بدا وكأنهما تسمرتا حين انفكت الحمالة عن النهدين وتنفس النهدان الصعداء.. حلمتاهما اشرأبتا فجأة إلى البعيد، وثبتا إلى الأعلى مهرتين على مرجة ربيع.

-ما رأيك؟ أنا حلوة؟ صدري جميل؟

وتحركت شفتاه بالرد لكن جانيت لم تسمع صوته.. فقد أحس باضطرام نار يشعل حلقه.. بغصة تسد فمه...

-أ.. أ.. أجل.. أفلح أخيراً في التخلص من الغصة.

-ما بك لا تتحرك إذن؟ ألست رجلاً؟

وكأنما كان ذلك الفتيل الذي أشعل البارود، هب الأخضر.. "هو ذا التحدي.. أنا لست رجلاً!؟ من قال هذا؟ أنا الأخضر بن عزيز سيد الرجال..

فكيف تهان يا أخضر؟ كيف تتحداك امرأة أيها الرجل؟ "ولم يجد نفسه إلا وهـو يمسك بها، يطوقها بذراعيه، يشدها إلى صدره، يلقم شفتيه شفتيها ثم يحملها إلى الفراش.. يلقيها عليه ويعري ما بقي من ستر....

-الآن علمت لماذا الحصان العربي حسن السمعة واسع الشهرة.. غمغمت جانيت دافنة وجهها في عنقه، وقد همدا هنيهة من الزمن عاريين على الفراش..

-تعنين أنني نجحت في الاختبار؟ قال ضاحكاً، وهو يبتعـد عنهـا قلـيلاً غارساً عينيه في عينيها..

-بدرجة امتياز.. قالت ضاحكة هي الأخرى وقد استعادت أنفاسـها بعـد انقطاع، رادة إليه النظرة نفسها انغراساً وجرأة. وكومض البرق وجد الأخضـر نفسه يعود إلى هناك إلى شجرة النارنج في بيتهم الدمشقي، وروضـة تختبـئ وراءها بخجل واستحياء، ينظر إليها فتهرب بعينيها منه، يقول لها انظري إلـي فتزداد إطراقاً إلى الأرض "يا إلهي!! كم هناك من اختلاف!! روضـة الحبيبـة الخجولة التي تحبه حتى العبادة، لكنها لا تجرؤ على لمس يده، بل تسـتحيي أن تنظر إليه وجهاً لوجه، وجانيت التي لا تحمل له أدنى مشاعر الحب تتعرى كما حواء وتمارس معه الحب.

-هه!! أين شردت؟ لكزته، وهي تتأمل عينيه اللتين غابتا بعيداً..

-لا.. لا.. رد في محاولة للتهرب منها ومن أفكاره.

-أنت خجول.. خجول كثيراً.. ترى ألم تعرف النساء من قبل؟

-أ.. أ.. بداً.. قال متلعثماً وقد عاوده الحياء من جديد.

-إذن.. أنا التي فضضت بكارتك!؟ كم أنا سعيدة، أخضر!؟ وانهالت عليـه تلثم خده، عنقه، صدره، منتشية بالبكارة التي فضتها للتو.. ومـن جديـد عـاد خياله إلى روضة التي لم تجرؤ يوماً على البوح بحبها له. كانت تدور، تلـف، تقترب، تبتعد، لكنها لم تقل شيئاً ولم تبح بالسر الذي ظل دفيناً في أعماقها تضن أن يراه النور.. عيناه مضتا إلى الطاولة حيث الرسالة التي كان يقرأهـا حـين دخلت جانيت.. لحظت ذلك فسألته.

-في الرسالة شيء محزن.. أليس كذلك؟

-أجل؟! خبر أحزنني كثيراًا!؟

-ما هو؟ احك لي..

وحكى لها الأخضر قصة الفتاة التي عقد الخوف لسانها فأصبحت خرساء.

-مسكينة، ألهذا الحد يصل الخوف بالفتاة عندكم؟

-كيف لا والساطور الذي يجز الأعناق أمام عينيها؟

-شيء محزن حقاً!! الفتاة لا تجرؤ على التعبير عن رأيها، لا تستطيع البوح بحبها، لا تملك حرية اختيار قرينها... ما هذا؟ قالت وقد نهضت تلبس ثيابها تعبيراً عن تغير مزاجها.

-هذا هو الشرق.. وهذا ما يحزنني في القصة.. جانيت.. أنا أشعر بالذنب.

-كنت تحبها إذن؟

-لا.. ليس حباً.. ربما هو مودة.. ألفة..

-بالنسبة إليك.. لكن بالنسبة إليها حب، أمل، مستقبل.. وهذا ما سبب لها الصدمة.

-ربما.. أمي تقول رأي الطبيب أن خرسها لأسباب سيكولوجية.

-اذهب إليها إذن، ربما تشفى إن رأتك..

-والدراسة التي بدأت؟

-لا أدري.. ما أدريه أن عليك أن تتصرف: اكتب لها.. طمئنها.. عدها بشيء.

وكتب لها الأخضر، لكن دون أن يعدها بشيء، فوعد الحرّ دين، وهو لا يريد أن يضع ديناً في عنقه قد يضطر يوماً لإيفائه.

بنفسه، أوصل القومندان الرسالة إلى شمس.. لم تفاجأ به كعادتها كل مرة، هذه المرة هي أم تنتظر أخبار ابنها بشوق العالم كله ولهفته.

-أهو بخير؟ صحته جيدة؟ يأكل جيداً؟ ينام جيداً؟ انهالت عليه بالأسئلة ما إن جلس في غرفة الاستقبال، فرحاً في سره لغياب عزيز...

-لا.. لا.. لا تخافي عليه.. الأخضر ذكي، فهيم، وهو رجل يعرف جيداً كيف يشق طريقه في الحياة...

-يعني.. صار يعرف باريس.. له أحد هناك.. له أصدقاء؟

-أو.. وه!! أصدقاء، صديقات.. بل هو وأختي جانيت صديقان حميمان!! لا يفارق واحدهما الآخر..

وأجفلت شمس، لكن دون أن تسمح للإجفالة بالظهور.. هل أوقعته الفرنسية في شراكها، هل علق في فخها؟ وماذا إن ألهته عن دراسته وطبه؟"

–يعني رأيته؟ جلست معه؟

–مرات.. كان يجيء إلى المنزل مع جانيت.. وكنا نلتقي منفردين.. الأخضر شاب نبيه.. صدقيني سررت كثيراً برؤيته، ومضى يحدثها عن كل ما يحمله من أخبار..

–الله كم أشكرك، سيادة القومندان!!

–بل أنا الذي يشكرك، فقد أتحت لي فرصة لسماع حديثه العذب..

–صحيح!! حديثه عذب؟ وقاطعته شمس بكثير من الفرح: عم كان يتحدث سيادة القومندان؟

–أوه.. وه.. عن حياته هناك.. دراسته.. حياته هنا.. طفولته في حماة...

وتوقف القومندان لحظة متفرساً النظر في وجه شمس التي بدت وقد انكمشت للتو، على سيماها الانزعاج والضيق، تعلمين؟ لم أكن أعلم أنكم عشتم في حماة.. لماذا لم تحدثيني عن ذلك؟

–ولماذا أحدثك؟ مرحلة مضت وانقضت سيادة القومندان..

–لكن بودي لو أعرف شيئاً عن حياتكم هناك.. هي تهمني..

–تهمك؟ لماذا؟ سألته وقد عادت أنامل الخوف تمسك بقلبها عاصرة إياه.

–مدام، أنت الآن صديقتي، عزو صديقي.. وأنا لا أريد أن أتعامل مع أصدقاء أجهلهم.. الفضول يدفعني دائماً لأن أكتشفهم، أعرف كل شيء عنهم...

"لماذا يريد اكتشافنا، بل لماذا فرض علينا صداقته، هو يعرف شيئاً، يشك بشيء بالتأكيد.. لكن ماذا عرف من الأخضر؟ أتراه يذكر تلك الأيام؟ أيعلم الأخضر من كان يجيء إلينا أو يذهب؟ يا إلهي!! الرجل مصمم على ملاحقتنا.. فكيف التخلص منه؟".

وبدا التخلص منه ضرباً من المستحيل، فالقومندان الدمث اللطيف، الذي يحسن الحديث، يحسن التصرف، بل يقدم الخدمات ويصنع المعروف تلو المعروف، يطوق عنقها الآن بأكثر من قيد.

–لا.. اطمئن.. قالت أخيراً وقد تخلصت من أفكارها فيما كان صمت رهيب قد أطبق. نحن أناس بسطاء، حياتنا بسيطة..

-بسطاء!؟ حياتكم بسيطة!؟ كيف وأنت الشيخة ابنة الشيوخ؟

"يا إلهي!! إذن جررت الأخضر إلى قول ما لم أحب أن يقول؟ إذن، بت لا تعرف قرية عزيز وحسب بل أهلي وعشيرتي أيضاً!؟ فماذا تريد إذن؟ إلامَ تبغي الوصول؟ "هه حضرة الشيخة شمس!! تابع القومندان وابتسامة عريضة على شفتيه، صدقيني.. أنا لم أفاجأ، كلام الأخضر عن أهلك وعشيرتك لم يفاجئني.. كنت أشعر أنني أعامل امرأة غير عادية.. امرأة يجب أن تكون شيخة أو أميرة.. لكن السؤال لماذا تخفين ذلك؟

-لا.. ليس... بدأت شمس متعثرة، لكنها توقفت دون أن تعرف ما تقول.

-الناس هنا، بل في كل مكان من العالم، يفخرون بأصولهم، بحسبهم ونسبهم.. فلماذا أنت تخفين ذلك.. وأنت الشيخة.. الأميرة.؟

-لماذا؟ لا.. لا أدري.. ربما أنا.. وزوجي نكره التفاخر.. نكره الحديث عن الماضي..

-ها.. تكرهان الحديث عن الماضي؟ هنا السر الذي أود معرفته؟ فما هو شمس، أيتها الشيخة ابنة الشيوخ.. أي سر تخفين؟.

-أهو تحقيق؟ انتفضت شمس فجأة وهي ترى نفسها تحشر في الزاوية.. أرجوك.. كف عن أسئلتك..

وتبسم القومندان وقد تيقن أن ذلك يكفي هذه المرة وأن عليه حقاً، أن يكف عن الأسئلة... بدماثته، بكياسته نفسها، نهض الرجل مودعاً، انحنى، هم بتقبيل يدها لكنها سحبتها.. "جيرار!! هو نفسه جيرار!! يريد أن يستجرني إلى مصيبة أخرى!!" وكظمت غيظها.. باذلة كل ما في وسعها علها تستعيد دماثتها:

-كل الشكر لك، سيادة القومندان.. غمرتنا بأفضالك ولا ندري كيف نرد لك تلك الأفضال؟.

-بسيطة، رد القومندان ضاحكاً وكأنه لم يصدّ قبل لحظة، تدعينني إلى منسف ثريد..

-هو كذلك.. لكن بعد أن يعود.. ردت ضاحكة وهي تشير إلى باحة البيت الفارغة وكأنما تشير إلى رب البيت الغائب، ثم ما إن أغلقت الباب وراءه حتى أسرعت إلى مخدعها، ألقت بنفسها على السرير متنفسة الصعداء، وكأنما انزاحت عن صدرها صخرة صوان.. ساعة، ساعتين، التقطت أنفاسها ثم عادت إلى الرسالة تشمها، تلثمها، تلتهم ما كتبه لها الأخضر التهاماً. كلماته تمس

شغاف قلبها، تدخل هناك إلى الأعماق، تبلل كالندى أزاهير الشـوق المتفتحـة للفتى الطويل الرشيق الذي لم يمتلئ بعد. "أمي الحنون.. أمي الحبيبـة"، تقـرأ شمس فتبرد نار هناك في صدرها، تطمئن أنفاسٍ في صدرها وتسري راحة في أوصالها". أخباره سارة، أحواله مطمئنة.. "حمداً لك يـا رب!! سـيعود إلـي الأخضر ظافراً مظفراً!!لكن أتراه يعود إلى روضة؟" راحت شـمس تتسـاءل وهي تقرأ فقرة الرسالة التي يسأل فيها عن روضة. هو يقسم انه لم يبادلها كلمة حبٍ ولم يعدها بعهد، ولا صار بينهما شيء.. ثم يلوم: "إن كانت تحبني إلى هذه الدرجة، لماذا لم تقل لي؟ لماذا كتمت مشاعرها طوال الوقت؟" أسئلة وجيهـة، لكن من يستطيع الإجابة؟

روضة، مذ انعقد لسانها، باتت غير قادرة على الإجابة. الشيخ الذي حاول فك تلك العقدة لم يزدها إلا تعقيداً... فالجني الذي دخل فم الفتاة وأمسك بلسـانها أبى الخروج.. عصي الخيزران الثلاث كسرها على ظهرها، صرخاته ما زالت تدوي في أذنيها، بخوره في خيشوميها، مع ذلك أبى الجني الخروج.. روضـة تذكر وقع العصي على ظهرها، إليتيها، فخذيها، تـذكر الهمـدرة والزمجـرة، الصياح والصراخ، تذكر أوجاعها، آلامها، وهو ينهال عليها ضـرباً لكنهـا لا تذكر متى توقف ذلك الضرب. أياماً وليالي ظل ظهرها ينزف دماً.. عظامهـا مكسرةً، جلدها كله أزرق مسوداً.. أمها تبكي عليها، أخواتها ينحن، ودموعهـا هي لا تجف.. "ماذا فعلت بك؟ كم أخطأت بحقك!! "كانت أمها لا تنفك تنـدب، لاطمة خدها، صدرها، وكلها شعور بالذنب.

ذلك الشعور بالذنب أفادت منه شمس فأقنعتهم باللجوء إلى الطبيب..

جاء الطبيب، فهاله حال الفتاة المسكينة التي لم يكفها الموت بـل جاءتهـا عصة القبر. شهراً ظل يعالج جلدها المجرح ظهراً وعجزاً.. يدين ورجلـين.. الميكرو كروم الأحمر، المسحوق الأبيض، الأقراص، الحبوب، كلهـا عرفتهـا روضة، مع الصراخ أحياناً وبلا صراخ أحياناً أخرى...

كان خوفها من ذلك الشيخ الذي يطرد الجن بعصا الخيزران جعلها تخاف من كل غريب. رأت الدكتور يدخل بحقيبته الجلدية السوداء فانكمشـت علـى نفسها وعبست، متقلصة متكورة، رافضة أن يلمسها لمساً. شمس معه... تحاول طمأنتها تشرح للفتاة المذعورة من هو الدكتور الشهبندر، وكيف سيعالجها "هـو صديق عزيز.. وطبيب بارع.. اطمئني إليه، أسلمي أمرك له، تعـودي سـالمة معافاة بإذن الله!! "لكن روضة لم تطمئن، بل كان علـى شـمس والطبيـب أن

يحدثاها أكثر وأكثر... عن الشعوذة والخزعبلات.. عن النصابين والدجالين.. وعن الجهل الذي يوقع الناس بين أيديهم.. أخيراً، حسمت الأمر شمس، "هذا طبيب عالم.. وصديق مخلص.. رأيته مرات في بيتنا ولا يمكن أن يريد بك الشر.. فاطمئني "حينذاك فقط اطمأنت روضة وأسلمت قيادها للطبيب...

الطبيب كبير القلب، رحب الصدر، هادئ، صبور.. يعالج الفتاة بحنو الأب وإشفاق الأخ. "من يصدق؟" راحت شمس تتساءل وهي ترى الطبيب الهادئ الصبور يعالج مريضته. "هذا الرجل هو نفسه كان وزيراً لخارجية الملك فيصل؟ هو نفسه الذي ناضل ضد الاستعمار العثماني والفرنسي؟ شارك في الثورة السورية الكبرى؟ تعرض للمخاطر والأهوال؟ وفي الوقت نفسه يداوي ويعالج!! كم هو متعدد المواهب إذن!! كم هو نعمة لقومه ووطنه؟ "ولم يكن متعدد المواهب، النعمة لقومه ووطنه، يخيب لشمس ظناً.. هو صديق حميم يكن لها كل الاحترام، يكن لعزيز كل المودة والحب.. قبل أن يذهب إلى مريضته أو بعد أن يعود من لدنها.. يزور بيت الأصدقاء كما كان يدعوهم. يجلس مع عزيز، يجلس مع شمس إن لم يكن هناك عزيز، فالدكتور الشهبندر هو الرجل الوحيد الذي يطمئن له قلب شمس.. "رجل عظيم لا يوحي لك إلا بالثقة والاطمئنان!!" كانت تقول لعزيز كلما تحدثا عنه.. آراؤه في الحياة تعجبها، آراؤه في السياسة تعجبها، ولا تملك إلا أن تسأل وتسأل كلما جمعهما مقام. الرجل واسع المعارف، كبير التجربة، صلب الإرادة، قوي العزيمة. هو متفائل حيناً، متشائم حيناً آخر "أنا أؤمن بهذا الشعب، متفائل فيه، لكنني أكفر بمن يتنطحون لقيادته، متشائم من رجالات سياسته"، قال لشمس ذات مرة وحين سألته "لماذا"؟ كان جوابه واضحاً: "شعب عظيم كشعبنا بحاجة إلى رجال عظماء أقوياء قادرين على انتشاله من هاويته، إنقاذه من ورطته... لكن للأسف كل من ترينهم طافين على السطح الآن مسوخ، أقزام، صغار، أصفار". ولم تستطع هي وعزيز إلا أن يوافقاه... كان البلد يرزح تحت نير ثقيل ورجالاته يختصمون على صغائر الأشياء، كل منهم يريد الحصول على مكسب، أو إرضاء جنرال لبلوغ منصب، في كل يوم ينحدرون أكثر، يسقطون أكثر ومن أجل ماذا؟ سفاسف وصغائر، فتات يرميه لهم هذا الضابط الفرنسي أو ذاك. زعيم ليس بزعيم، ورئيس ليس له من الرئاسة شيء، والكل يسيرون في ركب المستعمر خاضعين، خانعين". الدكتور غير راض.. مذ عاد من مصر وهو يلوم ويعاتب، ينتقد ويهاجم. شمس تذكره حين دعته عايده بيهم آخر مرة إلى

الرابطة النسائية.

جريئاً كان!! واضحاً كان!! أجاب على كل سؤال، شفى كل غــل.. وفــي النهاية أطلقها صريحة واضحة: "المرأة نصف المجتمع.. والنساء مدعوات لأن يعملن شأنهن شأن الرجال وجنباً إلى جنب مع الرجال.. بل عليهن أن يعملن بلا كلل أو ملل لشحذ همم الرجال، فالحرية تؤخذ ولا تعطى، الاستقلال لا تصــنعه إلا التضحيات والبطولات، والتضحيات والبطولات يرضعها الأبناء من صدور الأمهات".

في الصحف، في المجلات، داخلاً، خارجاً، كان يكتب، بل لم يكن يفــوّت مناسبة إلا ويصدر فيها بياناً يبين الحقيقة للشعب حاثاً إياه على الدفاع عن حقه، هادياً إياه إلى طريق الصواب...

أليس هو زعيم الشعب؟ أليس حزبه حزب الشعب؟ مع ذلك، وبكل تواضع زعيم الشعب، يأتي بنفسه إلى فتاة خرساء يبذل المستحيل كي يشــفيها.. بقلــب رحيم ونفس مفعمة بالحب كان ينكب عليها، يعالجها، يحدثها، يســألها، يحــاول استدراجها، جرها جراً إلى النطق. أشهراً عدة ظل والفتاة ديدنه... هو واثق أن العلة في النفس وليس في الجسد.. شرح ذلك لأبيها، لأمها فهزا رأسيهما وقــد استعصى عليهما الفهم. لكن شمساً كانت تفهم.

"يجب أن نكسب ثقتها.. يجب أن نجعلها تطمئن.. اطمئنانها سيخلصها من عقدة الخوف.. ذهاب عقدة الخوف وحده يذهب بعقدة اللسان". شــمس مؤمنــة بوجهة نظره، بتصوره الواضح ورؤيته التي لا شــائبة فيهــا... "ســتنطق ان استطعنا التغلغل إلى أعماق نفسها، فاخرجنا ما في تلك الأعماق. "علــى هــذا الأساس بدأ يعمل.. يجلس معها طويلاً، يحدثها، يروي لهــا القصــص، يفســر الأحداث ثم ينهال عليها بسؤال مفاجئ وكل ظنه أنها بحافز ما، باندفاعة ما قــد تجيب... لكن، طوال ستة أشهر، ظلت روضة تجلس، تصغي، تتلقى الأســئلة لكنها لا تجيب...

حين جاءت رسالة الأخضر، همست أمه للطبيب:

–دكتور!! أنت قلت الفتاة بحاجة إلى حافز، إلى اندفاعة تفك عقدة لســانها، ما رأيك أن تستخدم هذه الرسالة حافزاً؟ وأخرجت من حقيبتها ورقات مطويــة بعناية.

–أية رسالة أختاه، سألها الطبيب الذي كان معجباً بشمس "شخصــية فــذة"

كان يقول عنها "امرأة لا كالنساء" وكان يأبى إلا أن يناديها "أختاه".

شرحت له الأخت الحب من طرف واحد، ذاك الذي كان يشد روضة إلى الأخضر مؤكدة له أن لذلك الحب دوراً في خرس الفتاة.

–لماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟

–لم أكن على يقين.. لكن الآن نعم..

وتهلل وجه الطبيب!! "وضع اليد على العلة أقرب الطرق إلى معالجة المعلول". قرأ الرسالة فتهلل واستبشر:

–دعينا نجرب، قال لشمس وهو ينهض، كله همة وحماس. فقط الحقي بي بعد حين وافعلي ما أقول لك الآن...

بعد حين، لحقت به شمس.. كان قد تحدث مع روضة كعادته، حثها على الكلام، حرضها، لكن حين دخلت شمس ويدها خلف ظهرها، كما اتفقا، بادرها الطبيب باندفاع.

–بيدك شيء، ما هو يا أختاه؟

–لا.. لن أقول.. هو يهم روضة كثيراً.. يفرحها كثيراً..

وفي الحال، فتحت روضة عينيها على سعتهما.

–روضة لم يعد يهمها شيء.. ولم يعد يفرحها شيء..

قال الطبيب بمسحة من قنوط

–لا، ردت شمس بدفق من تفاؤل ما عدا هذه الرسالة، ما عدا صاحبها.. هما يهمانها كثيراً.. كثيراً.. كثيراً..

–هاتيها إذن.. أعرف ما فيها.. قال الطبيب وهو يمد يده إلى الرسالة فابتعدت بها شمس مقتربة من روضة...

–كيف دكتور والرسالة لروضة؟ تسلم باليد.

–حقاً؟ قال الطبيب وهو يغمز بعينه.

–حقاً وصدقاً!! صاحبها يقول: سلميها لروضة أغلى الناس عندي، وبدت روضة تشتعل حماساً وتحفزاً، حمية واندفاعاً، عيناها على الرسالة ويداها تهمان بالإمساك بها.

–قد أثرت فضولي.. ممن هي أذن؟ سأل الطبيب وهو يرقب روضة، مسروراً، بطرف خفي..

-لا.. عليها هي أن تحزر.. ردت شمس وهي تقترب أكثر مــن الفتــاة.. انظري.. روضة...

شمي رائحة الرسالة.. قالت وهي تقربها من وجهها وتبعــدها عنــه. ألا تذكرك بأحد؟ ألا تستطيعين أن تخمني من المرسل؟ ومن جديد، راحــت تلــوح بالرسالة أمام عينيها، فبدا بريقهما أشد تراقصاً، وحماستها أكثر توهجاً، بل خيل لشمس أنها ترى في روضة كتلة مشتعلة من نار..

-الرسالة لك.. احزري من أرسلها؟ صاح بها الطبيب على حين غــرة.. وعلى حين غرة انفجر صوت روضة.

-الأخضر!!. صاحت وهي تهب ملء طولهــا.. انهــا رائحتــه.. إنهــا رسالته... اقرئيها لي.. تابعت، وهي تمد يديها كلتيهما في محاولــة للإمســاك بالرسالة، فيما كانت تنفرج أسارير وتفتر شفاه وقد تــنفس كــل مــن شــمس والطبيب الصعداء.

-8-

–بماذا أوصيكم؟ بصوت خفيض ونبرة هادئة بدأ علي المر المستلقي على فراش المرض حديثه.

يونس، عزيز، نرجس، إبراهيم، نواف تابع معدداً أسماء المتحلقين حوله، متوقفاً بعد كل اسم وكأنما يتلذذ بنطقه ويستمتع بطعمه. تعاونوا، كونوا معاً على الدهر، في السراء والضراء ظلوا يداً واحدة.. لا يدخل بينكم طمع، ولا يحشر إبليس قرنه...

–أكيد، أبي.. أكيد.. لكن.. لا تجهد نفسك، خاطبه يونس وهو يرى أنفاسه تصعب ولهاثه يزداد.

–بل يجب أن تسمعوني.. ربما كان هذا آخر كلامي لكم.. عاد علي المر بعد أن ربت يد يونس التي امتدت تهدئه، ونظر إلى نرجس التي كانت تجلس على الفراش بجانبه، وكأنما هي جاهزة لأن تضع رأسه على ذراعها تهدهده... "صحيح!! من قال إن الإنسان يعود في شيخوخته طفلاً؟.. أهي الدائرة التي لا بد من أن تكتمل؟ يبدأها المرء طفلاً، يشب ويترعرع، يصبح راشداً كهلاً ثم شيخاً.. خطا دائروياً يرسم إلى أن يلتقي طرف النهاية بطرف البداية وتنغلق الدائرة". راح عزيز يفكر وهو ينظر إلى أبيه. لم يكن علي المر يشكو من شيء، صحته، سمعه، بصره، كلها على خير ما يرام، يقرأ القرآن، يسمع أدق الكلام، يذهب، يجيء، في مضافته يستقبل الأصحاب، الأقرباء، الغرباء، يلعب المنقلة والداما، ويضحك بقهقهة تسمع حتى آخر الزقاق. لكن فجأة أحس بوهن، تعرق جسده، تصببت جبهته ماء، ارتفعت حرارته. كانوا في الصباح قد جاءوا بالفول الأخضر وكان هو يحب الفول الأخضر.. أكل خمسة أو ستة قرون.. بعدئذ بدأت عليه الأعراض:

قيء، تشنجات، وهن، ارتفاع حرارة وعرف الكل أنه الفوال. فـــي اليــوم الأول أخذه يونس إلى الطبيب. في المنطقة كلها لا يوجد طبيب.. وكان عليه أن يأخذه إلى حماة. "البوسطة" الوحيدة التي تمر بقرى المنطقة تلملم ركابها، تذهب إلى حماة مرة وحيدة.. تغرب مع الفجر لتشرق مع المغرب.. الطبيـــب أعطــاه الدواء، وبدا أن الجسم القوي الذي لم يفقد سناً واحدة، ما يــزال قــادراً علـــى المقاومة. عاد يونس بأبيه إلى القرية مع تحذيرات الطبيـــب، لا تقــرب الفــول أبداً.. حذار من الفول.. يصيبك بانحلال الدم فوراً ويقتلك. ولم يقرب علي المر الفول بعد ذاك.. لكن انحلال دمه تلك المرة كان كافياً لأن يفــتح البـــاب لعلــل أخرى كانت كامنة ما دام الجسم قوياً.. ضعف فبدأت تظهر برؤوسها: التهـــاب مرارة، تشنجات قولون، اضطرابات معوية.. وأدرك علي المر أن الثوب بـــات مهلهلاً، أية شدة تمزقه.. فأرسل في طلب عزيز يودعه قبل أن يموت. الشـــدة التي تمزق الثوب عادت بعد يومين، برداء تصطك لهـــا الأســـنان وترتجــف الأوصال ثم لا تدعه إلا خرقة مبللة.. أرادوا إعادته للطبيـــب فــرفض.. إنـــه الموت ولا مفر من الموت..

-أبي! لا تقل ذلك، أنت ما زلت قوياً!! رد عزيز شاداً على يــده مشـــجعاً وهو يكره أن يراه، هو الذي لم يعرفه إلا قوياً شديد العزم، يستســـلم للضـــعف والموت.

-كنت، عزيز.. لكنه الزمن يا بني.. يبلي الحديــد ويضـــعف القـــوي، أم نسيت أنني ابن ثمانين؟

-لم أنس.. لكن..

-لا، عزيز، لا تقل لكن، قاطعه الأب الهادئ النبرة، المطمئن القســـمات، وكأنه ليس على فراش الموت. كلنا مصباح، ولكل مصباح زيت، ينفد فينطفـــئ المصباح.. أجل.. يا أولاد، اليوم أشعر أن زيتي ينفد.. ربما هذه آخر قطرة..

-أبي. أرجوك. صاحت نرجس شبه نادبة، شبه باكية..

-نرجس، لا تندبي ولا تبكي قبل أن تسمعي ما أريد قولـــه.. وضـــغطت نرجس على أعصابها، شادة بكفها على كف أبيها، فعادت الدموع المغرورقـــة في العينين إلى مكانها، وعاد الذعر المرتسم على المحيا إلى مكان هنـــاك فـــي الأعماق، ربما بانتظار لحظة أخرى..

-قل أبي، ماذا تريد؟ حثه يونس وقد أدرك أنه بالغ ما ليس منه بد.

-نرجس، خاطب الأب ابنته التي كانت قد حبلت وانجبت الكثير، سمنت وتضخمت حتى أصبحت جذع سنديانة عتيقة.. افتحي الصندوق وهاتي علبة منه...

ذهبت نرجس إلى صندوق أمها في الزاوية، فتحته وأخرجت علبة، سلمتها إلى الأب ففتحها.

-هنا، قال وهو يشير إلى الذهب الذي لمع للتو، مائتان وخمس وثلاثون ليرة عثمانية.. توقف الشيخ الذي أضعفه الفوال ثم تشنجات القولون والتهاب المرارة، فيما كان ناظراه ينتقلان بين الأبناء المتحلقين حوله، في عيونهم الحزن وعلى رؤوسهم الطير. وفي هذه الصرة ثلاثة آلاف وأربعمائة ليرة سورية.. هي كل ما نملك من مال.. لكن الأرزاق كبيرة والحمد لله...

-الحمد لله، صاح كل من حوله فاتحين أيديهم رافعين عيونهم للسماء.

-أنتم تذكرون... يوم جئنا أم العيون.. هاربين، خائفين، لم نكن نملك شيئاً.. لكننا اليوم نملك الكثير: أراضينا الواسعة هنا، في قليب الثور، في أم الرجوم، أغنام، أبقار، خيول، عربات.

-الخير كثير والحمد لله، الخير كثير، قاطعه يونس، ربما رغبة في توفير الجهد على أبيه.

-هذا الخير أريدكم أن تزيدوه وتكثروه.. حتى تظل راية آل المر مرفوعة لا تعرف انتكاساً..

-سيكون ذلك بإذن الله يا أبي!! اطمئن يا أبي!! طمأنه عزيز وقد أدرك الهم الكبير الذي يشغل باله..

-الفرقة وحدها تضعفكم، الخلاف وحده ينكس رايتكم.. فلا تختلفوا ولا تفترقوا.. أنتم أخوة.. أنتم الثلاثة، قال وهو يشير إلى نرجس وعزيز ويونس، وإبراهيم.. ابن أخيكم لكنه بمثابة عمران.. اعتبروه عمران.. واقسموا كل شيء على أربعة.

-بل على ثلاثة.. اندفع عزيز فجأة رافعاً أصابعه الثلاث، ففتح يونس عينيه هاتفاً:

-ماذا؟

-أنا أتنازل لكم عن حصتي.. لا أريد شيئاً..

–وأنا أيضاً أتنازل.. تابعت على الفور نرجس وقد ألهبها عزيــز حماســة ومروءة.. أسامحكم بكل شيء.. لا أريد أرضاً ولا غنماً، خيلاً ولا بقراً..

–لكنه حقكما، عقب علي المر وهو ينقل ناظريه بين عزيــز ونــرجس.. بمزيج من التعجب والانبهار، الحزن والسرور..

–صحيح.. هو حقنا.. لكن الحمد لله!! أنا هناك بخير!! تجــارتي رابحــة وأحوالي حسنة... ولن أقاسم أخي وابن أخي على أرض لن أعمل بها.

–وابنك نواف!؟ تساءل وهو يرمق الحفيد الذي يحب.

–نواف.. سآخذه معي إلى الشام.. أنا بأمس الحاجة إليه هناك.

–وأنت، قال وهو يميل برأسه إلى نرجس..

–أنا بخير أيضاً.. أبو خليل الساهي جاء معك إلى أم العيون وكسب كمــا كسبت.. أيضاً.. لدينا أراض وأغنام.. خيول وأبقار فلماذا أقاسم أخوتي ثروتهم؟

–بارك الله بك وبه!! قال علي المر وهو يمسك بيدها ثم بيد عزيــز، إذن، ماذا أوصيك، يونس؟

إبراهيم هو عمران.. ,عمران هو أخوك.. والأخوة سواسية يقتسمون قسمة الحق...

–لا، أبي، حصة عزيز ستظل لعزيز.. صحيح.. نحن نقبل كرم نــرجس وتسامحها.. لكن.. عزيز.. لا.. ستظل حصته معي متى أرادها كانــت لــه.. مالاً.. أرزاقاً.. أرضاً..

–كذلك حصتي، عمي يونس، نطق إبراهيم أول مرة وقد أثارتــه الحميــة والنخوة، تظل معك وأظل أنا واحداً من أولادك نعمل معاً ونعيش معاً.

–الحمد لله! الآن أموت مرتاحاً مطمئناً! تمتم علــي المــر وهــو يتــنفس الصعداء..

–حقاً أبي!! لست خائفاً من الموت؟ سأل عزيز بكل جد وكأنمــا يريــد أن يتخلص من شاغل يشغله.

–خائف!؟ كرر الأب الذي انعكست الراحة والطمأنينة قبــل ثــوان علــى سيماه، فبدت مشرقة بشيء كالنور. أنا أخاف من الموت، عزيز؟ تــابع ســؤاله بمسحة من عتب. لا.. لا.. الموت حق وما علي المر من يخاف من الحق..

–صحيح!! لكنه الموت يا أبي!! المجهول الذي نلقى في هوتــه!! الغــول

الذي ترتعد له فرائص الشجعان..

-لا.. عزيز.. الموت ليس مجهولاً ولا غولاً.. الموت مجرد انتقال.. من دنيا فانية إلى دنيا باقية.. من حياة زائلة إلى أخرى دائمة فلماذا نخاف ونحن ننتقل إلى البقاء والخلود؟

-والحساب.. العقاب؟ سأل عزيز بكثير من التردد..

-الحساب!! العقاب!! كرر الأب الذي بدا وكأنه يستمد قوة من ضعف، وصفاء من تشوش. هو ذا ما يخافه الناس عزيز، وليس الموت!! ومن يخاف إلا الآثم المرتكب؟ وحدهم المذنبون الآثمون يخافون.. أما الأنقياء الأتقياء الذين لم يذنبوا ولم يأثموا، ما ضروا أحداً ولا آذوا أحداً فلماذا يخافون؟ هم يعلمون أنهم بموتهم تنتهي حياتهم هذه، لكن لتبدأ حياة جديدة وعدهم ربهم فيها بجنة من سندس أخضر تجري من تحتها الأنهار.. فلماذا لا يكونون مطمئنين؟

وشعر عزيز بتيار من طمأنينة دافئة يسري في أوصاله.

-الحمد لله!! تنهد متمتماً..

-أجل الحمد لله!! ردد الأب وقد ارتعشت شفتاه فجأة وناست ذبالة المصباح في حدقتيه فجأةً.

مع ذلك شد بكفه على كف نرجس، وهي ما تزال ممسكة بها، ثم رفع سبابته اليمنى أمام وجهه مستأنفاً:

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله!! مع الهاء الأخيرة سمع عزيز صوتاً كالحشرجة، فيما أحست نرجس بشيء ينسحب من كفها وبأنفاسها تنسحب من صدرها. نظرت إلى الأب فوجدت فمه انفتح على مصراعيه، وعينيه جحظتا وقد خبا منهما النور...

نظرة العينين نفسها، انفتاحة الفم نفسها، تخشب اليد نفسه كانت قد أحست بها يوم ماتت أمها قبل بعض الزمن.. إنه الموت.. نرجس تعرفه.. يأتي بالضباب والسديم فينشرهما على كل ما حوله ليترك القرس والحزن.

-لا.. أبي.. لا تمت، أبي!! دونما تفكير، دونما شعور، وجدت نفسها تصيح مولولة نادبة، فيما انكب يونس بخوف وهلع على يد أبيه، وانحنى عزيز على جبينه.. متحسساً بيديه، مقبلاً بشفتيه، الجبين ما يزال دافئاً لكنه ليس دفء الحياة، أنامله انحدرت مع صفحة الخد تتلمس الوجه الذي كانت تحب... الشفتان في الأثر.. تلثمان، تتحسسان.. لم يعد ثمة قلب يخفق، لم يعد دم

يتحرك.. ثمة سكون.. برد..

–لقد مات!! تمتم عزيز وكأنه يخاطب نفسه فيما امتدت يده إلى العينين تغمضهما وإلى الشفتين تطبقهما بعد أن ظلتا منفتحتين على هاء الشهادة والطمأنينة.

سبعة أيام ظل بيت الشعر منصوباً في ساحة القرية والناس يتوافدون معزين.. من القرية، من الصابرة، من القرى الأخرى التي كانت قد نشأت وانتشرت خلال ذلك الردح من الزمن، لتشكل جبهة جديدة للحضارة والعمران في منطقة خالصة للبداوة والبداة. قليب الثور، أم الرجوم كانتا الأقرب إلى أم العيون وكان أهلوها قد جاؤوا من الغرب أيضاً، حيث الريحانة والجبال، لا هرباً من العصملي كما جاء علي المر وصحبه بل سعياً وراء الرزق وقد سدت في وجوههم أبواب الرزق.

لم تكن أم العيون قادرة على الاتساع للوافدين الجدد فقادهم علي المر إلى الشمال، حيث القباب الكثيرة، والعواميد الزرقاء التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على عمران كان ثم باد.. حفروا هناك، فتشوا، بحثوا، فوجدوا آثار دور قديمة خربها الزمان، أساسات أبنية من حجر أزرق، دعامات وأعمدة من حجر أزرق وقد زينت بعناقيد العنب وأوراق الزيتون، كما وجدوا بقايا لمعاصر زيتون، وأباراً غطاها أهلها بصفائح من حجارة زرقاء. جفاف أو غزو جعلهم يرحلون على أمل العودة... ثم لم يعد أحد. رفع الوافدون الجدد الأغطية ثم أنزلوا الدلاء في الآبار فخرجوا بالماء.. أية نعمة إلهية!! كان علي المر قد شارك في بناء القرى الجديدة واستصلاح الأراضي الجديدة حيث المنطقة تعمر وتتوسع من جديد، وعلي المر رائد وطليعة، مرشد وشريك. سنوات خصب عشر تتابعت بغلال وفيرة ومواسم خيرة فجعلت دار علي المر تمتلئ حنطة وشعيراً، أغناماً وأبقاراً وجعلت صندوقه يعج بالذهب والفضة.. والناس كل الناس يحملون له الإعجاب والإكبار، الحب والود، فكيف لا يسارعون إلى المشاركة في عزائه؟.

خبر الموت ينتقل.. بسرعة ودون أن يعلم أحد كيف؟. وصل الخبر إلى قبيلة شمس فأسرع الشيخ نواف يعزي بالرجل الذي خاواه يوماً ثم ناسبه بعد ذلك ليصنعا معاً نسيجاً جديداً للحياة، لحمته وسداته: بدو وحضر، رعي وزراعة، يكمل واحدهما الآخر ولا يعيش واحدهما بغير الآخر.

خبر الموت انتقل أيضاً إلى الريحانة، وأسرع الأهل القدماء الذين لم تنقطع

أواصرهم بعلي المر ولا انقطعت أواصر علي المر بهم... طوال ربع قرن كان ما ينفك يزورهم ويزورونه، يأتي بالحواصيد منهم ويستجر المهاجرين. مصاهرات قامت، علاقات امتدت، وظلت الريحانة المحج الذي لا يهنأ لعلي المرعيش إن لم يحج إليه العام تلو العام، ولا يطيب له طعام إن لم يأكل من زيته وزيتونه، جوزه ولوزه، دبسه وزبيبه. ظلت الريحانة الأرض التي تمتد فيها جذوره عميقاً في التربة كجذور الزيتون والسنديان فكيف يتخلف أهل الريحانة عن المشاركة في مأتمه؟. جدياناً حملوا، عجولاً ساقوا، وأحمال بغال من برغل وزيت سفحت كلها على روح علي المر وحملت لنفس عزيز كل شعور بالعزة والفخار.. فالرجل الذي فتح أرضاً جديدة بدا أكثر أهمية مما يتصور عزيز.. لكأنه ملك في مملكته الجديدة.

سبعة أيام ظل عزيز يستقبل المعزين.. متعبة كانت المراسم، متعبة كانت الطقوس.. لكنها الأعراف والتقاليد، وهل باستطاعته أن يغير الأعراف والتقاليد؟" لكن لماذا سبعة؟" كان لا يفتأ يتساءل وقد أرهقه استقبال الناس ووداعهم.. "أهو عدد مقدس؟ الأسبوع سبعة أيام، السماوات سبع، الأرضون سبع، الله خلق الكون في ستة أيام ثم استوى في اليوم السابع على عرشه.. أهو رمز الكمال والاكتمال؟ يستمد قداسته من قداسة الكمال والاكتمال؟". لم يكن عزيز يدري، لكنه كان يتساءل. في اليوم الخامس كان قد جاء المعزون من الريحانة، في السادس جاء صحبه من حماة: حسني الدباغ وأهله بعد أن مات الحاج صبحي.. الدكتور نورس، المحامي إبراهيم كلهم جاؤوا وحمل مجيئهم الكثير من العزاء لقلب عزيز.. "لم ينسني الناس هناك.. لم تذهب تلك المرحلة من عمري سدى".. وأكد له حسني أن الناس ما زالوا يذكرونه في الحاضر.. ما زالت النسوة تتحدث عن الشيخة ابنة الشيوخ التي ملأت ذات يوم الحب العتيق أحاديث كرم وقصص تفرد وشجاعة، لكن ما جعل عزيزاً يتنبه كل التنبه همسة حسني:

–تعلم؟ أحد المخبرين سألني قبل شهر عنك؟

–أحد المخبرين سألك؟ ماذا تعني؟

–أعني.. هكذا.. دون سابق إنذار، جاء رجل لم أكن أعلم أنه يعمل مع الفرنساوي، ثم تبين أنه مخبر.. تحري.. يعني..

–إي.. وما الذي كان يريد؟

–كان يريد أن يعلم أي شيء عن عزو المرارة.. عن امرأة تدعى

شموس.. بدوية.. ابنة شيوخ..

-اي.. وبماذا أجبته؟

-قلت له أنا لا أعرف شيئاً عن مثل هذا الاسم.. لكني أعرف رجلاً باسم عزيز المر.. وامرأته شمس ابنة الشيخ نواف..

-سامحك الله!! قاطعه عزيز وهو يضرب كفاً بكف.. ما الذي فعلته؟

وبدا حسني الدباغ منبهتاً، فقد فاجأه الذعر في عيني عزيز.. حينذاك فقط تبين له سوء ما فعل. لقد جره ذلك المخبر، من حيث لا يدري، للإفضاء بكل ما يعرفه عن عزيز المر وزوجته الشيخة شمس التي دوخته ذات يوم، وكان على استعداد لأن يقدم لها تنكة من الذهب إن استجابت له.

في اليوم السابع فقط اكتمل سوء تلك الفعلة.. حين ظهر على حين غرة ثلاث سيارات يتعالى إثرها الغبار، وهي تشق طريقها إلى أم العيون. أولاد القرية الذين كانوا ما يزالون يعجبون من عربات تسير بلا خيول ودواليب ليست من معدن تكرج على طرق لم تمهد، استقبلوا الموكب عند أطراف القرية ثم تقدموه مرشدين إلى حيث بيت الشعر وعزيز الذي فتح عينيه على سعتهما وهو يرى القومندان رينو بنفسه ينزل من السيارة.. ثم يأخذه بالأحضان معزياً مواسياً.

-يا إلهي!! قومندان فرنسي!!

-موكب سيارات آتٍ من الشام لتعزية عزيز!!

-كم هو مهم، عزيز إذن!!

راحت الوشوشات تتداح في بيت الشعر، والناس ترى إلى القومندان بكل نجومه وأوسمته يخاصر عزيزاً، وراءه ضباط وجند، ثم يشقون طريقهم جميعاً إلى بيت الشعر ليحتلوا صدارته. لم يكن أحد من أهل القرية قد أحس بالخوف الذي سرى في أوصال عزيز وهو يرى الموكب، ولا بتوجس الشر الذي ملأ نفسه وهو يأخذ القومندان بالأحضان، ولا بالأفكار السوداء التي ملأت رأسه وهو يسير.

-هو يعرف كل شيء عنا، قال عزيز لشمس وهو يأوي إلى فراشه بعد يوم طويل من التعب والإرهاق.

-كل شيء!؟ كل شيء!؟ سألت شمس شبه مرتعدة، فقد كانت تعلم ما رواه حسني عن تحريات الفرنساوي، وكانت تعلم ما توصل إليه القومندان من

استدراجه للأخضر في باريس، كما كانت على يقين من أن تحرياته القديمة وتقصياته لم تكن قد ذهبت بلا طائل.

-أعتقد... كل شيء.. أجاب عزيز وهو يحس بأمواج الرعدة تصل إليه..

-يا إلهي!! حتى علاقتنا بجيرار!؟ سألت شمس وقد صار وجهها قناعاً للذعر، ما هربت منه، هي وعزيز، سنين طويلة، وما حاولا معاً إخفاءه، سنين طويلة، بات الآن عارياً مكشوفاً أو يكاد..

-لا أدري.. هذا وحده ما يزال موضع شك، رد عزيز وهو يحاول أن يستعيد في ذهنه وجه القومندان عله يستشف من أمائره علامة للشك أو إشارة للاتهام، لكن القومندان كان قد جاء صديقاً، الود على محياه، والتعاطف في سيماه... لم يكن طوال ثلاث ساعات قد ألمح إلى شيء أو تحدث بما يثير الشك. هو رجل في منتهى التهذيب واللياقة.. عبر عن حزنه بوفاة الفقيد الغالي.. عن مسارعته للمجيء ما إن سمع نبأ الوفاة، عن سروره بمشاركة صديقه في عزائه، وحين قدمت المناسف أكل هو وصحبه، ردد العبارات التي يرددها الناس عادة في المآتم متمنياً لعزيز حسن الصبر والسلوان ثم امتطى سيارته ورحل.

-الغبي حسني.. لو نعلم فقط ما حدث به ذلك المخبر!؟

-ما قلته لك حرفاً بحرف..

-يا إلهي!! عزيز!! أشعر أن الأنشوطة تضيق حول عنقي!!

-أنا نفسي أشعر بذلك!! بل.. تصدقين!؟ شعرت، وأنا أراه ينزل من سيارته، أنه يحمل لي بيديه تلك الأنشوطة..

-إذن.. ماذا نفعل؟.

وكان ذلك هو السؤال الذي أرقهما حتى مطلع الفجر، فيما كان الجواب سبباً في إرباك ناس وقلب مخططات. دملجة، رغم الحزن على الجد الذي فارقه على عجل، كانت تكتم في صدرها سعادة لا تستطيع الحديث عنها لكن عينيها كانتا تبرقان بها. فعمها عزيز مذ وصل إلى القرية، كان قد قال لابنه "عليك أن تحزم متاعك إلى دمشق، أنا بأمس الحاجة إليك". "الحمد لله!! سنترك القرية"، راحت دملجة تهتف، وهي تكاد تطير فرحاً.. "سأعيش في المدينة".

كانت دملجة تحلم بالعيش في المدينة، بل ربما لم توقع نوافاً في هواها إلا لكي يأخذها إلى المدينة.. لكن أملها خاب بعد الزواج فكرهه للمدينة كان

يجعلهما على طرفي نقيض. دملجة تعلم من قبل أنه يعشق الريف وأنه يريد العيش فيه، لكنها كانت تمني نفسها بتغييره بعد الزواج. "القرية!!؟ لماذا نعيش في القرية؟ هنا غبار وحر في الصيف ووحل وقر في الشتاء!!". كانت تقول له: "في القرية لا شيء سوى الشوك في الأرض والحشرات في الجو.. الضيق والحرمان.. الأقاويل والإشاعات" "في المدينة الطرقات المعبدة، الأبنية الجميلة وقبل هذا وذاك هناك الكهرباء". كانت تحاول إقناعه كلما خلا لها الجو، فالكهرباء كانت الساحر الذي يخطف الأبصار "حسبك أن تضغط زراً ليشع نور كنور الشمس"، كانوا قد تكلموا أمامها ففتحت عينيها إلى أقصى اتساع... "إذن، لن تكوني بحاجة لتعبئة زيت الكاز وغسل البلورة والمصباح كل يوم، قص الفتيلة وإشعال الكبريت؟" "لا، لا، ذلك الزر يغنيك عن هذا كله، يعفيك من كل تعب" بعدئذ سمعت دملجة أشياء أخرى: المكواة تصلينها بالكهرباء فتكوى ثيابك، التسخين، التدفئة، كله على الكهرباء والأهم الأهم الحاكي والمذياع.

في المدينة حاكٍ تضعين عليه أسطوانة فتسمعين الأغنية التي تشائين، الموسيقى التي عليها ترقصين... تديرين مفتاح المذياع فتسمعين محمد عبد الوهاب... أسمهان، أم كلثوم.. "يا إلهي!! أي حلم إذن، أن يعيش المرء في المدينة!!". على ذلك الحلم ظلت دملجة تعمل. نواف ضدها، أمها عليا، أبوها يونس، كلهم يريدون كسب نواف... إبقاءه في القرية، فهو قوة للعائلة ورصيد.. لكن دملجة غير معنية بقوة أو رصيد.. هي تريد أن تذهب إلى المدينة، تعيش حياة المدينة، حيث النظافة، الماء، الكهرباء، فتتيه على أخواتها ولداتها وتفقأ أعين الحاسدين والحاسدات..

في أيام المآتم السبعة كانوا كلهم في هم ودملجة في هم، كلهم حزانى باكون، وهي تكتم سعادة في القلب تكاد تفيض على الوجه والشفتين.. هي تخشى اللوم فقط فتكبت، وتنتظر اليوم الموعود.. كل شيء معد للرحيل.. وما تراه هذا الكل شيء؟ ما تراها تأخذ من القرية إلى دمشق؟" لا.. لا.. حسبي بعض ثيابي الداخلية، مصاغي وذهبي".

فقد كانت دملجة تعلم أن ثياب القرية لا تصلح للمدينة وأن عمها وامرأة عمها سيجهزانها في دمشق عروساً تزف لابن عمها من جديد. نواف نفسه كان قد استعد للرحيل، رغم نفوره من المدينة، رغم تعلقه بالقرية لم يكن ليخالف أوامر أبيه. "أنا بحاجة إليك"، إذن سيلبي نواف الحاجة ودملجة سعيدة بذلك.. أيام المأتم طويلة، تعدها دملجة بالدقائق والثواني وهي تعلم أن عمها لن يستطيع

المغادرة قبل إتمام الطقوس: الأسبوع، الذبائح، النفقة على روح الميت، كلها لا بد من قضائها قبل العودة إلى دمشق. عمها رجل هام، يأتي الناس لتعزيته من كل مكان.. حتى من دمشق جاؤوا.. قومندان بطوله وعرضه ركب سيارته تلك المسافات الطويلة كي يقوم بالواجب.. وازدادت سعادة دملجة "سأعيش أروع عيش: عزاً وجاهاً، غنى وسعادة".

الكل في القرية يتحدثون عن المكانة التي يتبوأها عزيز في دمشق، عن غناه وثروته، عن علاقاته الواسعة بكبار القوم من سياسيين وذوي شأن، فرنسيين ووطنيين.. ومجيء القومندان أكبر دليل زاد في أحاديث أهل القرية وزاد في سعادة دملجة.. لكن ما إن جاءت ساعة الرحيل حتى جاءت معها الصدمة:

-ابق هنا الآن، قال عزيز لابنه فزفر قلب الابن فرحاً.

-تعني لم تعد تريدني في دمشق؟ سأل نواف أباه وهو لا يكاد يصدق.

-بل أريدك.. لكن.. لنؤجل ذلك الآن.. ابق مع عمك في القرية.

لم يسأل نواف عن السبب، ولم يرغب في معرفة الطوارئ التي دعت الأب لتغيير قراره.. حسبه أنه سيظل في القرية.. حسبه أن يثب فرحاً متراقصاً إلى دملجة، يأمرها بفك صررها ورزمها فتجحظ عينا المرأة على الحلم الذي يهرب.

-لا.. نواف.. لا تقل ذلك..

-بل أقوله.. هما سيسافران غداً.. نحن سنبقى.. وأنا سعيد.. سعيد.. سعيد..

طوال السهرة ظلت دملجة مع امرأة عمها تسأل وتستفسر.. لكن عبثاً.. شمس متكتمة واجمة مقطبة الحاجبين.. هي تعلم هول الصدمة على الكنة التي تفقد أغلى أحلامها، لكن ماذا باستطاعتها أن تقول؟ أتقول لها إن القومندان يلاحقها ملاحقة الهر للفأر؟ إن ثمة سراً تخفيه، وهو يسعى للكشف عنه؟ إن خطر الموت يهددها إذا ما كشف ذلك السر؟ أتحكي لها عن الكابيتان جيرار؟ ثورة حماة؟ مطامع جيرار بها؟ دفاعها عن نفسها؟ وعن ذلك التاريخ الطويل من الهروب والتخفي والتمويه، عل السر يضيع؟. لا، ليس باستطاعة شمس أن تبوح بشيء.. السر الذي حملته مع زوجها من حماة لم يعرف به أحد.. كانت حذرة طوال تلك السنين وكان عزيز حذراً.. لكن ها هو ذا من مأمنه يؤتى

الحذر.. القومندان يستفرد بالأخضر في باريس كي يحدثه عن طفولته في حماة.. المخبر يأتي إلى حسني الدباغ كي يستجره للحديث عنهما..

لا شك أن القومندان يقترب من ذلك السر ولا شك أن الخوف يمور في قلبيهما كليهما.

"أشعر أن الأنشوطة تضيق حول عنقي" تقول لعزيز، ثم يسهران حتى مطلع الفجر وقبل أن يرقد لهما جفن يقرران "نسافر إلى دمشق فإن رأينا خطراً هربنا في الحال". لكن هل تستطيع شمس البوح بذلك لدملجة؟ هل تستطيع إشعارها بالخوف الذي يعتورها، بالحذر الذي عاودها هي وعزيز فقررا إبعاد نواف عن مكمن الخطر.. إبقاءه احتياطاً في القرية حتى لا يضعوا بيضهم كله في سلة واحدة؟ شمس تلتزم جانب الصمت ودملجة تكاد تنفجر قهراً وغيظاً سرعان ما تحولا إلى دموع سخان وهي تودع الراحلين إلى دمشق.

في دمشق، كان الجو مكفهراً متلبداً بالغيوم، ليس غيوم المطر والثلج، البرق والرعد، بل غيوم السياسة والدسائس، الحرب والضرب. قبل ثلاث سنوات كانت مفاوضات قد أجريت ومعاهدة قد عقدت لإنهاء الانتداب. لكن قبل أن يجف حبر المعاهدة بدأت فرنسا تسحب البساط من تحت الأرجل، متذرعة بهذه الحجة أو تلك، منسحبة من هذا الالتزام أو ذاك، مؤكدة أنها لا تخطط إلا لترسيخ استعمارها للبلاد، فالوزارة التي لا تركع عند قدمي مندوبها السامي تحل في الحال، رئيس الجمهورية الذي لا يكون لديها "شبيك لبيك عبدك بين يديك" يعزل، والمدير الذي لا يكون عبداً مطيعاً يرمى في القمامة... تراجعات متتالية قامت بها فرنسا، ضربات متتالية وجهتها لحلم الاستقلال لكن الضربة الأشد كانت لواء اسكندرونة.

قبل عشرين عاماً كانت تركيا "العصملي" قد خرجت من البلاد، لكن هل تخرج تركيا أتاتورك؟ أحلامها بسورية لا تستطيع أن تتحقق، فلم لا تتحقق بلواء اسكندرون؟ بالحرب والضرب لا تستطيع ذلك فلماذا لا يكون بالتآمر؟. كليكية، جزيرة ابن عمرو، ديار بكر، كلها أراض عربية، مع ذلك وضعت يدها عليها، بالقوة أخذتها، فلماذا لا تأخذ لواء اسكندرون؟

منذ زمن طويل كان أتاتورك قد كشر عن أنيابه يريد التهامه. لكن ثمة فرنسا.. كما في الموصل بريطانيا.. بريطانيا لم تتخلَّ عن الموصل لكن فرنسا تتخلى.. "نجري استفتاء" اقترح أبناء أتاتورك وهم يلوحون بثمن اللواء لفرنسا. الصفقة رابحة وفرنسا لا يغريها كالصفقات الرابحة.

عصبة الأمم أرسلت بعض المندوبين، فرنسا أطلقت لتركيا العنان، تــزوّر وتحرِّف، تبدل وتغير، وجاءت النتائج كما يشتهي أبنـــاء أتـــاتورك.. الثمانيـــة والستون بالمائة من السكان العرب صارت ثمانية وثلاثين، والأقليـــة التركيـــة صارت أغلبية وسلخ لواء اسكندرون!! سلخ وهو حي، عكس ذبائح الدنيا كلها، تلك التي تذبح أولاً ثم تسلخ.. لواء اسكندرون صلب على خشبة عاليـــة، دقــت المسامير في يديه وقدميه ثم بدأ جلاوذة أتـــاتورك يســـلخونه. دمـــاؤه تنـــزف، صرخاته تتعالى، أناته تقطع نياط القلوب لكن لا أحد يسمع.. عصبة الأمم التي جاءت لإحقاق الحق وإحلال السلام على الأرض، بريطانيا التي تدعي الصداقة للعرب والاهتمام بمصالح العرب، فرنسا التي التزمت ذات يوم بحماية الأرض التي انتدبت عليها، حتى روزفلت الداعي لحقوق الشعوب في الحيـــاة وتقريـــر المصير، لم يسمع بصيحات اللواء ولم تصل أذنيه توجعاتـــه وآهاتـــه، لكنهـــا وصلت مدوية موجعة إلى دمشق.

في المرجة، الحجاز، الحميدية، كانت صرخات اسكندرونة تتردد. في باب الجابية والصالحية، على ضفاف بردى وجدران الأموي كانت ولولات أنطاكية تتعكس مستنجدة طالبة الغوث. الأخت تسلخ جلداً عن لحم، لحماً عـــن عظـــم، فماذا تفعل أختها التوأم؟.

الأخت التوأم هبت إلى النجدة.. هي مكبلة اليدين مغلولة القدمين لا تملـــك إلا الصوت فتطلقه صراخاً، سمعه عزيز وشمس مذ وصلت بهما السيارة إلـــى شارع بغداد، ذلك الشارع العريض الذي شقته فرنسا عبر الرياض والبســـاتين كي تقضي على متمـــردين خـــارجين علـــى القـــانون، يتربصـــون بجنودهـــا فيصرعونهم أرضاً، يكمنون للدوريات فيمزقونها تمزيقاً.

الشوارع الأخرى غير سالكة.. حشود الطلاب، جماهير الناس تملأها كلها مانعة السير، موقفة كل حركة.. فلم يملك الزوجان إلا أن يدورا حـــول ســـور دمشق قبل أن يصلا إلى الشاغور فالميدان.

-أين مناف؟ سأل الوالدان وضحة، وهي تســـتقبلهما بكثيـــر مـــن اللهفـــة والشوق.

- لا أدري.. منذ الصباح خرج ولم يعد..

-تعنين أنه في المظاهرة؟ خائفة ملهوفة أسرعت شمس تسأل.

-الله أعلم..

-وبدور؟ سأل الأب هذه المرة

-لا.. بدور.. عند روضة..

وتنفس كلاهما الصعداء، يخرج الشاب مظاهرة، في الأمر وجهة نظر، لكن أن تخرج الفتاة، تعرض نفسها للخطر فأمر يبث الذعر في الأوصال.

-ناديها، وأسرعت وضحة إلى روضة التي كان الدكتور الشهبندر قد حل عقدة لسانها فعادت تنطق ككل خلق الله. بعدئذ عرفت أن القصور التي بنتها كانت مجرد قصور في الهواء.. شمس شرحت لها "حبك للأخضر من طرف واحد، هو بعيد في شغل شاغل فكيف تربطين مصيرك بمصيره؟ العريس جاء فلماذا ترفضين؟ "أنا واثقة أن الأخضر يحبني" ردت حينذاك "لكنه يقسم انه لم يصرح لك بشيء ولم يلزم نفسه بشيء" "صحيح" قالت بغصة في الحلق. "إذن.. كيف تتصورين أشياء هي مجرد أوهام"؟ "أنا أحبه وسوف أنتظره" "تنتظرين عبثاً.. فمن يضمن شاباً في بلد أجنبي؟ من يكفل ألا يقع في شراك امرأة هناك؟" وبدت الحجة مفحمة، بدأت روضة بعدها تطرد شيئاً فشيئاً خيال الأخضر من عينيها، صورته من ذهنها.. شيئاً فشيئاً بدأت تنزل من السماء حيث كانت تحلق عالياً بأحلامها المجنحة فترى نفسها تستقبل بالأحضان الأخضر العائد من باريس طبيباً قد الدنيا لتصنع معه عش الزوجية السعيد.

أبوها، أمها، لم يعودا يجرؤان على إكراهها: "خذي هذا العريس، خذي ذاك" كان خرسها قد علمهما درساً فتركاها تقتنع وتختار.. وكانت قد اختارت العريس الذي تستعد للبناء به بعد أيام.

-أهلك جاؤوا، نقلت وضحة البشرى للصبية ابنة الخامسة عشرة قاطعة حديث روضة عن العرس والعريس.

-حقاً!؟ هتفت بدور وهي تهب بسرعة، فقد كان في صدرها شوق عارم لرؤية أبويها وكأنهما غابا عنها شهوراً طوالا.

بالأحضان أخذها الأب، بالأحضان لفتها الأم، يقبلانها ويلثمانها. وردة عبقة الرائحة عاطرة الأريج. كان البرعم قد تفتح صدراً ناهداً وقواماً فارعاً وخصراً أهيف...

شمس تنظر إليها فترى فيها نفسها تتشكل من جديد.. الشعر الأسود الفاحم، العينان السوداوان، البشرة البيضاء، وحدها القامة أطول، العظام أغلظ، الكتفان أعرض، أتراها بنية عزيز؟ بدور مزيج من شمس وعزيز، وأي مزيج؟ شمس

تنظر إليها ولا تشبع.. الصبا والجمال.. كلاهما معاً بدور، وبدور كلاهما معاً، فكيف لا تسر الأم وكيف لا يرضى الأب؟.

لكن الأب مشغول البال، مناف يشغله والدار لا تسعه.

-أنا ذاهب إلى المحل، قال لشمس وهو يخرج لا يلوى على شيء. بيت صبري قريب. مربه، قرع الجرس:

-أين أبو فريد؟ سأل من وراء الباب ومن وراء الباب جاءه الجواب:

-خرج.. لا أدري أين..

"أنا أعلم أين" قال، وقد وصل إلى المحل المغلق، لنفسه ثم للأنثى التي جاءه صوتها من وراء الباب، لا يعلم من هي.. أهي الأم أم الابنة؟.. خلف الأبواب تتشابه أصوات النساء فلا تستطيع الأذن تمييزها. صداقته مع أبي فريد لم تغير شعرة واحدة من علاقته بأهل بيته.. بيوت الميدان ما تزال متمسكة بالحرملك والسلملك.. حاجز عال يفصل بينهما ولا فائدة من محاولة اختراق ذلك الحاجز.. لكأنه الاسمنت ينطحه الوعل بقرنيه فينكسر قرناه.. صبري يدخل بيت عزيز، يجلس مع شمس، يتحدثان، يشربان، يأكلان... منذ أيام حماة كان صبري قد دخل بيت شمس واستقبلته صديقاً، لكن ما كان لعزيز أن يدخل حرملك صبري الذي أبى أن يغادر دمشق. أم فريد في بيت العائلة في الميدان، صبري يذهب، يجيء، يحل، يرحل وهي قاعدة في البيت العتيق جزءاً لا يتجزأ منه.. الأم، الأخوات، نساء الأخوة، كلهن يشكلن حرملكا متين البنيان متماسك الأركان، يرى ولا يُرى، يسمع ولا يُسمع، ثم يكيد للرجال ذلك الكيد العظيم.

طوال إقامته في دمشق، كان عزيز يتمنى لو ترمى الحجب وتزول الحواجز لتقوم علاقة طبيعية بينه وبين بيت صديقه، رفيق العمر أبي فريد.. لكن عبثاً كانت أمانيه.. أم فريد، أم صبري، البنات كلهن صديقات شمس وبدور ابنة شمس.. يلتقين، يتبادلن الزيارات، تربطهن أقوى الأواصر.. لكن حتى هنا وحسب.. فقانون الحريم صار يحرم عليه الاختلاط بالرجال: لا يرَ رجل وجهك، لا يلمس يدك، لا يسمع صوتك.. إلى آخر اللاءات التي سطرها قانون الحريم وتشرف على تنفيذها أمهات الحريم. عزيز يعلم رأي صبري، كرهه لذلك الحرملك والسلملك. لكن ما كان باستطاعته تغيير شيء فالعبدة أحرص على عبوديتها من سيدها، وأكثر دفاعاً عن قيودها من مقيّدها..

نفض عزيز رأسه، متخلصاً من أفكار قديمة كانت تراوده مذ جاء إلى

دمشق واصطدم بحاجز الحريم.. جلبة ما تصل إلى مسامعه.. أصوات وهتافات تأتي مختلطة، غامضة مشوشة فيدرك أنه يقترب من المظاهرة ويفكر من جديد بمناف.

مناف في أحد أزقة سوق ساروجة.. حوله بضعة عشر من الفتيان، والزقاق كله حشد من الرجال، أصواتهم تتعالى هاتفة احتجاجاً على سلخ اللواء ورفضاً لتسليم فرنسا لواء اسكندرون... كانوا قد تجمعوا في قلب "العمارة" ثم زحفوا هاتفين متجهين إلى سراي الحكومة، لكن جند الحكومة اعترضوا طريقهم بالعصي والهراوات فتفرقوا هنا وهناك ثم تجمعوا من جديد في سوق ساروجة.. مناف متحمس، الفتيان من حوله متحمسون، كلهم ناقمون على فرنسا، على المستعمر الذي يتآمر ويكيد، ممزقاً الوطن بائعاً ترابه. بعض الفتيان زملاء مدرسة. بعضهم الآخر صبية وصناع، لكنهم جميعاً، شأنهم شأن الكبار، يدفعهم الحماس للدفاع عن الوطن، لمنع المؤامرة على الوطن..

اسكندرون عربية... لا تركية ولا فرنسية

كانوا قد بدأوا يهتفون فتردد المنعطفات البعيدة أصداء هتافاتهم:

يا عصملي يا طماع... عمرك أبداً ما بتشبع

يا مستعمر يا ملعون... كيف بتبيع اسكندرون؟

وكان المستعمر الملعون يسمع الهتاف من نوافذ السراي المطلة على بردى من جهة والمرجة من جهة أخرى فتنتفخ أوداجه غيظاً.

-فرقوهم.. لا تدعوا أحداً يقترب، كانت الأوامر تنطلق من الجنرال منتفخ الأوداج فينقض الجند، الشرطة، الجندرمة على الفتيان العزل والصبية الذين لا يحملون سلاحاً سوى الحجارة، يقتلعونها من هنا وهناك ويقذفون بها الأعداء:

النا النا اسكندرون ... مو للعصملي المأفون

ما منتنازل ما منتنازل ... عن ذرة من تراب الوطن

شيلي إيدك عصملية ... اسكندرون عربية

يا فرنسا برابرا ... اطلعي من هالأرض الحرة

كانوا يرددون وهم يحاولون مهاجمة السراي من جديد، يزرعون مطالبهم في مسامع الجنرال المنتفخ الأوداج وحجارتهم في سرايه. ساروا قدماً في الزقاق لكن الجند كانوا بالمرصاد، رشقوهم بالحجارة فانطلق وابل من

الرصاص... زعقت نساء من داخل البيوت، وخلف الشبابيك فيما حدث هـرج ومرج واختلط الحابل بالنابل والمتظاهرون يرتدون إلى الـوراء مـذعورين.. حول الزقاق التفوا، مناف في طليعة الملتفين، ثمة زقاق آخر، ربمـا لا يسـده الجند. أشار إلى صحبه أن أسرعوا.. وأسرع الفتيان ملء أيديهم الحجارة وملء صدورهم الحماسة... الزقاق خال، نظروا إلى طرفه القصي، لكن لا أحد"سننفذ من هنا إلى السراي.. يجب أن نزرع سرايهم حجارتنا وآذانهم صراخنا" واندفع الفتية البضعة عشر، لكن ما إن وصلوا إلى المنعطف حتى انقض عليهم الجند، بعصي غليظة وهراوات ثقيلة.. على صدورهم، رؤوسهم، أكتافهم، ظهـورهم، كانت العصي تنزلق ضاربة موجعة.. هراوة بادرت منافاً على ذراعه اليمنـى فسقط منها الحجر الذي كان يحمله للسراي، حاول أن يحمي رأسه بيديـه لكـن الهراوة راحت تنهال على كتفيه، ظهره، ذراعيه ثم نزلت ضربة على رأسـه.. تراجع وهو يشعر بالدم ينسرب إلى عينيه.. حاول أن يبصر لكن الدم غشـاوة تمنع الإبصار، اندفع على غير هدى. هناك، لكن العصي كانت تنـزل عليـه. الهراوات تدقه. ثلاثة أو أربعة من الفتيان جاؤوا ينجدونه لم ير أحداً منهم، لكنه سمع صرخاتهم، وعلى رأسها: "الله أكبر على الباغي المعتـدي" ثـم توقفـت العصي والهراوات وأمسكت أيدٍ به ترفعه عن الأرض ثم تدفعه متعجلة مسرعة فلا تقف حتى تصل إلى البيت.

فتحت له وضحة الباب فصدمت شاهقة متراجعة.. فركت عينيها في البداية وهي تراه:

ثيابه دم، شعره دم، وجهه دم، فلم تستطع إلا أن تولول لاطمة خديها، شادة شعرها، سمعت شمس الولولة فخرجت.

-مناف!! ابني!! صرخت تدفعها غريزة الأم لأن تولول، لكـن الفـارس الملثم استيقظ فجأة كاماً فمها مانعاً إياها.

-أسرعي، وضحة.. اذهبي إلى الدكتور الشهبندر.. ائتني بـه.. أعطـت أوامرها وهي تحضنه بين ذراعيها قائدة إياه إلى غرفة القعـود.. ثيابـه كلهـا مضرجة بالدماء وفي رأسه أكثر من ينبوع ما زال يتدفق.. حـائرة مرتبكـة، راحت تتلمسه.

-بدور، صرخت أخيراً، هاتي لي ماء، هاتي منديلاً أبيض.. هاتي بنّـاً.. هاتي تبغاً..

وبدت بدور أكثر حيرة وارتباكاً وهي تتنقل بين المطـبخ، الغرفـة، أرض

الديار والأم، تلك التي لم تغسل يوماً دماً ولارتقت جرحاً.. لكن تذكر يوم كانت في حال مماثلة وغسل لها السجان الجرح.. هي تريد إيقاف الدم لكن الدم لا يقف.

-المجرمون السفلة يريدون قتلك!؟ بماذا ضربوك؟

-هراوات غليظة لم أرَ مثلها من قبل!! أجاب مناف وهو يستعيد في فمه طعم الهراوة تدق رأسه كما تدق سنابل الحنطة..

-يستقوون على فتى مثلك!! كسر الله أيديهم!! أعمى عيونهم!! السفاحون!! القتلة!! وكبست كتلة من البن على الجرح الأول..

-اكبسي إصبعك هنا، بدور، أمرت ابنتها مشيرة إلى الجرح في الجانب الأيسر، يجب أن نوقف الدم..

ثم انتقلت إلى الجرح في الجانب الأيمن تنظفه بالماء البارد ثم تكبس عليه كتلة أخرى من البن المحروق التي لا تعلم شمس كيف يوقف النزف لكنها متأكدة أنه يوقفه.. ثلاث مرات أعادت شمس جمع البن والتبغ ثم الضغط براحة الكف والأصابع على الجرح الذي يأبى دمه إلا أن يتسرب.

مناف يصرخ توجعاً وألماً، أمه تكاد تصرخ توجعاً وألماً لكن ما عساها تفعل؟.. إن لم توقف النزف لم تبق فيه قطرة دم!! هذا الدم الغالي يجب أن تحافظ عليه.. أن تبقيه في الجسم الذي شقي كثيراً حتى صنعه.. لكن ما لها وضحة تأخرت؟ عيادة الشهبندر قريبة.. في ساحة باب الجابية حيث تتفرع الطرق إلى مدحت باشا، الميدان، الشاغور، والباب الصغير فلماذا لم تعد؟

وضحة ملهوفة تتحرق.. وهي تقف أمام عيادة الدكتور. تطرق الباب، لكن لا أحد يفتح..

".. ماذا أفعل يا ربي؟ عمتي تريد الدكتور. مناف بحاجة ماسة إليه" لكن الدكتور غائب.. عيادته مقفلة.. فكرت أن تذهب إلى منزله.. واندفعت مسرعة، لكنها تذكرت أنها لا تعرف المنزل "أأعود بلا دكتور؟ ماذا سيحدث لمناف؟" وفجأة لمحته، حلاق باب الجابية، فهتفت مستنجدة:

-أبا عثمان!! داخلة عليك.. أسرع لإسعاف مناف..

وأسرع أبو عثمان، الحلاق الذي يمارس شتى أصناف المداواة: يضمد الجروح، يقلع الأسنان، يرفع بنات الآذان، يقطع السخونة، يصنع كاسات الهواء، بل بعضهن يقلن إنه يداوي حتى العقم، ولا أحد أحسن من أحد.

كان فارغ الأشغال، يقف في باب دكانه، الناس كلهم في المظاهرة، ولا أحد فارغ للحلاقة، فلماذا لا يسرع لإسعاف مناف؟

استقبلته شمس بعينين مفتوحتين على اتساعهما.. كانت تنتظر الدكتور الشهبندر فإذا به الحلاق أبو عثمان. لكن الرجل لم يدعها تستوضح.

-عن إذنك!! دعيه لي! قال لها وهو يبعدها عن رأس الفتى الذي بات باستطاعته أن يرى وقد غسلت الأم والأخت وجهه، لكنه لم يكن يستطيع أن يكتم أناته وتوجعاته، تلك التي تحولت إلى صراخ وأبو عثمان يغسل له جرحه الأول بسائل أحمر لم يكن يختلف كثيراً عن لون الدم.

-لكن أين الدكتور؟ همست شمس كازة على أسنانها عاتبة، وهي تميل على وضحة التي هزت كتفها.

-العيادة خالية!! لا بد أنه في المظاهرة.

الشهبندر لم يكن في المظاهرة وحسب، بل كان على رأسها.. فهو منذ أعلنت عصبة الأمم أنها ستجري استفتاء في اللواء لتقرير مصيره أدرك أن هناك مؤامرة. الصحف الغربية التي اطلع عليها، السياسيون، الصحافيون الأجانب والعرب الذين التقى بهم، الإشاعات والأقاويل التي تسربت إلى دمشق، كلها كانت تؤكد أن هناك مؤامرة. احتج، كتب المقالات في الصحف، قابل رئيس الجمهورية، حدث الوزراء، رجالات البلاد وكل غرضه: استنهاض هممهم لمنع المؤامرة. لكن المؤامرة سارت كما خطط لها: نتائج الاستفتاء ظهرت: وفرنسا تسلم لتركيا اللواء نفسه الذي كان الروم أنفسهم قد انسحبوا منه يوم انسحب هرقلهم من سورية أمام خالد بن الوليد معترفين بأن سكانه فينيق عرب، منذ عهد الفينيقيين العرب، فكيف يصبح اليوم تركياً.. كيف يصبح سكانه أتراكاً؟.

في ساحة الحجاز، كان الدكتور الشهبندر يسأل السؤال نفسه وهو يخطب في الجماهير التي ألهب حماسها زعيم حزب الشعب خطيباً مفوهاً لا يشق له غبار:

-وماذا يفعل من لا يملك من أمره شيئاً؟ ماذا يفعل من يرسف في أغلال الرق والاستعباد، الاستعمار والانتداب.. لقد نام آباؤنا وأجدادنا حتى صرنا مطمع كل طامع.. ثرواتنا تنهب، رقابنا تسترق، أرضنا تستعمر.. بل تعطى لأعدائنا لقمة سائغة، على طبق من فضة تقدم لهم ونحن لا حول ولا طول...

كان عزيز قد شق طريقه بين زحام المتظاهرين إلى أن وجد نفسه في ساحة الحجاز.. الدرك، الجند يسدون المنافذ فلا أحد يستطيع التحرك.. والدكتور عبد الرحمن، على شرفة مبنى المحطة يخطب في الجماهير وفي عينيه وصوته بحة:

لا.. أبداً لا أرغب أن تفوتني هذه الفرصة من غير أن أتعرض للمتأخرين من السلف، أذكر إهمالهم وغفلتهم فلو كان فيهم جزء من اليقظة والقومية وحب الوطن ما أصيبت بلادنا بالآلام التي تعانيها، والكوارث التي تنصب عليها، لكنهم حصرموا فضرسنا وضحكوا فبكينا وتواكلوا ففشلنا..

"صحيح" شرد عزيز مع كلمات الزعيم مفكراً "لولا تواكلهم واستسلامهم لما ظل العصملي، أغبى بني البشر وأجهلهم، أربعة قرون ينيخ بكلكله على صدورنا.. صحيح.. لولا ذلك التواكل لما حلت فرنسا محل تركيا ولما كانت تقسم بلادنا على هواها وتعطي أراضيها هبات لهذا وذاك على هواها أيضاً..".

لكن لعلعة رصاص أوقفته، قاطعة عليه طريق الشرود.. كان الشهبندر قد بدأ هجوماً ضارياً على فرنسا، دولة الظلم والقهر والجور، وكان الناس قد بدأوا يهتفون ويصفقون، صابين جام غضبهم على المستعمر الذي يفرط بما يستعمر. أثار ذلك قائد الجند فأمر جنده بإطلاق النار.

اختلط الحابل بالنابل وقد سقط بعض القتلى وصرخ بعض الجرحى. كانت الأوامر تقضي بإطلاق النار في الهواء لكن بعض الجند يتلذذون بعذاب الآخرين، يسرهم منظر الدم يتدفق أحمر حاراً على حجارة الطريق، يشفي غلهم ذعر الناس، وصراخهم وهم يولون الأدبار.. وبدلاً من أن يسددوا فوهات بواريدهم نحو السماء خفضوها قليلاً فانزرع رصاصها في أجساد لم تكن تريد إلا الاحتجاج على غدر.

أسرع عزيز باتجاه المبنى وليس في ذهنه إلا أن يحمي الزعيم. هو يعلم أن فرنسا ناقمة عليه، المفوض السامي حاقد كاره، فمن يضمن ألا يستغل جنده الفوضى فيزرعوا جسده بالرصاص؟

عند باب المبنى التقى بالدكتور خارجاً، أحاطه عزيز بذراعه وهو يدفعه باتجاه الزقاق الجانبي فيما كان الرصاص يئز فوق رأسه أقرب إلى أذنه من حبل الوريد.

بضعة رجال تجمعوا حول الشهبندر وهو يعبر الزقاق الذي بدا يضيق كلما

ابتعد عن ساحة الحجاز.. كانوا يبدون وكأنهم يشكلون درعاً حوله، عزيز في المنتصف منه، بعضهم كانوا ما يزالون متحمسين، ما إن ابتعدوا قليلاً عن أزيز الرصاص حتى عادوا يهتفون:

شو بتريد يا زعيم منساوي

بضرب السيف منحطم الفرنساوي

لكن الزعيم أوقفهم عن الهتاف وهو يعلم أن الصمت والتخفي وحدهما طريق النجاة..

-لكن العيادة خطرة.. لست هنا في أمان، قال عزيز وقد دخلوا العيادة مسرعين، ثم راح يتلفت حوله وكأنما يخشى وصول الفرنسيين في أية لحظة.

-إذن، أذهب إلى المنزل، رد الدكتور وهو يعلم أن صاحبه على حق.

-وهل منزلك أكثر أماناً؟ لا.. لا.. نذهب إلى منزلي.. هو أبعد.. ووصولهم إليه أصعب، قال عزيز شبه ممازح...

ثم مضى الصديقان إلى المنزل الذي كان قد ودع الحلاق الطبيب قبل دقائق فقط.

-أهلاً وسهلاً بك دكتور.. بادرته شمس وهي تسبق صاحب المنزل إلى غرفة الضيوف...

هل أخبروك أنا كنا نبحث عنك؟

-تبحثون عني؟ لا! لماذا؟ ماذا هناك؟ سأل الدكتور وقد داهمه شك ما..

شرحت شمس الأمر فأسرع الرجلان إلى غرفة مناف حيث كان يستلقي في فراشه وعلى رأسه عمامة من اللفائف والضمادات. نظر إليه الطبيب، تفحصه فوجد أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً فقد قام الحلاق بمهمته على خير وجه. بعض الحبوب فقط أوصى بها للفتى منعاً للالتهاب.

كانت الجروح قد توقفت عن النزف، وكان جلده خارطة من كدمات زرقاء، جسده بعض حطام.. رأى الأب ذلك فاحمرت عيناه وثار في صدره بركان.

-يضربون ابني!؟ يقتلون فلذة كبدي.. كان عزيز يدمدم وهو يرى بأم عينه ما فعلت بجسمه الهراوات.

-احمد ربك.. ضربوه بالهراوة ولم يضربوه بالرصاص!! قاطعه الطبيب

مهدئاً، زافراً، فلعلعة الرصاص في ساحة الحجاز كانت ما تزال ملء سمعه وبصره..

-وكيف يدعون أنهم دعاة حضارة؟ رسل مدنية؟ سأل عزيز وقد عاد الطبيب إلى غرفة الضيوف، فيما جاءت شمس بالقهوة.

-إن هو إلا ادعاء، رد الطبيب الذي كان قد أمضى يومه كله في مقارعة المستعمر تحريضاً وخطابات، يريدون به خداع الشعوب وتضليل الأمم، أما الحقيقة فليس هناك استعمار يقوم إلا على العنف والوحشية.

-لكن لماذا تفعل فرنسا فعلتها هذه؟ لماذا تتنازل عن أرض هي تستعمرها لبلد كتركيا؟

سألت هذه المرة شمس وقد بدا لها أن في الأمر سراً لا يفهم.

-كي تكسب تركيا..

-وماذا يعني كسبها لتركيا؟

-إبعادها عن هتلر..

-هتلر!؟ سألته شمس من جديد بكثير من التعجب..

-أجل.. هتلر يقيم تحالفات ومحاور الآن، وإذا أغضبت فرنسا تركيا، تحالفت هذه مع هتلر، وشكلت خطراً حقيقياً عليها، هنا في سورية، في لبنان.. في البحر..

-العجيب.. أن كل شيء يجري على حساب هذا الوطن.. علق عزيز وهو يطلق زفرة حرى.

-هو ذا شأن الضعيف دائماً.. يتناهشه الأقوياء دائماً.. ونحن ضعفاء أبا الأخضر، ممزقون متشرذمون.. فلماذا لا تعطي فرنسا لواء اسكندرون لتركيا؟ لماذا لا تعطي بريطانيا فلسطين لليهود؟ تقتطع الكويت من العراق؟ تهب عربستان لإيران..

-صحيح!! لماذا؟ ما يمنع بريطانيا أو فرنسا.. بدأ عزيز التساؤل، لكن سرعان ما تدخلت شمس:

-يقولون: هتلر يريد أن يمنعهما، وأنه مع الشعوب ضد كل المستعمرين أعداء الشعوب...

-لا.. لا تصدقي، شمس. قاطعها الطبيب العارف بأسرار السياسة، في

أوروبا صراع مصالح وحرب نفوذ.. هتلر يريد حصته من العالم، مستعمرات ومحميات، أراضي وثروات.. والآخرون يقفون في وجهه، يحاولون منعه..

-وكرهه لليهود؟. طرده لهم من ألمانيا؟.

-هي ذي المؤامرة...

-مؤامرة؟ كيف؟ سألت شمس من جديد..

-كيف؟. سأقول لك، خاطبها وهو يميل بكليته نحوها متنهداً تنهدة الموجع المحروق. الصهيونية تريد يهوداً لفلسطين فمن أين تأتي بهم؟ من أمريكا؟ هم في أمريكا مستقرون ناجحون.. من روسيا؟ ستالين يتيح لهم أحسن الفرص عملاً وثراء ومناصب، من بريطانيا وفرنسا؟ في بريطانيا وفرنسا، اليهود في أحسن الأحوال، إذن ليطرد هتلر اليهود فيجدوا أنفسهم بلا أرض، بلا وطن، وما أسهل على الصهيونية حينذاك أن تسوقهم إلى فلسطين لتكون لهم الأرض والوطن..

-المؤامرة واضحة فعلاً.. هز عزيز رأسه وبرم شفتيه.. لكن سرعان ما قاطعه الدكتور:

-وبذلك يتحقق شعار الصهيونية، "شعب بلا أرض لأرض بلا شعب".

-يا للهول!!- يا للقذارة!! ردد كل من عزيز وشمس. بعدئذ حدثهما الزعيم عن أرقام المهاجرين ففتحا أعينهما استغراباً ودهشة: مئات آلاف اليهود يهاجرون، طوعاً أو كرهاً، إلى فلسطين.. فهل سيبقى فيها شعب؟ ألن يسيطر عليها هؤلاء المحملون بعلوم أوروبا وخطط الصهيونية؟

-وإن قامت الحرب وانتصر هتلر؟ سألت شمس وهي على قناعة تامة أن هتلر صادق في كرهه لليهود، جاد في حربه عليهم، ألن يبيدهم حتى لو كانوا في فلسطين؟.

-هذا إذا انتصر.. لكن الحرب تظل هي الحرب ومن يعلم ان نشبت من ينتصر؟

كانت الحرب في الأشهر الأخيرة قد صارت حديث الناس جميعاً، الكل خائف منها، متوجس شراً.. تهديدات هتلر، تصريحاته اللاهبة، خطبه النارية، كلها كانت تنقلها الإذاعات، والإذاعة العربية من برلين توصلها طازجة إلى أسماع العرب في شرقي الوطن وغربيه، فيتحمس بعضهم لهتلر مراهناً أنه سيكون خلاصهم من بريطانيا وفرنسا، ويتخوف بعضهم بحجة أن النعل أخت

النعل وأن المستعمر هو المستعمر سواء كـان بريطانيـاً أو ألمانيـاً، فرنسـياً أم إيطالياً.

-تعلم؟ بودي أن تقوم الحرب اليوم، قال عزيز باندفاعٍ مفـاجئ، فينشـب ناب كلب بجلد خنزير ونرتاح من هؤلاء المستعمرين جميعاً..

-إن تقاتلت الفيلة ذهبت الأرانب دعساً تحت الأرجل.. رد الطبيب الزعيم وهو يتنهد، وإن نشبت الحرب بينهم لن تكون إلا على حسابنا..

-أنت متشائم دكتور؟ تدخلت هذه المرة شمس شبه ضاحكة.

-وما الذي يدعو للتفاؤل ونحن على هذا الحال من الضعف والتجزئـة؟.. لا.. أختاه!

..لا.. ما أظن إلا أن الآتي أعظم..

في الأيام التالية، تكشَّفَ أن نبوءة الدكتور صـحيحة وأن الحـرب قـاب قوسين أو أدنى، وأن الآتي أعظم حقاً... أوروبا كلها كانت ترتجف قصبة فـي مهب ريح، وفي دمشق وزع الفرنسيون دباباتهم ومصـفحاتهم فـي السـاحات والشوارع، زرعوا جندهم ودركهم في الأزقة والحارات، ثم انـدفعت كلابهـم تطارد الفرائس من الوطنيين، كباراً وصغاراً تنفي وتزج في السجون.. بحجـة الحرب الوشيكة تضاعفت إجراءات الطوارئ، زادت تعسفات العسكر، منعـت المظاهرات، لوحقت التجمعات، أغلقت الصحف.. كل تجمع يزيد عـن ثلاثـة يلاحقه الجند بحرابهم، كل صحيفة تنادي بالحرية والديموقراطية أو تلمح تلميحاً إلى الاستقلال، تغلق أبوابها ويساق صاحبها إلى السجن. حتى الطبيب الـزعيم جاء من ينذره، فالذئب يكشر عن أنيابه لالتهامه.

أهل دمشق منذهلون، ما بال أم العدالة والحرية والمساواة تضرب عرض الحائط بكل ما له علاقة بالعدالة والحرية والمساواة؟ معاهدة السـت وثلاثـين تداعت أرضاً.. يحتج رجالات البلد فيقول لهـم المنـدوب السـامي: "انقعوهـا واشربوا ماءها.. هذا هو الواقع رضيتم به أهلاً وسهلاً، لـم ترضـوا اذهبـوا فبلطوا البحر.. لا مظاهرات، لا احتجاجات، لا حرية، لا اسـتقلال"... وازداد ذهول الناس وهم يرون زحوف اللاجئين تصل إلى دمشـق.. عـرب اللـواء يطردون من بيوتهم، تنهب أموالهم، تصادر أملاكهم، تغتصـب نسـاؤهم فـلا يجدون أمامهم من خيار إلا الفرار...

على رأس الفارين كان الأستاذ: رجل متوسط القامة، حنطي البشرة، هادئ

القسمات، أنيق الملابس، الأستاذ يكتب في الصحافة منذ سنين، يخطب في الجماهير، ينافح ويكافح ضد مؤامرة كان على علم بها من قبل.

-حقاً! أستاذ؟ سأله عزيز وقد استقبله مع المستقبلين ثم جاء به ضيفاً إلى المنزل. أكنت تعرف بالمؤامرة من قبل؟

-بالطبع.. مذ كنت أدرس في باريس، قرأت الكثير عن تصميم تركيا على إعادة اسكندرون والموصل إلى حيازتها.

-إذن، ستستعيد الموصل أيضاً؟ سأله اليوزباشي العتيق، الذي لم يكن يفارق شريكه، بكل الاستغراب والتعجب..

-لا.. بريطانيا لا توافق.. في الموصل نفط.. وبريطانيا لا تفرّط بالنفط.

كان الأستاذ قد هرب من اللواء بثيابه.. كان يعلم أن تركيا تتربص به تربصاً...

فرنسا قبلها كانت قد سامته مر العذاب: تحقيقات وإهانات، وهي بلد الديموقراطية، فما تراها تفعل به تركيا؟

هو يعيش مع أخته، وحيدين لا أباً ولا أماً، لا زوجاً ولا ابناً، ومع أخته هرب، فالضبع الأتاتوركي لا يرحم وفكاه يطحنان العظام.

أياماً عدة ظل الأستاذ في ضيافة عزيز.. وليالي عدت ظل يسمع أحاديثه عزيز. الرجل علامة فهامة، درس في فرنسا، اطلع على شتى الثقافات: الأدب، الفكر، الفلسفة، كلها صنعته، اللغة مطيته وحواره لا أمتع ولا أشهى..

شمس أحبت أخته.. بسيطة، طيبة، أليفة ودودة تلك الأخت، تحب أخاها كثيراً، معجبة به كثيراً فأصيبت شمس بعدوى ذلك الإعجاب.. هي تسأله، عزيز يسأله.. وهو يجيب: "الاستعمار.. حذار الاستعمار.. هو بلاؤنا الوحيد، خلاصنا بالخلاص منه، كرامتنا بإخراجه من أرضنا، لا أمل من مستعمر، ولا أمان لمستعمر، هو عدو فلا تقرب العدو.. ولا تقم معه أواصر أو كنت كمن وضع الحية في عبه، لا يعلم متى تلدغه".

ولا تملك شمس إلا أن تفكر بالقومندان، ذاك الذي بين الحين والحين يحدثهم عن الحضارة والمدنية، الإنسانية والأممية، وعن أواصر المحبة التي يمكن أن تجمع بين الشعوب... القومندان الذي يزعم أنه يكره الاستعمار ويعمل على تخفيف ما يستطيع من أعبائه.

-ألا ترى أن القومندان هو تلك الحية؟ سألت شمس عزيزاً وقد مضى

الأستاذ إلى قيلولته..

مستعيدة في ذهنها حلقات الحصار التي ما فتئ يفرضها عليها القومنـــدان واحدة تلو الأخرى، وعلى نحو تبدو معه كل حلقة أضيق من الأخرى..

-اللعنة عليه إنه ليحيرني هذا الرجل.. رد عزيز وهو يستعيد في ذهنه ما يمثله القومندان من خطر وقرارهما في القرية بالابتعاد عن ذلك الخطر..

-لا.. لا تحتر. ما علينا إلا أن نقطع علاقتنا به...

-وهل نستطيع؟ سأل عزيز وهو يتذكر كيف تتفتق قريحة القومندان عـــن حيل للتقرب منه لا تخطر ببال إبليس.. فهو لا يفتأ يمر به في المحل أو يدعوه إلى المكتب أو يأتي إلى المنزل، هكذا بحجة أو بغير حجة...

-يجب أن نستطيع.. يجب أن نقطع حتى شعرة معاوية معه.. لكن قبل أن تتاح لعزيز فرصة الرد، طرق سمعه وقع خطوات عسكرية تقعقع على بـــلاط الدار.. نظر من النافذة فاتسعت حدقتاه.

-إنه القومندان، هتف بنبرة الهمس لشمس، التي كانت تختلس النظر هـــي الأخرى.

-ومعه جنديان، يلمع مسدساهما على جنبيهما.. تابعـــت بنبـــرة الهمـــس نفسها..

-وتقولين.. نستطيع؟ علق وهو يزفر، مسرعاً إلى منتصف الـــدار حيـــث كان القومندان قد وصل.

-أهلاً وسهلاً سيادة القومندان.. أهلاً وسهلاً، بدأ عزيز ترحيبه، ماداً يـــده للرجل الذي يعلم أنه حية في أنيابها السم.. لا يدري متى تلدغه.. ثم مضى بـــه إلى غرفة الضيوف، متهدل الكتفين، مطأطئ الرأس...

-9-

مبدأان ينطلق منهما كل سلوك: السعادة والألم. من خبرتـه فـي الحياة، عزيز يعلم ذلك، كما يعلم أن ذينك المبدأين يلخصان حياة الإنسان كلها، سلوكه كله، هو الذي يسعى، فرداً أو مجتمعاً، لتحقيق غايته الأسمى: السعادة. يعمل لتوفير أسبابها، يجد، يكد، يعرق، يتعب وكله أمل أن يصل إلى دنيا الراحة والطمأنينة، الرغد والهناء: إلى السعادة. في الوقت نفسه يحاول تجنب الألم، الابتعاد عن الشر، الحزن، الأذى، الخوف: مسببات الألم وصانعاته، لكن كيف لعزيز أن يفلح في تحقيق السعادة وتجنب الألم؟.

مذ وعي الدنيا وهو يسعى للسعادة، يحاول تجنب الألم، لكن تلك تهرب منه وهذا يلاحقه.. مسبباته كلها تلاحقه.. في الريحانة كان يعيش في رغد وهناء...

لكن أبا شعيب "والعصملي" من ورائه، جاؤوه بسفربرلك فكان الخوف والألم...

في حماة، استقر، بدأ يشق طريقه في سوق السمنة والجبنة إلى أن جاء جيرار فقلب كل شيء رأساً على عقب، وكان الخوف والألم.

بعد ذلك هربا إلى دمشق تخفياً، غيرا اسميهما، انتماءهما، لكن عبثاً، فقد كان لهما القومندان بالمرصاد، وكان الخوف والألم.

-كيف تسمحان لمناف بالاشتراك في المظاهرات؟ وجه القومندان السؤال لعزيز، عاتباً عتب الصديق، لائماً لوم المشفق، فلم يملك عزيز إلا أن يفسح له في الطريق، ناسياً كل ما اتخذه من قرارات. انظر، تابع القومندان بنبرة الصديق المشفق، اللائم العاتب، وهو يعرض لائحة بأسماء في يده. هذا اسمه

على رأس المشاغبين المطلوبين للعدالة، أين هو؟

-ماذا؟ جئت هنا تريد اعتقاله؟

-هم يريدون اعتقاله.. قال القومندان وهو يشير إلى الخارج، حيث يقف جنديان حارسين قرب الباب.

-يشبعونه ضرباً بالهراوات؟ يزرعون جسده جروحاً وكدمات، ثم يريدون اعتقاله؟ اذهب وانظر إليه.. إنه شبه ميت.

وذهب القومندان إلى غرفة الشباب الذي كان رأسه قد تحول إلى عمامة بيضاء من الشاش والضمادات وجسده إلى كتلة متيبسة من الكدمات والتورمات.

-على كل حال.. أنا هنا صديق.. عاد القومندان يهمس بنبرته الأولى نفسها.. قلبي عليكم وعليه.. إن كنتم تريدون ألا يعتقل فأبعدوه.. الليلة أبعدوه.. أنا هنا لا عين رأت ولا أذن سمعت.. لكن من يضمن ألا يأتي أحد لاعتقاله؟. وأسرعت شمس بابنها إلى حيث الأمان: دار الشعلان، لكن دون أن تستطيع التخلص لحظة واحدة من الحيرة والاندهاش.

-هذا الرجل يكاد يجنني، قالت لعزيز، وقد فرغ لتوه من دورية جاءت تسأل عن مناف، صحيح هو صديق؟ قلبه علينا وعلى ابننا؟ لا يريدهم أن يعتقلوه؟

-لا أدري.. رد عزيز، أنا أيضاً في حيرة شديدة.. كلهم يقولون: المفوض السامي يكاد يجن.. يريد أن يعتقل كل من شارك في الشغب والمظاهرات.. بل إن الدوريات اعتقلت العشرات..

-الدورية التي جاءت أكبر برهان.. لا شك أنهم يريدون اعتقاله..ماذا قلت لهم..؟

-أنكرت وجوده.. تماماً كما قال لي... أخبرتهم أنه بعيد في المضارب. وبدا الأبوان مجبرين على الاعتراف بفضل القومندان الذي أنقذ ابنهما، فقد مضت قصة مناف على خير.

لكن قصة أخرى كانت قد بدأت ومعها بدأ القومندان التدخل، لكن هذه المرة ناصحاً محذراً. كان عزيز قد استضاف الأستاذ النازح من اللواء، الباحث في دمشق عن ملاذ، وكانت علاقة ود وصداقة قد قامت بينه وبين عزيز، بين أخته وبين شمس... أياماً طويلة ظل بيتهما مفتوحاً لهما، هما اللذان صارا بلا بيت... شمس ابنة الشيوخ تحسن الضيافة، توفر للأستاذ وأخته أسباب الراحة،

"البيت بيتكما"، كانت لا تفتأ تقول لهما، "نحن الضيوف وأنت رب المنزل" كانت لا تنفك تداعبه، هي وعزيز، وكان الأستاذ، ابن البيت الكبير، والعائلة التي تعرف الأصول، يعلم انهما ابنا أصول وأنهما خير من يحسن الضيافة. الطعام، الشراب، اللباس، بل حتى المال قدمه المضيف لضيفه، هو المعجب به كل الإعجاب.. "الأستاذ عبقرية فذة" كان لا يفتأ يردد. "علمه واسع، ثقافته بلا حدود، معارفه بحر زاخر، فكيف لا أسر به وأعجب؟".

مذ دخل بيته، لم يعد عزيز يفارقه.. يستقبل معه رجالات السياسة، وفود الناس، يخرج معه في لقاءاته. الأستاذ ذائع الصيت.. مذ كان في فرنسا يكتب المقالات، يصدر البيانات، يلتقي بالكتاب والمثقفين، يدافع عن حرية بلاده واستقلالها، والناس هنا وهناك يتابعونه.. هو حرب على الاستعمار لا هوادة فيها.. سيف في صدر البغي والعدوان لا يفل حده.. ناضل في اللواء، واجه الأعداء، قاوم مؤامرات فرنسا وتركيا عليه ثم وجد نفسه مرغماً على الخروج من لوائه.. آدم جديد يخرج من جنته.

الوافدون إلى بيت عزيز يسألون الأستاذ، يريدون أن ينهلوا من ثقافته وهو لا يبخل بجواب، لا يخاف من جواب.. أليس هكذا الأبطال؟ لا يخشون في الحق لومة لائم، ولا يضعفون أمام الطغيان أو يهنون؟ "لا.. لا تصدقوا مستعمراً.. المستعمرون كذابون مخادعون.. "كان يقول لزواره منبهاً محذراً" يحدثونكم عن الخير وهم لا يريدون بكم إلا الشر.. يتشدقون عن المصلحة المشتركة والمنفعة المتبادلة وهم لا يسعون إلا لمصلحتهم، لا يفكرون إلا بمنفعتهم". عزيز يعلم أن كل ما يقوله الأستاذ صحيح، لكن ما يعجبه فيه هو تلك القدرة العجيبة على التعبير، على إجراء المحاكمات المنطقية، على استخلاص الخلاصات والنتائج.. ببضع كلمات يستطيع الأستاذ أن يلخص تجربة كاملة، ببضع عبارات يضع خلاصة مرحلة كاملة..

هو يغبط الأستاذ على موهبته الفذة ولا ينفك يتساءل: كيف يستخلص ويستنتج؟ من أين يأتي بتلك القدرة على التعبير؟.

"عدو الجد لا يود"، قالها الأستاذ ذات مرة، عبارة بليغة موجزة، أعجب بها عزيز كل الإعجاب.

صحيح، هو يعلم أن عداوة الاستعمار قديمة قدم الجدود فكيف يزعمون الآن أنهم يريدون الخير لسورية؟ يعملون لمصلحة سورية؟ "المستعمِر والمستعمَر عدوان مبينان، فكيف يمكن أن يجمع بينهما الود؟ هما على طرفي

نقيض، فكيف يجتمعان؟ لقاؤهما الوحيد لقاء خصمين في ساحة القتال، عـدوين في ميدان الوغى.. علاقتهما علاقة الغالب بالمغلوب.. المنتصر بالمهزوم فكيف تجمعهما مصلحة مشتركة أو منفعة واحدة؟

كان حديثه يشنف أذني عزيز، يجعله يشتعل حماسة وحمية، فيسمع إن كان ثمة ضيوف، ويسأله المزيد إن كانا وحيدين "المستعمر يريدك تابعاً وأنت تريـد استقلالك فكيف تتفقان؟ هو قيود وأصفاد وأنت سعي للحرية والخلاص، فكيـف تلتقيان؟ "ويجد عزيز في كلام الأستاذ الكثير من الأجوبة على ما يسـأل مـن أسئلة "المستعمر يريد تجزئتنا فماذا نفعل؟ نقاتل.

يريد ضعفنا وتفرقتنا فكيف نرد؟ بالوحدة. "ثم يبدأ حديثاً لا أحب على قلب عزيز ولا أشهى...

الوحدة العربية.. إنها الحلم الذي لا يفارقه أبداً.. ويتذكر عزيز أيام الجيش العربي والزحف إلى دمشق.. يوم كان الأمير فيصل يحلم بدولة عربية تمتد من جبال طوروس حتى بحر العرب.. وكان صبري بديوي يحدثـه عـن الدولـة العربية القادمة التي ستعيد مجد العرب وعزتهم..

سنوات مرت، حسب معها عزيز أن ذلك الحلم قد انتهى إلى الأبد. لم يكن ثمة من يتكلم عن الوحدة العربية، لم يعد أحد يفكر بالدولة العربيـة الواحـدة.. كان المستعمر قد جزأ البلد نفسها إلى دويلات صغيرة أغرقت الناس فـي هـم جديد: كيف يعيدون للبلد الواحد لحمته؟ كيف يوحدون البلد المجزأ نفسه؟ لكـن ها هو ذا الأستاذ يأتي حاملاً راية الوحدة والحرية.. هو عاشق لهما لا يلهج إلا بذكرهما، دعه ساعات يتحدث عنهما.. تصوراته واضحة، أفكـاره متبلـورة: "العرب أمة واحدة ذات رسالة خالدة.. من المحيط إلى الخليج ينبغـي أن تقـوم دولة الوحدة.. لكل أمة قومية تجمعها وعصبية تربط بين أبنائها، وأمتنا تجمعها قومية عربية وتربط بين أبنائها عصبية عربية، فلماذا نرضى أن نظل دويـلات وشراذم؟".

ليس هنالك أحلى من ذلك الكلام على مسامع عزيز.. مسـامع صـبري، مسامع الدكتور الشهبندر نفسه.. كلهم يستمعون للأسـتاذ، يحتضـنون كلامـه العذب، يتشربون أفكاره.. لكن إلى حد.. وحده عواد يستمع إلى كلامه ويتشرب أفكاره بلا حد..

كان الفتى الطويل النحيل، أشقر الشعر والشاربين، قد صار فرداً من أفراد عائلة عزيز... مذ التحق بكلية الحقوق وسكن في دمشق، كان قد غدا جـزءاً لا

يتجزأ من البيت...

ألم يقل له عزيز "أنت بمثابة الأخضر.. أنت بغلاوة نواف ومناف؟" إذن لم لا يكون ابناً من أبناء عزيز وشمس؟ واسطته لدى القومندان رينو كانت قد أمنت تعيينه معلماً في مدرسة بعيدة قليلاً عن الجامعة، لكنها مدرسة. راتبه فيها سبع وعشرون ليرة.. يعني باستطاعته أن يستأجر غرفة، يشرب، يلبس ويرسل إلى أمه في القرية بضع ليرات.. بمرتبه يشتري خمس ليرات ونصف الليرة من الذهب.. وكم تفعل ليرات الذهب الخمس والنصف!؟.. لم يعد عواد بحاجة لأن يعمل جمّالاً أيام الحصاد والدراس، ولم تكن أمه قادرة على رعاية الجمل في غيابه فباعت الجمل. "ابني يعلّم ويدرس الحقوق في آن معاً.. بضع سنوات ويصير محامياً "كانت تتفاخر وقد شفى عواد غلاً قديماً في صدرها. "سيدافع عواد عن الحق.. سيقف ضد الباطل، ولسوف يرفع الظلم، عن المظلوم "كانت لا تفتأ تردد، وهي تتذكر كيف حاول أخوة زوجها أن يسلبوها حقها بعد موت أخيهم. لم يستطيعوا سلبها حقها كله لكنهم سلبوها بعضه.. حاولوا إيذاءها، ضغطوا عليها، لماذا؟ كان كبيرهم يريد الزواج منها، أليست أرملة أخيه؟ أليس هو الأولى بأرملة أخيه؟ إذن ليتزوجها. لكن أم عواد رفضت "سأظل أربي ابني.. لن يحل أحد محل أبيه" وكانت معركة، ظلت رحاها تدور سنين قبل أن يقنط الأخ من أرملة أخيه.

عواد لا يعرف ذلك كله، كان صغيراً، وكانت الأم حريصة على ألا توغر صدره على عمه.. ألا تنبش القبور فتنبعث الروائح النتنة.. لكن شعورها بالظلم ظل يلازمها، غلها على الظالمين ظل يكمن في الأعماق، وظل حلمها أن يأتي يوم تجد فيه ابنها قادراً على رفع الظلم والانتقام من الظالمين. ذلك، ربما، ما دفعها لتشجيعه على دراسة الحقوق، وهو وحده ما جعله يتعلق بالأستاذ أبي المدافعين عن الحقوق. كان الرجل لا يفتأ يتكلم عن الظلم الذي حاق بالعرب، بالعدوان الذي استهدفهم من كل حدب وصوب، لا يفتأ يتكلم عن النهضة العربية وضرورتها، القومية العربية، إحياء الأمة العربية، وبعثها إلى الوجود من جديد.. عواد يصغي بكل ما فيه: بأذنيه، بعينيه، بشفتيه، بل ربما بكل خلية من خلاياه.. وكل يوم يزداد إعجاباً بالرجل الفذ، بالأستاذ الكبير الذي تبهره أفكاره حتى أعلن له ذات يوم "أستاذ.. اعتبرني تلميذاً لك مريداً من مريديك، لا أتركك أبداً". وبر الفتى الطويل النحيل بوعده فغدا ظلاً للأستاذ، يخرج معه، يدخل، يذهب، يأتي، يقضي له شؤونه، يؤمن حاجاته، وحين أراد أن يستقل ببيت له،

شاكراً عزيزاً وشمساً على حسن ضيافتهما، كان عواد هو الذي استأجر له بيتاً قريباً من غرفته ومدرسته.

لكن استقلاله في بيته لم يضعف حبل الود بينه وبين عزيز، ولم يبتعد عواد عن البيت. في النهار، في الليل، كان الأستاذ يأتي إلى البيت الذي فتح له صدره طوال شهرين، وكان عواد لا يسعده كالمجيء مع الأستاذ أو بدونه. شمس تحبه، مناف يحتاج إليه، بل حتى بدور تفتقده... طوال العام الدراسي كان يساعدها في الدراسة، يشرح لها النحو والصرف، يحل لها مسائل الكيمياء والفيزياء، فكيف لا تشعر بفقدانه إذا غاب؟

في بداية الصيف ذهب إلى والدته، أمضى هناك شهراً وبعض الشهر لكنه عاد وهو يشعر أن شيئاً ما يشده إلى دمشق.. غيابه أحدث فراغاً في داخله لم يكن يستطيع تحديده.. لكن ما إن دخل بيت عزيز حتى تنفس الصعداء، لقد أحس للتو بامتلاء ذلك الفراغ وهو يرى بدوراً تحمل القهوة للأستاذ...

الأستاذ يدبج المقالات في الصحف، يزور كبار القوم، يجلس في مقهى البرازيل فيجتمع حوله الناس ويحدثهم عن الوحدة والحرية، الاستعمار وشروره، فرنسا وبريطانيا، دورهما في الويلات والشرور التي لا تنزل على رأس الأمة فحسب، بل العالم كله.. هو يحلل، يركب، يشرح، يفسر ويتحول الكل إلى آذان صاغية له، يراه المخبرون، يسمعونه، فيكتبون التقارير محذرين من خطر الرجل الذي لا يتوقف لسانه عن النقد والتجريح، عن السخرية والتهكم، ساباً الاستعمار لاعناً أذنابه.

تصل التقارير إلى المفوض السامي فيوبخ القومندان:

-لماذا تتركونه يسرح ويمرح؟

-وماذا نفعل به؟ يسأل القومندان رئيسه..

-احبسوه.. يصرخ المفوض السامي غاضباً، فالتقارير التي وصلت تقطر سماً وكلها تحذر من الخطر الشديد الذي يجسده الأستاذ بما يشحذ من عقول ويستنهض من همم.

-لكن كيف؟ بأية تهمة؟ أجاب القومندان الذي كان الأستاذ قد أغاظه أكثر من مرة وهما يلتقيان في بيت عزيز، وكان بوده أن يحبسه أكثر مما يود المفوض السامي، لكنه لا يجد التهمة المناسبة وقد انغرس في نفسه عميقاً احترام سيادة القانون واحترام حقوق الإنسان.

-هو يسبنا، يشتمنا.. بدأ المفوض السامي.

-لا بد لنا من دليل، سيدي المفوض السامي..

-وتقارير المخبرين هذه؟ قاطعه شبه مزمجر، أليست دليلاً؟- بلى... لكنه غير كافٍ...

-إذن وفروا الدليل.. ائتوا بالإثبات.. المهم ألا تدعوه يسرح ويمرح على هواه... طاعوناً ينشر الوباء حيثما يحل.

ولكي لا يدعه يسرح ويمرح، كما أمره المفوض السامي، ولا يدع الطاعون ينتشر، أعطى القومندان تعليمات جديدة لتطويق الأستاذ أكثر، ومحاصرته أكثر، ثم أسرع إلى بيت عزيز.

-العدوى تهددكم فابتعدوا عن الخطر، قال لعزيز وشمس، ففتح كلاهما عينيه.

-أية عدوى؟ أي خطر؟ سأل عزيز

-ذلك الأستاذ الذي لا يغيب ذنبه عن بيتكم حتى يظهر رأسه.. إنه خطر.. وأنا أحذركم منه.. باسم الصداقة، باسم المودة.. آمركم أن تبتعدوا عنه.. بل أن تقطعوا كل علاقة لكم به...

ولم يناقشه عزيز. كما لم تجادله شمس. كانت لهجته حادة ونبرته قاطعة، هو يأمر وينهى، تعود ذلك طوال سنين.. مذ تخرج من كليته الحربية ليوتنان حتى صار قومندان، وهو يأمر وينهى فكيف يفكر بمناقشة عزيز وشمس؟ ما ناقشاه بعد ذهابه هو تلك العبارة "باسم الصداقة، باسم المودة" أهي صداقة ومودة حقاً، ما بينهما؟ لم يكن عزيز ولا شمس على ثقة من ذلك. كانا كلاهما قد صارا على يقين من أن ما بينهما إنما هي لعبة القط والفأر.. القط يريد أن يأكل الفأر والفأر يتحاشى ذلك، لا يريد أن يهرب، لا يريد أن يبدي خوفه وفي الوقت نفسه لا يريد أن يمسك به القط.

الأنشوطة التي أحست بها شمس تضيق حول عنقها أكثر من مرة عادت وارتخت أكثر من مرة.. أشهر تمر لا يسأل فيها القومندان عن الماضي، لا يبحث في تلك المرحلة أو يتقصى.. لكأنه يتعمد أن يخفف من الحصار. القط يتمدد في الزاوية، عيناه على الوكر، لكنه يتظاهر باللامبالاة بالفأر.. يخرج الفأر برأسه من الوكر، يشعر بشيء من الطمأنينة، عينا القط مغمضتان، جسمه كله مسترخ، لا تحفز ولا توثب، إذن يمكنه الخروج.. يمكنه الاطمئنان..

فجأةً يطرح القومندان سؤالاً يقشعر له بدن شمس وعزيز:

-تعلم عزيز.. قال القومندان ذات مرة، بنبرة كلها لا مبالاة، وهم يشربون القهوة حول البركة وأنسام الليل العليلة البليلة تغتسل بمياه النافورة، بــودي لــو تحكي لي شيئاً عن عصيان فوزي القاوقجي في حماة.. ألم تكــن هنــاك؟ ألــم تشارك به؟.

وأسقط في يد عزيز حائراً لا يدري بما يجيب.. السؤال لئيم يخفــي وراءه غاية في نفس يعقوب، عزيز على يقين من ذلك.. لكن بماذا يجيب؟ ان أنكر، قد ينكشف كذبه الصريح ويقع في الفخ الذي نصبه له القومندان منذ زمن طويــل، وإن أثبت قد يستجره بالسين والجيم إلى حيث لا يعلم إلا الله..

-ما هذا السؤال، سيادة القومندان؟ أنقذته شمس وهي تتدخل للتو، الرجــل كان ابن بطوطة ينتقل بين المضارب والخيام في البادية، وبين القرى والمزارع في الريف، يتاجر بالسمن والصوف، بالأجبان والألبان، فما شأنه بفــوزي.. لا أدري ما اسمه والعصيان؟.

وتضاحك القومندان الصديق، معتذراً بأنه سؤال سخيف حقــاً، لا يــدري كيف خطر بباله.. شمس تدري كيف خطر بباله.. هي على ثقة أنه يتبع معهما تكتيك "خطوة إلى الإمام، خطوتين إلى الوراء". شد الأنشوطة ثم إرخائها، إلــى أن يتأكد أن الفريسة وقعت تماماً وليس أمامها من مفر.

بعد ذاك، لم يتطرق للمسألة، لكأنها أصبحت طي النسيان.. الذعر الذي بثه في نفسيهما في القرية بدأ بالتلاشي، تفكيرهما بالهرب لم يعد يراودهما، فــالهر لا يحرك ساكناً. بالعكس، ها هو ذا يبدي خوفه على ابنهما مناف، يعاتبهما على ترك حبله على الغارب فيشترك بالمظــاهرات ويعــرض نفســه ويعرضــهما للخطر.. ها هو يحذرهما من الأستاذ... "ابعدا عن الشر وغنيا له" ذلــك كــان مغزى كلامه وباسم ماذا؟ باسم الصداقة.

-أتظن أنهم ينوون به شراً، سألت شمس عزيــزاً وهمــا يقلبــان كــلام القومندان بطناً لظهر وظهراً لبطن...

-أظن ذلك، هو ينقدهم نقداً لاذعاً، يفضــحهم، يطالــب بإعــادة اللــواء، باستقلال البلاد، بل وإعادة توحيد العرب، وهم ساكنون.. لكن إلى متــى؟ مــا أظن إلا أن صبرهم نفد...

-نبهه...

-نبهته.. اليوم في المقهى كان يتكلم وكان مخبر غير بعيد يصيخ السمع مسجلاً كل كلمه.. لكزته مشيراً إلى المخبر، فنظر إليه بازدراء "دعه يبلط البحر".. قلت له "عيونهم حمراء عليك" قال "ما صاحبك من يخشى كلمة الحق".

-ماذا إذن؟ هل ستقطع علاقتك به كما أمر، سألت وهي تشير إلى الصدر والكتفين دلالة الأوسمة والنجوم..

-خسئ، ما عزيز من يأمره فرنساوي مستعمر، رد، وقد ثار في نفسه غضب كامن وحقد دفين كان الرجل منذ سنتين، يحاول إخفاءهما، كتمهما، لكن هل يدرك المرء كل ما يتمناه؟ منذ ذهاب الأخضر إلى فرنسا، شعر عزيز أن عليه أن يسلك سلوكاً مختلفاً.. ابنه في باريس، فلذة كبده في فرنسا فكيف يحمل عليها السلاح؟ كان قد لاك الأمر كثيراً لكنه لم يستطع أن يبلعه.. خوفه على فلذة كبده جعله يكظم غيظه على المستعمر البغيض ويكتم حقده عليه.. بل بات يتحاشى اللقاء بالبطحيش، رفيق القتال وزميل السلاح، هو يسمع عن حادث هنا، حادث هناك، فيعلم أن صاحبه لم يلق السلاح ولم يعلن الهدنة.. هو أعلن الهدنة.. فكيف يلتقي بالبطحيش؟ مرتين التقيا، لكن لفترة وجيزة، عرف فيها البطحيش أن صاحبه في حيرة وتردد جعلاه يعلن هدنة من جانب واحد فلم يلمه ولم يجادله. البطحيش يعلم أن كل شيء يأتي بالإكراه ما عدا خوض الوغى ودخول ساحات القتال.. الحماس وحده، الاندفاع وحده هو ما يجعل المرء يقاتل وغض البطحيش الطرف، كما انسحب عزيز لكن دون أن يقطعا ما بينهما من آصرة خفية لحمت واحدهما بالآخر حيناً من الزمن وستظل تشد واحدهما إلى الآخر طوال الزمن.

الأحداث الأخيرة جاءت تترى وكلها يذكي نار الحقد ولهيب الغضب. عزيز لا ينسى منظر ابنه وهو غارق في شاشه وضماداته، طفلاً في لفائفه، لا ينسى جسده المتورم، تضاريس زرقاء وحمراء..

تلك اللحظة فار غضبه، أحس أن الدنيا كلها تتحول إلى شوك ونار، الشوك يخز عينيه والنار تشعل صدره.. تلك اللحظة فكر بالذهاب إلى البطحيش.. بالعودة إلى القتل والقتال.. الأستاذ وحده من شغله عن ذلك.. مجيئه، استضافته، استقبال الوافدين والزائرين له حال بينه وبين الذهاب.. لكن أحاديث الأستاذ عادت تؤجج النار في صدره، دعوته للمواجهة جعلته يفكر بالبطحيش مرة ثانية" وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة تدق"، كان الأستاذ لا يفتأ يردد فيشعر عزيز بما يشبه الذنب". لماذا أعلنت الهدنة من طرف واحد؟

هذا المستعمر ما يزال يضطهد ويستبد، ينهب ويسلب، يذلنا ويهيننا، فكيف نهادنه؟ "ويشتد شعور عزيز بالذنب. "لا يموت حق وراءه مطالب"، كان الأستاذ يقول، فيؤمن عزيز على قوله "إذن لماذا نسكت عن حقنا؟ فرنسا عقدت معنا معاهدة ثم تنصلت منها... بنداً بنداً تنصلت منها.. ثم زادت الطين بلة بخيانتها للأمانة.. عصبة الأمم وضعت سورية أمانة في عنقها.. سورية من اسكندرونة إلى درعا ومن أنطاكية إلى السويداء، فلماذا تفرط فرنسا باسكندرونة وأنطاكية؟ لماذا تخون الأمانة؟ "وتغدو أسئلة الأستاذ هاجس عزيز.. يفكر فيها ليل نهار فيثور حقداً ويلتهب حماسة ومن جديد يجد نفسه يفكر بالبطحيش، يندم على الابتعاد عنه. "لا.. لا بد مما ليس منه بد.. لا بد من قتال المستعمر، لا بد من العودة إلى البطحيش". قرر عزيز في سره وهو يستعيد تهديد القومندان المبطن بالصداقة والمودة "يريدني أن أبتعد عن الأستاذ؟ أن أقطع علاقتي به.. كيف وهو رمز البطولة والتضحية، نبراس الوطنية والحق؟".

..لا.. لم يكن عواد وحده هو الذي تعلق بالأستاذ أو اعتبر نفسه مريداً من مريديه، بل عزيز نفسه كان كذلك.. وعزيز يحب أن أحب ويكره أن كره.. الأستاذ، بوجهه الأبيض السمح وسيمائه المتناسقة الجميلة، يدخل في القلب، فكيف ان سمعت كلامه العذب، وهو يتناثر درراً وجواهر؟ كل ما كان يفكر به عزيز على نحو مشوش كان الأستاذ يعبر عنه بأكثر العبارات رشاقة وأشد الأساليب وضوحاً. وكل ما كان يؤمن به عزيز دون أن يعرف التعبير عنه كان الأستاذ قد صاغه نظريات ومبادئ، بلوره مقولات وأفكاراً، فكيف لا يتعلق به عزيز؟ "أقطع علاقتي به؟" راح عزيز يتساءل ساخراً "بعيد عليك يا قومندان.. بل سأضع نظرياته موضع التطبيق.. سأنفذ بالفعل ما يتحدث عنه بالقول". كان قراره الأخير وكان في اللب من قراره صورة البطحيش تتراءى بكل ما تحمل من حقد على المستعمر وتصميم على مقارعته حتى النهاية..

في الصباح التالي أفاق عزيز، وكله شعور بالبهجة والغبطة.. كان أيلول قد بدأ وكانت أزهار الفل والياسمين تملأ الجو عبقاً وأريجاً. شمس إلى جانبه مسترخية في الفراش... هو يعرف عادتها... تسترخي وتتأخر في الفراش. عزيز يعرفها جيداً. يتأمل وجهها ويبتسم".. هذا الوجه الجميل، هذه البشرة البيضاء، هذا الشعر الأسود، الله كم أحبك شمس!! كم أحب كل ما فيك!! "بأطراف أنامله راح يمسد الشعر المنسدل على الوسادة، بشفتيه يقترب من الخد الأبيض الأسيل.. من الجبين المشع شمساً مشرقة لا يمر عليها الزمان ولا يؤثر

فيها الزمان.

أنفاسها دافئة تدغدغ صفحة خده، لكنه لا يقترب أكثر.. يبقي هامش الحذر، يريدها أن تظل نائمة، ربما تحلق مع أحلامها عالياً في السماء فلماذا ينزلها إلى الأرض؟ الليلة الماضية كانت تذوب دفئاً وحباً.. لكأنما عادت إلى أيام الصبا" .. لا.. لا.. من قال إنها فارقت تلك الأيام؟. من قال إنها غادرت ذلك الصبا؟" عزيز يشعر أنها ما تزال في ريعان الشباب، تتجدد كما تتجدد الشمس، كما تتجدد الفصول.. كانا وحيدين. لا ضيوف، لا سياسة، لا هموم.. أرادا الفروغ لنفسيهما كما يفعلان دائماً.. في الأسبوع ليلة واحدة، لا يستقبلان بها أحداً، لا يزوران أحداً، بل يفرغان واحدهما للآخر، يأكلان معاً، يشربان معاً، يسهران معاً، وغالباً ما يستعيدان الماضي، يناقشان الحاضر، يبحثان في المستقبل.. تقليد كانا قد اتبعاه مذ جاءا إلى دمشق، حيث الهموم كثيرة والمشاغل كثيرة.. "ساعة لربك وساعة لنفسك" مبدأ لم يجد عزيز مناصاً من التمسك به.

شربا العرق، أكلا الكبة النية، فصفصا البزور والفستق الحلبي.. وحيدين، سعيدين، محبين عاشقين عشقاً لم يغزه ضعف ولم تخمد جذوته الأيام.. عشقاً لم يفتأ يترسخ جذوراً في الأعماق ويمتد فروعاً في السماء.. صحيح أن لقاءاتهما الجسدية باتت تتباعد بعض الشيء، فثمة الهموم والأولاد، الوطن والناس، وربما السنون والأيام لكن الصحيح أيضاً أن ذلك الحب الذي جمعهما ذات يوم كان قد غدا أبعد مدى من حدود الخيال وأرسخ أركاناً من عاليات الجبال..

لم يعد حبهما بحاجة إلى أدلة أو براهين، فبرهانه منه وفيه.. لم يعد بحاجة إلى كلمات الغزل وتعابير المجاملة... لكن في تلك الليلة غازلها، داعبها، احتضنها بين ذراعيه حتى أحس بها تذوب زبدة على نار.. بعد ذاك التهمها كما لم يلتهمها من قبل.. هو يحب الزبدة فكيف إن كانت ذائبة لا تحتاج إلا لفتح الشفتين؟.

عزيز يتأمل وجهها على نور الصباح الآتي عبر الزجاج المعشق، أحمر أزرق، أخضر أصفر، فيغدو الوجه قوس قزح ساحر الألوان.. "حبة قلبي.. مهجة روحي.. اسبحي في بحار الرغد والنعيم.. هانئة سعيدة حتى غروب الشمس. لن أدع أحداً يوقظك يا أغلى ما في الكون على قلبي. أنت يا حبي القديم!! أنت يا حبي الجديد!! أنت يا حبي الوحيد!!".

وانسل عزيز على مهل محاذراً إيقاظها.. أعدت له وضحة القهوة، رشف الفنجان على عجل فهو نفسه كان قد تأخر في النوم وعليه أن يفتح المحل. لكن

ما إن دلف إلى الشارع حتى جاءه صوت سحب الاسترخاء من جسده كما تسحب الروح من الجسد..

-الحرب.. الحرب.. الحرب.. كان الصبي يحمل رزمة من الصحف ويصيح مسرعاً ملهوفاً كأنما تلاحقه أشباح الحرب.. منكمشاً، مشدود الأوتار، تسمر لحظة، فيما كان الصبي يقترب منه وكأنما يعلم أنه يريد أن يشتري صحيفة..

-حرب ماذا، يا ولد؟ سأله عزيز وهو يمد يده إليه.

-هتلر يكتسح بولونيا.. الحرب اشتعلت.. قال بشيء من الفرح وكأنما تقمص شخصية هتلر يملؤه الفرح والزهو باكتساحه لبولونيا...

أخذ عزيز الجريدة وأسرع إلى المحل "إيه أيتها الحرب!!" تمتم لنفسه: "منذ زمن تلوحين في الأفق.. تهددين الناس بالخطر.. فلماذا اليوم تتفجرين؟ لماذا اليوم.. يوم السعادة والهناء؟" راح عزيز يتساءل وهو يزفر متنهداً، مستعيداً في ذهنه تسلسلاً لأحداث بدت معها الحرب آتية لا محالة..

في آذار، كان هتلر قد وضع يده على تشيكوسلوفاكيا.. بهذه الحجة، بتلك، أفاق الناس فإذا بجيوشه تحتل البلد الجار، ضاربة عرض الحائط بالمواثيق الدولية وقوانين عصبة الأمم. ثارت فرنسا، هاجت بريطانيا، صرخت روسيا واحتجت، لكن هتلر إذن من طين وأخرى من عجين، ووقف العالم كله عاجزاً.. الفريسة تستنجد وتستغيث لكن ما من منجد ولا مغيث...

في نيسان، فعل موسوليني بألبانيا ما فعل صاحبه بتشيكوسلوفاكيا، ولا أحد أحسن من أحد.. هتلر قوي.. إذن موسوليني قوي. ذاك جبار، هذا أكثر جبروتاً وليرفع أحد صوته ويحتج. لكن ألبانيا ليست تشيكوسلوفاكيا.. هي شعب مسلم.. طوال عمره ظل شوكة في خاصرة أوروبا وشجا في حلقها.. إذن ليقتلع موسوليني تلك الشوكة، ليخرج ذلك الشجا.. وسكت الناس.. بعض الأصوات ارتفعت لكن خافتة، بعض الاحتجاجات ظهرت لكن واهية، كأنما هي رفع عتب.. فالروح الصليبية لم تكن قد ماتت بعد، والصليبيون لم ينتهوا من أوروبا بعد..

في أيار، عقد الجباران الجديدان معاهدة تحالف وتعاون، مباركاً كل منهما للآخر ما فعل، مشجعاً إياه على المضي قدماً في ما سيفعل.. محور قوي ملأ قلب فرنسا ذعراً، وهي ترى نفسها بين مطرقة هتلر وسندان موسوليني.. هتلر

يحمل أحقاداً بارتفاع الجبال وعمق البحار على فرنسا التي مرغت الألمان بالوحل.. جعلتهم يحنون رؤوسهم ويأتون خاضعين خانعين إلى قصر فرساي يوقعون معاهدة، كلها إرغام وإذلال. وينسى هتلر؟ هتلر لا ينسى.. وإن نسي، مصالحه لا تنسى.. فرنسا تستعمر نصف العالم وبريطانيا النصف الآخر ضانتين بعظمة تلقيان بها لألمانيا.

أفينسى الألمان؟ لا.. هم يريدون حصتهم من الفريسة إن لم يكن طوعاً فكرهاً.. وقد بدأ هتلر مسيرة الإكراه والكره...

في آب، ضرب ضربته القاضية.. ذهب روبنتروب إلى موسكو سراً، التقى بستالين سراً.. عقد معه اتفاقاً سراً، ثم فاجأ العالم: هتلر وستالين فاجأا العالم بإعلان معاهدة تفاهم وحسن جوار يحترم بموجبها كل منهما الآخر، ويمتنع عن التدخل في شؤون الآخر أو الاعتداء على أراضيه.. يومذاك قال الدكتور الشهبندر لعزيز "هتلر أمن الحماية لظهره، فما يمنعه من الهجوم الآن؟". الفكرة نفسها رددها يومذاك الأستاذ.. وها هو ذا الهجوم يحدث والحرب تتفجر.. الجريدة بين يدي عزيز تحمل مانشيتاً عريضاً، أعلاه بلون الدم وأسفله بلون الحداد.. يقرأه عزيز بانقباض وتجهم "الطاغية النازي يشعل الحرب"، "فوهات الجحيم كلها تنفتح دفعة واحدة على بولونيا". ثم تروي الجريدة تفاصيل مخيفة عن حرب لم يعرف مثيلاً لها التاريخ: "من البر الجيوش الألمانية تندفع عند منتصف الليل.. الدبابات تهدر، المدفعية تزأر، الشاحنات، الناقلات، المصفحات، تنطلق سيولاً جارفة من كل مكان لتكتسح كل مكان.. من البحر: السفن، البوارج، المدمرات، الكاسحات كلها تظهر قبالة الشواطئ البولونية لتصب حممها اللاهبة على المدن الآمنة والسكان العزل النائمين. من الجو.. أسراب غربان سوداء تبصق النار والرصاص فتحيل الأخضر يابساً والعمار يبابا..".

كان عزيز يقرأ وعيناه تتسعان أكثر وأكثر.. آلة الحرب النازية، القوى الجوية الهائلة، القوى البحرية المدمرة، كلها كان الناس يتحدثون عنها وكان عزيز قد سمع بها، لكنه ما كان يتخيل قط أنها من الحجم والقوة بحيث تكتسح بلداً كبيراً كبولونيا، اكتساح العاصفة بيتاً من ورق.

صبري شاركه تعجبه حين جاء، فاليوزباشي، الذي تدرب في الأستانة وحارب في جيش "العصملي" وضد جيش "العصملي"، لم يكن يعرف مثل آلة الحرب النازية، تلك التي يمكنها أن تعصف ببلاد طويلة عريضة بين عشية

وضحاها. قرأا الخبر من جديد، فتشا بين الأسطر وما وراء الأسطر عن الحدث الجلل الذي يعرفان كيف بدأ لكن لا يعرفان أين يمتد أو كيف ينتهي..

الكل في حيرة وبلبال.. عزيز وصبري لا يستطيعان البقـاء فـي المحـل يبيعان ويشتريان،

فالحدث أخطر من أن يجلسا معه يبيعان ويشتريان.. تحركا في السـوق، التقيا بالناس.. الكل لا حديث لهم سوى الحرب. الفرنسيون وجـوههم عابسـة قمطرير.. صحفهم مجللة بالسواد، أحرفها، كما شرح له صبري، تنطق بالذعر والتوجس.." من الضحية الثانية؟ "كانت تتساءل. الذئب ينقض ولن يتوقف قبـل أن يصرع أكبر عدد من القطيع".

في مقهى "البرازيل"، "الرواد جماعات جماعات، وكلهم مشـغولون بالنبـأ الصاعق:

احتلال بولونيا. بعضهم فرح وبعضهم حزين، بعضـهم راضٍ وبعضـهم ناقم. المعايير لدى الناس مختلفة دائماً، والزوايا التي ينظر منها الناس مختلفـة دائماً. من ينظر من زاوية هتلر فرح مزهو. وما أكثر من هم مع هتلر، لـيس حباً به بل نكاية بالفرنسيين والإنكليز.. لكن من هم ضد هتلـر يعلمـون مـدى الكارثة التي بدأت للتو..

-احتلال بولونيا سيجر تفاعلات وردود أفعال، لا يعلم منتهاها إلا الله.

كانوا يقولون فيرد الطرف الآخر:

-لن تجر شيئاً، ستسكت بريطانيا وفرنسا، كما سكتت عن تشيكوسـلوفاكيا وألبانيا.

آراء وتخمينات.. لغط وجلبة كانت تملأ المقهى، كما كانت تملأ المقـاهي الأخرى، دوائر الدولة، الشوارع، البيوت، فقد بدا العالم كله ذلك النهـار يقـف على كف عفريت، والعفريت يؤرجحه ذات اليمين وذات الشمال.

"تسكت بريطانيا وفرنسا أم لا؟" تلك كانت المسألة.. الأستاذ قال "لن تسكتا"

الدكتور الشهبندر كان يرى ذلك أيضاً، والشهبندر يفسر "بولونيا كاثوليكية وفرنسا حامية الكاثوليكية، فكيف تسكت؟ آلة الحرب الهتلرية تقتل، تذبح، تدمر، فكيف تغض الطرف فرنسا؟ هي وبريطانيا أعلنتا قبل أشهر التزامهما بالـدفاع عنها فكيف تنسحبان من التزامهما؟" وجاء الجواب بعد ثمان وأربعـين سـاعة فقط: أعلنت الدولتان الأقوى في العالم: بريطانيا، الإمبراطورية التي لا تغيـب

عنها الشمس، وفرنسا، الإمبراطورية التي لا يغيب عنها القمر، حربهما على هتلر.

–فرنسا أعلنت الحرب، ماذا يعني ذلك؟ سألت شمس الأستاذ، وهم على مائدة الغداء..

–يعني أن معارك ضارية ستجري بين الدولتين وألمانيا وربما على أرض كلتا الدولتين...

–ماذا؟ ستصل الحرب إلى باريس؟ ستطول الأخضر؟ وتنبه عزيز إلى الخطر الداهم الذي لم يكن قد فكر به.. فلذة كبده في باريس، فماذا إن قصفتها طائرات هتلر؟ ماذا إن تحولت إلى ساحة معركة؟ ألن يهدد ذلك حياة الأخضر؟ أمنه وسلامته؟.

طوال يومين، ظل الأخضر والحرب شغلهما الشاغل.. "أية ورطة؟" كانت شمس تفكر "ليتنا لم نبعثه؟ تباً لفرنسا وشهاداتها!!" فقد استيقظت فيها الأم التي لا يهمها في الوجود سوى سلامة ابنها، ولا تعادل كنوز الوجود قلامة ظفر ابنها..

–دعنا نعده إلى الوطن، اقترحت الأم.

–لا.. لا.. مايزال باكراً على ذلك.. رد عزيز وهو يعلم أن عاطفة الأم هي التي تتكلم.

–وماذا إن فات الأوان؟ ماذا إن هجم هتلر على فرنسا هجومه الصاعق على بولونيا..

ألا يضيع ابننا؟ ألا نخسر فلذة أكبادنا؟.

–شمس، فرنسا ليست كبولونيا.. هي بلد قوي يستعمر نصف العالم..

–لكنها أمام هتلر لا شيء.. العالم أمام هتلر لا شيء.. ألم تسمعهم يتحدثون عن آلة حربه الجبارة، تلك التي لم يعرف مثلها التاريخ؟.

–صحيح.. شمس.. صحيح.. لكن..

–لا.. لا تقل لكن.. قاطعته وقد تحولت إلى لبوءة يهدد أشبالها الخطر..

–حسن.. حسن. قال وقد تسرب شيء من خوفها إلى قلبه.. دعينا نستفسر أكثر، نسأل.

–الأمر واضح كعين الشمس فلماذا نسأل أو نستفسر؟.

-مع ذلك نسأل، ولمعت في ذهنه فكرة، أجل بإمكانه أن يفيدنا القومندان الآن...

ولاذت شمس بالصمت.. ذهب خوفها من القومندان، كرهها له، قرارها بقطع كل علاقة معه.. شيء واحد كان ينتصب أمام عينيها: الاطمئنان على فلذة الكبد ومستقبل فلذة الكبد..

-هه.. ماذا قلت؟ سألها وهو يراها تلوذ بالصمت.

-أجل.. اذهب إلى القومندان. اسأله، تأكد منه..

وذهب عزيز إلى العدو الذي "ما من صداقته بد" يسأل ويتأكد.

-خائف على ابنك، وهو في باريس؟ رد القومندان بصلف الفرنسي الذي أثيرت حميته وتحركت عنجهيته..

-لا.. أنا لست خائفاً سيادة القومندان، لكنها الأم.. وأنت تعلم ما تعني الأم؟ عواطف الأم؟

-لا.. لا.. طمئنها.. لدينا جيش قوي.. مثل هتلر وأكثر.. لدينا طيران.. دبابات.. مصفحات.. مثله وأكثر.. تحصينات قوية، خط ماجينو الشهير! خطوط دفاعنا الحصينة! في حرب الأربعة عشر هزمناهم.. وفي هذه الحرب سنهزمهم.. اطمئن اطمئن.. فرنسا لا تهزم..

وخيل لعزيز أن القومندان صار قومنداناً آخر.. لهجته، حماسته، صلفه.. كله كان جديداً عليه.. ذهبت تلك الدماثة.. ذهب ذلك اللطف.. الرقة......... الإنسانية.. لغة الحضارة والعقل، كانت كلها قد انسحبت أمام خطر الحرب ليظهر بدلاً منها كلها تعصب وصلف، حماسة وغرور...

-أعلم. أنا أعلم ذلك، قال عزيز أخيراً وهو يبلع أملاً خفياً في أن لا تكون فرنسا قوية، أن لا يصمد جيشها يوماً واحداً، بعدئذ تابع: المشكلة أن أمه لا تنام الليل.. لا تفكر إلا به.. أيمكننا الاتصال به مباشرة؟ أيمكننا الاطمئنان عليه سريعاً؟.

-أنا أقول لك اطمئن.. باريس أمان وسلام.. الكل هناك يعيشون حياتهم المألوفة.. اليوم تحدثت مع الأهل. لم يطرأ تغير قط.. فلا تشوشوا الأخضر ولا تخيفوه.

-صحيح.. معك حق.. يجب ألا نشوشه..

-قل لأمه.. لا خطر على باريس.. هي في حرز حريز.. إن دارت الحرب فلسوف تدور على أرض ألمانيا.. على خط ماجينو وتحصينات الحدود، معارك ربما تستمر سنين وسنين وفي النهاية يكون لنا النصر..

أبلغ عزيز رسالة القومندان للأم، لكن دون أن تثلج صدرها أو تطفئ لهب أمومتها.

-اكتب له رسالة.. أرسل له برقية..

أعجبته الفكرة.. البرقية من البرق والبرق سريع، يصل إلى باريس بلمح البصر...

وإذا ما ارتد، ارتد بلمح البصر، فلماذا لا يرسل برقية؟

في الصباح التالي، مضى عزيز إلى مركز البريد، كتب أقل من سطرين ثم طيّرهما على جناح البرق حيث كان الأخضر مايزال غارقاً في سبات عميق.

"نحن في غاية القلق. نريد الاطمئنان عليك.. عد حالاً إن كان يتهددك خطر الحرب". ولم يملك الأخضر إلا أن يفتح عينيه دهشة واستغراباً، وهو يقرأ البرقية التي أيقظته من سباته العميق..

أعود حالاً!؟ يتهددني خطر الحرب؟" راح يتساءل وهو مايزال يفرك عينيه متثائباً متكاسلاً، كارهاً النهوض من الفراش، "لكن أية حرب؟" تابع تساؤله وهو ينظر من شباكه إلى الشارع المزدحم بالناس: طلاب، طالبات، تجار، باعة، سياح، سائحات وجرس الترام يطلق رنينه المتميز من حين إلى حين. ثمة أيضاً الحافلات، السيارات الصغيرة، إشارات الشرطي وهو يعطي أوامره مطلقاً حركة السير، موقفاً إياها، مؤكداً أن نهر الحياة مايزال يتدفق تدفقه المألوف، لا فيضان، ولا خطر.. "إذن، لم خوف أبي وأمي علي؟ أيظنون هناك أن الحرب قامت في باريس؟" وتبسم بشيء من السخرية..

كان الأخضر قد سمع إعلان فرنسا الحرب، وهو على شاطئ المحيط الأطلسي.. زميله هناك كان قد دعاه إلى زيارته في عطلة الصيف.. كان من روايان.. آخر العطلة فقط تسنى له أن يلبي الدعوة فذهب إلى الميناء الرابض على شاطئ المحيط.. ميناء كبير يعج بالبواخر والسفن، البوارج والمدمرات، المراكب الشراعية والطوربيدات الحربية.. والد جاك لديه سفينة لصيد الأسماك تتوغل قليلاً في المحيط، فتأتي ببيادر من الأسماك. لديه أيضاً، سيارة يسوقها

جاك بنفسه ويذهب بها حيث يشاء. جاك وحيد أبويه، مدلل يصل إلى فمه كل شيء بملعقة من ذهب "هذه الأموال كلها لدى والدك، وتظل أنت الولد الوحيد؟." سأله أول ليلة "ولماذا الأولاد الكثر؟ واحد يكفي ويزيد" رد جاك ضاحكاً.. "نحن هنا نختلف عنكم، أنتم العرب: ولد تربيه جيداً خير من عشرة تتركهم إلى الشارع.. نحن قوم نكره التكاثر".

وضحك الأخضر وهو يتذكر الآية الكريمة "ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر،" هل هذا يا ترى ما قصده سبحانه؟. ناس لا هم لهم إلا أن يتناسلوا.. المرأة تلد لتحبل، وتحبل لتلد، والرجل يغرق في حمأة الإعالة والعوز يوماً بعد يوم.

.. وزفر الأخضر زفرة حارقة ثم تابع ضاحكاً. "الشاعر العربي عندنا يقول

"بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلاةٌ نزور"

جاك لم يفهم بيت الشعر الذي قاله الأخضر بعربية مفخمة لكن ما إن شرحه له بالفرنسية حتى قهقه ضاحكاً.. "صحيح"، تابع بعد أن كفكف ضحكته، أرأيت إلى الحيوانات أيضاً؟ الأرانب تتكاثر حسب متوالية هندسية يمكن أن تصل معها، هي وذريتها خلال سنتين أو ثلاث، إلى عشيرة من الأرانب تأتي على الأخضر واليابس بينما اللبوءة تضع خلال الفترة نفسها شبلاً أو شبلين فقط". وشرد الأخضر بعيداً "الحمد لله، أمي لم تلد إلا أربعة.." رآه جاك يشرد فاستفسر، أجابه الأخضر فأبدى له كل تعجب "معقول!؟ هذا شيء نادر.. والداك رضيا بأربعة فقط؟". ولم يكن الأخضر يعلم أنه على مبدأ "مكره أخاك لا بطل" كانت أمه قد توقفت عن الإنجاب.

بسيارة جاك، جابا معاً شواطئ الأطلسي شمالي روايان وجنوبيها.. زارا السهول، الجبال المحيطة بها.. فثمة طرق.. في كل مكان طرق للسيارات.. سكك حديدية للقطارات.. الأخضر يراها ويتحسر على بلاد ما تزال مقطوعة الأوصال لا طرق ولا سكك حديد.. السيارات فيها نادرة والقطارات أندر.. على السفينة أخذه جاك في رحلة صيد.. ثلاثة أيام وثلاث ليال أيضاً ظلا متوغلين في أعماق المحيط. المحيط ساكن تدغدغه أنسام الصيف فترقد أمواجه كما يرقد طفل تهدهده أم حنون.. لكن المغامرة الكبرى كانت حين عادا من البحر.. أرصفة الميناء مزروعة ببائعات الهوى.. غوان يقدمن الشراب، فتيات

يعرضن أجسادهن... برامج "ستربتيز" تعرض في هذا النـــادي أو ذاك، ولأول مرة يسمع الأخضر بكلمة "ستربتيز"، ماذا تعني؟" سأل جاك. "التعـــري" أجـــاب جاك حسب قول البعض، والمشاكسة بشريطة من قماش حسب قـــول الـــبعض الآخر.. المرأة تتعرى إلا من شريطة ضيقة تتركها بين فخذيها لتشـــاكس بهـــا الرجال" وشاهد الأخضر في تلك الليلة حفلة تعرٍ ومشاكسة لم تترك في نهايتهـــا المرأة الفاتنة حتى تلك الشريطة الضيقة بين فخذيها. "شيء مثير.. أنا لـــم أعـــد أستطيع التحمل." قال لصاحبه، فضحك هذا، "أنتم حامون.. كلكم أهـــل الشـــرق هكذا!! لا يستطيع واحدكم ضبط نفسه"، "تشعل النار في الهشيم وتقول له اضبط نفسك... لا تحترق، "قهقه جاك، وهو ينهض ليخرج به من البـــار. "ألا نأخـــذ زادنا معنا؟" سأله الأخضر وهو يشير إلى فتاتين شقراوين، كشفتا عن نهودهما وأفخاذهما، متلويتين تلوي فتاة "الستربتيز" على الحلبة. "لا.. أنا أخشى بائعـــات الهوى أولاء.. ذات مرة أصبنني بالسيلان." "ماذا إذن، تريدنا أن ننـــام جياعـــاً عطاشا؟" "من قال هذا؟ لا.. لا. سآتيك بزاد أطيب وشراب أعذب".

وأسرع جاك بسيارته إلى "ستوديو" صغير في بناء قديم لونه الزمان بلونه الكالح، لون الشيخوخة والهرم، "هذا عش النسر.. أجيء إليه كلما احتجت إلـــى السكينة والهدوء.

من عش النسر اتصل جاك بصديقته.. عبارة أو عبارتان همس بهما فـــي أذنها ثم لم تمض دقائق حتى كانت فتاتان غضتان لم تبلغا ســـن الرشـــد بعـــد، تطرقان الباب..

في "الاستوديو" براد صغير يحوي كل شيء.. الشراب من كـــل صـــنف ولون، الطعام من كل صنف ولون، لكن الأخضر يحب النبيذ.. جانيت علمتـــه ذلك.. مذ اقتحمته في عقر داره راغبة في تجريب الحصان العربي وباتا يلتقيان بين الفينة والفينة.. أغرته بشرب النبيذ فشرب، زكت لديه "الروزيـــه" فأحبـــه.. جانيت تعرف ما تحب، تعرف ما تكره.. لهـــا آراؤهـــا المبرمـــة، قراراتهـــا القاطعة.. وأحبها الأخضر لذلك. "هذا الوضوح الغريب لكأنها ليســـت امـــرأة،" كان يفكر متذكراً ما يقولونه عن المرأة في الشرق "حواء لغز غامض، لغـــز لا يستطيع حله إلا الله"، جانيت واضحة كعين الشمس، لا ألغاز فيها ولا رمـــوز.. تشتهي الرجل تقول له "أشتهيك"، تنفر منه تقول له "أنفر منك". تريـــد صـــداقة عابرة تقيمها، تنتهي الصداقة تنهيها.. بكل بساطة، بكـــل وضـــوح، تتصـــرف جانيت، تتكلم. هي معه اليوم.. غداً مع غيره، تمر به، تسلم عليه وربما تصفعه

على قفاه ممازحة ثم تشبك ذراعها بذراع الآخر، وتمضي.. "كيف؟ لماذا؟" سألها ذات مرة وقد شعر بالحنق. "أنا هكذا.. لا أريد ارتباطاً بأحد ولا التزاماً بأحد.. فأظل حرة.. حرة كشعاع الشمس". ولم يكن يملك إلا أنّ يغض الطرف أمام شعاع الشمس. الخجل خلصته منه، الجنس علمته فنونه، الصداقة منحته إياها خالصة، لكن جسدها ملكها وحدها، تريد أن تكون صاحبة الحق الوحيدة فيه.

"أهذه هي الحرية التي تحلم ببلوغها حواء؟" الأخضر معجب بجانيت، بل ربما يشعر أحياناً بالحب، مشاعر غيرة تأكله وهو يراها تقبل هذا الشاب أو تمضي مع ذلك.. لكنها كانت تكبحه إن لم يكبح نفسه.. شيئاً فشيئاً تملك القدرة على الكبح، وقد ترسخت في نفسه القناعة التي حاولت غرسها فيه، "نحن صديقان، نلتقي حين تقضي الحاجة، ونفترق حين تنعدم"، النبيذ "الروزيه" جعله يشرد مع جانيت، لكن الفتاة الغضة البضة ذات الشعر الأشقر إلى جانبه تشعره بنوع من الحرج، "ماذا؟ جسدك معنا وعقلك مع سوانا؟ "قالت لائمة فنفض الأخضر رأسه ضاحكاً "اكسكزي موا" قال بكثير من التوكيد والود، ثم أسرع إلى الحاكي يضع اسطوانة، سرعان ما صدحت بموسيقى راقصة. "عرض ستربتيز.. من منكما تقدمه لنا؟ "سأل الأخضر وهو يرغب أن يستعيد حالة الفوران التي وصل إليها، وهو في نادي "الستربتيز".. "أنا" قالت الفتاة الأخرى، الغضة البضة، ذات الشعر الأحمر القصير كشعور الصبيان، ثم أسرعت تتلوى أفعواناً يؤدي طقوس الحب والربيع.

رقصتها شجعت ذات الشعر الأشقر، فهبت تتعرى وتشاكس.. "كلهن مشاكسات"، قال لصاحبه غامزاً ضاحكاً، فرد جاك "بل قل كلهن فنانات بارعات". وأمضى الأخضر ليلة حمراء أثبت فيها أن الحصان العربي هو المجلي دائماً، الأكثر قدرة وتحملاً دائماً، فقد كان ما يزال يعدو بين هذه المرجة وتلك، حين كان الحصان الآخر قد ارتمى على الفراش، مستنزفاً حتى الرمق الأخير.

في تلك الليلة، أعلنت فرنسا الحرب لكن أحداً من الأربعة لم يسمع بذلك ولم يشعر به.. في القطار فقط، وهو عائد إلى الشرق، حيث العاصمة التي تحتضن السين، بكل شغف وشوق ، قرأ الأخضر الخبر: هو مانشيت عريض يملأ واجهة الصحيفة.. نظر خارج القطار متعجباً.. السهول ساكنة، أسراب العصافير لم يروعها باشق، الجبال حملان وديعة يتراكب بعضها فوق بعض والسماء صافية لما يأتها أيلول بالغيوم بعد. وصل إلى باريس فكانت، كعادتها،

تغص بالناس غادين آتين، بالسيارات تشق طريقها بنزق، بـــالأنوار مشعشـــعة، بالمطاعم ملأى، بالكازينوهات تبهر أنوارها الأبصار.." إذن، لماذا الخوف يـــا أبي؟ لماذا الشعور بالخطر، ولا خطر؟" لكن لكي يطمئن قلبـــه، أســـرع إلـــى الجامعة التي فتحت أبوابها، ذلك اليوم نفسه، فانصب عليها الطلاب والطالبـــات سيلاً دافق الأمواج. رأته جانيت فأسرعت تأخذه بين ذراعيها مقبلة عاتبة:

-أين كنت؟ خمسة أيام وأنا أبحث عنك؟

-إذن شاقك الحصان العربي؟ قال وهو يغمز بعينه ضاحكاً..

-شاقني فقط؟ قل أموت شوقاً إليه، ردت وهي تنظر إلى الأســـفل حيـــث يلتقي الفخذان، فلم يملك إلا أن يضحك:

-قولي لي أولاً، ألست خائفة من الحرب؟

-خائفة من الحرب؟ قالت وهي تبرم شفتها استهتاراً، نحـــن الفرنســـيين لا نفعل منذ أربعمائة عام إلا الحرب، نقاتل هنا، نقاتل هنـــاك. بـــل لقـــد حاربنـــا أوروبا كلها ذات يوم وانتصرنا، ذهب نابليون إلى مصر، وصل إلى موســـكو، توغلنا في أفريقيا، استعمرنا آسيا، أمريكا فهل نخاف اليوم من هتلر؟

-لكنهم الألمان وزخم الرايخ و..

-لا.. لا تخف.. قاطعته وهي تتأبط ذراعه، مبتعـــدة بـــه عـــن الطـــلاب والزحام، مادامت فرنسا وبريطانيا حليفتين لن تهزما هتلر فحسب بـــل العـــالم كله..

-ثقتك كبيرة؟

-التاريخ شاهد والتجربة عبرة.. مذ اتفقت فرنسا وبريطانيا على اســـتعمار العالم واقتسام النفوذ فيه، وهما تستعمرانه وتقتسمان النفوذ فيه، ولسوف تظلان هكذا يداهما في رقبة العالم ماداما حليفين متفقين.. لن تسمحا لهتلر بمشاركتهما الغنيمة بل ستسحقانه كما تسحق القملة.. فاطمئن.. وأرسل الأخضـــر إلـــى الأم الخائفة والأب المشغول البال رسالة بثها الكثير مما يطمئن.. وصف الحياة فـــي باريس، الدراسة المعتادة في الجامعة، الهدوء والطمأنينة في النفوس بـــل بـــث أقوال جانيت بحرفيتها، دون أن يحذف منها ما يدل على الصلف والغرور...

عزيز أحس بذلك الصلف والغرور، كما أحس به وهـــو يحـــدث أخاهـــا القومندان، الذي كان اكتساح هتلر لبولونيا قد أزاح عن وجهـــه قنـــاع الدماثـــة والكياسة، ليظهر على حقيقته: ذئباً شرساً، ليس فيه سوى المخالب والأنياب.

-كم أتمنى أن يمرغهم هتلر بالوحل، هؤلاء المستعمرين المتغطرسين!! قال لشمس، وهو يدمج بين صورة القومندان وأخته...

-لماذا؟

-ألم تسمعي؟. يريدون أن يظل نيرهم في رقبة العالم.. يدوسوا بأقدامهم العالم..

-وما الفرق؟ إن ذهب هؤلاء، ألن يحل هتلر محلهم؟ ألن يكون استعماره ألعن وأدق رقبة؟

-لا، ليس هناك ألعن وأدق رقبة من هذا الاستعمار!! أنا أكرهه... أكرهه!!

وبدا حقد العالم كله يفور في صدر عزيز.. كثير من الناس يتحدثون في المقاهي، الشوارع، البيوت، عن هتلر: المسيح المخلص" ترى لماذا لا يكون المخلص فعلاً؟ هو يكره بريطانيا وفرنسا.. عدواً مبيناً لهما، وعدو عدوك صديقك.. هذا قانون من قوانين المنطق..

فلماذا لا ينطبق ذلك القانون على هتلر؟ لماذا لا يكون صديقاً وحليفاً فعلاً؟ "وغدا عزيز، ولا هاجس له إلا أن يتابع أخبار هتلر: في بولونيا، في الغرب، في الجنوب، حيث جيوشه تدق بأحذيتها العسكرية أبواب العالم.

-يجب أن نعلن الحرب على فرنسا.. أيضاً.. يجب أن ننتهز الفرصة فنحارب هذا المستعمر البغيض، قال ذات صباح لصبري، رفيق السلاح القديم، وهما يفتحان المحل.

-الحقيقة.. هي أعظم فرصة.. تدخل فرنسا الحرب في أوروبا فننقض عليها هنا، نقتنص منها نصرنا.. نفرض عليها حريتنا واستقلالنا..

-يعني أنت معي!؟ نستغل الحرب كي نشن عليها الحرب..

-مع المستعمر ينبغي ألا يفوت المرء أية فرصة، ألا يهادنه أية لحظة.. بل في أي وقت يستطيع ضربه، عليه أن يضربه..

ووقع ذلك، في نفس عزيز أيما موقع.. "صحيح.. لماذا أهادنه؟ لماذا لا أعاود ضربه؟" ولم تمض تلك الليلة حتى كانت تضمه غرفة منغرسة في أحشاء الكرك، قلعة درعا الحصينة، حيث أسرع البطحيش يستقبله بالأحضان.

-كنت أعلم أنك ستعود.. قال له وقد فرغا من عشاء أعده الرجل على عجل..

–وها قد عدت.. فماذا لديك؟ سأله وهو يعلم أنه لم يكف يوماً عن ضـــرب المستعمر:

دركه، جنده، ضباطه، جباته، أياً كانوا وأينما كانوا. كان البطحيش قد بات مصدر رعب حقيقي لحاكم درعا، عسكره وشرطته، يترصدونه هنـــا، فيظهـــر هناك، يخططون للإمساك به في الشرق فينبق في الغرب. كم نصبوا له كمائن! كم أرسلوا دوريات! كم جندوا مخبرين! لكن البطحيش مـــن نســـل أبـــي زيـــد الهلالي، ما إن يقترب منه الخصم حتى يلبس قبعة الإخفاء، فلا تـــراه عـــين.. ويغدو بإمكانه أن يدغدغ خاصرة الخصم، ينخس رقبته، يدخل أحد خيشـــوميه، يفعل به ما يشاء.

"الجني" صاروا يدعونه "ماذا فعل الجني؟" "ما هي آخر أخبـــار الجنـــي؟" "شددوا الحصار على الجنّي" ثم يخططـــون ويرســـمون، لتـــذهب مخططـــاتهم ورسومهم كلها أدراج الرياح، فالإنس لا يستطيعون رؤية الجـــن ولا الإمســـاك بأبي زيد الهلالي وهو يلبس قبعة الإخفاء...

–أنت جاهز؟ سأله الجني الفرح بعودة صديقه.

–لو لم أكن كذلك لما جئت.

–حسناً.. غداً مساء إذن!!!

في اليادودة عرس كأعراس أبناء السلاطين، كانت قد مضت عليـــه ســـتة أيام، ينصب فيه كل ليلة مرسح للدبكة وتشعل النيران، تقرع الطبول وتعـــزف المزامير، فالأعراس هي الفرصة الوحيدة لأن يهزج شعب محزون، يغني أناس بائسون ويزغرد مقهورون.. هي كوتهم الوحيدة إلى عـــالم الفـــرح، ومهـــربهم الوحيد من الترح. البؤس، الفقر، الجـــوع، الحرمـــان، القهـــر، الإذلال كلهـــا بانتظارهم ليل نهار، فلماذا لا يستغلون فرصة لنسيان الجوع والإذلال، للطيران بعيداً عن البؤس والفقر، الحرمان والقهر؟.

أهل اليادودة كلهم في العرس، يدبكون ويرقصون.. ناسين أو متناسين مـــا ينتظرهم بعده. "الأجضان" الفرنسي.. قائد المخفر المتغطرس، الذي يخيل له أنه يبلغ الجبال طولا، يرقب عرسهم وينتظر.. غنيمة مغرية.. لعابه يســـيل عليهـــا قبل أن تقع عليها عيناه... هو يعرفها، فتاة طويلة بيضـــاء، شـــهية كرغيـــف ساخن.. فليفرحوا بها ويدبكوا.. "الليلة تزف إلى عريسها.. لكن قبل ذلك ستزف إلي "وكان ذلك ما فرضه "الأجضان"، مذ جاء إلى مخفر اليادودة..." كي نمرغ

أنوفهم في الوحل".

عند حلول الظلام، كان البطحيش وصاحبه ينسلان شبحين مقنعين، إلى بيت العروس. مع أمها وأبيها رسما الخطة، وعلى عاتقهما وقعت مهمة حفظ السر.. دوي الطبل يتردد أصداء في الياقوصة حيث الهوة العميقة التي ابتلعت ذات يوم نصف جيش الروم. أنغام المزمار عالية راقصة تثير كامن الأحاسيس وخافي المشاعر.. أقدام الدابكين والدابكات تصنع أجمل إيقاع... يشنف أذني عزيز لكنه لا يجد طريقاً لأذن البطحيش.. اللحظة الحرجة تجيء.. الهودج أعدّ والبعير يقترب: إخ.. إخ.. يصيح بصاحبه فينيخ البطحيش وعزيز أعصاب متوترة وحواس مشدودة.

الكل بانتظار العروس.. تدخل الهودج فينقلها إلى العريس الموعود. في شبه العتمة تسير العروس تحف بها الصبايا والبنات، قرب الهودج يكمن البطحيش وعزيز.. تقترب العروس من الهودج، وتعثر الأم. يسقط الفانوس وينطفئ الضوء، وتحت جناح الظلام تنسل العروس مبتعدة عن هودج ينفتح وينغلق بمثل لمح البصر، ليضم بين ذراعيه عروساً ووصيفة لم تكونا عروساً ووصيفة قط..

-هي.. تج.. هي.. تج.. يعود الصوت حاثاً البعير على النهوض. ينهض البعير ثم يسير بالهودج، تحف به لدات العروس وهن يغنين ويهزجن.. الرجال في المؤخرة، الأولاد يتوزعون هنا وهناك والزغاريد تنطلق، معلنة مغادرة العروس بيت الأهل.

"الأجضان" وجنده أمام باب المخفر، يتلمظ بشفتيه ويفرك بيديه لوجبة شهية قادمة.. على ظهر الجمل تسير.. هودجها من عصر الظعائن وملابسها من دمقس الحرير.

-أطلق النار، مال "الأجضان" على مساعده آمراً، وقد اقترب موكب العرس... سبع، ثماني طلقات اندفعت رشاً فخرست الحناجر للتو. لم يعد هناك غناء، لم يعد ثمة زغاريد، الكل ساكن كأنما يقف على رأسه الطير.

-تقدم بالهودج، تابع "الأجضان"، آمراً الصبي اليافع الذي كان يمسك بالرسن. بحذر تقدم الصبي، فتقدم وراءه الجمل والهودج فوق ظهره يتمايل نحو اليمين ونحو الشمال، أنتن الخمس، اقتربن اقتربن، هدر بصوته الجهوري مشيراً إلى حلقة النساء التي تحيط بالهودج.. فجنده الخمسة بحاجة لعرائس أيضاً.

لم تخالف النساء الأمر.. بل تقدمن... في أقدامهن الحذر، في عيونهن الخوف. وعلى رؤوسهن الطير.

-أنتم.. البقية.. نساء.. رجالاً.. أولاداً.. هيا اذهبوا الآن.. كل إلى بيته.. لا يمين.. لا شمال.. كل إلى بيته وبإشارة من يده عاد الرصاص للانطلاق رشاً، وبعث أزيزه الرعشة في القلوب والرعدة في الأوصال وأسلم الكل سيقانهم للريح.

عبر مدخل المخفر سار الجمل بهودجه، تحف به النساء الخمس، وفي ساحة المخفر أمر "الأجضان" الصبي اليافع بإناخة الجمل.. صدع الصبي بالأمر.

-إ..خ ..إخ.. هتف الصبي بالجمل، شاداً رسنه إلى الأسفل، صائحاً به المرة تلو المرة، أخيراً استجاب. طوى أماميتيه فمال الهودج إلى الأمام، مهدداً من فيه بالسقوط، لكن ما إن طوى خلفيتيه حتى اعتدل الهودج وقد صار بطن الجمل على الأرض.

اقترب "الأجضان" من الهودج متهلل الوجه منفرج الأسارير.. جنده من حوله، يتفحص كل منهم فريسته بين النساء المتوجسات الخائفات.. أزاح "الأجضان" الستارة من الجانب الأيمن وهو يكاد يطير فرحاً...

لكن رشة من رصاص تفاجئه فيطير موتاً. "مون ديو!! مون ديو!!" صاح وهو ينقذف إلى الأعلى، فيما كان يندفع من جانبي الهودج، كليهما، شبحان ملثمان لم يرهما أحد ولم يعرف بهما أحد وكانت البندقيتان في أيديهما قد تحولتا إلى فوهتي جحيم سرعان ما أحالتا هشيم "الأجضان" وجنده إلى نار متأججة اللهيب...

- 10 -

-القضاء على مخفر بكامل عناصره..

-مصرع "أجضان" وخمسة جنود..

-حركة مقاومة سرية..

راحت أسلاك البرق والهاتف تتناقل الأخبار بين مخافر حوران، ثم بين درعا ودمشق، فدمشق والمدن الأخرى. لم يكن الفرنسيون قد نسوا ثورة الخامس والعشرين، ولم يكونوا يجهلون أنهم في حالة حرب.. فهل يستغلها الوطنيون ليشعلوا الثورة من جديد؟

ضجيج وعجيج في المخافر، جلبة واضطراب في الثكنات.. الجند، الضباط، القومندان رينو نفسه يكاد يجن.. من اليادودة تخرج خطة كهذه..!؟ تنفذ عملية بهذه الخطورة؟ وطوال شهر وبعض الشهر، ظلت السياط تنهال على ظهور رجال اليادودة والعصي تتحطم على أقدامهم:

- من فعل هذا؟

- كيف تسلل المقاتلان؟

- من سهل لهما الأمر؟

- أين اختفيا؟

أسئلة كثيرة كادت تنهال على أهل اليادودة انهيال السياط على الظهور والعصي على الأرجل، لكن لم يكن هناك من يستطيع أن يجيب. أبو العروس عجوز متداعٍ، من أول فلقة كاد يلفظ أنفاسه. الرجال الآخرون كلهم أنكروا:

- لا علاقة لنا..

- لا نعرف شيئاً..

- نحن أنفسنا فوجئنا.

- لابد أنه البطحيش، قال أحدهم وقد اهترأ جلده تحت السياط والعصي، فاشتعلت عينا المحقق غضباً.

- أوتعرفين البطحيش؟ سأل العروس عابساً.

- كلا، ردت العروس بلسان كالتبن...

- لكن الرجلين تسللا إلى هودجك.. ركبا معك، لماذا لم تصرخي؟ ولم تستطع أن تقول له إنها هي نفسها لم تركب الهودج وتابعت اللعبة:

- كانت خائفة..

- صفيهما لنا..

- لم أنظر إليهما..

-كاذبة، صرخ بها وهو ينهال عليها صفعاً وركلاً.. لكن دون أن تند منها آهة أو تخرج صرخة..

حاكم درعا يكاد يجن.. حائط من الصلب كان قد اصطدم به.. لا ثغرة فيه ولا منفذ فكيف يفك لغز ذلك الحادث؟ هو يعلم أن "الأجضان" زادها كثيراً.. التعليمات إليه "أذلوا الناس، مرغوا كرامتهم بالوحل.. لكن لا تقربوا العرض.. العرض وحده يجعل هؤلاء الناس يثورون ويغضبون.. "لكنه أبى إلا أن يزيدها. صار الاعتداء على أعراض الناس ديدنه، الولوغ في شرف النساء ألهيته المحببة.. "فماذا كانت النتيجة أيها الأجضان؟". النتيجة منطقية، الحاكم يعرف ذلك. لكن هل يستطيع الاعتراف به؟ "الأجضان" طغى وبغى، جار وتجبر.. صحيح، لكن الصحيح أيضاً أن على الناس أن يتحملوا.. وإن لم يعد باستطاعتهم التحمل فليشكوا.. ثمة سلطات عليا يمكنها أن تحاسب.. لكن أن يقتلوا؟ لا.. لا.. كان الحاكم وضباطه يرددون فيما بينهم، والحقد مرجل يغلي في صدورهم..

لم يكن أحد من أهل اليادودة، رجالاً أو نساءً، قد رأى الرجلين الشبحين.. رغم الضرب، التعذيب، التنكيل، السجن، لم يكن أحد منهم قد اعترف.. "رؤوسهم يابسة "قال الحاكم"، "يموتون ولا يعترفون".

العروس، رغم الركل، العفس، الصفع، الرفس، ظلت على أقوالها الأولى

"لم أنظر إليهما" ".. كنت خائفة" "كان الظلام حالكاً" وهـي أيضـاً تمـوت ولا تعترف...

وحين نزلا من الهودج يطلقان الرصاص؟ سألها المحقق فأجابت بأريحية "كان أحدهما ربعة والآخر طويلاً"

-الربعة هو البطحيش.. ذلك مؤكد، توصل أخيراً الحاكم إلى الاستنتاج هو الذي كان يعرف صفات البطحيش وتاريخه..

تاريخ البطحيش حافل.. منذ اليوم الأول لوصوله، سـمع الحـاكم بـذلك التاريخ ثم عاشه يوماً بيوم "البطحيش ضرب، البطحـيش اقـتحم، البطحـيش فجَّر..." ولم يكن أحد يرى ذلك البطحيش، هو يضرب ويهرب.. أبو زيد يلبس قبعة إخفاء، فماذا يفعل الحاكم؟ مرات كثيرة أرسل دوريات وراءه، شدد الضغط عليه، حاصره، طوقه، لكنه في كل مرة كان يفلت، أحـدهم فسـر لـه ذلـك "البطحيش سمكة في بحر، فهل تستطيع الإمساك بسمكة في بحر؟".

لكن الحاكم لم يقتنع، فسأل "معقول؟ كل من حوله بحر له، حتى يكون هو سمكة؟" "بالتأكيد. كل من حوله معجبون به، يتمنون لو كانوا مثله، يقاتلونكم كما يقاتلكم هو لكنهم لا يستطيعون... لسبب أو لآخر لا يستطيعون.. هو يسـتطيع، فكيف لا يتحول إلى بطل يحبونه جميعاً؟ كيف لا يصير رمزاً يضحون بأنفسهم حفاظاً عليه؟" منذ ئذ عرف الحاكم أن معركته مع البطحـيش معركـة صـعبة طويلة الأمد، هي معركة مع شعب وليست معركة مع فرد.. وها هو ذا حدسـه يصدق:

يصفّى مخفر بكامله.. يصبح للبطحـيش أعـوان.. الأمـر خطـر إذن.. والحدث جلل.. الحدث الجلل بلغ مسامع المفوض السامي فارتـد مـن شـفتيه تقريعاً:

- ما هذا التسيب؟ نحن في أقصـى درجـات الطـوارئ، فـأين الحـذر والحيطة؟.

- هو رجل فرد يقوم من حين إلى حين بمثل هذه العمليات.. رد الحـاكم وهو يرتعش خوفاً من ثورة المفوض السامي.

- رجل فرد.. ولا تستطيعون الإمساك به؟. أين اسـتخباراتكم إذن؟ أيـن جواسيسكم؟

- نحن نفعل المستحيل يا سيدي.. لكن..

- لا تقل لكن.. أمسكوا بهذا الرجل.. حياً أو ميتاً أريده، بأي شكل أريده.. لاحقوه.. شددوا الحصار عليه. وجودك كله مرهون بالإمساك به... أتسمع؟ وجودك كله مرهون به.. وازداد الحاكم ارتعاداً وخوفاً..

جمع رجاله كلهم.. نقل لهم أوامر المفوض السامي.. وبدأت الدوريات تطوف القرى، تراقب الطرق، تجوب شوارع درعا ونصب عينيها هدف واحد: الإمساك بالبطحيش، حياً أو ميتاً...

البطحيش على علم بذلك.. هو مذ قام بعمليته في اليادودة، لم يدخل المدينة.. ودع صاحبه إلى دمشق ثم مضى إلى كهفه في منحدر الشلالات يراقب.. هو حزين على ما يجري لأهل اليادودة.. يود لو ينتقم لهم جميعاً.. لكن هو رجل فرد.. منذ سنين وهو يحاول إشعال الفتيل في الجماعة.. عملياته كلها كانت بغرض إشعال الفتيل لكن يالللأسف!!.. كان ينفخ في رماد... شهراً وبعض الشهر استمرت محنة اليادودة، بعدئذ بدأ الهدوء يخيم.. الدوريات صارت أقل عددا، أقل كثافة فخيل للبطحيش أن الشدة انتهت.. وأن باستطاعته أن يعود إلى عش النسر هناك... في قلب الكرك.. عكس الشمس سار... ومع انسلال أزقة درعا إلى جوف الظلمة، كان هو ينسل.. الأولى في غفلة من الضياء، وهو في غفلة من الفرنساوي...

البطحيش يعلم أن العدو يحاذر مقاربة الكرك تحت جنح الظلام.. لكنه لا يعلم أن لكل قاعدة استثناء وإن الكرك منذ عملية اليادودة، تعيش ذلك الاستثناء..

كانت درعا قد أنيرت بالكهرباء، وكانت المصفحات تحرس مداخل الكرك ومخارجها، مرسلة رجالها في هذا الزقاق أو ذاك وهي على أهبة الاستعداد للتدخل في الحال، لكن البطحيش لم يأت الكرك من الشوارع التي تتسع للمصفحات، بل جاءها عبر درب مترب، شائك يصلها بالبرية ولا يعرفه الفرنسيون..

دخل الزقاق الذي لما تنره الكهرباء بعد. الناس كلهم في بيوتهم يتناولون عشاءهم ويستريحون بعد عناء يوم طويل. هو مشتاق إليهم، بوده لو يطرق أبوابهم باباً باباً، يصافحهم، واحداً واحداً، لكنه يتردد "أراهم غداً

أما الليلة فإلى عش النسر. "لكن ما إن اجتاز المنعطف حتى ظهرت وسط الزقاق دورية مشرعة الحراب تملأ الطريق كله. تلكأ لحظة فجاءت صرخة "قف... أنت هناك... قف... البطحيش".

ودونما حوار أو تردد وجد البطحيش نفسه ينكفئ من حيث جاء. أول باب دفعه لم يندفع، الثاني صرّ صريراً مخيفاً لكنه لم ينفتح.. نظر إلى الأعلى ثم انطلق كالسهم: الشباك، أطراف خشب السقف، فأعلى السطح.. أحذية العسكر تملأ الزقاق جلبة وضوضاء، أصوات العسكر تقترب صارخة: "توقف.. أنت.. توقف.." لكن البطحيش لم يتوقف.. زحف على السطح ثم تدلى بنفسه واثباً إلى الأرض.. نظر يمنة ويسرة فرأى ضوءاً من خصاص الباب..

أسرع إليه، فتحه فوجد نفسه أمام امرأة تدلق على نفسها الماء.. شهقت خائفة، فهمس وهو يشيح بنظره

-لا تخافي أختاه!! أنا البطحيش والعسكر في إثري.

في التو، قفزت المرأة، ألقت عباءة على جسدها.. ثم أسرعت إليه، أمسكت بيده ثم سحبته إلى الخلف، حيث عنابر المؤونة تنتصب اثنين اثنين.. "اختبئ هنا"، همست على عجل وقد جاءها قرع الباب عجولاً ملحاً.. رفع البطحيش الغطاء، ثم ألقى بنفسه في عنبر ذهبت حنطته إلى الطاحون من قبل.. قرع الباب يشتد، لكن المرأة لا تسمع. خلعت العباءة ثم عادت إلى كرسيها الخشبي الواطئ وإلى الليفة والصابون تفرك جسدها، كأنما ليس هناك بطحيش ولا قرع باب..

قرع الباب توقف، رفس بالأرجل حل محله ثم انخلاع باب ارتد بشدة إلى الحائط فتناثر في الجو صوت ارتطام.. بعدئذ انداحت جلبة الأحذية واضطربت أمواج صياح وصراخ.. المرأة صماء خرساء.. تمد يدها إلى الطاسة تملأها بالماء الساخن وتدلقها على الجسد المشدود حتى النهاية.

تقترب الجلبة، تقترب الأصوات.. تزيد المرأة من دلق الماء، ويزيد البخار من ضباب الغرفة.. مرة ثانية يفتح الباب ومرة ثانية تشهق المرأة لكن هذه المرة بولولة ثاقبة.

-ويلاه!! ويلي!!

تصدم الولولة آذان الجند.. يصدم عري المرأة عيونهم.. فيما تصدم خياشيمهم رائحة الصابون والبيلون، فلا يشعر "السرجان" إلا وهو ينكص مرتداً مغلقاً وراءه الباب. لكن هل ينكص عن الكرك؟ ليلة ليلاء عاشتها الكرك.. لم يدع السرجان فيها باباً إلا طرقه، ولا داراً إلى فتشها، بحثاً عن البطحيش، أبي زيد الهلالي وقد لبس مرة أخرى قبعة الإخفاء.

الحاكم سمع تقرير "السرجان" فأرغى وأزبد:

-يفلت من أيديكم!؟ يختفي بلمحة عين؟ لا.. لا عذر لكم.. سأعلق مشانقكم إن لم تأتوا بهذا الشيطان!! سأعدمكم رمياً بالرصاص إن أفلت مرة ثانية.. شددوا الضغط.. تابعوا التفتيش.. سيّروا الدوريات..

لكن رينو تدخل، وقد أرسله المفوض السامي لاجتثاث شأفة البطحيش...

-لا.. هذا أسلوب بالٍ.. جربتموه فلم يجد نفعاً.. غيِّروه.. قال القومندان الذي كانت قصة المخفر قدْ أثارت كل ما في صدره من حقد على أناس ينكرون الجميل ويعضون اليد التي تمتد إليهم بالخير والنفع..

-كيف نغيره، سيدي؟ سأل الحاكم العسكري، ورتبته لا تتجاوز رتبة الكابيتان، ماذا تقصد؟

-أقصد.. الحيلة.. نستخدم معه الحيلة فنوقعه في الشراك..

وهش الكابيتان للفكرة حاكاً رأسه.

-صحيح أكبر منك بيوم أفهم بسنة، قال للقومندان الممتلئ معرفة بشتى أساليب التعامل مع أبناء المستعمرات: حرب، حيلة، مجابهة، مناورة، لكن كيف؟ أية حيلة؟ ومال عليه القومندان هامساً:

-رجل نثق به.. نرسله إليه، فيكون لنا حصان طروادة..

-هو ذاك يا سيدي.. هو ذاك، قال الكابيتان فرحاً وهو يسرع إلى الهاتف يسأل ضابط الأمن عن رجل يثق به...

بعد يومين فقط كان مدير السجن في درعا يستقبل محمد التيناوي، بعد أن جرده زملاؤه من رتبة "الكاربورال" ومن لباسه العسكري نفسه، ليسوقوه إلى السجن بأيديهم.

-ما تهمته؟ سألهم مدير السجن.

-خائن، غدار.. يسرب المعلومات إلى العصابات ويتعاون معهم لضربنا. هو الذي شارك في عملية المخفر.. وانهالت على محمد التيناوي الركلات والصفعات إلى أن ألقي أرضاً، ثم جره الحرس مبللاً بالماء، مضرجاً بالدماء إلى أول مهجع.

ثلاثين يوماً ظل.. وهو يفطر فلقة ويتعشى فلقة.. صراخه عند الإفطار والعشاء يملأ السجن.. يضرب بالعصي، يساط بالسياط، تدق قدماه، يدق ظهره

ثم يعاد إلى المهجع، يحمله الحرس حملاً وقد عجزت رجلاه عن حمله.

السجناء حزانى عليه، متعاطفون معه.. يداوون قدميه، يضمدون جراحه، يقدمون له الدواء والغذاء، فالرجل وطني مخلص والفرنساوي غاضب عليه: طرد من الوظيفة وحبس في القمقم...

-نخبر أهلك في الشام؟ سأله زملاؤه في المهجع.

-لا.. لا تعذبوا أنفسكم.. أنا مقطوع من شجرة، ليس لي أحد.. وازداد زملاء المهجع شفقة على التيناوي وتعاطفاً معه.. باتوا يحلفون أغلظ الأيمان أنه أكثر الناس وطنية وأشدهم عداء للمستعمر.

-أنا لا أعرف البطحيش.. لم أشاركه عملياته.. لا علاقة لي به.. كان لا يفتأ يصرخ في وجوه المحققين حتى أعلن المحققون عن عجزهم.

أربعة أشهر نقع في السجن.. بعدئذ عقدت محاكمته.. القاضي الفرنسي عادل... بحث عن اعتراف.. دليل.. لكن ما من اعتراف أو دليل.. وأخلى القاضي العادل سبيله...

خرج التيناوي إلى النور فاستقبله الناس بالأحضان، بطلاً يقارع الاستعمار من داخل ويتحمل سياطه من خارج. دون أن يحصل منه على اعتراف.. المضافات تستقبله، الناس يأخذونه بالأحضان، الكل يلهجون بقصته، يحكون عن بطولاته.

-معقول؟ تساءل عزيز مستغرباً وقد نقل له عواد أخبار التيناوي. شرطي رضع حليب فرنسا، يخون فرنسا؟

-قصته في درعا على كل شفة ولسان.. مسكين كم قاسى على أيديهم من عذاب!! أنا بنفسي رأيته.

-أين؟

-في مكتبة الشرع.

عزيز يعرف مكتبة الشرع.. المكتبة الوحيدة اليتيمة في درعا....

صاحبها يحب الثقافة، يهتم بالمعرفة إلى حد كرس نفسه لنشر المعرفة والثقافة بأسرع وقت وشتى السبل.

تلاميذ المدارس، طلاب الكتاتيب، كل من يحب أن يقرأ، يذهب إليه يستعير الكتاب لقاء قرش إن كان يملك قرشاً ولا شيء إن لم يكن يملك شيئاً..

المجلة، الجريدة، الكراس، الكتاب، كل ما يرغب فيه طالب المعرفة، يجده لدى فائق الشرع. يستعيره هو الذي لا يرد مستعيراً، يقرأ، يعيد وإن أراد ألا يعيد، فليبق لديه الكتاب أو المجلة، وليدفع له الثمن بالتقسيط المريح: نصف فرنك، فرنك، ربع ليرة، ما شاء طالب العلم فليدفع. ابن الشرع رحب الصدر يحتوي في أحضان عطفه كل من يرغب في علم.

عواد نفسه كان يأتي إلى درعا، يشتري منه الكتب بالتقسيط المريح ويتحدثان معاً في السياسة، الأدب، التاريخ، الفكر... فائق الشرع مثقف كبير يتابع كل شاردة وواردة، يقرأ حتى قصاصات الجرائد، يهتم بأخبار الشهبندر، بنشاطات الأستاذ الذي جاء لاجئاً من اللواء ولا يبرح يتكلم في وحدة العرب، حرية العرب واستقلال العرب..

فائق يعلم أن لعواد صلة بالأستاذ والزعيم، فيهش كلما جاءه عواد ويبش، ولا يتركه حتى يأخذ منه أخبارهما وأخبار دمشق.. لكنه آخر مرة كان مشغولاً بالتيناوي.. لم يسأل عواداً بل أجابه. لم يسمع منه قصصاً بل روى له قصصاً، وخرج عواد معجباً حتى اتساع الحدقتين بالرجل الذي لطأ طويلاً تحت إبط الاستعمار وهو ينخس بمنخسه الاستعمار..

–قلت، تهمته التعاون مع البطحيش؟ سأل عزيز وقد أثارته قصة الرجل..

–بل ومشاركته في عملية المخفر؟ لكنهم لم يجدوا دليلاً فخرج براءة..

–وهل أعيد إلى السلك؟

–لا.. الرجل صار موضع شك.. تعرض للتعذيب والإهانة، فكيف يثقون به من جديد؟ بدا كلام عواد مقنعاً، مع ذلك ظل عزيز مشغول البال..

–وهل يعرفه البطحيش؟ هل بينهما من علاقة؟ سأله عزيز وكله حيرة وانشغال بال.

–من يدري يا عم؟ لو كنت أعرف الطبحيش لسألته.

عواد على حق.. لابد من سؤال البطحيش نفسه.. لابد من معرفته أولاً، كي يطرح عليه السؤال.. عزيز يعرفه لكن هل يعرف عواد أنه يعرفه؟ طوال تلك السنين، كانت علاقتهما قد ظلت سرية، لا يعرف بها أحد، فهل يشهرها الآن؟ هل يعترف لعواد أن البطحيش صاحبه وان باستطاعته أن يسأله ذلك السؤال.. لكن لا.. كل سر تعدى اثنين شاع..

القومندان يدفع جرة ذهب لقاء معرفته ذلك السر. هو، مذ سمع بحادث

المخفر، لم يكن يشغله البطحيش والإمساك به، بقدر ما كان يشغله معرفة ذلك الرجل الطويل الذي اشترك معه. التحقيقات، الاستقصاءات، التحريات كلها وقفت عاجزة أمام ذلك اللغز...

البطحيش، عادة، يقوم بعملياته مفرداً وحيداً.. مرة واحدة فقط ذكرت دورية المزيريب أنها اشتبكت مع رجلين. ما عدا ذلك، البطحيش حريص على الانفراد والتفرد، فمن عساه ذلك الوافد الجديد الذي انضم إلى البطحيش؟

أسماء كثيرة طرحها ضباط الأمن على الحاكم وعلى القومندان، ورجال كثر جاؤوا بهم، لقطع الشك باليقين.. هذا من نوى، ذاك من داعل، ثالث من درعا، رابع من اذرع...

لكن ما خطر ببال ضابط الأمن ولا حاكم درعا أن يمتد بتحقيقاته إلى دمشق، القومندان نفسه لم يخطر بباله ذلك.. وظل السر مغلقاً ما برح يشغل باله.

أسرار كثيرة، ألغاز أخرى تشغل بال القومندان ربما أخطرها لغز جيرار.. صديقه الذي قتل دون أن يعرف قاتله. صحيح أنها بلد صغير، سورية، لكنها ما تزال تدهشه.. بكل ما تتفتق عنه من مشاكل وقضايا.. لكأن رجالها صنعوا من فولاذ.. بالسيوف والخناجر حاربوا إحدى أقوى قوتين في العالم.. أشعلوا الثورات عليها هنا وهناك.. القومندان يعرفها واحدة واحدة... أيام الثورات عاشها.. عرف سلطان الأطرش، أحمد مريود، سعيد العاص، فوزي القاوقجي.. بل كثيراً ما كان يرسله المفوض السامي لمفاوضة هذا أو اللقاء مع ذاك، كان رصيده لدى أهل البلد قد جعل منه وجهاً مقبولاً للتفاوض وكان، بحكم ثقافته واطلاعه، قادراً أن يعرف أيسر السبل للتفاوض. زملاؤه الضباط كانوا يأخذون عليه مآخذ كثيرة: التهاون، الضعف، التخاذل، وكانوا كثيراً ما يوجهون له اصبع الاتهام.. هو يذكر حتى اليوم تقريع الكابيتان جيرار له حين سمح لأهل السويداء بالقيام بمظاهرات على كاربييه.. جيرار ليس زميلاً وحسب بل هو صديقه وابن دورته. "أنت متخاذل، لا تنقصك إلا درجة واحدة حتى تحارب مع أعداءنا ضدنا، "قال له حانقاً موبخاً.. حاول أن يناقشه يومذاك لكن جيرار لم يستمع إليه. "اخرس.. اخرس.. أنا لست بحاجة لهرائك".

وخرس الكابيتان رينو الذي كان يعلم تماماً كم جيرار متعصب لقوميته، مؤمن بتفوق عرقه، ينظر إلى كل ما عداه من علٍ.

قبل ثورة حماة بثلاثة أيام، كان رينو بزيارته.. المندوب السامي أرسله

يستكشف ويستطلع، فالمعلومات تشير إلى أن هناك تململاً وتحركاً.

التقى رينو بجيرار، كوستلير، ضباط القيادة.. كانوا كلهم يؤكدون أن شيئاً ما سيحدث، لكن جيرار كان أكثرهم تصميماً على تدمير المدينة على رؤوس أهلها إن حدث ذلك الشيء. كان يبرم شفته استخفافاً، يهز رأسه احتقاراً، يضرب بجمع كفه الطاولة، وهو يتحدث، مهدداً متوعداً "الشكوك كلها تدور حول فوزي القاوقجي "قال يومذاك"، لم لا نقصر الشر وننقله. إذن؟" سأله الكابيتان رينو

"لا.. لا.. يجب أن نكشف الخونة فنسحقهم، نجعل منهم عبرة لكل معتبر"، وفتح رينو عينيه عجباً من رغبة صديقه في الشر وحبه للأذى. بعدئذ عاد رينو وكله قناعة أن عليهم أن يعالجوا المشكلة قبل أن تستفحل. اقترح على رئيسه نقل الكابيتان القاوقجي، لكن حين صدر قرار النقل، كانت الثورة قد اشتعلت، حماة هاجت وماجت، يلفها إعصار كاد أن يدمر كل شيء. هدأت العاصفة فنقلت أسلاك البرق فيما نقلت مقتل الكابيتان جيرار.. حاول رينو معرفة التفاصيل لكن لم يكن هناك تفاصيل.."وجد في منزله عارياً وخنجر في صدره".

يومذاك لم يكن باستطاعة رينو أن يذهب إلى حماه فيتحقق بنفسه.. كانت سورية قد اشتعلت ثورة وحروباً من جنوبها إلى شمالها، وكان سلطان الأطرش يهدد بدخول دمشق، وكانت الغوطة غابة تتأجج حرائق، فأين يذهب الكابيتان رينو؟.

بعد شهور طوال، استطاع رينو أن يفتح ملف جيرار من جديد.. لكن دون جدوى...

كان كل شيء قد تغير: ضباط انتقلوا، جند استبدلوا، معالم ضاعت، آثار طمست ولم يخرج رينو إلا بنتف من معلومات: "حاجب جيرار الخاص اختفى بعد الثورة فلم يقع له أحد على أثر".

"عند وقوع الحادث لم يكن في البيت حراس ولا جند".. جيرار كان يقول "ولماذا الحراس والجند!؟ أنا لا أخشى الحملان والأغنام". وصدق رينو، نتف المعلومات تلك فقد كان جيرار يردد ذلك على كل مسمع، استهتاراً بالناس والسكان.. سائق جيرار وحده قدم له المعلومة الوحيدة التي تلفت النظر، "قبل الأحداث مباشرة أوصلت إلى بيته امرأة سافرة الوجه".. "صفها لي"، طلب الكابيتان رينو فوصفها السائق "في العشرينات من عمرها، بيضاء البشرة، فاحمة الشعر، ممشوقة القوام"، لم يكن السائق يعرف لها اسماً أو عنواناً، ولم

يكن يدري إن كانت النساء اللواتي كان جيرار يأخذهن إلى البيت يلهو بهن ويستمتع أم لا. السائق لم يكن يسأل رغم التقاليد المحافظة، "رغم حصار المرأة، رغم الحجاب والملاءة، كان الكابيتان يجد المرأة دائماً "قال السائق للقومندان، وكان كثيراً ما يتفاخر بصولاته وجولاته. "علينا أن نترك بصماتنا واضحة حيث نذهب.. وخير البصمات ما كان على فروج النساء. "السائق يشك في أن ذلك كان سبب مقتله. "الناس استغلوا الثورة، فانتقموا ثأراً لكرامتهم". وكان كوستلير نفسه قد أبدى مثل ذلك الرأي "للكابيتان جيرار أعداء كثر: أناس سطا على نسائهم، رجال مرغهم في الوحل، نساء اغتصبهن، فمن يعلم من انتقم منه؟ "وطوي ملف جيرار.. نسيه حتى صديقه رينو... لكن ما إن اندلعت المظاهرة النسائية في دمشق وجيء له بإحدى النساء البارزات في قيادتها حتى استيقظت ذاكرته من جديد.. عادت إلى ذهنه صورة تلك المرأة السافرة بيضاء الوجه، فاحمة الشعر، ممشوقة القوام ومع الصورة برز السؤال "هل لهذه المرأة علاقة بتلك؟" من ذلك السؤال تفرعت أسئلة أخرى وكلها تؤكد أن رغبته في كشف لغز جيرار لم تمت بعد.

سألها يومذاك، حقق معها وفكرة واحدة تطغى على ذهنه" "يجب أن أعرف هذه المرأة أكثر. ينبغي أن أظل على صلة معها باستمرار ". أوصى بها الحارس، رعاها من طرف خفي ثم ما إن جاء الضوء الأخضر من المفوض السامي، حتى كانت شموس أولى الخارجات إلى الحرية.

كل ما فعله رينو بعد ذلك كان بهدف محدد: أن يكسب ود عزو وثقة شموس، فيدخل إلى قلب العائلة. هو يرى الزوج والزوجة حذرين، يريدان إبقاء هوامش ومسافات فيتعجب: "أتراه كره الأجانب؟ أهو الخوف من ذوي السلطة؟ أم هناك سر ما يريدان إخفاءه؟" لكن سرعان ما ازداد تعجباً حين اكتشف، أن عزو ليس بدوي الأصل بل حضري.. أهله من سكان الريف لا من سكان البادية، يعملون في الزراعة لا في الرعي.. بعد ئذ قام باستقصاءات وتحريات وتكشفت أسرار أخرى له.. طبقة أسرار بعد أخرى بدأت تتكشف.. إلى أن حكى له الأخضر في باريس عن طفولته في حماة.. و"متى؟" "أيام الثورة". مخبر حماة جاءه أيضاً بمعلومات هامة لكنها غير كافية.. منذئذ صار شكه كبيراً. "ثمة علاقة بين هذه المرأة وتلك، قبل يوم واحد أخذها السائق إلى منزل جيرار.. لكن ماذا جرى بعد ذلك؟ هل نامت لديه؟ هل غادرته؟ هل كانت خليلته؟ هل كانت عابرة؟ "كلها أسئلة صارت تتقافز في ذهنه، فتلك المرأة التي

لم يرها أحد بعد ذاك هي وحدها مفتاح اللغز....

الضباب ينقشع، شيئاً فشيئاً كان ينقشع. خطة محكمة وضعها رينو لتشـــديد الحصار وإحكام الطوق.. الخطة بدأت تؤتي أكلها.. التستر، التمويه، كـل مـــا لجأت إليه المرأة ورجلها لإخفاء الماضي، إحاطته بالغموض، كان يتهاوى.. هو بنفسه ذهب إليهم في القرية، رأى، أهله، أهلها، كما رأى أصدقاءهما في حماة.. حسني، إبراهيم، الدكتور نورس، ومن أولئك وهؤلاء استطاع الحصـــول علـــى كل ما يريد: خدمة عزيز في الجيش العربي، عمله في حماة، علاقاته، علاقات زوجته، ثم بلغ اللب: صداقتهما لجيرار...

–شمس، صارحيني الآن، بدأ القومندان رينو، وهو يشرب قهوة مضـــيفته، متعمداً مناداتها بذلك الاسم، متفحصاً إياها بناظريه ربما كي يرصد كل ارتعاشة أو خفقة تمر على صفحة وجهها.. هل كنت تعرفين في حماة ضـــابطاً يـــدعى جيرار؟.

"يا إلهي!! هذه هي الأنشوطة تنشد أكثر وأكثر، الطوق يحكم أكثر وأكثر، فماذا أقول له؟ بماذا أجيبه؟" وبدا وجهها قناعاً أصفر وقد انسحب منه الدم...

–ر.. ر.. بما .. لا.. أدري.. ردت متلعثمة، مشيحة بوجهها..

–معقول؟ أصدقاؤكم في حماة أكدوا لي أنه كان يزوركم، تزورونه..

"اللعنة!! أصدقاؤنا في حماة قالوا له كل شيء، فماذا تقولين يا شمس؟ ماذا تفعلين وقد انكشف كل ستر؟ "هه.. ماذا قلت شمس؟ تابع القومندان الـــذي بـــدا فرحاً بنفسه وهو يرى الطريدة تتخبط واقعة في الشراك.

–قلت.. ربما.. لا.. أدري.. لا.. أذكـــر.. ردت بتلعثمهـــا واضـــطرابها نفسيهما وهي ترى حبل المشنقة يتراقص أمام عينيها، "لا.. تماسكي... شـــمس" خاطبت نفسها بعد ذلك، وهي تراه فرحاً مزهواً يتفحصها بناظري الصياد وقـــد اطمأن على وقوع طريدته. "لا تستسلمي شمس.. دافعي عن نفسك.. أنكري كل شيء.. هاجميه... الهجوم خير وسيلة للدفاع". وفي الحال، انشدت أوتـــار فـــي داخلها وتوترت أعصاب.. لكن لماذا تسأل عن ..؟. ماذا قلت اسمه؟

– جيرار.. كابيتان.. كان صديقي وقد قتل في ظروف غامضة..ما تـــزال لغزاً

– والآن، تريد أن تعرف تلك الظروف؟ تحل ذلك اللغز؟

– لم لا، أنا المولع بحل الألغاز وكشف الأسرار؟

– ألا ترى أنه فات الأوان!؟ ألا ترى أنها قضية قديمة؟

– لا.. قضايانا لا تعرف القدم.. إنها روح ضابط.. سيد من سادة فرنسا والسادة حقهم لا يموت..

"هكذا إذن!؟ السادة حقهم لا يموت.. إذن.. أنت آتٍ اليوم تطالبني بحقك!! تثأر لرجل من بني جلدتك أراد هتك عرضي، تمريغ شرفي؟"

هه.. شمس.. ما بك.. تكلمي!!

– وماذا تريدني أن أقول؟ ردت وقد شحذت عزيمتها ذكرى جيرار تراه بعينها يخلع قميصه، يلقي ببنطاله ليبدو عريه مخرزاً يفقأ العين.

– فقط.. هل كنت تزورينه في بيته؟ سألها غارساً عينيه في عينيها.

– خسئ.. خسئت.. انتفضت شمس غاضبة، أم تحسبني واحدة من إياهن؟

– لا.. ما هذا قصدت.. قال متعثراً وهو يرى صورة اللبوءة في عينيها، فخشي أن يخسر كل شيء.

– إذن.. ماذا قصدت؟ أسئلة.. أسئلة.. أهو تحقيق؟ ماذا تريد مني يا رجل؟

– أريد الحقيقة..

– الحقيقة ليست عندي.. لا علم لي بشيء.. دعني وشأني.. دعني وشأني.. قالت بصوت كالصراخ، وهي تهب ناهضة فاقدة آخر ذرة احتمال...

– سأدعك.. قال وهو ينهض بدوره، شاداً أعصابه، محاولاً التظاهر بالبرودة.. لكن لا تنسي.. أنا وراءك حتى أعرف الحقيقة.. ثم لوح بيده: هاي.. سلمي لي على عزيز.. الشاويش الذي يتقن فن الحرب والقتال.. ومضى تمثالاً للصلف والغرور، دون أن يلتفت إلى الوراء..

تلك الليلة لم يرقد لشمس جفن.. الليلة التالية رقد لها جفن لكن لكي يتحول رقادها إلى كوابيس، هي فيها نعجة تاهت عن القطيع فانقضت عليها الذئاب.. تروغ من هذا لتلتقي بذاك، تتملص من ثالث فيواجهها رابع.. وتنتفض من نومها شاهقة صارخة.. عزيز مسافر. هي وحيدة، أكثر من مرة داهمها الكابوس، وأكثر من مرة هبت من فراشها صارخة عازمة على أن لا تنام. لقد تحول الأرق إلى نعمة والنوم إلى نقمة.. عزيز بدأ موسمه.. الشعير والحنطة يحصدان وهو ينتقل بين أصحابه من الفلاحين، "يعربن" على شعيرهم

وحنطتهم، يزودهم بما يحتاجون للحصاد حتى إذا ما درسوا البيادر، كان هو الأولى بغلالها من المنافسين والمزاحمين.

– تعال.. أسرع.. أسرع، بادرته ما إن دخل الفناء، وعلى وجهه وعثاء السفر وغباره...

– ماذا هناك؟ رد وقد دخلا الغرفة، دون أن تحتضنه كعادتها ودون أن تقبله قبلة الترحاب..

– هو يعرف السر.. يعرف كل شيء.. قالت شبه لاهثة، شبه مغمغمة وكأنما لا تريد لحيطان الغرفة أن تسمع.

– أي سر؟ من هو الذي يعرفه؟ سأل وقد غاب عن ذهنه القومندان رينو بقضه وقضيضه.. حينذاك، وبهمس الخائف، حكت له عن لقائها بالقومندان، راوية له أدق التفاصيل...

– نزع القناع عن وجهه، إذن؟ سأل وهو على يقين أن ساعة الحسم قد أزفت..

– لم يكن ينقصه إلا أن يسوقني إلى السجن باتهام مباشر: أنت التي قتلت جيرار!!

–جيرار، تلك اللعنة التي تطاردنا منذ خمسة عشرة عاماً!! قال وهو يزفر الزفرة تلو الأخرى.. فيما شريط طويل من الذكريات يعبر أمام عينيه: شمس الملطخة اليدين والثياب بالدماء... حماة الحرائق والدمار، مركب الليل الذي امتطياه إلى حيث لا حرائق ولا دمار....

– عزيز.. لا تشرد.. يجب أن نفكر بسرعة.. يجب أن نتصرف بسرعة..

– نتصرف!؟ وماذا نفعل؟!

– نهرب!! ألم نقرر ذلك من قبل؟.

– إلى أين؟ إلى القرية؟. يعرف قريتنا.. إلى القبيلة.؟ سيلاحقنا.. أم نسيت المصفحات والدبابات؟ السيارات والطائرات؟

لم تجب شمس، فهي تذكر جيداً المعركة التي شنها الفرنساوي على إحدى القبائل في قلب البادية، لا لشيء إلا لأنها عصت أوامر ليوتنان، فاشتعلت السماء فوقها ناراً، واشتعلت الأرض تحتها ناراً، الطائرات تدكها من فوق والمدفعية تدكها من تحت.. شمس تعلم أن فرنسا اليوم ليست كالعصملي أيام

زمان.. يفلت منها البدو، ويخرج عليها الخارجون... ولا سلطان لها إلا حيث المدن والعمران.. فرنسا اليوم تملك الطائرات التي لا تعرف حدوداً.. تصول وتجول أنى شاءت، ميدانها السماء مثلما ساحات حربها الأرض.. بلمحة عين تنتقل من الشمال إلى الجنوب وبلمحة أخرى تصل من الشرق إلى الغرب.

– نذهب إلى الريحانة.. ردت وقد لمعت في ذهنها الفكرة..

– الريحانة!! هتف بصوت شبه عالٍ وكأنما كانت قد غابت عن ذهنه منذ زمن طويل..

– أجل، لطالما حدثتني عنها.. هناك في الجبال.. نتخفى.. نموه أنفسنا.. نضيع.. "إيه.. ريحانة!! غادرتك هارباً من "العصملي"، فهل أعود إليك هارباً من الفرنساوي؟" هه ماذا قلت؟ تابعت شمس بنبرة المتعجلة.

– لا.. لا.. في الريحانة، كما في كل مكان، عملاء وجواسيس.. سيكشفوننا..

–أنسلم القومندان أعناقنا إذن؟

– من قال ذلك؟ فقط.. دعيني أره..

– لا.. خير لك ألا تراه.. فهو يغمز ويلمز منك، يعرف حقيقتك أيضاً.

– يعرف حقيقتي؟ ماذا تقولين؟

– هو الذي يقول، ردت ملوحة برأسها زافرة، ثم تابعت بصوت يحاكي صوته: "سلمي لي على الشاويش عزيز الذي يتقن فن الحرب والقتال." فماذا يقصد؟

وانسحب الدم من وجه عزيز بعد أن كان قد احتقن واحمر.

– الشاويش عزيز!؟ إذن هو يعرف كل شيء عنا، تلك الأيام؟.

– وربما عنا هذه الأيام..

– ماذا؟ هتف وقد تسرب إلى صوته رعشة من خوف..

لم تجبه شمس، بل غرست عينيها في عينيه.. لم تكن قد كلمته يوماً عما تعرفه عن نشاطه في حوران، صحبته للطبحيش، الفرح الذي تراه في عينيه وهو عائد من إحدى عملياته، الخوف والتوجس فيهما وهو ذاهب إلى إحداها.. لكنها كانت تعلم.. كيف لا وهي القادرة على دخول تلافيف دماغه؟ قراءة أفكاره؟ معرفة أحاسيسه ومشاعره؟ هو لم يرد أن يشركها في سره.. ليكن..

للرجال أيضاً أسرارهم.. ربما هي نفسها، لو ظلت الفارس الملثم، لظلت لها أسرارها.. هو لا يريد البوح.. خوفاً عليها!؟ ضنا بها وبأولادها!؟ هي لا تدري.. لكنها تدري أنها ذات يوم رأت بقعتين أو ثلاثاً من الدم على سترته، في يوم آخر، رأت غباراً، في ثالث وسخاً وأشواكاً، فمن أين تراه، يأتي هذا كله؟ هو يزحف ولا شك. شمس، الفارس الملثم، تعرف جيداً معنى الزحف، تعلم ما يترك من آثار.. كما تعلم من أين تأتي بقع الدم.. مرة أو مرتين ذكر لها البطحيش، حدثها عن بطولاته، أتراه كان يشير إلى السر الإشارة التي يفهمها اللبيب؟ أتراه كان يعترف لها ضمناً؟ يبرئ ذمته تجاهها؟

دون كلام، دون إشارات، وعلى مهل، كانت شمس تجمع القرائن والأدلة إلى أن صارت على يقين أن روح عزيز الوثابة لم تعرف استكانة قط.. وحين انتشرت في كل مكان قصة المخفر والعروس.. باتت على ثقة مطلقة أن زوجها هو ثاني ذينك الاثنين، الرجل الطويل عريض المنكبين الذي كان القومندان يحار في أمره ولا يزال.

– تكلمي.. شمس.. ما الذي تريدين قوله؟

– عزيز، لا تتجاهل.. أنا أعرف كل شيء وما أحسب القومندان إلا شاكاً بك.. شريكاً للبطحيش... ما أحسبه إلا ملاحقا إياناً كلينا..

– إذن.. قال وهو يخفض رأسه، ربما بنوع من الاعتراف بالسر، بنوع من الامتنان للحبيبة التي حافظت له على ذلك السر، يجب أن يموت القومندان.

– وتزيد الطين بلة؟ قالت بعجالة وقد ارتسمت أمام عينيها معارك غير متكافئة ومطاردات بوليسية في مدينة كلها شرطة وجند..

– ما أحسب أمامنا خياراً آخر.. هو منذ أربع سنين يلاحقنا، يضيق الخناق علينا.. وها هو ذا على وشك أن يدفع بالكرسي من تحت أرجلنا، فماذا نفعل؟ نترك الأنشوطة تكتم أنفاسنا أم نسبقه فنكتم أنفاسه؟

– أمران أحلاهما مر، لكن، عزيز، علينا أن نتصرف بسرعة.. القومندان الآن يلعب على المكشوف.. وما أحسبه إلا ضارباً ضربته القاضية..

– ضربته القاضية!! أجل.. ضربته القاضية.. راح يردد وهو يهز رأسه، ملء عينيه الحزن وملء قسماته الحيرة.. ودون أن يشعر وجد نفسه يشرد.. "آه يا حبيبتي!! ما أشق علي أن أجدك وأجد نفسي في مثل هذا المأزق.. خياران كلاهما صعب.. كلاهما قاتل.. لكن لا.. لن نترك أنفسنا لأنشوطة رينو تشنقنا..

يجب أن نتغدى به قبل أن يتعشى بنا.. يجب أن نقتلـه، فـنخلص منـه نحـن والوطن."

– لا.. لا.. المعركة غير متكافئة.. قالت شمس، وقد قرأت أفكار رجلهـا "لكأن الحب، الألفة، طوال العشرة، كلها تلغي الحجب، تزيل الحواجز، فتتحول العيون إلى مرايا تعكس ما يدور في الداخل من أفكار، ويغدو بإمكان الذبـذبات الكهربائية أن تنتقل بين الدماغين ناقلة للآخر كل ما يدور في الأول من أفكار.. دع رينو وشأنه.. لست قادراً وحدك على مواجهة فرنسا..

– الحمد لله!! هناك من هو قادر على مواجهتها!! تمتم عزيز وهو يرفـع يديه وعينيه للسماء!! رباه!! دع هتلر يسحقها سحق الملح!!

– عزيز!! لا تقل هذا أمام أحد!! سيتهمونك بالنازية!!

– نازي!! فاشي!! أنا أتحالف مع الشيطان ضد هذا المستعمر البغيض!!

– وإن عرفوا بموقفك هذا.. ألا يقطعون رأسك؟

– لم أعد خائفاً منهم.. الأخبار هناك تسر.. قال عزيز وهو يشـير إلـى الشمال الغربي، كأنما يشير إلى ساحات القتال في أوروبا، حيث كـان هجـوم غادريان الصاعق قد أذهل العالم.. بأيام فقط كانت دباباته قد التفت علـى خـط ماجينو، مغافلة التحصينات الفرنسية كلها، مكتسحة الأراضي الواطئـة كلهـا.. منداحة شمالاً.. منداحة غرباً..

– عزيز!! ماذا تقصد؟ ما الأخبار التي تسر؟

– يقولون المدرعات الألمانية اخترقت هذا الصباح الحدود الفرنسية وهـي في طريقها إلى باريس..

– باريس!؟ يا إلهي!! هتفت شبه مولولة.. ماذا سيجري للأخضر؟

ذلك السؤال كان، مذ بدأ الاختراق، على كل شفة ولسان، لكـن بصـيغة أخرى. "ماذا سيجري لباريس؟ ماذا سيجري لفرنسـا؟ "فالسـرعة والمفاجـأة والمغامرة كلها كانت مقومات الاستراتيجية الألمانية الجديدة. لم يكن هتلر يريد الحرب على طريقة الحرب السابقة: حرب خنادق وتحصينات، بل حرب حركة ومدرعات.. قبل شهر كانت قواته قد هاجمـت الأراضـي الواطئـة وتـنفس الفرنسيون الصعداء، فقد خفت وطأة الألمان على جبهة الشـرق..!!" إذن، هـم قانطون من إمكانية مواجهتنـا أو اختـراق تحصـيناتنا، "قـال الجنـرالات الفرنسيون، بعضهم لبعضهم الآخر ضاحكين مقهقهين، وبدا لهم أن بإمكانهم أن

يأخذوا إجازات، أن يذهبوا إلى باريس يتمتعون بحسناواتها، ويتخففون قليلاً من أعباء الحرب وويلاتها. لكن ما إن انقضت مدرعات غادريان على حدود الشمال حتى فغروا أفواههم "ننتظرهم من الجنوب والشرق فيأتون من الشمال والغرب"، في الشمال، الحدود مفتوحة، فرنسا لا تخشى بلجيكا، هولندا، أو اللكسمبورغ، كلها دول صديقة، لا خوف منها ولا خطر، فلماذا تحفر الخنادق؟ لماذا تربص الجند والمدافع؟ وهكذا لم تجد الدبابات الألمانية أمامها مقاومة تذكر، فاندفعت تنهب الطريق نهباً ولم يحل الظلام حتى كانت قد قطعت نصف الشوط إلى باريس، ثم لم يطلع الفجر حتى عادت تهدر.. مع هديرها يهدر الذعر، ومع قنابلها يتفجر الخوف: الجند يفرون، الناس يهربون.. وهي تجري مسرعة، نصب عينيها: باريس..

حكومة باريس في ذهول مطبق.. جيوشها على خط ماجينو.. كرارة جرارة... أحدث المدافع هناك.. أحدث الدبابات.. المصفحات.. الطيارات.. لكن ما الجدوى؟ دبابات هتلر أقرب بكثير إلى باريس، وأسرع بكثير منها. طيارات هتلر لا تنفك من الصباح حتى المساء تشعل التحصينات الشرقية ناراً، فلا يستطيع جندي رفع رأسه، ولا تستطيع آلية حركة... طائراته في الشمال أيضاً وفوق باريس، تهدر، تقصف، تبث الذعر في القلوب..

"باريس ساقطة" "اهجروا باريس"، "انجوا بجلودكم"، صار الكل يقولون، همساً وجهاراً... الالتفاف الألماني مفاجئ، هجوم غادريان صاعق.. وبدأت باريس تفرغ ما في جوفها.. سيارات، شاحنات، قطارات كلها محملة حتى الحافتين وكلها مسرعة باتجاه الجنوب.. الذعر في عيون الناس، الارتجاف في أوصالهم.. النازيون قادمون.. سيحرقون الأخضر واليابس، وحده الأخضر لم يكن يخاف من النازيين.. ليس في عينيه ذعر ولا في أوصاله ارتجاف "ومالي أنا؟ أجنبي يدرس هنا لا أكثر ولا أقل." لكن جانيت لم توافقه.

– أجننت؟ النازيون سوفاج.. متوحشون!! لا تعرف قلوبهم الرحمة ولا يميزون بين وطني وأجنبي..

– يقتلون الناس كلهم؟

– وما الذي يمنعهم؟ هم حاقدون.. يريدون الانتقام لهزائمهم في الماضي.. الانتقام من العالم كله.. ألا ترى ما يفعل هتلر؟ يضرب في الشرق، يضرب في الغرب، في الشمال، في الجنوب.. هو مجنون مسلح بأحدث الأسلحة، وما الذي لا يفعله مجنون يمتلك أحدث الأسلحة؟ الحجة قوية، جعلت برودة الأخضر

تسخن، وأفكاره تذهب وتجيء.

– أرحل إذن إلى سورية!! قال وهو يستعيد في ذهنه برقية أمه وأبيه، يحذرانه من الحرب قبل أقل من عام.

– ترحل، ودراستك؟ الطب الذي قطعت شوطاً فيه؟ الحلم الذي حلمت به سنين وسنين؟

– وهل سيظل مجال لدراسة أو طب.. إن كان النازيون كما تقولين؟

– وهل تحسبهم سيهنؤون في باريس؟ إن هي إلا أيام أو أسابيع، وتأتيهم جيوشنا من الشرق فتبيدهم إبادة الذباب..

– حقاً، جانيت!؟

– حقاً وصدقاً!! فرنسا قوية.. جيوشها ملء العالم.. فماذا تفعل دبابات غادريان ورومل؟ صدقني.. سنسحقها سحقاً.. ويعود كل شيء كما كان..

– إذن.. أبقى هنا.. إلى أن يتم ذلك السحق.. ويعود كل شيء كما كان..

– تبقى في ساحة قتال؟ وما الضمانة ألا تصيبك رصاصة، أو تمزقك شظية؟ لا.. لا.. تذهب معي..

– أين؟

– إلى الجنوب.. أقصى الجنوب.. حيث لا يستطيع النازيون الوصول..

مع الفجر، كانت سيارة الرينو الستيشن، التي تنتجها مصانع آل رينو أنفسهم، تقلهم إلى مونبلييه؛ جانيت وأمها، زوجة القومندان وابنتها، خلية إناث، ما من ذكر فيهن سوى الأخضر..

قنبلة مدوية كان سقوط باريس.. الإذاعات، الهواتف، أسلاك البرق كلها كانت تردد عبارة واحدة "سقطت باريس"، وكانت تلك العبارة أشبه بصاعقة نزلت على رأس كل فرنسي...

داخل البلاد، خارجها، كانت الصاعقة قد فتحت عيوناً، فغرت أفواهاً، زلزلت أركاناً... القومندان يسمع الإذاعات ولا يصدق، يقرأ الصحف ولا يصدق، يصغي لما تنقله أسلاك البرق والهاتف ولا يصدق.. "معقول؟ خمس سنوات في الحرب الماضية ونحن نقارع الألمان... نهزمهم فيعودون، ويهزموننا فنعود.. كيف لا نصمد اليوم خمسة أيام؟ أي انهيار مخز!!

كيف يحدث هذا؟ كيف؟ "لكن من تراه يعرف الجواب؟.

الضربة التي وجهها هتلر إلى قلب فرنسا، جعلت الجسد كله يتفكك: الحكومة انهارت، المؤسسات تداعت، الوزارات، الإدارات، قوى الأمن، الجيوش كلها ارتبكت وضاعت.. السلك انقطع فماذا يحدث لحبات العقد؟ "لا قيادة، لا اتصالات، لا ناظم.. النازي خطط لكل شيء.. وفي رأس مخططاته قطع الرأس فيظل الجسد بلا رأس، ويغدو بإمكانه أن يفعل به ما يشاء.

القومندان رينو في دمشق يحط وينط.. "نحن الذين نستعمر الناس يأتي من يستعمرنا؟ نحن الذين نحتل نصف العالم يأتي من يحتلنا!؟ "وبدا له العالم كأنما انقلب رأساً على عقب!!" ثمة خطأ أم أن التاريخ اللعين يعيد نفسه.. بسمارك يوحد ألمانيا ثم ينقض على باريس فلا يجد نابليون الثالث مناصاً من الفرار... في الخارج كما في الداخل، الكل في حيرة وبلبال.. الكل ضائع، القومندان يسأل عن أهله وأصحابه، يتصل بالقيادة، يرسل البرقيات، لكن لا أحد يجيبه، ألم ينقطع الرأس؟

إذن من ذا الذي يجيب؟

"ماذا نفعل؟" كان السؤال الذي طرحه على المفوض السامي، وقد أسرع إليه في بيروت.

المفوض نفسه لم يكن لديه جواب.. الأحداث العاصفة كانت قد زلزلت الأرض تحت قدميه، توازنه اختل، فكيف يقدم للقومندان جواباً متوازناً؟ جيوش الشرق قوية منتشرة في سورية ولبنان، بل هناك جيوش جرارة في الجزائر، تونس، أفريقيا الوسطى، أفريقيا الغربية، جنوب شرقي آسيا.. لكن ما تراها تساوي، وأرضها نفسها قد احتلت؟ عاصمتها قد سقطت؟ ما تراها تفعل وقد صارت جسداً بلا رأس؟ هي مجرد أطراف. المفوض السامي يعرف ذلك، كما يعرف أن الأطراف لا تصبح رأساً أبداً.. هي مجرد تابعة، تتلقى الأوامر.. لكن من يعطي الأوامر!؟ وعاد إلى ذهن الرجلين المتحيرين حالة مشابهة، وجد فيها الجنرال كليبر نفسه منقطعاً عن وطنه الأم.. نابليون هرب بجلده عائداً إلى فرنسا ليتركه هو في مصر منقطعاً منبتاً.. الأسطول البريطاني يحاصره من البحر وشعب مصر يتربص به من البر...

"ننتظر ونراقب"، توصلا أخيراً إلى قرار بعد أن انضم إليهما جنرالات جيش الشرق، ورؤوس الإدارة في مستعمرات الشرق. "في غضون ذلك يكون شعارنا الحفاظ على الذات، سياستنا: الترغيب والترهيب: نضرب بيد من حديد الأعداء، ونغري بالمكاسب الأصدقاء".

ازدواجية أعجبت القومندان، لكن لم يعجبه ما رآه، وهو يعود إلى دمشق.

على ضفة بردى كان المتنزهون والمتنزهات ينتشرون.. بعضهم يعقدون حلقات دبكة، بعضهم يغنون.. هنا مذياع يخبر، هناك حاكٍ يغني وفي كل مكان أصناج وكأن فرنسا لا تنسحق تحت جنازير الدبابات النازية! كأن باريس لا تصرخ وتستغيث والنازي يغتصبها متغلغلاً فيها حتى الأعماق؟ ولم يجد القومندان نفسه الا وهو يفور غضباً.

-احظروا التجمعات.. حرموا المشاوير، امنعوا النزهات، صرخ بالضباط من حوله، فالقومندان لا يشفي غله إلا أن يشارك أهل دمشق أهله، هناك في باريس، الضراء.

بين المتنزهين، كان ثمة عائلتان.. الشهر حزيران وحزيران حار، شمس تحرق ذنب العصفور، فكيف لا يبحث عزيز وصبري عن مكان رطب وأنسام عليلة؟ وأين يجدانها ان لم يجداها في الربوة؟ العائلتان تتنزهان معاً.. علاقتهما حميمة، كثيراً ما باتتا تلتقيان، على غداء أو عشاء.. في نزهة أو مشوار، وفي النزهة والمشوار تلغى الحجب، لا يعود حرملك وسلملك بل ناس سواسية كأسنان المشط، في ذلك اليوم كانوا قد خرجوا إلى بردى، ينعمون بفيء حوره وأنسام مائه.. مناف، بدور، فريد، حازم، فريدة، كلهم كانوا قد ساهموا في جمع الحطب وإشعال النار، فيما كانت شمس وآمنة قد أعدتا أسياخ الشقف والكباب.. عزيز يحب شواء اللحم، مهمة لا يرضى لها أحداً سواه، صبري يشاركه، رفيقي درب طويل.. رائحة الشواء تعبق، تمتلئ بها الخياشيم، الدخان يتصاعد تمتلئ به العيون، والكل فرح سعيد.. لم يكن أحد يغني، أو يرقص، بل هم يتجمعون مثنى وثلاثاً.. يتحدثون ويضحكون، يشوون ويعملون، فجأة توقف كل شيء، وقد انقض عليهم رجال الشرطة.. الفتيات زعقن خوفاً، الفتيان صرخوا احتجاجاً. سمع عزيز الزعقات، انتفض صبري للصراخ، رفع كلاهما رأسه فإذا به وجهاً لوجه أمام السوط.

"ها هو التاريخ يعيد نفسه، الشاويش ينهال بسوطه، أبو شعيب يريد تمريغي بالتراب"، وأمسك عزيز بيد الشرطي صائحاً:

- لا تضرب، وتوقفت اليد عالياً في الهواء، كأنما جمدها الخوف..

- اذهبوا من هنا.. ممنوع التجمع، صرخ الشرطي دون أن يضرب بالسوط.

– لكن، نحن هنا نتنزه.. صرخ صبري بدوره وقد عادله عنفوان اليوزباشي وحميته..

– ممنوع التنزه.. ممنوع الرقص.. ممنوع الغناء..

وتلفت الصديقان، واحدهما إلى الآخر، بينما اقتربت شمس تتوسلهما الصبر، ترجوهما السكوت.. لكن كيف تراه يصبر؟ وأنى له السكوت؟.

– هل جننت؟ صاح عزيز وقد اسودت الدنيا في عينيه.. من يمنع شعباً من أن يتنزه؟ يرقص أو يغني؟.

– اسمع يا هذا.. لا تتفلسف.. نفذ الأوامر وحسب.

– وإن لم أنفذها؟

– تذهب إلى السجن

– بل أذهب إلى قومندانك نفسه.. أعرف سر هذا البغي والعدوان!!

فرجال الشرطة كانوا قد اندفعوا على ضفاف بردى حيث متنزهات الربوة ودمر يطفئون ابتسامات ويكتمون ضحكات.. يسكتون دفوفاً ويفرقون تجمعات. سياطهم تنهال على الظهور، أكفهم تصفع، أرجلهم ترفس، لا يفرقون بين ذكر وأنثى فيهرع الناس: كل في اتجاه وقد تحولوا جميعاً إلى إوز مذعور.

– معقول؟ قال عزيز، ما إن أدخلوه إلى القومندان، أهل المدنية والحضارة يمنعون أبسط حقوق المدينة والحضارة؟

– اسمع.. عزيز، نحن في حالة حرب، وليس في الحرب مدنية أو حضارة..

– ها أنتم تنزعون القناع عن وجوهكم.. فتبدون على حقيقتكم؟

– ماذا تقصد؟ همج نحن؟ وحوش؟.

– ماذا تدعو إذن، ضرب الناس بالسياط؟ تفريقهم بالحراب؟

– ألم يضرب أهلنا بالسياط، هناك في باريس؟ ألم يفرقوا بالحراب؟ ابنك الأخضر ماذا تعرف عنه؟ أهلي أنفسهم ماذا حل بهم؟.

رد القومندان وقد تقلصت سيماء وجهه كمدا وحنقاً

– إذن.. أنتم تنتقمون من ألمانيا فينا؟ تفرغون حقدكم علينا؟

قال عزيز وهو يتجاهل عامداً أسئلة القومندان.. بعدئذ تابع، لكن بنبرة أكثر دبلوماسية. أين إذن الديموقراطية التي تنادون بها؟ أين الحرية؟ أين حقوق

الإنسان؟

-عزيز، مرة أخرى أكرر: في الحرب لا ديموقراطية، لا حرية، لا حقوق إنسان. بل أمن وأمان فقط.. أتسمع؟ ما يهمنا أمننا وأماننا الآن.. كل ما يعكرهما نجتثه من جذوره؟. أتسمع عزيز؟ اني أحذرك.. قال مهدداً بسبابته وقد احمرت عيناه.. تلفت عزيز حوله، فأدرك أنه في المكان الخطأ والزمان الخطأ. كانت الساحة تعج بالجند ووقع أحذيتهم يملأ الفضاء..

-أنا فقط أكلمك كصديق، بدأ عزيز، وقد أيقن أن أية معركة يدخلها خاسرة.

-صديق.. غير صديق، قاطعه القومندان وقد وجدها فرصة سانحة.. انتبه عزيز.. شغب، لا أريد. مشاكل.. لا أريد.. ولا تنسَ.. أنا أعلم كل شيء عنك.. أعلم كل شيء عن ماضيك.. حاضرك.. أنت وشمس.. فقط الحرب شغلتني عنكما.. الحرب أنقذتكما.. لكن لابد من أن أحاسبكما.. أتسمع؟ حساباً عسيراً سأحاسبكما ذات يوم..

سمع عزيز التهديد فاغر الفم، مدركاً أن القومندان يقطع أخيراً شعرة معاوية.. لم يعد يريد إرخاء أو شداً، بل هو يقطع الشعرة، مكشراً عن أنيابه معلناً الحرب. مع ذلك تحداه عزيز:

-اسمع قومندان.. ليس لأحد عندنا شيء ولا أحد يستطيع محاسبتنا..

-حين تنتهي هذه الحرب سأفرغ لك!! ولسوف ترى!!

متظاهراً بالغيظ، متظاهراً بالقهر، بلع عزيز ريقه ثم انفتل على عقبيه، حامداً ربه، شاكراً حظه أن الحرب شغلت عنه القومندان.

الحرب شغلت القومندان عن كل شيء.. فحبل السرة الذي انقطع بين الجنين وأمه، كان يفرض على الجنبين الاعتماد على الذات والاستقلال بالموارد.. "كليبر" من قبل كان قد اعتمد في مصر على ذاته واستقل بموارده.. جبى الضرائب، صادر الأموال، نهب الغلال، سرق المحاصيل وأطعم جنده، وكان على جيش الشرق أن يفعل ذلك.. "صادروا القمح والشعير، الحمص والعدس". صدرت أوامر المندوب السامي لرجاله في الشرق، حيث دمشق وبيروت، وبدأت المصادرات.." ما يجبى من أموال هو لجندنا، ما يصادر من حبوب هو لجيش الشرق وليس للحكومة الوطنية في دمشق وبيروت." واشتدت على رؤوس الناس ضربات المطرقة الحديدية.. إجراءات ميرة شديدة،

اعتقالات كل من يشتبه به، منع التجمعات، حظر الكلام عن الحرب، عن هتلر، بل منع الناس حتى من سماع صوت برلين..

القومندان يكره إذاعة برلين يكره صوت البحيري، وهو يلعلع منذراً بالويل والثبور فتصدر الأوامر؛" الاستماع لإذاعة برلين جريمة، كل من يقبض عليه متلبساً بتلك الجريمة يسجن حتى انتهاء الحرب"، أوامر "قراقوشية" أخرى كانت تصدر كل يوم، وكلها بهدف واحد: كم الأفواه، كم الانفاس.. كل معارض يساق إلى السجن، كل من يبدي فرحه بانهزام فرنسا يساق إلى السجن.. كل صحفي يكتب ما يثير شكاً أو ريبة يساق إلى السجن، وامتلأت بالناس المعتقلات والسجون وغدا الحال لا يطاق..

حال الزعيم الشهبندر لا يطاق أيضاً.. هو يرى بأم عينه ما فعلته الهزيمة بفرنسا، يرى بأم عينه كيف ازداد حذاء العسكري وطأة، قبضة الاستعمار قسوة، كيف تحولت كل سياسة الاستعمار إلى تضييق، حصار، ضرب، قتل، فكيف يتحمل الرجل الحر، المؤمن بالاستقلال، المقاتل أبداً من أجل الحرية والاستقلال؟ الضيق يمسك بخناقه ولا يستطيع إلا أن ينفث ما في صدره، فيتكلم.. ينتقد.. في بيانات حزب الشعب، في الصحف، في لقاءاته بالناس، الزعيم يتكلم، ينتقد.. آذان المستعمر تسمع وترى، فيرسل القومندان له تحذيراً شديد اللهجة: "اسكت أو أسكتناك".

– تسمعون؟ يريدون إسكاتي!! قال الزعيم لزواره ذات ليلة وكله حنق وثورة، يريدون أن يطفئوا نور الشمس بأفواههم، أن يكتموا صوت الحق.. فماذا أنتم فاعلون؟

أجوبة شتى خرجت من هنا وهناك، وكلها حماسة واندفاع للدفاع عن الحق، منع الأفواه من إطفاء نور الشمس، لكنهم جميعاً هللوا لاقتراح الزعيم:

– نعلن إضراباً عاماً في البلاد كإضراب الستين يوماً...

– الإضراب، أجل، المظاهرات، الاحتجاجات، ذلك وحده ما يجب أن نفعل، جاءت الردود من كل مكان.

– وإذا احتاج الأمر، فالثورة والقتال.. تابع عزيز الفكرة، وهو يشتعل حماسة لقتال مستعمر بغيض..

– حسن، قال الزعيم بما يشبه الهمس، الفرصة سانحة لاقتناص استقلالنا، فلنبدأ الآن.

وبدأ التحرك خطوة خطوة: كتبت المناشير، وزعت في البلدات والمـدن.. تحرك زعماء وقادة، خطب شيوخ وأئمة، والكل يحتجون، يدعون للإضـراب، يطالبون بالاستقلال... وبدت دمشق كلها على أهبة الاستعداد للإضراب.

لكن في المساء وقبل اليوم الموعود بساعات، كان الزعيم في عيادته، قـد فرغ لتوه من كتابة خطابه.. سمع صوت الباب يفتح ووقع خطأ تتقـدم.. رفـع رأسه فرأى رجلاً عتلا يدخل الغرفة..

-أبا الهول!! ماذا هناك؟ سأل الرجل الذي كان يعرفه مرافقاً لزعيم سياسي منافس..

-يدي دكتور.. يدي تؤلمني.. رد الرجل العتل وهو يخرج يده من جيبه..

-تعال!! أرنيها!! قال الدكتور وهو يطوي الأوراق أمامه، هاماً بالنهوض، لكن قبل أن ينهض، أحس بارتطام يرتج له صدره وبصـوت يصـم أذنيـه.. الصدمة فتحت عينيه والصرخة شفتيه، فيما بدأ دم أحمر ينبجس من صـدره.. شهق، رافعاً يده، محاولاً صد الرصاص، محاولاً الوقوف لكن رصاصة ثانيـة عاجلته فهزته يمنة ويسرة، ثم جاءت ثالثة فهوت به أرضاً، ملء فمـه الـدماء وملء عينيه الظلماء..

-11-

"اغتالوا الزعيم" انتشر الخبر، فوقع على الناس وقع الصاعقة.. وفتحت دمشق عينيها على سعتها فاغرة الفم شاحبة الوجه.. الخبر مر بالشوارع، القصور، البيوت القريبة البعيدة ليتركها، وكل من فيها كأنما على رؤوسهم الطير.. أسئلة كثيرة بدأت تلف وتدور مع الخبر، زوبعة من رمل: "من قتل الشهبندر"؟ "من له مصلحة في تصفيته؟" "من الذي خطط؟"، "من الذي نفذ؟" كان القاتل قد زرع رصاصه في جسد الطبيب ثم ذاب فصاً من ملح.. فمن يجيب على الأسئلة؟ مجهول دخل العيادة، أطلق النار على الرجل ثم اختفى، فكيف يمكن معرفة القاتل أو تحديد الدوافع؟ ربما هو خلاف شخصي، ربما انتقام لخطأ ارتكبه الطبيب، ربما تصفية لحسابات قديمة... من يدري؟ السلطة تبرأت من الحادث، الصحف الناطقة باسمها خرجت في الصباح التالي تنعى الرجل لابسة ثياب الحداد.. لكن الناس الذين وقع عليهم الخبر وقع الصاعقة كانوا يشيرون للسلطة نفسها بأصابع الاتهام.. فالرجل الذي نذر حياته لمقارعة الاستعمار، لم يكن قد كف لحظة واحدة عن العمل لإيفاء نذره..

قاتل العثمانيين، ناضل في عهد الحكم العربي، كان أحد أعمدته الرئيسية، وقف في وجه غورو، ذهب إلى المعتقلات، شارك في الثورة.. الفرنسيون يعرفون هذا كله، والشعب يعرفه أيضاً. المحكمة الفرنسية التي حاكمته قالت إنه ثار على جميع الحكومات التي قامت في سورية" وهي نفسها التي وصفته بأنه ثائر غير قابل للشفاء، "فحكمت عليه بالإعدام... لكن الظروف خدمته فهرب خارج البلاد، ونجا بأعجوبة من الإعدام.

البلاد كلها تعلم أن ذلك الثائر غير القابل للشفاء هو أول من نادى بالعدالة الاجتماعية والاشتراكية.. طريقاً للخلاص يسلكه المجتمع فيلغي التفاوت الطبقي

ويرفع الظلم الاجتماعي عن كاهل الفقراء والضعفاء.. يحقق المساواة والعــدل ويصبح الناس كلهم سواسية كأسنان المشــط.. كلهــم ســمعوه وهــو يخطــب بالجماهير فيلهبهم حماسة عن حقهم في المعتقد، حقهم في الحرية، حقهــم فــي التعبير عن الرأي.. ويطلب من الجميع التساهل والتسامح كي يظــل المجتمــع متماسكاً، منشد الأواصر كأنه البنيان المرصوص.

الشعب كله يعلم كم كان يؤمن بالعلم طريقاً للتقدم، بالعلمانية مركبــاً إلــى الوصول إلى الشاطئ الآخر، شاطئ الارتقاء والحضارة، بالعقل هادياً ومرشــداً وكلهم يذكر قوله "العقل والدين الصحيح يمشيان جنباً إلى جنب".

الناس الذين أذهلهم الخبر كانوا يذكرون جيداً ما قاله في المحكمة الفرنسية أثناء محاكمته، وبصوت هادر كأنه الإعصار "الوطنيون وحدة، بغــض النظــر عن انتماء اتهم المذهبية، مثلما الاستعمار واحد بغض النظــر عــن اســمه أو جنسيته، لهذا، لا رابطة إلا رابطة الوطن، والوطن هو دنيا العرب ولا مجتمــع إلا المجتمع الذي يقوم على هذه الرابطة: الوطنية".

الناس يحبون الزعيم الذي كرس حياته كلها لخدمتهم، كلهم يحبون الرجــل الذي دعا للمجتمع الواحد، للوطن الواحد، عمل ليله ونهاره لبناء دولة العــرب، لتحقيق العدالة والكرامة للعرب فكيف لا يقع عليهم خبر اغتياله وقع الصــاعقة، وكيف لا يقف على رؤوسهم الطير؟.

ثواني، أو ربما دقائق، ظل الطير واقفاً ثم رفرف بجناحيه وحلّــق عاليــاً فانطلقوا: الصاحب إلى صاحبه، والجار إلــى جــاره يتســاءلون ويجتمعــون، يصيحون ويتنادون: "لنقلب البلد على الجناة".

لكن، كيلا ينقلب البلد عليهم، سارع الجناة لاتخاذ التدابير، قطعوا الطريــق إلى بيت الزعيم الذي أسس ذات يوم حزب الشعب فصار الشعب كلــه حزبــه، ومنعوا الوصول إلى الجنازة.. بالسياط، بالهراوات، بــالحراب، كــان الجنــد يمنعون كل تجمع يزيد عن اثنين، مفارق الطرق المؤدية إلــى بيــت الــزعيم زرعت كلها بالجند، سدت المنافذ ثم وضع النعش على عربة أسرعت به إلــى المقبرة كيلا تتحول الجنازة إلى سيل عارم يكتسح في طريقه الجنازة...

حاول الكثيرون اختراق الحواجز، اصطدم الكثيريون بالجنــد معرضــين صدورهم للحراب والرصاص، لكن السدود كانت قاطعــة مانعــة، فانكســرت رؤوس نطحتها وارتدت أرجل تسلقتها، لتجد نفسها دمشق وجثمــان زعيمهــا يوارى الثرى، ثكلى محرومة من وداع ابنها، ممنوعة حتى من إلقــاء النظــرة

الأخيرة عليه، فلم تملك إلا أن تمزق ثيابها، تلطم خديها، تولول وتندب باكية إياه دموعاً من دم.

وحده عزيز "دمعه في الحوادث غال". عيناه تتحولان إلى حجارة، ففار صدره غضباً واختبط دمه ثوراناً.. أسرع إلى صبري فوجده أشد غضباً وثوراناً، سارعا إلى الجنازة.. لكن السدود كانت لهما بالمرصاد.. راوغا أول سد فنفذا منه، لفا على الثاني فاستطاعا اجتيازه، لكن الثالث كان أعتى من أن يجدي معه لف أو مراوغة، اصطدما به فعاد عزيز وآثار الهراوة على رأسه تتمور خيوطاً من دم سالت على وجنتيه فبدت أشبه بخيوط الدمع وهو ينهمر من العينين حزناً على الصديق الذي اغتيل...

رأته شمس فتحولت دموعها إلى دم هي الأخرى قهراً وحنقاً. منذ الصباح، كانت قد أطلقت لعينيها العنان تبكيان الطبيب الشفوق والصديق الصدوق، لكن ما إن وقعت عيناها على زوجها وقد تحول رأسه إلى ملعب للهراوات ووجنتاه إلى ميدان لخيول الدم تصول فيه وتجول، حتى خرجت عيناها من محجريهما.

– أبلغت بهم الوحشية هذا الحد؟ سألته وهي تسارع إلى غسل جروحه النازفة دماً يغشى وجهه ويضرج ثيابه..

– وأكثر.. فقد أطلق بعض الجنود النار..

– المجرمون، السفاحون.. قتلوه ويمنعون الناس من دفنه!؟

– يفعلون كل شيء.. لإذلال الناس وكم الأفواه..

لكن الناس لم يذلوا ولم تكم أفواههم.. إذ، رغم السدود التي أقامها الفرنساوي في وجوههم، ورغم الحراب والهراوات كلها.. أنهى المصلون صلاة العصر ثم شقوا طريقهم إلى المقبرة جموعاً حاشدة صلت صلاة الميت على الزعيم المغدور.. ثم انطلقت رغم الحراب والرصاص وبصوت واحد هادر تصب جام غضبها على الاستعمار وأعوان الاستعمار أولئك الذين بلغ بهم الحقد أن يقتلوا رجلاً لا يعمل إلا من أجل الحياة..

أياماً وليالي ظلت دمشق تبكي الزعيم المغدور.. لكن أسابيع وشهوراً ظلت شمس تبكي الزعيم الصديق والأخضر الابن الذي انقطعت أخباره...

لم تكن عيناها ترقدان.. ولا بالها يهدأ، وكيف يهدأ بال أم ضاع ابنها"؟.

"النازيون سفاحون"، قالت إحدى الجارات" هم يكرهون العرب!! "فسر أبو فريد." "صنفونا في المرتبة السادسة عشرة من البشر "شرح ثالث" كل من يقع

في طريقهم قتل".

أدلى آخر بدلوه راوياً لهم ما سمعه عن احتلال باريس.. وتلاطمت في صدر شمس أمواج الشك والريبة "أين ذهب الأخضر؟ ماذا حل بفلذة كبدي؟" "قد وقع ما كنت أخشاه." مذ وقع خطر الحرب كانت قد أرسلت له تنذره.. تطلب منه العودة، لكنه ضرب عرض الحائط بإنذارها.. أرسل لها يطمئنها "الحرب بعيدة، لا خطر".. بل إن القومندان أرغى وأزبد.. "نحن أقوياء.. جيوشنا تحتل نصف العالم، فماذا باستطاعة هتلر أن يفعل؟". ها هو ذا هتلر يفعل ما لم يخطر ببال أحد.. بالحيلة عامل أمثال القومندان.. بالمناورة والخداع عالجهم، ثم أغمض واحدهم عينيه وفتحها فإذا بدبابات غادريان تطأ الشانزليزيه.. تحتل ساحة الكونكورد، تفرش ذيولها على برج إيفل نفسه.. أصاب الذهول العالم ثم لم يفق من ذهوله. حتى كانت جيوش هتلر قد انداحت سيولاً جارفة بلغت الأطلسي فالمتوسط، فالألب وغدت فرنسا كلها ملعب كرة للجرمان.." ويلي عليك!! ما جرى لك يا أخضر؟ أين أراضيك يا بني؟ سحقتك جنازير الدبابات!؟ صرعك رصاص النازي؟ "كانت شمس لا تفتأ نادبة نائحة في ضوء النهار وظلمات الليل.. حتى بدا العالم لعزيز وقد تحول إلى جحيم..

-استهدي بالله شمس، خففي عنك حبيبتي، قال مهدئاً، وقد أفاق على صوتها المكتوم تنشج باكية في هدأة الليل.

-أخفف عني؟ كيف؟. عزيز، أريد ابني.. أريد الأخضر". ردت من بين نشجاتها، وهي تلقي برأسها على كتفه.. مسح عزيز براحته قطرات الدموع عن وجنتيها.. "يا لقلب الأم!! كيف لا ينزف دماً وفلذة الكبد في خطر"؟. راح يفكر في قلب العتمة والصمت مهدهداً الرأس على الكتف. "كيف تتحول المرأة إلى مجرد أم لا تفكر إلا في أولادها؟ الحب ذلك الخضم الواسع الشاسع الذي تحول إليه قلب شمس ذات يوم، فعمت فيه، وسبحت بدفئه، ها هو ذا قد تبخر الآن.. حب حل محله حب الأخضر ونواف.. بدور ومناف.. لكن كيف؟ عند غدير الماء، في المضارب، في أم العيون، في حماة، كان يخيل إلي أن ذلك الحب سيكون الأقوى، سيظل الأرسخ وأن شيئاً لا يمكن أن يحل محله.. لكن ها هي ذي شمس تنسى.. تظل أياماً وليالي لا تنظر إلي، لا تلمسني.. هي مشغولة بالأخضر، فكرها، قلبها، كل ما فيها بات للأخضر.. واحسرتاه.. شمس!! قد تحولت إلى مجرد أم"..

– ماذا عزيز؟ أنت لا تقول شيئاً.. لا تتكلم.. قالت أخيراً محرضة إياه

على كسر الصمت الذي أحست به يطبق على البيت، على المدينة، بـل علـى العالم كله.

– وماذا أقول حبيبتي؟ ليالٍ طوال وأنا أتكلم.. أشهر وأنا أحاول إقناعـك: غير مجدٍ هذا البكاء.. غير مفيدٍ هذا العويل.. فأنت لا تفعلين شيئاً سـوى قتـل نفسك..

– ليتني أستطيع..

– شمس، قاطعها وهو يشدها إلى صدره لائماً عاتباً، تقتلين نفسك ولمـن تتركينني أنا، عزيز، حبيبك؟.

– أجل.. أنت عزيز.. حبيبي.. معبودي.. لكن الأخضر ضاع حبيبي وهل تريدني أن أعيش إن ضاع..؟ لا.. لا.. الموت أهون لدي... أهون ألف مرة...

وأدرك عزيز أن حب الأمومة يفوق كل حب.. بل خيل إليه أن كل حـب تعرفه المرأة إنما هو لخدمة الأمومة.. تلك الغريزة المعطاء التـي لا تعـرف الأخذ، بل هي تعطي وتعطي لا جزاء ولا شكورا...

– الأخضر لم يضع، لم يمت، الأخضر حي يرزق.. أنا واثق من ذلك..

– إذن أين هو؟ لماذا هذا الانقطاع؟ لا خبر، لا رسالة.

ولم يستطع عزيز أن يجيب.. كان غياب الأخضر يشـغله هـو الآخـر.. صحيح.. هي أمه.. لكنه هو أبوه أيضاً.. فكره يذهب ويجيء ليس مع الأخضر فحسب بل مع أبنائه جميعاً، باله ينشغل عليهم.. هذا في مشكلة، ذلك في خطـر فيطير إليه يحل إليه المشكلة، ينقذه من الخطر.. لكن مذ سقطت باريس أسـقط في يد عزيز.. الإعصار اكتسح البيت الفرنسي كله قالباً عاليه سافله.. الأخبـار مشوشة، بعضهم يقولون إن النازيين سفاحون لا تعرف قلوبهم الرحمة، دخلـوا باريس فقتلوا وذبحوا، خربوا ودمروا.. بعضهم يحكـون أن الـدبابات كانـت تهرس بجنازيرها حشود الهاربين.. وان الناس العزل كانوا يلقون بأنفسهم فـي نهر السين هلعاً ورعباً، فماذا حل بالأخضر؟.

فرنسا عزلت عن العالم، القوات النازية أطبقت بكماشتها عليها، أحكمـت الطوق، لا اتصالات، لا بريد، لا هاتف، لا خروج، لا دخول.. انقطاع كامـل فكيف يعلم ما حل بالأخضر؟ هو في قلق وبلبال على الأخضر. في قهر وغيظ يصلان به حد البكاء، لكنه رجل.. والرجال لا يبكون..

– الصبر.. شمس.. بدأ وهو يخرج نفسه بصعوبة مـن خضـم بلبالـه،

صدقيني مالنا غير الصبر..

– لكن حتى متى والأيام تكر؟ ها هي خمسة أشهر قد مرت ولم أعرف عنه شيئاً.. فإلى متى نصبر؟ إلى متى ننتظر؟.

"شمس على حق" عزيز يفكر وهو يتأمل وجهها الذي خددته الدموع على ضوء النواسة الخافت، وقد أشعلها للتو." النازي اكتسح فرنسا، حكومتها سقطت، قواتها دمرت، جيشها تفرق أيدي سبا، قصر منيف أمسكت به قبضة زلزال قوي ثم راحت تهزه يمنة ويسرة، أعلى وأسفل، حتى لم يبقَ فيه حجر على حجر.. فأين سكانه؟ ماذا حل بهم؟ أجل. شمس على حق؟".

كان عزيز يعترف في قرارة نفسه، لكن بصيصاً من أمل كان قد بزغ أمامه من بعيد، وقد سمع عصر ذلك اليوم خبراً غير عادي.

– إذن.. أنت لم تسمعي الخبر..

– أي خبر؟

– الماريشال بيتان شكل حكومة في فيشي..

– بيتان.. فيشي.. ما الذي تقوله عزيز؟

– يا عزيزتي، قال بنبرة المداعبة: فيشي هي العاصمة الجديدة لفرنسا، وبيتان هو الماريشال العظيم الذي هزم الألمان ذات يوم، لكنه اليوم يمد يده لهم وكل ما في ذهنه أن يلملم أشلاء وطنه المحطم.

- وتعود المياه إلى مجاريها؟ سألت شمس وقد لمعت أمام عينيها بارقة أمل.

- بالتأكيد..

- تقصد.. يعود البريد والبرق، الاتصالات والمراسلات.؟

- هكذا يقول المارشال نفسه: اختلاط الحابل بالنابل هذا سينتهي.. الفوضى ستزول.. ونعيد الحياة إلى طبيعتها..

– إذن.. يجب أن نرى القومندان.. قالت وقد اشتدت أمام عينيها بارقة الأمل...

– القومندان؟ إذن نسيت خطره وشره؟. نسيت موقفه آخر مرة؟.

– لا.. لم أنسَ.. ولن أنسى.. لكنه الأخضر.. وعلينا أن نعرف شيئاً عنه.. علينا أن نتأكد فقط: أهو حي أم ميت؟. وإني لمستعدة أن أدفع عمري كله من

أجل معرفة ذلك... عزيز يعلم أنها مستعدة، بل هو نفسه على أتم الاستعداد لأن يضحي بالغالي والرخيص كي يعرف ما حل بالأخضر. لكن القومندان، ومنذ كشر عن أنيابه ذئباً يهم بالانقضاض، بات أباً هول حقيقياً، غولاً مرعباً يكره حتى ذكر اسمه.. هو يعلم أن الذئب لم يهمله، هو وشمس، لكنه أمهلهما.. سقوط فرنسا كان قد أوقع الآلة الاستعمارية كلها في بلبال.. جعل فرنسا كلها دجاجة قطع السكين عنقها، دمها ينزف وهي تتخبط.. وإذا ما عاد الرأس، وانتهى ذلك التخبط، ألن يتفرغ القومندان لهما.؟.

ألن يحاسبهما على ما سعى كثيراً للتأكد منه؟ هو نفسه هدد بذلك: "حساباً عسيراً سأحاسبكما ذات يوم." تهديده ما يزال يدوي في أذنيه، فكيف يفكر باللجوء إليه؟.

– هه.. ما بك.. عزيز؟ تكلم.. عادت تحثه فقرر أن يلف ويدور.

– لا أظن أن القومندان قادر أن يعرف..

– يمكنه أن يحاول.

– كيف؟

– ألم تقل عادت الدولة!؟ تشكلت الحكومة؟ إذن يمكنه الاتصال.. إرسال برقية.. رسالة.. وتوقفت لحظة ثم تابعت: أليس كذلك؟

– ربما

– إذن.. اذهب إليه غداً..

– لا.. أنا أقسمت.. لا أطأ عتبة مكتبه.

– إذن أذهب أنا..

في اليوم التالي، فوجئ القومندان الذي صار كولونيلاً، وهو منهمك في قراءة تقاريره اليومية، بحاجبه يقرع الباب مستأذناً لامرأة غارقة في السواد..

– صباح الخير، سيادة الكولونيل، وألف مبروك، قالت شمس وهي تكشف عن وجهها، فلم يملك إلا أن يهب على قدميه يحدجها وعلى شفتيه ابتسامة ذات مغزى.

– صباح الخير– وشكراً لك!! أنت بنفسك؟ لابد إذن، أن أموراً صعاباً جاءت بك!! قال وهو يمد يده مصافحاً ثم يشير إليها بالجلوس.

– الحقيقة، نعم.. ردت شمس وهي تريد التسديد إلى الهدف مباشرة، ابني

الأخضر... لكنها توقفت وكأنها لا تستطيع البوح بكل ما في نفسها دفعة واحدة.

- ماله، الأخضر؟ سألها، وقد جلس غير بعيد عنها.

- أكاد أموت عليه.. سيادة الكولونيل!! أشهر الآن وهو غائب، لا علم، لا خبر، أريد أن أعرف شيئاً عنه أرجوك..

- تريدين أن تعرفي شيئاً عنه؟ أجاب على مهل زافراً زفرة حرى..

- فقط إن كان حياً أو ميتاً.. فقط إن كان النازي قتله أم لا؟.

- ومن يستطيع أن يعرف؟

- أنت.. اسأل أصحابك.. .. أهلك. وهز الكولونيل رأسه، متنهداً.

- أصحابي! أهلي؟ وهل أدري أين هم؟ حتى زوجتي وابنتي لا أدري أين هما؟

لكن اليأس لا يعرف طريقه إلى شمس.. هي جاءت بعد تردد.. إقدام وإحجام". قال: ماحاجك للمر؟ قال له الأمر؟ "وكان ذلك الأمرّ قد حولها إلى كتلة من العزم والتصميم، لكن ها هو ذا يشكو المصاب نفسه، يتذمر من الانقطاع نفسه.. من جهله حتى بمصير زوجته وابنته.. مع ذلك سألته:

- معقول؟ حتى أنت لا تدري؟

- ومن يدري وقد ضاعت البلاد كلها.؟ من يعلم ماذا هناك وقد أصبحت فرنسا جزيرة معزولة عن العالم؟.

- والآن وقد تشكلت حكومة جديدة؟

- هذه حكومة خائنة، لا اتصال لنا بها ولا علاقة.

- ماذا؟ لم أفهم!!

- وليس مطلوباً منك أن تفهمي، قال بخشونة مفاجئة جعل الزائرة تحدق إليه بحدة... المطلوب منك، وقد جئت برجليك أن تجيبيني على ذلك السؤال القديم...

- أي سؤال قديم؟ ردت متشنجة فجأة، محاولة أن تتجاهل..

- ما علاقتك بالكابيتان جيرار؟

- أجيئك من أجل الأخضر، تسألني عن جيرار؟

- أجل، وعليك أن تجيبي الآن: ماذا تعرفين عنه؟ عن مقتله؟

– قلت لك.. لا علاقة لي به.. لا شأن لي بمقتله، لا أعرف شيئاً.. قالت وهي تهب ملء طولها كأنما تهرب من ألسنة النار..

– اسمعي.. جيرار كان صديقي.. وإن أنسى لا أنسى ما قاله لي ذات مرة..

– وماذا قال؟ سألت شمس، محاولة جهدها التماسك، متصنعة اللامبالاة.

– ذات مساء، كنا نسير على ضفة بردى وكان ساهم النظرات.. سألته ما بك؟ فقال "تخلب لبي امرأة هناك في حماة، لا أدري كيف الوصول إليها".. ضحكت منه آنذاك قائلاً: "دون جوان باريس، الكابيتان العظيم، صاحب السلطان المطلق في حماة لا يعرف كيف يصل إلى امرأة فيها"، فتنهد ثم قال: "هذه امرأة مختلفة يا صاحبي.. صعبة صعبة كأنها قمة ايفرست، عصية عصية كأنها أدغال الأمازون، عالية عالية كأنها الشمس.. بل هي نفسها.. اسمها شمس فكيف يمكن الوصول إلى الشمس؟".

– إي.. وماذا يعني هذا؟ قالت وهي تتصنع التماسك، مرتعدة في داخلها حتى العظم.

– يعني.. مذ جاؤوني بك يوم المظاهرة وأنت سافرة الوجه مكشوفة الرأس.. عاد إلى ذهني كلام جيرار.. تراءت أمام عيني تلك الصورة التي رسمها لك جيرار: فاحمة الشعر، بيضاء البشرة، فارعة القامة.. وحين قلت ان اسمك شموس رن صوته في أذني "اسمها شمس"، منذ ئذ لم يفارقني الشك بأنك أنت شمسه.. تلك الشمس التي خلبت لبه..

– أنت مخطئ!! قالت وهي تتذكر قولاً سمعته ذات مرة "مائة شك ولا يقين واحد"... أنا لم أخلب لب أحد ولم تكن لي علاقة بأحد..

– بل أنت المرأة التي أراد الوصول إليها بأي شكل.. جاءت فرصة هروب زوجك، فجاء بك إلى مكتبه..

– تحقيقاتي تجعلني واثقاً من ذلك.. واثقاً من أنك المرأة التي أرسلها إلى بيته، سائقه أوصلك بنفسه، هو الذي وصفك لي، ولابد أنك أنت التي قتلته..

– ليس لديك دليل..

– الدليل تحت يدي.. فقط قشة، وسيأتي وقت أرفع فيه تلك القشة..

– هراء.. كلام بال عتيق أكل الدهر عليه وشرب.

– بل هو حي.. جيرار ما يزال هنا.. ودق على صـــدره، حيـــاً يـــرزق ولسوف أثأر له..

– تثأر؟ بعد هذا الزمن الطويل تثأر..

– البدوي عندكم يثأر بعد أربعين عاماً ويقول بكرت..

– وهل أنت بدوي؟

– بل أكثر من بدوي. حين تتطاول امرأة مثلك على كابيتان فرنسي، ســـيد عظيم من سادتها..

– سادتها؟ إذن.. نحن عبيد لديكم؟.

– ماذا أنتم إذن؟ لعلكم تظنون أنفسكم سادة.. مثلكم مثلنا؟ لا.. يا امـــرأة.. نحن نستعمركم، إذن نحن سادتكم..

– يا إلهي.. كولونيل.. كم تغيرت!! كم تبدلت!! أين كلامك عن الحريـــة، المساواة، الإنسانية..

– هراء، هراء، كل ذلك هراء

– الحمد لله إذن.. جاء من يستعمركم... جاء من يحولكم مثلنا إلى عبيد!!

– اخرجي من هنا.. اغربي عن وجهي.. قاطعها صارخاً وقد احتقن كـــل ما فيه.. اغربي.. وأقسم لتدفعين ثمن قولك هذا باهظاً..

عادت شمس إلى المنزل وهي ترتعد..

– ماذا جرى؟ سألها عزيز وقد أقلقه شحوب وجهها،

– هذه المرة عقد الأنشوطة، وهمّ بدفع الكرسي من تحتي..

وتحول عزيز إلى كتلة من التوتر والتشنج.

– ألم أقل لك؟ رفع القناع عن وجهه.. كشر عن أنيابه.. لكن احكي لـــي.. ماذا قال.. ماذا فعل؟ وروت له شمس القصة من الألف إلى الياء.

–إذن كما قلت لك من قبل ليس أمامنا غير آخر الدواء، قال عزيز بعد أن أطرق طويلاً عاصراً صدغيه بين راحتيه..

– الكي تعني؟ قالت وهي تستعيد في ذهنها نقاشاً سابقاً.

– طالما هو يلاحق القضية بشكل شخصي، رد وهو يزفر زفرة الحقد إذن هو وحده، مصدر الخطر..

- صحيح..

- فإذا.. تابع عزيز مشيراً إشارة البتر من يده اليمنى، وكأنما يبتر عنقاً بسيف قاطع، ألا ينتهي كل شيء؟

- لا.. لا.. أخشى أن نصبح كالغائص في الحمأة، كلما خطا خطوة أكثر تورط أكثر..

- لا، شمس.. أنا أرتب الأمر.. بحيث نخرج كالشعرة من العجين..

- كيف؟ قل لي..

- فيما بعد.. فيما بعد.. فقط أريدك أن تتخذي كل الاحتياطات في غيابي..

- غيابك؟ أين؟

- إلى أصدقائي هناك، رد عزيز وهو يشير باتجاه الجنوب، لكن حذار أن يمسك بك الكولونيل.. حذار أن تدعيه يقترب منك.

الكولونيل لا يستطيع الاقتراب منها حتى لو أراد ذلك، اللاذقية شغله الشاغل.. مشكلتها أغرقته حتى لم يعد من مجال للتفكير بشمس أو قمر..

منذ أشهر كانت قد بدأت المشكلة.. بذرة صغيرة بذرت في التربة، هطل المطر فأنتشت، ثم شقت التربة فظهر رأسها يلوح ذات اليمين وذات الشمال، مهدداً بالويل والثبور وعظائم الأمور.. البذرة شكوى، وكيف لا يشكو الناس راعياً لا تهمه مصلحة الرعية؟ كيف لا يتذمرون من أب لكنيسة مهمل لأبناء الكنيسة؟ مطران ضد أتباعه؟ ارتكابات كثيرة أخذت عليه،عيوب كثيرة سجلت في حقه، حتى هب الكل يصرخون.. "الرعية بحاجة لراعٍ صالح أو هلكت الرعية.". المجمع الكنسي سمع الصراخ، أرسل يحقق، التحقيق أكد الشكوى، وصدر قرار كنسي بتعيين راعٍ جديد.

الراعي الجديد مناهض للاستعمار، مطالب بالحرية والاستقلال، يلتف حوله الشعب ويحبه الناس.. فرنسا تعلم ذلك، لكنها تغض النظر عنه، هو في بيروت نقطة في بحر، لكنه في اللاذقية مشكلة.. حاسمته، وطنيته، اندفاعه كل ذلك يثير العواصف الهوجاء على رأس فرنسا، فكيف ترضى به؟ طلب المندوب السامي من المجمع الكنسي استبداله، لكن المجمع الكنسي أبى واستكبر "نحن لا نعمل بإمرة الاستعمار، قراراتنا مستقلة وليس لأحد أن يتدخل فيها"، وصدرت أوامر جديدة تؤكد على المطران أبيفانيوس أن يلتحق بمطرانيته في الحال.... التحق المطران الشجاع وكله حماسة وتحدٍ.. حاكم اللاذقية أحس

بالتحدي فأصدر الأوامر للمطران القديم "ابــق.. لا تسـلم المطرانيـة" وفـرح المطران القديم "هي ذي فرصة، أثأر فيها لنفسي وكرامتي"..

وبقي في كرسيه لا يتزحزح. المطران الجديد جاء، مطالباً بالامتثال، لكن هيهات، الرجل يطيع السلطان لا الكنيسة، وبدأت حرب .. الخلف، معه الشعب والكنيسة، والسلف، معه الحاكم والجند، لا هذا يخضع ولا ذاك يتراجع.. إلى أن جاء عود الكبريت الذي أشعل الفتيل..

أحد أفراد الرعية مات، والميت يدفن بل إن إكرام الميت هو الإسراع فـي دفنه. قام المطران ابيفانوس بمراسم الجنازة، بطقوس الدفن ثم مضوا بـالنعش إلى الكنيسة. لكن الكنيسة في قبضة السلف والسلف يأبى أن يدفن ميتـاً صـلى عليه الخلف، فاصطدم البطلان كأنهما جبلان وحام فوق رأسيهما غراب البان..

الهواتف أطلقت أجراس الإنذار في دمشق.. والبرقيـات طـارت زاعقـة مولولة "فتنة في اللاذقية قد لا تنحصر بين المسيح والمسيح بل ربما تمتد إلـى أحمد والمسيح.. فقد دقت نواقيس الكنائس، تعالت الأصوات من المآذن، وكلهـا تطالب بالوقوف وراء أبيفانيوس كي يدفن ميته.

المفوض السامي هاج وماج، جنرالاته أرغواو أزبدوا "يجب كم الأفـواه.. اجتثاث الفتنة" وصدرت الأوامر إلى الكولونيل بالإسراع إلى اللاذقية كي يجتث الفتنة.

وصل الكولونيل إلى اللاذقية، طلب إلى أبيفانيوس الامتثال أمامه.. لكـن الراعي الخبير المجرب لا يسلم عنقه للذئاب.. "أمتثل" جاء الجواب "لكن بعد أن يدفن الميت، وينتقل السلف، وأستلم كرسي المطرانية"..

– يملي علي شروطه؟ صرخ الكولونيل بحامل الرسالة، ثم التفت إلى قائد الحامية.

– امنعوهم بالرصاص والنار.. وائتوني بأبيفانيوس حياً أو ميتاً.

الوقت العصر وحراب الجند تمنع الدفن.. أبيفـانيوس يخشـى أن تـتعفن الجثة، فيلومه البشر. تتفسخ بين يديه، فيعاقبه الرب.. وهو يكره اللوم والعقاب.

– اجتماع.. نادى بمن حوله من وجوه ليسوا للمسيح وحـده بـل لأحمـد أيضاً.. عقد الاجتماع، وفي الحال وضعت خطته..

– لا يدعنا نصلي عليه في الكنيسة، إذن لنصلِّ عليه في المسجد الجـامع، قال المفتي المتنور الذي يؤمن أن الله واحد والدين واحد، لا فرق بين نبي ونبي

ولا رسالة ورسالة، كلهم أنبياء الله، وكلها رسائل السماء..

في المسجد، صلى الرجلان معاً على جثمان الميت وقد بدأت الروائح تنطلق منه.... فالدود الجائع لا ينتظر والجراثيم لا تعرف الصبر. بعدئذ سار الحشد بالجثمان تختلط فيه تراتيل المسيح بنداءات أحمد "الله أكبر.. الله أكبر.." بدأت النداءات.. بعدئذ تطورت إلى هتافات "لا إله إلا الله.. أبيفانوس حبيب الله.." وفغر حاكم اللاذقية فاه، فيما جحظت عينا الكولونيل على سعتهما، وهو يسمع هتافات الجنازة "لا إله إلا الله.... أبيفانوس حبيب الله..".

– كم عدد الشرطة المدافعين عن الكنيسة؟ سأل الكولونيل قائد الحامية إلى جانبه، فأجاب الكابيتان وهو يكاد ينفلق حنقاً..

– فان، مون كولونيل!!

– ابعثوا سرية من الجند برشاشات ومدافع..

بسرعة تحركت السرية التي استنفرت من قبل.. بسرعة أخذت مواقعها، حتى إذا ما وصلت الجنازة إلى مقربة من الكنيسة، كان مائة وعشرون من الجند والشرطة يتربصون في أماكن مشرفة على الشارع يمكنهم منها أن يحصدوا الناس حصداً.

لكن خطة أبيفانيوس وصحبه أذكى.. بضعة عشر رجلاً كانوا قد جاؤوا ببواريدهم يرافقون الجنازة وبضعة عشر آخرون ببواريدهم التفوا حول الكنيسة. تسلقوا السور من خلف ثم انسلوا إلى أماكن يرون فيها الجند ولا يراهم الجند..

بهدوء ونظام كانت تقترب الجنازة.. الهتافات مازالت هي نفسها "لا إله إلا الله.. أبيفانوس حبيب الله..". الكابيتان يسمع من مكانه في الكنيسة فيشتد حنقاً.

– عودوا أدراجكم.. ارجعوا من حيث جئتم.. لن تدخلوا الكنيسة، جاء صوت المكبر ملعلعاً آمراً، لكن أبيفانوس أصم لا يسمع، جنازته تسير، صماء هي الأخرى لا تسمع....

ومن جديد تعالى الصوت:

– عودوا أو أطلقنا النار، لعلع صوت المكبر من جديد، لكن الجنازة لا ترد ولا تصد... بخطا موزونة كخطا عسكر في نظام منضم، تسير باتجاه الكنيسة.. أبيفانيوس في المقدمة، أركانه من حوله.. شيوخ وكهان.. في عيونهم تحد وفي صدورهم عزم.. ولعلع الرصاص في الجو. الكابيتان يرقب من عل بفرح.. وكل تصوره أن الجنازة ستتفرق أيدي سبا، لكن الجنازة لم تتفرق، بل

في اللحظة ذاتها اندفعت نحو الكنيسة سيلاً هادراً وبصوت واحد يصم الآذان: "لا إله إلا الله.. أبيفانوس حبيب الله.." فيما انطلقت من جانبيها كليهما لعلعة رصاص، ومن خلف الكنيسة والجند لعلعة رصاص، أجفل الكابيتان وهو يرى النار تشتعل من حوله والموت يتهدده من كل جانب.. فالجنازة لم تكن مسالمة تماماً وأبيفانوس كان يعرف قيمة الرصاص.. في اللحظة التالية كان الكابيتان يجري مطأطأ الرأس محني الظهر إلى مبنى الكنيسة يحتمي فيه من الرصاص فيما التفت الجند إلى الوراء، إلى الأمام فوجدوا أناساً متمترسين خلف سياج المقبرة، خلف حائط الكنيسة، فوهات بنادقهم مسددة وأيديهم على الزناد.. كانوا بين نارين: نار من أمام ونار من خلف.. والرصاص يلعلع في الجو رشاً ودراكاً مهدداً بالانهمار عليهم وابلاً من مطر.. فيما سيل البشر يندفع بالجنازة غير هياب ناراً ولا رصاصاً.. الاندفاعة، لعلعة الرصاص، الأصوات الهادرة كلها تحولت في نفوس الجند إلى ذعر واضطراب، تحولا بدورهما إلى بلبلة وهروب، خشي الكابيتان معه أن يجد نفسه وحيداً فولى هو نفسه الأدبار.. دخلت الجنازة الكنيسة، صلى المطران على الميت، عن يمينه الشيوخ وعن يساره الكهان وخلفه الحشود الغفيرة وقد اختلط فيها أحمد والمسيح، صلوا صلاة المسيح، بعد أن صلوا صلاة أحمد ثم مضوا بالميت إلى مثواه الأخير.

– قد دفنوه وانتهى الأمر!! قال مطران السلطة للكولونيل وهو يضرب كفاً بكف، أية هزيمة!! أي عار!!

– نخرجه ونلقي به في الطريق!!

– لا.. لا يصح إخراج الميت.. لا يصح الانتقام من الميت، سيرتد هذا وبالاً علينا من الناس، رد المطران وقد استيقظت فيه بقية من ورع وكثير من خوف.

– ماذا تريد أن تفعل إذن؟

– ننتقم منهم هم، نقتلهم.. أبيفانوس، الشيوخ، الكهان، وجوه المدينة، صاح المطران المهزوم بحماسة واندفاع لا يتأتيان إلا عن أشد الحنق..

– أجل.. سأزجهم جميعاً في السجن.. سأعاقب المدينة كلها.. سأقصفها بالمدفعية..

.. هدر الكولونيل الهائج المائج الذي كان ذات يوم يتكلم عن الحضارة والمدنية، الإنسانية والأممية..

لكن قبل أن يقصف المدينة اتصل بالمفوض السامي يطلب منه الاذن، فأرغى المفوض وأزبد.

– قلت لك اجتث الفتنة فتزيدها ضراماً.. دع كل شيء وعد إلى دمشق.

حين وصل الكولونيل إلى دمشق حانقاً، وقد فاتته فرصة قصف اللاذقية، كان عزيز قد وصل إلى البطحيش، وكانا يجلسان معاً في عش النسر، ذاك الذي لا يستضيف فيه أحد غير عزيز، يتحدثان حول شغلهما الشاغل: الكولونيل.

– يحاصرك أنت وزوجتك؟ سأله البطحيش بعد أن روى عزيز قصته كاملة...

– منذ سنين يحاصرنا، واليوم يحكم الطوق، يشد الأنشوطة حول عنقنا ولا ندري متى يدفع بالكرسي من تحتنا..

رد عزيز مكملاً شرحه.

– خسئ.. هو ودولته!! لن يستطيع ذلك.. قال البطحيش بحمية عالية وحماسة حامية، ففرح عزيز.

– حياك الله.. أعلم أنك لها أبا حسن!! لكن.. ما أريده فقط هو خبرتك وخططك وأنا أكمل البقية...

– لا والله!! هتف البطحيش بنبرة الزجر، لا يكفيك شره سوى هذا الزند، وشمر البطحيش عن زند أسمر مفتول العضلات. بهذا الزند سأدق لك عنقه..

– بل ندقه معاً.. عملية مشتركة من عملياتنا تلك.. عقب عزيز بمزيج من الحسم والرجاء، هو الذي يعلم أن البطحيش إن قال فعل، وإن عزم على أمر نفذ.

– حسن، قال البطحيش، وهو يهز رأسه مبتسماً، غداً نذهب معاً وننفذ معاً..

– بل أذهب وتلحق بي.. أستطلع حركته، أدرس نظام حياته حتى إذا جئت نفذنا على الفور.

في الصباح، وكانا يجلسان على مائدة الإفطار، سمعا الباب يقرع قرعتين ثم قرعة مفردة.. أجفل عزيز، هو الذي يعلم أن عش النسر لا يزوره أحد...

– من عساه؟ سأل عزيز صاحبه وقد بدا شيء من الذعر في عينيه..

– لا عليك، قال مطمئناً وهو ينهض، إنه التيناوي..

– أي تيناوي هذا؟ سأله عزيز محتجاً وقد غاب عن ذهنه ما رواه له عواد ذات يوم..

– صاحب جديد.. اطمئن.. هو منا.. سأعرفك عليه..

– أوه!! ذاك الدركي الذي حبسه الفرنساوي وسرحه، قال وقد تذكر القصة فجأة..

– أجل.. لقد صار صديقي المخلص..

– لا.. أرجوك أبا حسن.. لا تدخله..

– قلت لك اطمئن يا رجل!! هو وطني مخلص.. سأحكي لك تفاصيل قصته، وكيف تعرفت عليه فيما بعد.. لكن الآن يجب أن تتعرف عليه أنت.. وتخلص البطحيش من يد عزيز الممسكة بثوبه، ثم اندفع خارجاً، وقد جاءت القرعات الثلاث كسابقتها، قرعتين معاً ثم قرعة مفردة.

موجة من القلق اجتاحته وهو يصيخ السمع لخطا البطحيش تبتعد حتى الباب ثم صوت الباب وهو يفتح، ثم همساتهما كليهما وهما يعودان صديقين حميمين يتبادلان الترحاب. "أيعقل هذا!؟ البطحيش يعطي سره لأحد؟ يأمن لأحد؟ "لكن وجه البطحيش الهاش الباش، وهو يدخل بصاحبه أوقف كل تساؤل.

– محمد التيناوي من دمشق.. صديق عتيد ومكافح عنيد.. بدأ البطحيش التعارف مازحاً، مشيراً بيده إلى التيناوي الذي كان يسد الباب بقامته الطويلة ومنكبيه العريضين ورأسه الكروي الضخم، عجلاً أحسنت تغذيته.

– أهلاً، بدأ عزيز وهو يمد يده مصافحاً، ثم لمعت في رأسه فكرة، فبادر مستبقاً صاحبه: محسوبك أبو العز الدهمان من عقيدات حمص، قال بلهجته البدوية التي يتقنها جيداً، ثم نظر إلى البطحيش فرآه فاغر الفم وكأنما أدهشته الكذبة.

– أهلاً وسهلاً سيد أبا العز، رد التيناوي بلهجته الشامية الرقيقة، وهو ينقل نظره بين المضيف وضيفه، لم أكن أعلم أن لك صاحباً يأتي إلى عش النسر سواي. تابع بشيء من الضحك، ربما ليدلل على مكانته لدى النسر نفسه..

– تفضل، شاركنا إفطارنا، قال البطحيش وهو يتحاشى متابعة التعارف، كأنما انتقل إليه توجس عزيز وحذره!!

على طبق الطعام، كان ثمة بيض مقلي، لبن، وبضعة أرغفة من خبز التنور المحمر المقمر.. لم يدعه يعيد الكلمة، بل سارع يجلس الربعة بين البطحيش وضيفه، وبتباسط شديد ورفع كلفة ظاهر، هشم التيناوي الرغيف وشرع يأكل. نظرة متسائلة وجهها البطحيش لعزيز، فردها عزيز استهجاناً وتحذيراً...

– العقيدات!؟ بدأ التيناوي حديثه وقد ألقم فمه لقمة مزج فيها البيض باللبن، أنا أعرف العقيدات كلها.. من أي فخذ انت؟

لحظة من الزمن، أرتج على عزيز متململاً في جلسته، متلفتاً حوله، وكأنما يستنجد بصاحبه..

– أبو العز من البوصليبي.. أنجده البطحيش في الحال فتنفس عزيز الصعداء.

– عجيب!! ابن مدينة وتعرف القبائل والأفخاذ؟ تابع عزيز بنبرته البدوية نفسها وقد تماسك تماماً...

– المهنة يا صاح.. المهنة تعلمك.. والترحال يوسع دائرة معارفك.. رد التيناوي هازاً رأسه ضاحكاً.. رأى البطحيش صاحبه يزداد استهجاناً واستغراباً فتدخل:

– لعلمك، محمد كان في سلك الدرك، والدرك ينتقلون..

– كل شهرين، ثلاثة في مخفر.. تابع التيناوي قبل أن يبدي عزيز المزيد من الاستغراب: حمص، حماه، دمشق، السويداء، درعا.. كلها أعرفها.. مخافرها، أهلها، قبائلها.. مهنة سيئة، لكن لها محاسنها ولا شك...

– لكنني لا أفهم، بدأ عزيز من جديد متجاهلاً معرفته بأي شيء، يتنقل بناظريه بين البطحيش وصاحبه الجديد، دركي سابق وصديق البطحيش!!؟

– لا.. لا تعجب، رد البطحيش نفسه متضاحكاً. لهذه قصة طويلة سأرويها لك.. لكن تأكد.. التيناوي مأمون مضمون كاليد اليمنى لليسرى...

ضحك التيناوي ضحك الفرحان بمديح مس شغاف قلبه، فيما اكتفى عزيز بفتح عينيه أكثر وفغر فيه أكثر، وربت البطحيش كتف صاحبه ثم سأله: اي.. قل لي.. ما الأخبار؟

– ليس هناك سوى أخبار اللاذقية.. بدأ التيناوي على مهل وكأنما يريد استنفار الأسماع وإثارة السامعين.

– اللاذقية!! هتف الرجلان كلاهما معاً لينفرد عزيز، ماذا في اللاذقية؟

– تمرد.. ثورة.. شيء هز الحكومة هزاً.. ثم روى لهما كل ما يعرفه عن ذلك الشيء الذي هز الحكومة هزاً.

– ماذا؟ الكولونيل رينو بنفسه ذهب إلى هناك.. علق عزيز وهو يسمع الخبر المفاجئ، ناظراً إلى البطحيش نظرة استغراب ودهشة.

– ويقولون: هو خائف غاضب يخطط لقصف المدينة، لقلب عاليها سافلها..

– يفعلها الوغد، علق عزيز وقد عجز عن كظم ما في نفسه من غيظ.

– أنت تعرفه!؟ سأل التيناوي بصورة مفاجئة جعلته يجفل متنبهاً ..؟....

– يعرفه؟ بادر البطحيش مستبقاً صاحبه، من أين؟ لكن أبا العز يعرف سفالة هؤلاء المستعمرين، يعرف نذالتهم..

– كلنا نعرفها.. قال التيناوي وهو يتنهد، ناظراً إلى عزيز. إيه!! لو تعرف ماذا فعلوا بي!! التعذيب، الضرب، السجن، مجرمون هؤلاء المستعمرون، سفاكو دماء..

– دعك من هذا.. تيناوي.. قاطعه عزيز وقد صار كتلة من الاستطلاع. وقل لي.. ماذا تعرف أيضاً عن اللاذقية؟.

– ماذا عن اللاذقية؟ رد وهو يمسح آخر لقمة من صحن البيض، فتنة..

– لا تقل فتنة يا رجل، احتج عزيز بانزعاج واضح.. طالما الناس كلهم وراء ابيفانيوس وضد المستعمر.. إذن هي ثورة..

– ثورة.. بالتأكيد.. رد التيناوي منخفض النبرة، مطأطئ الرأس. أجل.. هي ثورة مباركة لا تواخذني..

– والكولونيل!؟ أمتأكد أنه ذهب إلى هناك؟ سأله البطحيش من جديد، مستغرباً أن يكون القدر قد تدخل ففر به إلى اللاذقية..

– طبعاً، متأكد.. كلهم يقولون ان المفوض لا يثق إلا به، لهذا أرسله يحل المشكلة وينهي الفتنة.. عفواً الثورة..

– تقصد سيظل في اللاذقية.. لن يعود؟ سأله البطحيش بانزعاج..

– لا أدري.. ما أدريه أنه ذهب وحسب..

تبادل عزيز والبطحيش النظرات على عجل وكأنما يقول واحدهما للآخر

"هذا الطارئ يقتضي إعادة النظر بالخطة "فيما بدا التيناوي منشغلاً بجرع كأس الشاي حتى الثمالة..

– اسمحا لي، قال وهو ينهض فجأة، خير لي أن أذهب..

– تذهب؟ أين ولما تأت بعد؟ سأله البطحيش دون أن يقف.

– لا.. لا.. رد التيناوي متضاحكاً، مشيراً إلى عزيز، يبدو أن بينكما أسراراً لا تريدانني الاطلاع عليها.. أراك فيما بعد، معلمي! خاطب البطحيش وقد صار عند العتبة ثم مضى دون أن ينتظر الرد.

– كيف تثق برجل كهذا؟ سأل عزيز وهو يهب محتداً غاضباً، ما إن سمع صوت الباب الخارجي يغلق.

– لهذا غيرت اسمك وشخصيتك؟

– ماذا تريدني.. أن أعرفه بنفسي على حقيقتها؟

– لكنه موضع ثقة، أنا سألت عنه ودققت، رد البطحيش وقد فاجأه غضب عزيز المباغت..

– دركي خدم الاستعمار سنين وتنقل في رحاب عمالته سنين يصبح فجأة موضع ثقة؟ لا.. لا.. أنا أشك به كل الشك وأحذرك منه كل التحذير.. قال وهو يشير بسبابته إشارة التحذير، ثم انحنى فجأة على البطحيش.. بل قم الآن.. انهض، ما أظنه ذهب إلا ليأتي لنا بجلاوذته.

– ماذا تقول يا رجل؟ رد البطحيش وكله شك وعجب.

– أقول لك انهض.. يجب أن نخلي البيت في الحال.. قال عزيز وهو يشده من يده منهضاً إياه، مسرعاً به خارج الغرفة لكن عند العتبة فقط، ثبت البطحيش قدميه في الأرض متسمراً في مكانه ثم قال:

–اذهب أنت.. أما أنا فسأبقى..

– سيمسكون بك...

– لا تخف علي.. ثمة مخبأ هنا يمكنني أن أراقب منه دون أن يعرف بمكاني أحد.. فإن جاؤوا، صدق ظنك، أما إن لم يجيئوا..

– جاؤوا.. لم يجيئوا.. أنا واثق أنه عميل.. فاحذر منه.. واقطع كل صلة لك به..

– سأقطع عنقه إن كان ذلك صحيحاً.. اسبقني إلى دمشق.. تأكد فقط من

مكان وجوده. الخطة قائمة ولسوف تنفذ.. هيا.. سافر.. ألحق بك في مثل هــذا اليوم من الأسبوع القادم.

ومضى عزيز إلى محطة القطار، عين إلى الوراء وعين إلى الأمام، كأنما ينتظر أن يظهر لـــه في كل لحظة رجال الأمـــن المقنعـــون بأقنعـــة المدنيـــة والحضارة، ثم وصل إلى دمشق وهو مشغول البال على البطحيش، فقـــد أثـــار التيناوي في نفسه عاصفة من الشك والارتياب لم يعرفها من قبل..

لكن دمشق بحر من الشواغل والهموم، ما إن دخل فيه عزيز حتى غسلت أمواج شكه وارتيابه، وطردت شواغله الجديدة شواغله القديمة، مثلمـــا يطـــرد دائماً الجديد القديم:

مناف رسب في شهادة البكالوريا للمرة الثانية.. هو يكره الفرنسي، يكـــره الرياضيات، لا يفقه شيئاً في الفيزياء، فكيف ينجح؟. أول سنة سامحه عزيـــز.. معظم الطلاب لا ينجحون من السنة الأولى.. لكن سنة ثانية ويرسب؟ عواد ظل معه طوال السنة، يدرسه الفرنسي، الرياضيات، الفيزياء، لكن ها هو ذا يرسب. "هو لا يحب الدرس" كانت أمه قد نبهته أكثر من مرة "لكنه كـــان بارعـــاً فـــي المدرسة"." حتى الصف العاشر وقبل أن يراهق"." إلـــى هـــذه الدرجـــة تغيـــر المراهقة؟" "لم لا، وقد صار عقله في مكان آخر؟" بدأت تشرح له.

كان عزيز قد علم، من هنا وهناك، أن عقل الولد عنـــد خيريـــة، ابنـــة أم روضة، التي تفوق روضة جمالاً ودلالاً. من الكوى يختلس واحدهما النظر إلى الآخر، عند الباب، على السطح، عبر الشبابيك يلتقيان، هما دائمـــاً فـــي شـــغل شاغل خلاصته "كيف يلتقيان؟"، ولا يعدمان وسيلة لذلك.

..فكيف لا يرسب مناف؟.

– سيظل يعيدها إلى أن ينجح، قال عزيز لشمس وقد احتقن وجهه غضباً.

–وما الفائدة؟ ردت شمس هازة رأسها يأساً، إن كان الولد لا يطيق الكتاب ولا الدرس، لماذا نرغمه على ذلك؟ دعه يتفرغ للعمل، زوجـــه وارتـــح مـــن همه...

وأطرق عزيز يفكر دون أن يجد فرصة لاتخاذ قرار.. بدور نجحت فـــي "البروفيه"، لكن المشكلة: هل تقعد في البيت أم تتابع الدراسة؟ بنـــات الجيـــران كلهن يقعدن في البيت، بل معظمهن لم يذهبن إلى المدرسة وإن ذهبت واحدتهن فلكي تتعلم القراءة والكتابة فقط". ولماذا وجع القلب؟ "كان سؤال أم روضة الذي

يلخص موقف حريم الميدان.

"البنت للبيت ولشغل البيت فلماذا المدارس والتعب؟" بدور من القلة القليلة التي عرفت طريقها إلى المدرسة. الأعين تلتهمها في الغدو.. والذهاب، الألسن تسلقها في الأزقة وخلف الحيطان، فهل يستطيع عزيز التحمل أكثر أم حسبه؟ شمس طموحة... منذ البداية أرادت أن تكون بدور امتداداً لها، تجسد كل ما ينقصها، تحقق كل ما لم تستطع تحقيقه ودفعت بها، مشجعة دائماً حاثة دائماً، فكيف تهن عزيمتها الآن؟.

– اسمعي مني، الناس كلهم يقولون حسبها "البروفيه".. قال عزيز وهو يخشى أن يكون قد بلغ آخر حدود الاحتمال..

– أتسمع كلام الناس؟ أتفت في عضدك ثرثرات الناس؟.

– لا أدري.. رد بشيء من تردد وحيرة، أخشى..

– لا.. لا تخشَ شيئاً، قاطعته شمس وقد عادت لها ثقتها بنفسها وشدة إصرارها. دعها تكمل تعليمها.

على العشاء تداولت الأسرة في الأمر.

– بدور، حبيبتي، سألها الأب وهو يشد كتفها بذراعه حباً وحناناً: أخبريني، تريدين أن تستريحي أم تكملي تعليمك؟

– بل أكمل.

– كيف ومدرسة البنات بعيدة؟

– أنا أحب التعليم.. دعني أذهب إلى دار المعلمات..

– معلمة!؟ رددت الأم بإعجاب وفخر.. تعجبني المعلمة!!

– وعملها رائع، تدخل عواد الذي كان منذ زمن طويل يعامل فرداً من أفراد الأسرة. بل ليس هنالك أسمى من عمل المعلم. ألم تسمعوا قول الشاعر "كاد المعلم أن يكون رسولا"؟ ومضى عواد يشرح ببلاغة منقطعة النظير فوائد تلك المهنة وعظمة أصحابها، محامياً لا يشق له غبار..

– ماذا؟ وجدتها مناسبة ترافع فينا حضرة المحامي؟ سألته شمس ضاحكة، إذ لم يكن يفوت فرصة يستطيع فيها المرافعة عن شيء إلا وينتهزها، لكأنما هي طبع متأصل في كل محام: يجرب عزمه في ساحات القول والكلام...

– محام!! وأنى لي المحاماة؟ قال عواد، وهو يتنهد حسرة على سنتين

ضاعتا منه في كلية الحقوق، دون أن يتجاوز السنة الثانية.

– لا تخف، ستصير محامياً.. لسانك يؤهلك لذلك، تابعت شمس وهي تضحك، فيما كان عزيز يفكر بالاقتراح الذي يحمل له جملة من الشواغل والهموم الجديدة، فالقبول في دار المعلمات لا يأتي على طبق من فضة، بل لابد من تدخل شخصية من الشخصيات أو واسطة من الوساطات.

– نواف جاءه توءم من البنات، هكذا جاء الخبر من القرية.. دملجة، كأمها، خصبة معطاء.. ربما ستصنع له خلال عقدي سنين عشيرة من.. البنات والبنين.

– يجب أن نذهب إليهم، نبارك ونرى الأحفاد.. اقترحت شمس وقد ضمهما مخدع النوم، فهز عزيز رأسه نفيا..

– مستحيل.. أنا بانتظار صاحبي.. غداً يأتي وننفذ المهمة، قال شبه هامس وكأنه يخشى أن تكون للآذان حيطان.

– لا تدعه يأتي هنا.. ردت وقد عرفت كل ما اتفق عليه مع البطحيش.. الحي مزروع برجال الكولونيل..

– ماذا تقولين؟

– الكل يؤكدون: ثمة عيون في الحارة.. غرباء يأتون ويذهبون وكأنهم يراقبوننا.

– الخطر يشتد إذن، والأنشوطة تضيق؟

– لهذا.. خير لنا أن نبتعد.. اقترحت، هي التي مازالت تفضل فكرة الهرب..

– بل خير لنا أن نخلص منه.. قال وهو يكز على أسنانه مؤكداً كل حرف..

– لكنني خائفة.. أخشى أن نقع في ورطة أشد..

– لا تخافي.. أنا سأظل بعيداً.. هو سيفعل كل شيء، قال وهو يشير إلى صاحبه البعيد، الذي لم تكن شمس قد رأته أو عرفته.

– لا أخاف؟ كيف، والخطر يحدق بي من كل جانب؟

– أين إذن الفارس الملثم؟

– إيه!1 ردت شمس متنهدة وعيناها تشردان بعيداً. يالتلك الأيام!! الخوف،

الحزن، الهم، الغم، كلها لم يكن يعرفها الفارس الملثم.. أما اليوم فما الذي منهـا لم تعرفه شمس؟ أي قلق لم تعشه وأولادها قربها أو بعيـدين عنهـا: منـاف، نواف، بدور.. بل حسبها الأخضر ذاك الذي جرفه سيل هتلـر وهـو يكتسـح باريس. خبر صغير كان قد أوصله الكولونيل: "الأخضر رحل إلى الجنوب مع أهلي". ثم ماذا؟ لا أحد يعلم، كانت فرنسا ما تزال بحـراً مـن الاضـطرابات والقلاقل. وكان عزيز نفسه قلقاً، لكن إحساساً ما في داخله يؤكد له أن الأخضر رجل، والرجل لا يخشى عليه... هو يصرح لها بأحاسيسه تلك، لكن كبـد الأم تأبى إلا أن تنفطر على فلذتها وقد ضاعت آثارها.

"إيه!! يا للزمان!!" همهم في سره وهو يرى الدموع على خديها. "كم تتبدل مشاعر الإنسان!! كم يتغير الإنسان!!" وألقى عزيز بنفسه إلى جانبها فلم تحرك ساكناً، كفاه تحت رأسه، عيناه إلى السقف، وهي جامدة في الفراش، خامـدة.." حين كنت أعود من غياب كنت أجدها على أحر من الجمر، تنتظرنـي وكلهـا لهفة وشوق، فلماذا لا جمر اليوم ولا حر؟ لا لهفة ولا شوق!؟ أمات حبها لـي؟ أخمد الجسد فلم يعد فيه حر الحب ولا جمر الشباب؟" يتساءل وهو يتطلع إلـى نفسه في مرآة الخزانة.. هو نفسه خامد بارد" لا... مازال حبي لشمس راسـخاً قوياً.. روحي معلقة بها حتى ليخيل إلي أنها إن قطعتني مت.. لمـاذا الخمـود إذن؟ لماذا الهمود؟ أنا نفسي لا أشعر بما يدفعني لأن أهصر الجسد.. لأن أضم وأشم، أقبل وألثم.. أهو العمر إذن يفرغ العظام من نقيها؟ الشرايين من دمائها؟ أهي الكهولة تسحب أشواق الجسد حتى تجعله خواء إلا من المشاغل والهموم؟"

– بماذا تفكر؟ سألته دون أن تنظر إليه.

– بماذا تفكرين؟ غمغم وهو يقترب بيده من صفحة خـدها التـي طالمـا سحرته؟.

– وهل هناك شيء لا أفكر فيه!؟ الأولاد وهموم الأولاد؟

– أترين؟ نخلف الأولاد ليلتهمونا.. عناكب تأكلها فراخها..

– لعل هذه هي سنة الحياة، غمغمت وكأنما تحدث نفسها، دون أن تعيـر انتباهاً لليد التي كانت تمسد صفحة الخد، فقد كان كل ما فيها هامداً بارداً كطين الشتاء.

في اليوم التالي، رحلت شمس إلى ابنها نواف.. كانت دمشق قد أصـبحت بالنسبة إليها شبحاً مخيفاً لا يفتأ يحوم أمام عينيها هنا وهناك، باثـاً فـي قلبهـا

الذعر. وكان نواف، القرية، البادية، كل ما هو خارج دمشق يفتح لها باب الحرية على مصراعيه، باب الأمن والأمان، فكيف لا تسرع إليه؟.

– الحق بي بأسرع ما تستطيع، نصحت عزيزاً وهي تودعه، لكن عزيزاً لم يكن بحاجة لنصيحة.. كان هو الآخر يريد الخلاص.. يريد الحرية، لكن كيف، وسيف الكولونيل مسلط فوق عنقه؟

– أنهي المهمة والتحق بك، وعدها وهو يعلم أن قتل كولونيل فرنسي في قمة الهرم من السلطة أمر دونه خرط القتاد.. صحيح أنه فكر بالأمر دون أن يرف له جفن. خطط له، دون أن يساوره خوف، لكن التخطيط شيء والتنفيذ شيء آخر..

مهمات كثيرة كان قد قام بها من قبل: جند، سرجانات، أجضانات. لكن هذا كولونيل، .. وما الفرق؟ "راح يتساءل وهو في طريقه إلى المحل. الرجل الذي تكمن له ثم تغمد في صدره خنجرك أو تزرع في جسده رصاصك هو رجل سواء أكان نفراً أم جنرالاً.. لا.. عزيز لا تخف"، في المحل روى صبري له قصة اللاذقية أيضاً، لكن بعد أن أضاف "المفوض السامي ناقم على الكولونيل.. سحبه من اللاذقية في ليلة لا ضوء فيها، والكولونيل يا كباه!! يا تعساه!!" ورفرف قلب عزيز فرحاً.. ثم أسرع يغادر المحل..

بأعصاب باردة ذهب يسأل عن الكولونيل. يستطلع حركته.. نظام حياته. الحراس حول بيته تحاشى نظراتهم، العيون في حارتهم راوغهم، فعليه حين يأتي البطحيش أن يكون قد عرف كل شيء.

– مساك الله بالخير، أستاذنا! بادر عزيز الأستاذ، وقد دخل المقهى الذي بات لا يفارقه.

– أبا الأخضر! رد الأستاذ شبه شاهق، أين أنت يا رجل؟ إني والله لمشتاق!

عزيز معجب بلغة الأستاذ وفصاحته، بعلمه وضلاعته، إعجابه بفهمه في الحياة وكفاحه في ميدان السياسة.

– ماذا؟ أراك وحيداً، قال عزيز وهو يتلفت حوله. بل أرى المقهى شبه خاو: .. تابع وهو يرى جاسوس الكولونيل يحتل إحدى الطاولات القريبة.. مارأيك. نذهب إلى البيت؟

– نذهب.. رد الأستاذ وهو ينهض ضاحكاً، غامزاً باتجاه الجاسوس، ولم

لا نذهب؟

على جناح السرعة أعدت لهما وضحة العشاء، وعلى العشاء راح الأستاذ يصول ويجول.

- صارت الحرب عالمية حقاً.. روسيا، أمريكا، أوروبا، أفريقيا، آسيا، كلها بلغتها نارها..

- لو تبلغنا هنا فتحرق بلهيبها هؤلاء الفرنسيين..

- هي بالغة.. كن على يقين، أكد الأستاذ الذي يتابع أخبار السياسة لحظة بلحظة ويكتب عن السياسة يوماً بيوم ويشارك في صنع السياسة على الدوام. بعدئذ حدثه عن اللاذقية التي كادت تشعل فتيل الثورة في البلاد، ثم انتقل إلى العراق حيث اشتعلت ثورة هناك، وحيث رشيد عالي الكيلاني يهز بيده عرش بريطانيا العظمى أو يكاد.

- كم ذا يبشر بالخير!! هتف عزيز فرحاً.

- ما يبشر بالخير، الشقاق الخطر الذي دق اسفينه بين الفرنسيين أنفسهم.

- تقصد ديغول.. بدأ عزيز فتابع الأستاذ.

- طبعاً!! طبعاً!! ديغول وحكومة فرنسا الحرة.. وبيتان وحكومة فيشي.

بعد ئذ اقترب هامساً بكثير من الفرح، يقولون ان حرباً في كل مكان ستقوم بينهما.

- يا إلهي!! أي نبأ مفرح أستاذ!! كم أنا سعيد به!!

- ولسوف تكون أسعد حين تسمع الخبر الطازج.. قال الأستاذ ثم توقف متفحصاً عزيز، وكأنما يبحث عن أثر من الإثارة عليه.

- أي خبر طازج!؟

- الديغوليون والإنكليز يريدون وضع يدهم على سورية..

- كيف؟

- المفوض السامي أعلن ولاءه لحكومة فيشي، لكن ضباط الجيش منقسمون.. بعضهم ديغوليون وبعضهم فيشيون..

- عظيم.. وماذا بعد؟

- الإنكليز وجدوها فرصة سانحة.. يضربون بديغول هتلر وحكومة فيشي ويستولون على مستعمراتها..

– كم هم ثعالب ماكرة هؤلاء الإنكليز! علق عزيز ملوحاً برأسه..

– هذه الثعالب الماكرة قادمة إلينا هنا!!

– حقاً.. أستاذ!!

– حقاً وصدقاً!! المعلومات تقول: قريباً.. .. ستنطلق الشرارة هنا، ويقتتل الفيشيون مع الإنكليز والديغوليين على سورية..

– ومن تحسبه ينتصر أستاذ، الفيشيون أم الديغوليون؟.

أياماً ظل ذلك السؤال دون جواب، وأياماً ظل الشغل الشاغل لكل مهتم بالسياسة في دمشق.. أينتصر الجنرال ديغول وإنكليزه، أم المارشال بيتان ونازيوه؟ كان ديغول قد أعلن فرنسا الحرة حليفة لبريطانيا العظمى، داعياً الفرنسيين للالتحاق بجيشه ذاك الذي سيقاتل النازي حتى آخر رمق، يحرر فرنسا، مهما كان الثمن.. صوت ديغول بات يسمعه العالم كله، وهو يهدر من لندن مهدداً بالانتقام من النازيين، منادياً بالثأر لكرامة فرنسا الجريحة. حكومة فيشي، رفضت نداءه، بل اعتبرته متمرداً خائناً، وبدأ الفرنسيون ينقسمون: أناس يريدون القتال مع ديغول، وآخرون يريدون الاستسلام مع فيشي..

.. الانقسام بين الطلاب، العمال، الفلاحين، بل هو في الدولة، الإدارات، الجيش...

جيش الشرق نفسه منقسم على نفسه. شرخ عامودي شطر الضباط، الجند، القادة شطرين: كلاهما متحمس لصاحبه، مدافع عن موقفه.. المفوض السامي شطر والكولونيل شطر آخر. أحداث اللاذقية زادت الشرخ بينهما، توبيخ المفوض السامي وتهديده له زاد في قلب الكولونيل الحقد.. ومع بوادر تحرك الإنكليز من فلسطين وشرقي الأردن، عقد المفوض السامي اجتماعاً لأركانه.. ظهر الانقسام فيه على أشده.. المفوض السامي يريد قتال القادمين والكولونيل يريد الانضمام إليهم.. الاجتماع بدأ بكلام وجدال، ثم انتهى بصراخ وصدام، أعقبه فجر اليوم التالي برقية عاجلة طيرتها حكومة فيشي إلى دمشق؛ "اعتقلوا الضباط الديغوليين جميعاً"..

في الهزيع الأخير من ذلك الليل، وصل البطحيش إلى بيت الميدان.. ومع الفجر، مضى مع عزيز إلى الكولونيل، ينفذان المهمة. لكن ما إن وصلا قرب منزله حتى فتحا عيونهما على سعتها: كان ثمة مصفحة وكان الكولونيل يحشر فيها أشعث الشعر موثق اليدين، مكبل الرجلين، ثم بسرعة البرق تنطلق به على

طريق بيروت... "الفيشيون ينتصرون "جاء جواب السؤال، فلم يملك عزيـــز إلا أن يطلق تنهيدة طويلة وكأنه يتنفس الصعداء...

-12-

– البشرى لك. قال عزيز شبه هامس وهو يأخذ زوجته بين أحضانه.

– خير؟ أية بشرى؟ سألته شمس شبه هامسة أيضاً، وهي تستقبله عند باب دار القرية العريض العالي الذي تدخل منه سيارات وعربات بخيولها.

– بشرى تفرحك كثيراً، بل قولي هي بشرى مزدوجة.. بدأ عزيز على مهل لكنه لم يستطع أن يكمل فقد ازدحم من حوله المستقبلون: أخوه يونس، ابنه نواف، عليا، حفيظة، دملجة، أولاد يونس، أولاد الجيران، جيران الجيران، فالغريب حين يصل إلى القرية يستقبله كل من القرية.. هم يعرفون مواعيد "البوسطة" التي تذهب باكراً إلى المدينة محملة بكل ما في البادية، القرية من منتجات وغلال: خضار، بيض، حنطة، شعير، غنم، دجاج، صوف، أسمان، ألبان.. والقائمة تطول، لكنها حين تعود عصراً تكون محملة بأشياء أخرى كلها للاستهلاك: سكر، شاي، قهوة، أقمشة، معدات، مصنوعات.. والقائمة تطول أيضاً. الكل في القرية فرحون بـ"البوسطة" التي حلت محل العربات والدواب.. عزيز يتذكر كيف كان يسافر على فرسه الشقراء من حماة إلى القرية وبالعكس. يونس يذكر جيداً كيف قطع جنزير العربة اصبعه حين هاجت خيول العربة وكادت توديه في داهية.. الآن لا عربة ولا خيول.. لم يعد هناك حاجة لأن يقضي واحدهم الليل بطوله وربما نصف النهار كي يقطع المسافة بين أم العيون وحماة!!.. ساعتان أو ربما ثلاث ساعات، ثم تجد نفسك في المدينة: "هذا هو العلم: اختصار للزمن وتوفير للوقت والجهد".. في الصباح خرج من دمشق وها هو ذا العصر في القرية.. فأي إنجاز حققه العلم!! أي تقدم حققه الإنسان!!

السلامات الحارة، القبل، الأخذ بالأحضان، كلها شغلت عزيزاً عن شمس وعن بشراه المزدوجة، لكن ما إن وقف على طرف الجرن الأزرق حتى عادت

تسأله. كان يغسل يديه ووجهه من ماء البئر التي لم يحفرها علي المر، بل وجدها محفورة منذ عصور خلت ومغطاة برقاقة حجرية، رفع الرقاقة عنها فوجد الماء، كما وجد في إحدى التباب التي حفروها ذات يوم الجرن المصنوع من حجر أزرق والذي يتسع لبرميلي ماء. نقله إلى جانب البئر ليصبح مغسلة ومنهل ماء للإنسان والحيوان.

– الكولونيل طار.. أجابها فرح في صدره كان ما يزال يتواثب مذ تنفس تلك الصعداء.

– طار؟ ماذا تعني؟ قتلتماه؟ سألته بأخفض نبرات الهمس والخوف.

– كنا على وشك ذلك.. لكن ربك كريم.. لوح عزيز برأسه وهو يرد ضاحكاً ثم روى لها القصة من الألف إلى الياء...

– يا إلهي! ما أعدلك وأرحمك!! هتفت شمس متنفسة هي الأخرى الصعداء...

– ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أخالها لا تفرج. ردد عزيز بيت الشعر دون أن يذكر كيف أو متى حفظه...

– تقصد.. قضيتنا انتهت!؟ هز عزيز رأسه بالإيجاب وهو يرشق وجهه بالماء فتابعت! لن يتابعها أحد؟.

– لا.. لا أظن.. ثم شرح لها عزيز كيف تغير كل شيء بعد ذهاب الكولونيل...

العيون التي كانت ترصد الحارة، الجواسيس الذين كانوا لا يبرحون أزقة الحي وعيونهم على منزلنا.. جميعاً اختفوا ما إن حملت المصفحة كولونيلهم إلى بيروت..

– الله!! هتفت شمس فرحة.. كم كنت سأسر لو رأيتهم يحشرونه أشعث الشعر، موثق اليدين، مكبل القدمين في المصفحة..

– أنا رأيته وفرحت عني وعنك..

– والحارة؟ سألته شمس بإشارات معينة من يديها.

– طوال خمسة أيام ظللت أنا والبطحيش نرقب ونرصد، لكن كل شيء كان هادئاً. الحارة خالية، لا غرباء ولا عيون.

– إذن، انطبق عليه المثل "صياد وصادوه". علقت شمس ضاحكة، فضحك

عزيز. "التعليق نفسه علقه البطحيش"، فكر عائداً بذهنه إلى أيام خلت.. كان تعليق البطحيش قد ذكره بصياد آخر. "أخشى أن يكون قد خلف وراءه من يصطادنا نحن؟ "عقب حينذاك وهو ينظر إلى البطحيش نظرات عاتبة، ملمحاً إلى الرجل الذي أثار توجسه وشكه في عش النسر.

"أرأيت؟ ظلمت الرجل!" رد البطحيش بنبرة المنتصر". من يسمع كلامك حينذاك، يظن أن التيناوي سيأتي بهم لاعتقالنا في التو واللحظة.. لكن.. صدقني.. ظللت طوال ذلك النهار والليل أراقب الأزقة، الحارة، لم يأت جندي إليها ولا اقترب غريب من عش النسر" "عجيب!! لماذا توجست منه شراً إذن، أيخيب حدسي؟" "الرجال يشتغلون بالعقل.. أما النساء فيشتغلن بالحدس، أتريد أن تصبح كالنساء؟" ولم يستطع عزيز أن يتابع جداله. أحس أن في فيه ماء." البطحيش واثق بالتيناوي كل الثقة، تجربته معه طوال سنة أو يزيد زادته ثقة واطمئناناً، فلماذا نظلم الرجل إن كان وفياً مخلصاً؟ لماذا نخسره إن كان بالإمكان كسبه وطنياً مقاتلاً، عوناً لنا ومساعدة؟" ولم يملك عزيز إلا أن يطرق برأسه صامتاً..

– إيه.. هتفت به شمس محركة كفها يمنة ويسرة أمام عينيه، أراك، شردت؟.

– البطحيش عاد إلى درعا حزيناً، رد عزيز هازاً رأسه، أتعرفين لماذا؟

– لماذا؟.

– لأنه لم يستطع الانتقام من الكولونيل، وقهقه ضاحكاً.

– احمد ربك أنه وفر عليك مخاطرة كهذه.

– هكذا قلت، عقب عزيز ضاحكاً. حين رأيتهم يحشرونه في المصفحة قلت له كما قال ذلك الأعرابي: الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفانيك حرباً..

ضحكت شمس ضحك الفرح والسعادة ثم قطعت ضحكتها فجأة وكأنما تذكرت شيئاً..

– هذه هي البشرى الأولى فما الثانية؟

كان عزيز قد أنهى غسيل وجهه ويديه، وكان ينشف بالمنشفة وهو يتأملها بأناة وروية، كأنما يبحث عن أفضل السبل لمفاجأتها، تأبط ذراعها إلى ركن الدار، فحثته..

– هيا.. قل.. تكلم..

- الأخضر بخير.. بدأ، لكنها سرعان ما قاطعته بلهفة مجنونة:

- الأخضر!؟ ابني؟ حقاً؟ كيف؟

وشرع عزيز يضحك من لهفة الأم العجيبة على فلذة الكبد.

- جندي جزائري جاء مع القوات الجديدة إلى دمشق.. شرح لها عزيز فراحت تحثه برأسها، يديها، همهماتها...

- إي.. إي..

- تعرف إلى الأخضر قبل أيام فقط في باريس، تابع عزيز الشرح، فأرسل معه الأخضر رسالة..

- رسالة!! هتفت شمس تكاد تطير فرحاً.. أين هي؟ هاتها..

- تفضلي!! اقرئي بنفسك!! قال وهو يخرج ورقة مطوية بعناية في محفظته الجلدية. خطفتها شمس من يده ثم غرقت للتو في الأسطر التي طال انتظارها لها.

"أبي الحبيب، أمي الحبيبة..

قبلاتي الحارة وأشواقي الكبيرة لكما، يا أغلى من لي في هذه الدنيا، لأخوتي، للأهل جميعاً، للوطن الغالي.. أرجو أن تكونوا جميعاً على أحسن ما يرام!!

أنا هنا بخير.. ابتعدت بضعة أشهر عن باريس، ثم عادت المياه إلى مجاريها. النازي يمسك البلد بقبضة من حديد.. النظام سائد، الأمن مستتب. حكومة فيشي تمتثل خاضعة طائعة لأوامر المحتل، لكن مالي؟ أنا هنا أجنبي لا شأن لي بالنازي ولا بالفرنساوي...

لي مهمة وعلي أن أنجز هذه المهمة. اطمئنوا لقد عدت إلى كليتي ودراستي.. كل شيء على ما يرام.. لا تأكلوا همي.. أنا أدبر رأسي ولن أعود إلا ومعي شهادتي الكبيرة.. زودوني بالمال فقط، ولن تعدموا وسيلة لتأمينه لي وتزويدي بأخباركم.. أحبكم جميعاً.. أقبلكم جميعاً.. وإلى اللقاء.."

سواقٍ من ماء أزرق جرت على الورقة، وشمس تقرأها.. لم تكن تدري كيف تنبثق من عينيها الدموع، فرحاً أم حزناً؟ طمأنينة أم قلقاً؟ ففي الرسالة الكثير مما يطمئن، وفي الوقت نفسه الكثير مما يثير الهواجس...

- تبكين؟ سألها عزيز وهو يعود بنظره إلى غرفة المضافة، حيث كان

أخوه يونس، نواف، النسوة، الأولاد، كلهم قد تجمعوا بانتظاره..

- لا أدري!! أخشى عليه من النازي..

- لا.. لا تخشي عليه.. هو نفسه يقول ذلك، قال بنبرة ارتياح ثم تابع، بالعكس، أنا أخشى عليه من الفرنساوي..

- الفرنساوي.. عسى أن يسحقهم هتلر كالقمل...

وأطلق عزيز ضحكة تشفٍ وهو يسرع بشمس إلى المنتظرين رغم كل الشوق الذي كان يمضه وقد غابت عنه أربعين يوماً. نواف فرح بأبيه، فرح بأخبار أخيه، فرح حتى بتوءم البنات الذي جاءه رغم أنه يود لو كان توءم صبيان. سمى الأولى باسم شمس، فسمت دملجة الثانية باسم عليا، "وما أحد أحسن من أحد". سمع عزيز فبارك الإسمين جهارا، لكنه لم يملك إلا أن يضحك خفية"، شمس وعليا!! إيه!! لكأن نجميهما مقترنان معاً في السماء لا يأبيان الافتراق جيلاً بعد جيل.. "تلقى عزيز حفيدتيه وهما في اللفائف، واحدة بعد الأخرى قبلهما، واضعاً ليرة من الذهب "نقوطاً" في لفافة كل منهما.

بعدئذ تفرغ لأخيه يونس ولم يكن أقل شوقاً إليه من شمس.." إيه يا زمان!! تمر سراعاً لهاثاً، حتى لا يرى الأخ أخاه ولا الابن أباه!!" وحدق عزيز ملياً إلى الشيب يغزو أخاه الأكبر غزواً مبيناً.. كانت سنتان وبضع السنة قد مرت على آخر مرة زار فيها عزيز القرية، وكان قد طلب إلى يونس أكثر من مرة أن يزوره في دمشق، لكن يونس كثير الأشغال، متعدد النشاطات، متعدد المهام حتى ليمرق الشهر مروق السهم فلا يشعر به.

أراضيه الممتدة في قرى ثلاث بحاجة إلى عمل، إلى متابعة، كل يوم. لم يكن يونس منذ عشر سنوات ونيف، يعمل بيده.. فما حققه علي المر خلال عشرين عاماً، كان قد غدا بحاجة إلى فلا حين يفلحون ويزرعون، عمال يحصدون ويدرسون.. وكانت هجرة خفية قد بدأت منذ زمن طويل إلى القرية.. من الغرب، من الشمال، بل حتى من الشرق حيث البدو والرعاة. كان الناس يتوافدون على أم العيون بحثاً عن الرزق، وكان علي المر يستقطب هذه العائلة أو تلك، يعطيها المأوى، يفتح لها باب العمل، يستفيد ويفيد.. على سنة أبيه سار يونس: عائلتان لديه الآن في أم العيون، عائلة في أم الرجوم وأخرى في قليب الثور، ويونس دولاب هواء يتحرك، يساعده إبراهيم، نواف... هو هناك يتحرك، يدور.. موجهاً، مرشداً، مراقباً، مدققاً. قطيع الغنم لديه ثلاثمائة رأس، الأبقار اثنتا عشرة وعجولها، الخيول، العربات.. وفي كل موسم تأتيه غلال

الشعير والحنطة أكداساً أكداساً.

لم يعد يونس يخشى من بدوي يريد عدلاً من حنطة.. الحنطة كثيرة، الشعير كثير، بل حتى العدس، الحمص، الذرة.. أرض أم العيون خصبة، كذلك الأراضي الأخرى والغلال وفيرة تتحول كلها إلى ذهب يكنزه يونس، مواشي وأرزاقاً تفقأ كالحصرم عين الحسود.

عزيز فرح بالعائلة التي نمت وتكاثرت حتى غدت عشيرة: أولاد يونس من حفيظة، من عليا، أولاد ابن عمران، أولاد نواف.

"يالله!! كم يتكاثر الإنسان!! ما أسرع ما تنمو الذرية وتتناسل!!" كانت قد مضت ثلاثون عاماً على رحيلهم من الريحانة.. أسرة علي المر لم تكن تتجاوز أصابع اليد الواحدة.

.. وأصابع يد واحدة انخرطوا في الركب الذي انطلق على عجل باتجاه الشرق.

عزيز يستعيد مع أخيه يونس ذكريات تلك الأيام، يتذكران الأم الطيبة التي رحلت قبل الأوان، يتذكران الأب الشجاع الحكيم، الذي قاد الركب يومذاك، ونصب عينيه أراضٍ على أطراف البادية، لا تطولها يد العصملي ولا سوط أبي شعيب...

عزيز سعيد بإنجازات العائلة، بالمواشي، بالأغنام، بالأراضي التي لم تعد تزرع حنطة وشعيراً وحسب، بل دخلت زراعات جديدة لا يدري أحد كيف؟ الكروم باتت تشغل واجهة أم العيون كلها.. عزيز تجول مع يونس هناك.. رأى دوالي الكرمة وهي تنتصب خضراء زاهية، حاملة بقية من عناقيد، أعنابها بلون الذهب...

القطن.. حقول صغيرة باتت تنتشر هنا وهناك في أم العيون. تسقيها مياه القنوات، الينابيع الكثيرة الغزيرة، السواقي التي حفرها أهل القرية لتصريف مياه المستنقع.. شجيرات عالية متفرعة، كثيرة الجوز يصبح هذا النبات ومن الجوز يتفتح القطن الأبيض غلالة ناصعة كالثلج على جذع أخضر كالمرج.. "أي جمال يصنعه هذا!! أية لوحات زاهية ترسمها يد الطبيعة!!"

-أرأيت؟ كم تطورت أم العيون!! قال يونس، وهما يتجولان بين الكروم والأقطان..

-هي ذي سنة الحياة: التطور والتغير: لا شيء في الكون يبقى على حاله،

فإما أن يتقدم أو يتأخر...

-صحيح، الماء ان لم يتقدم أو يتأخر أسن وأنتن.. قال يونس وقد وصلا إلى طرف المستنقع، حيث الصفصاف متشابك الأغصان يتدلى بأطرافه حتى الماء، إبلا تمد أعناقها لترشف من المنهل. أصوات الضفادع تملأ المكان جوقة تعزف سمفونية الحب الأبدية نداء الذكر للأنثى.. ودون أن يشعر عزيز وجد نفسه يشرد بعيداً موغلاً في الزمان حين كان الجوع ينهش أحشاءه فيسارع إلى المستنقع، يصطاد الضفادع والحيات يأكلها وحيداً وبالسر، وكأنما يرتكب إثماً عظيماً.

رآه يونس شارداً فضحك:

-تذكرت أيام الجوع؟

-والوجبات الشهية التي كان يطعمني إياها هذا المستنقع، قال ضاحكاً وهو يشير بيده إلى المستنقع الكبير الممتد وقد ازداد قصبه وصفصافه، حتى بات من المتعذر ولوج أماكن كثيرة منه وكأنها في طريقها لأن تتحول إلى غابات عذراء.

-ظننتك نسيت القرية؟ نسيت الماضي؟ قال يونس وهو يشير وراءه إلى القرية وإلى نقطة بعيدة في الزمان.

-أنسى؟ كيف والقرية هي التربة التي تنغرس فيها جذورك عميقاً تستمد منها النسغ كله، الماء والغذاء؟ كيف والماضي هو مسرح الذكريات ومنبتها دائم التدفق.. لا تذهب ذكرى إلا وتأتي أخرى لتجد نفسك أبداً مشدوداً إلى حيث الجذور والذكريات.

-لو تعود فنمضي بقية العمر معاً، يشد واحدنا أزر الآخر ويمد واحدنا يد العون للآخر..

-ربما أعود.. من يعلم؟ قال عزيز بعد أن تفحصه ملياً، فالفكرة لم تكن قد خطرت بباله. لكن ما إن نطق بها يونس حتى بدت مغرية: "حقاً لم لا أعود إلى القرية؟ كان عزيز على مشارف الخمسين، والخمسون سن الكهولة والاستقرار.. يبدأ المرء فيها بوضع رحاله استعداداً لشيخوخة هادئة يحصد فيها المرء ما زرع أيام الشباب والقوة ويهنأ بما جنى بعد رحلة التعب والشقاء.

-حقاً؟ سأل يونس بلهفة مفاجئة وقد حسبها مجرد رمية في الهواء، أتفكر في ذلك؟

–تعلم يونس؟ حنين لا يوصف يشدني دائماً إلى هذه المروج، الغدران، أقنية المياه، بل حتى إلى الكهوف التي أوتنا أول ما جئنا إلى أم العيون.. الآن العمران انتشر، القرية صارت كبيرة فيها خدمات، محال تجارية فلم لا أعود؟

–حقاً، لم؟ قال يونس فرحاً مشجعاً، العسكري يخدم في الجيش سنين طويلة، الموظف في الدولة، الدركي في المخافر ، ثم يتقاعد واحدهم فأين يذهب؟ يعود إلى موطنه.. المغترب نفسه يرحل بعيداً، يهاجر سنين وسنين ثم لا يجد نفسه إلا وهو يشد الرحال إلى مسقط رأسه.. فافرض نفسك موظفاً متقاعداً أو مغترباً عاد..

–أجل.. لهذا أقول لك ربما.. لم أفكر بالأمر من قبل، لكنني سأفكر فيه بالتأكيد. قال وهو يزفر زفرة تحمل أكثر من معنى. شعوري يونس، أن الرحلة قد أوشكت على الانتهاء.

ذلك الشعور كان قد بدأ يساوره خفية دون أن يصرح به حتى لشمس. هو مع شمس يكره أن يعترف بمرور الزمن، يود لو يظل شباباً دائماً. شمس أحبته هكذا: رجلاً ملؤه الشباب والحياة، فكيف تراها تنظر إليه وهو كهل ينحدر إلى الشيخوخة؟

أحياناً يخطر بباله أن يناقش معها الأمر، أن يسبر غورها فيرى ان كانت ستظل على حبها إن ضعف أو عجز، لكنه لا يجرؤ.. دائماً يتوقف قبل خطوة واحدة فلا يقرع ذلك الباب: "شمس امرأة والمرأة كالدنيا لا تحب إلا الشباب والقوة" لكن ذات صباح أفاقت شمس قبل طلوع الشمس، فالديوك في القرية تتولى مهمة إيقاظك رغماً عنك.. هي نشطة تسبق نور الشمس وتريدك أن تسبقه معها، فتطلق العنان لحناجرها تصيح وتصيح إلى أن تفتح عليا الخم وحفيظة باب المغارة، فتخرج مرفرفة بأجنحتها، ساعية في الأرض بحثاً عن رزقها وإليه النشور.

–عزيز، قالت شمس بعد أن قبلته قبلة الصباح، طوال الليل وأنا مع أمي، أخشى أن يكون قد أصابها مكروه.

–لا مكروه، بإذن الله.. رد وهو يجلس في الفراش فاركاً عينيه متثائباً.

–لكنه حلم فظيع.. بدأت متخوفة فقاطعها للتو:

–إن هي إلا أضغاث أحلام.. ألم نتفق على ذلك من قبل؟ كان عزيز يكره الأحلام وتفسير الأحلام وكان كثيراً ما يشتبك مع شمس من أجل هذا الحلم

أو ذاك، لكنها اليوم مصرة.

-يجب أن أطمئن عليها.

-قولي ذلك منذ البداية، قال ضاحكاً وهو يتذكر أنها كثيراً ما باتت تلف حول الغرض الذي تريده وتدور، شأن النساء كلهن. تريدين أن تطمئني عليها؟ لكن هل تعرفين أين ينزلون؟

-في سفوح البلعاس.. قالت، هي التي أرسلت قبل أيام من يستطلع لها أخبارهم، فجاءها منهم من يطالبها بالزيارة.

-إذن، نذهب إلى البلعاس ، حسم عزيز الأمر وغاية ما يتمناه أن يوفر لها الراحة، يحمل لها ما يستطيع من سعادة. شمس، بالنسبة إليه، هي الشمس المشرقة التي ما يزال يعبد.. يترنم بجمالها كلما انفرد بها، يرتل لها الأناشيد كلما وجد نفسه في محرابها فكيف لا يلبي لها اليوم رغبة؟ هو أيضاً يشعر بالحاجة لأن يذهب إلى الفلاة، يستعيد أيام زمان، يوم كان يزور الفارس الملثم فيقضي أياماً وأياماً في المضارب، يطاردان معاً على الخيل، يصطادان الأرانب والغزلان، يصولان في السهوب ويجولان.

هو أيضاً يشعر بالحنين لأم شمس، المرأة التي طالما سقته وأطعمته، شملته بحنانها ورعته.. يشعر بالحنين لسلطان.. الأخ والصديق، ترى ألا ينبغي أن يزوره هو الذي لم يزره مذ أصبح شيخ القبيلة؟.

كان الشيخ نواف قد مات، هكذا ميتة مفاجئة، لم يتوقعها أحد، وفي مكان بعيد.. حيث تدمر وأطراف بادية الشام. ذهب عزيز يعزيهم هناك ومضت شمس تبكي أباها وقد حملت جثمانه ناقته البيضاء كي يدفن في موطن القبيلة.. لكن هل ينسى الشيخ نواف؟ هل ينسى أهله وذويه؟ وشد عزيز الرحال إلى جبل البلعاس.

البلعاس شيخ أصلع لم يبق الزمن شعرة في رأسه.. أشجار البطم التي كانت تتشابك غابات على قمة رأسه ذات يوم لم يبق منها أثر. قطعها "العصملي" والحطابون، ثم أتى على البقية الباقية منها الأغنام والرعاة.. مع ذلك يلحظ عزيز وهو في سيارة البيك آب التي استأجرها خصيصاً، قزعات شعر متفرقة حيث الصخور التي لا يستطيع تسلقها إنسان، والجرود الوعرة التي لا تصلها شاة أو معزاة، فتتهلل روحه، يطرب شيء في داخله. جبل البلعاس قد يعود ذات يوم جبلاً أشم.. تكلل هامته غابات البطم الخضراء.. ومع

السفوح الجرداء يعود عزيز للتذكر ثم يلتفت إلى شمس متنهدا، مشيراً:

-هناك، لقيت ذات يوم رشأ الغزال، أتذكرين؟

-أنا التي تذكر، ردت شمس مبتسمة، فقد كنت ذات يوم أشعر بالغيرة منه..

-حقاً، لا يمكن للأنثى إلا أن تكون أنثى.. تغار من أية أنثى.

-والذكر هل يكون إلا ذكراً يغار من أي ذكر؟ أم نسيت غيرة الذكر إن غازل ذكر آخر أنثاه؟ عزيز لم ينسَ، وإن نسي فقد كان حرياً به أن يذكر القصة التي رواها لهم أحد المسنين بالأمس في مضافة يونس.. هي سمعتها، وهي بالتأكيد تريده أن يتذكرها" "أخذني العصملي إلى حرب اليمين "بدأ الرجل قصته." هناك استطعت الهرب صاعداً أحد الجبال مختبئاً في إحدى الغابات.. جائعاً عطشان وصلت لكن متعباً محطماً حتى إذا ما شعرت قليلاً بالأمان أسلمت نفسي للتراب ورأسي لصخرة ملساء، فلم أفق إلا وقد طلعت الشمس.. نظرت حولي فإذا بسعدان وأنثاه يقعيان قربي.. انكمشت في البداية وقد سرت في جلدي قشعريرة، لكنني تماسكت. "لأراقبهما فأرى ما يفعلان". كانت بندقيتي معي وكان باستطاعتي الدفاع عن نفسي، فلزمت الصمت والسكينة.. فيما بدا السعدانان مشغولين بمراقبتي ومعرفة شأني.. كان في أعينهما فضول وفي وجهيها استغراب لكأنهما لم يريا إنساناً من قبل ولم يعرفا شره وبطشه .. تبادلنا النظرات.. كان العطش والجوع قد اسبدا بي وكنت متلاشي القوى حتى خيل إلي أني عاجز عن الحراك وأنني لا محالة هالك.. نظرت إلى اليمين، إلى الشمال، أبحث عما يؤكل، يشرب.. لا شيء، هل عرف معنى نظراتي وبحثي؟ لا أدري.. كل ما أدريه أني، بعد لحظة واحدة رأيته يقفز صاعداً أقرب شجرة، واثباً من واحدة إلى أخرى إلى أن غاب عن ناظري... الأنثى ظلت مقعية على مقربة.. وأنا أفكر "ما تراني أفعل؟ من أين آتي بالطعام؟ "بهدوء انسلت الأنثى مبتعدة لكن في اتجاه آخر غير اتجاه الذكر.. تتبعتها بناظري قليلاً إلى أن غابت هي الأخرى، فتنفست الصعداء.. أنا لا أخفيكم، قال الهرم العجوز، كنت ما أزال منكمشاً من منظرها، خائفاً من غدرها.. قلت في نفسي "الآن يمكنني أن أبحث عن طعام وشرعت ألملم أطراف قوتي.. لكن قبل أن أفعل رأيت السعدان يعود وهو يحمل في فمه أرنباً ما يزال دمه حاراً ينزف.. وضعه أمامي مهمهماً بشيء، فهمت ما أراد قوله، فشكرته على حسن ضيافته.. لكنه انشغل عني في الحال، باحثاً بعينيه عن أنثاه. هنا، هناك راح يبحث، وجهه

يشتعل غضباً وعيناه تقدحان شرراً.. نظر إلي فأدركت سر غضبه وانشغاله، نظرت في الاتجاه الآخر الذي ذهبت فيه أنثاه، فأسرع حيث نظرت، وانكببت أنا على الأرنب.. الأرنب وجبة شهية لا يحلم بها رجل جائع واهن القوى مثلي، فأسرعت أسلخ جلده والتهم لحمه نيئاً ليس مثله الشواء.. ولشدة جوعي، انشغلت بوجبتي عن السعدان وأنثاه.. لكن ما هي إلا دقائق حتى سمعت زعقة بعيدة تصم الآذان. جررت نفسي إلى جهة الصوت، فإذا بالسعدان يمسك بأنثاه.. ثم يبدأ بتمزيقها وهي تزعق خائفة متوسلة، فيما كان ذكر آخر ينسل هارباً بأقصى سرعة، وقد أرعبه بطش الذكر بأنثاه".

تبسم عزيز لشمس، وقد عاد من قصة العجوز، كما تبسمت له شمس، وكأنما يقول واحدهما للآخر "الذكر كالأنثى" والغيرة شعور طبيعي، لا يقتصر على الإنسان فقط، بل يشمل الحيوان أيضاً"... لكن وصولهما إلى المضارب أنساها الغيرة والسعادين وكل شيء آخر.

بحفاوة بالغة استقبلهما الشيخ سلطان والأم، الزوجة والأولاد، الأخوة وأبناء العم.. شمس حكاية خرافية يتداولها أفراد القبيلة جميعاً مذ كانت فارساً ملثماً إلى أن أصبحت شيئاً مهما في دمشق تفك المشنوق من حبل المشنقة، هي تسمع ذلك وتضحك.

-صحيح، تعرفين الوزراء والمدراء؟

-حقاً، يزورك الضباط والجنرالات؟

-معقول شمس؟ كلمتك لا تصير اثنتين في دمشق؟

كانت تنصب عليها الأسئلة كلما تحلقت حولها النسوة والفتيات، يثيرهن فضول عجيب لتلمس الحكاية الخرافية عن قرب، ورؤية الشمس التي لم تبلغ منزلتها فتاة في القبيلة.

في المضارب حاول الزوجان استعادة أيام الصبا، ركبا الخيل، تجولا هنا وهناك، فكلاهما كان يتحمل أعباء على كتفه يريد التخلص منها.كان الخريف قد انتصف وكانت بواكير مطره قد أنبتت الكلأ في سهوب البادية الواسعة الخصبة، وكانت السنة تبشر بالخير.

قطعان الغنم تسرح وتمرح، النوق زرافات وفرداناً تملأ الفلاة.. كان الشيخ نواف قد ترك منها الكثير فسنوات الخصب الأخيرة، والأمان الذي لم يعد فيه غزو ولا غاراتٍ كانا قد تركا بصمتهما: آلافاً من الشياه ومئات من النوق يملك

الشيخ نواف وحده، لكنه قبل أن يموت أوصى بأن تعطى البنات مما يملك وفق شريعة الإسلام: للذكر مثل حظ الاثنين فكانت حصة شمس قطيعاً من الأغنام وآخر من النوق مرت بهما ذات يوم تتفقدهما.

-ألا تأخذين قطيعك هذا؟ سألها سلطان، وهو يشير إلى الأغنام المنتشرة هنا وهناك.

-إن عدنا إلى القرية أخذناه، ردت شمس وهي تنظر إلى عزيز كأنما تريده أن يؤكد قولها.

-وهل تفكر بالعودة؟ سأل سلطان عزيزاً هذه المرة.

-حين يكبر الموظف تحيله الدولة إلى التقاعد، أجاب بشيء من دعابة وهو ينظر إلى شمس، فهل تحيلني شمس إلى التقاعد؟

-لو كان الأمر بيدي ما عدت إلى المدينة، ردت شمس متنهدة، لكنهم الأولاد.

-الأولاد؟ قاطعها سلطان عاتباً، حيف عليك شمس، الأولاد فروع لنا ونحن الأصل.. والأصل تتبعه الفروع.. وليس العكس..

-ذلك كان أيام زمان أخي سلطان!! لكن اليوم تغير كل شيء.

-بيدها حق سلطان، تابع عزيز وهم يسيرون الهوينى على خيوط أصيلة يود لو يطير بها لكن جسده لم يعد يسمح له. يتبعك الأولاد صغاراً لتتبعهم أنت كباراً.

-لكن .. كيف.. أليس أولادكم كأولادي؟ ها هم يتبعونني أطوع من بناني..

-هم يعيشون كما عشت دون تغيير أو تبديل.. لكن وقد تغيرت ظروفنا، الأمر يختلف سلطان، شرحت له شمس من جديد.. الأخضر الآن في باريس، يعيش في عالم غير عالمنا.. له حياته واستقلاليته فماذا نملك من أمره؟ قلنا له عد وقد هدده خطر النازيين لكنه أبى وأصر: لن أعود إلا ومعي شهادة الطب، فماذا تفعل؟ نواف هنا في القرية له عالمه هو الآخر، مناف في دمشق، بدور تدرس، ولا نملك إلا أن ننتظر أن يحقق كل منهم غايته..

-حالة صعبة.. رد سلطان ملوحاً برأسه، الصدق، حالة صعبة.. أصير تابعاً لأولادي لا.. لا.. حالة لا أرضى بها لنفسي.

ومن جديد عادت شمس تسهر في المضافة، لا ملاءة ولا حجاب تجـالس الرجال، تماماً كأيام الفارس الملثم لكن دون أن تضطر أيضاً للتلـثم أو التزيـي بزي الرجال. كان كل من في القبيلة يحمل لها الاكبار والإعجـاب.. يسـألونها وكلهم فضول، شأنهم شأن النساء، لمعرفة مكنون المرأة التي بدأت فذة متفـردة وما تزال فذة متفردة، حتى ابن عمها معجون كان قد أصبح يحمل لها الإعجاب والود.. هي تنظر إليه وتتذكر حقده عليها، حبه لتملكها، تتذكر اصـراره علـى الزواج منها والمبارزة بالسيف التي أرغمته عليها. "أتراه نسي كل شيء؟ أتراه صفح عني وغفر؟" لم تكن لتثير معه تلك الذكريات، لكنها كانـت حريصـة أن تعيد معه رابطة القرابة والمودة.

أمها، التي طعنت بها السن كانت تحمل لها الراحة وهما تجلسان وحيدتين، تسهران أو تنامان معاً في الفراش لتستعيدا الماضي وتطفئا الأشـواق.. ذلـك الصدر الذي ذبل ويبس كم كان ممرعاً ذات يوم مترعاً بالدفء والخير تنهـب منه نسغ الحياة. شمس تضم أمها، تحضنها، تضاحكها، فهي تعلم كم ترك غياب الشيخ نواف من حزن وحسرة في قلبها ذاك الذي كان يستمد دماء الحيـاة مـن دمائه، صدرها الذي كان يأخذ الهواء من هوائه.. أختها فوز لم تكن تفارقهـا، صديقاتها، لداتها، كلهن كن يردنها معهن.. فيولمن لها الولائم ويذبحن الذبائح..

عشرين يوماً أمضت شمس في المضارب التي استبد بها الحنين لحياتهـا، لحلها وترحالها، لفلواتها الواسعة تصول فيها وتجول، لكن حنينـاً آخـر كـان ينمو.. هناك في الأعماق للفروع الغضة التي تشغل دائماً بال الأصول.

محملة سيارتهما خرجت من المضارب، ومحملة أكثر خرجت من القريـة وقد ودعا الأهل والأحباب، يطلقان الزفرات وتسـيل علـى وجنتـي شـمس الدموع.. هي المرة الأولى التي بكت فيها: "أتراني ضعفت؟ صرت أكثر عاطفة ومشاعر؟ إيه!! لقد مضى عهد الفارس الملثم ذاك الذي لم يكن يعرف البكاء".

لكن ما إن وصلا إلى البلدة الهاجعة عند أطراف البادية حتى وجدا الـدنيا قد خربت..

–ماذا هناك؟ سأل عزيز أول عابر شمر ثوبه عن سـاقيه وأطلـق لهمـا العنان.

–الشرطة تطلق النار!! الفرنسا وي يقتلون الناس.. وأسرع إلـى منـزل صديقه أبي مصطفى حيدر بعيداً عن شارع البلـدة الرئيسـي حيـث مـواطن الخطر.

هناك سمع الزوجان القصة.

–في الصيف، ومع طلوع الموسم، بدأ أبو مصطفى الكهل المتعب من الحياة ومشكلاتها قصة المظاهرات، تصادر الحكومة الفرنسية غلال الأرض بحجة الميرة والحرب وحاجة الجند في فرنسا ومستعمراتها للحنطة والشعير..

–صحيح، أعلم ذلك رد عزيز وهو يستعيد في ذهنه صورة حوران وأهله وهم ينوؤون تحت أعباء الميرة ويعانون من عنت المستعمر. لم يكن في ذلك الموسم قد استطاع أن يأتي بأكثر من قافلتين أو ثلاث قوافل إلى محله في الميدان.. الدرك يضربون خيامهم على البيادر، يرصدون الدراس والدراية حتى إذا ما جهز الفلاح بيدره صادروا ثلاثة أرباعه أو يزيد فلا يتركون له إلا قوت اللا يموت ومقدار البذار الذي يريد بذره العام القادم محسوباً بالمكيال..

–لكنك لا تعلم، تابع الصديق بنبرة من حزن شديد، مقدار البلوى التي حلت بالناس.. المواسم هذا العام كانت سيئة هنا والحكومة فرضت قدراً معيناً من الحنطة والشعير يجب تحصيله.. بلا شفقة أو رحمة، حصل الدرك الكمية حتى لم يتركوا مؤونة للناس فلم يأت الخريف إلا والناس جياع. احتج الناس ورفعوا العرائض، أرسلوا الطلبات فقررت الحكومة تقديم معونة من طحين الحنطة والذرة كي تأكل البلدة وكادت أن تصل المعونة، لولا أن "المير" عطل كل شيء..

–"المير" عطل وصول المعونة إلى الناس؟ هتف عزيز وقد فغر فاه دهشة.

–تصور. ملكي أكثر من الملك.

–وماذا فعل؟ أكمل.. قال عزيز وقد صار كلها فضولاً..

–ذهب إلى الحاكم، قال له لا تصدق الناس.. إنهم كذابون. ليسوا جياعاً ولا هم بحاجة إلى معونة.. جندكم أحوج إليها، بلدكم في حالة حرب أما نحن ففي سلام.. ومن هم في حالة حرب أحوج للمعونة ممن هم في حالة سلام.. لا نريد المعونة. خذوها.

–وأخذوها؟

–بالطبع، إن كان المير نفسه يطلب ذلك فلماذا لا يلبى؟ إن كان ممثل الشعب لا يشفق على الشعب فكيف يشفقون هم؟

–يا إلهي!! شيء لا يصدقه العقل.. ابن الشعب لا يشعر بشعبه ورأس القوم لا يشفق على قومه

-هذا إن كان هو ابن الشعب فعلاً أو رأس القوم حقاً!! علق أبو مصطفى الذي خبر الحياة كثيراً وعرف منها كثيراً..

-معك حق.. مثل هؤلاء الناس دخلاء غرباء غرسهم العصملي ذات يوم في ظهرانينا... لا شأن لهم بالشعب ولا علاقة لهم به فكيف يتعاطفون معه أو يحسون بوجعه؟

-هو ذاك، والويل لشعب رأسه ليس منه، قال وهو يتنهد. بعدئذ تابع: صدقني كل ما يهم هذا "المير" هو الحفاظ على منصبه، ترسيخ علاقته مع الحكام ودعمهم له..

وليذهب الشعب إلى الجحيم..

-تعني.. المظاهرات اليوم موجهة ضده؟

-ضده وضده الحكام.. أبو عوض الشعار تعرفه؟

-هو صديقي. ما له؟

-أمس، شكل وفداً وذهب إلى السراي، يبين الظلم الفادح الذي نزل بأهل البلد الجياع، لكن المير تدخل أيضاً وطرده من السراي.

-طرده؟ كيف؟ لماذا؟

لا يريده أن يعطي صورة قبيحة عن أهل البلد "نحن أكثر كبرياء وعزة نفس من أن نشحذ لقمة خبزنا من السلطة "قال له "فلاتسود وجهنا.. نحن أصحاب إباء وشمم، نموت ولا نأكل بأثدائنا.."

-وبماذا رد الشعار؟

-نزل إلى البلدة، يستنفر الناس واحدا واحداً، يشحذ هممهم واحداً واحداً. هم يسلبونكم قوتكم وعليكم أن تطالبوا به ، هيا.. هبوا.. والله.. ما مات حق وراءه مطالب.." وامتلأت الشوارع منذ الصباح بالناس تصيح وتهتف: "جوعانين بدنا ناكل جوعانين.. المعونة .. المعونة.. بدنا طحين معونة.. جوعانين.. بدنا طحين "راح أبو مصطفى يردد بحماسة وانفعال واضحين كأنما أخذه الحال.

-وواجهتهم الشرطة بالرصاص؟

-وبالاعتقال أيضاً.. عشرين رجلاً ساق الدرك مكبلين بالحديد وعلى رأسهم صديقك الشعار وابني مصطفى.. أكمل بكثير من الانكسار والحزن.

-ابنك مصطفى أيضاً.؟

-وابن أختي.. كذلك..

-اللعنة!! قد وقعوا في براثن الذئب إذن!!

-براثن الذئب؟ ماذا تعني؟

-البلد الآن في حالة حرب أي حالة طوارئ قصوى ولا يسمح معها بتجمعات أو مظاهرات، هذه كلها تعتبر فتنة وشغباً.. وكل من يشارك في فتنة أو شغب يحال إلى المحكمة ومن يعلم؟ قد تحكمهم المحكمة بالإعدام.

-ماذا إعدام؟ هتف أبو مصطفى مقاطعاً فزعاً.

-ممكن!! لهذا يجب تخليصهم قبل أن يحالوا إلى المحكمة.

-كيف؟

-نهجم على السجن فنحررهم..

لكن الفرنساوي يضع الاحتمالات كافة، وقد وضع ذلك الاحتمال في حسابه، فحشر المعتقلين في شاحنة عسكرية، وأسرع بهم إلى حيث لا يمكن لأهليهم أن يهجموا على السجن أو يحرروهم.

في حماة استقبلهم السجن بوجهه الكالح وحجارته العتيقة لكن نزلاءه استقبلوهم بالأحضان.. إذ ما إن وصلوا حتى انتشر الخبر في أنحاء السجن كله: مناضلون شرفاء تصدوا للمستعمر، رشقوه بالحجارة، واشتبكوا معه بالعصي والهراوات فاستخدم معهم الرصاص والنار وساق رؤوسهم إلى السجن. وأسرع السجناء يحتضنونهم ويواسونهم، يتعاطفون معهم ويشدون من أزرهم. في الأيام التالية نشط النشطاء وتحرك الخطباء يحضون الناس على الوقوف إلى جانبهم ومد يد العون لهم: مناسف لحم حملت إلى السجن، أطباق حلويات، ملابس جمعت، مال قدم لهم، فليس أحب على قلب حماة المناضلة المقاتلة من مؤازرة المناضلين المقاتلين ..

حركة حماة تلك أزعجت حاكم حماة بل ربما أثارت في قلبه الذعر.. سجل المدينة حافل، ثورتها ما تزال ماثلة في الأذهان، ماثلة في السجلات، حسبه أن يعود قليلاً إلى الوراء ليرى كيف هبت المدينة هبة الرجل الواحد لتصلي أسلافه ناراً حامية. إذن هي ما تزال هشيماً يابساً حسبه شعلة من نار حتى يشتعل فلماذا لا يبعد الشعلة؟

مساجين البلدة القريبة هم الشعلة.. بأم عينيه رأى الحاكم كيف استنفر السجن من أجلهم، الشارع، الأحياء.. كل من في حماة لا يتكلم إلا عن البلدة

الجارة التي خرجت عن بكرة أبيها تصب جام غضبها على المستعمر الذي نهب قوتها ثم رفع عنها المساعدة، فلماذا لا تهب حماة أيضاً؟

الحاكم الفرنساوي يضع الاحتمالات أيضاً، يعرف الحساب والضرب كذلك، وبحسبة بسيطة توصل إلى نتيجة، وجد السجناء أنفسهم إثرها يساقون مرة أخرى إلى دمشق.

عزيز يترصد أخبارهم. وصلوا إلى سجن القلعة فبدأ يسعى لرؤيتهم.. صديقه الشعار وابن صديقه مصطفى بينهم فكيف لا يسعى لمساعدتهم؟ بعد ثلاثة أيام تكللت مساعيه بالنجاح: مناسف طعام، ألبسة، مال، كلها تدفقت عليهم بل هو نفسه استطاع أن يزورهم. التقى بأبي عوض، أخذه بالأحضان، بدأ تشجيعه فوجده مشعاً للشجاعة والتشجيع.. كانت معنويات أبي عوض عالية. رغم محاولات الفرنساوي التضييق عليه ظل صلب القناة لا يهون، رغم كل ما بذلوا لتخويفه ظل شجاعاً لا يخاف. عزيز سعيد به، يتأمله بإكبار وهو يحدثه عن سجن القلعة، عن سجن حماه فيتذكر أيام السجن في حماة، الكابيتان جيرار وجلا وذته، غرفة التعذيب وصنوف التعذيب التي تعرض لها، لكنه يشيل برأسه فخاراً وهو يستعيد ذكرى الليالي التي كان يقضيها في حفر النفق إلى أن خرج مع أذان الفجر إلى الفجر، مع بشائر النور إلى الحرية والنور.

–لا عليك، دمشق كلها ستكون معك كما كانت حماة. طمأنه عزيز بعد أن استمع لأخباره.

–لكنهم سيحاكموننا.. اليوم بلغونا موعد المحاكمة.. وكل ما نخشاه أن تكون محاكمة صورية، أحكامها متخذة مسبقاً.

–لا تخافوا.. سنقيم لكم أكبر المحامين..

–ومن يضمن أن تجري محاكمة عادلة؟

–سنقيم الدنيا على رؤوسهم: الشارع، الصحف، الأحزاب، كلها ستكون معكم. فقط اصمدوا. وصمد الشعار، حيدر، محفوض، مقصود.. والسجناء البقية الذين اعتبرهم الفرنساوي رؤوس الشغب في البلدة الهاجعة بين البادية وجبال العلاه.

نحلة في حقل أزهار، صار عزيز في الأيام التالية. من مكان إلى آخر ومن شخصية إلى أخرى راح يتنقل عزيز، يشرح قضية المساجين، يثير حمية المناضلين، حتى إذا حان موعد المحاكمة كان هنالك أكثر من عشرة محامين

تتطحوا للدفاع عنهم. عواد الذي كان وثيق الصلة بأساتذة القانون ورجال الحقوق، أسهم في ذلك أكبر إسهام. الأستاذ صبري، الرجالات الكبار كلهم تحمسوا واندفعوا: أليس المساجين أبناء وطن سجنوا دفاعاً عن حرية الوطن؟

افتتحت الجلسة فانبرى المحامون للدفاع: ألسنة ذربة، وخطبا بليغة وحججاً دامغة، حتى بدا لعزيز أن القاضي الفرنسي يتصبب عرقاً لضعف موقفه وخزي بني جلدته.. كما بدأت الهمهمات تتصاعد" قد أفحم الفرنساوي، مرغماً سيطلق سراحهم" لكن فجأة ظهر المير نفسه، بوجهه الأحمر النمش وكرشه الكبير المنتفخ، وفي يده عريضة.. طلب القاضي منه قراءتها فجمد الدم في عروق عزيز: أهل البلدة يطالبون بإعدام المشاغبين أصحاب الفتنة. مئات التواقيع ترصع العريضة.. المير يقرأ الأسماء.. بعضها يعرفه عزيز وبعضها الآخر لم يسمع به.. ران السكون على السجناء، المحامين، الحضور، ذهولاً ودهشة.. لم يكن واحد منهم يصدق ما قرأه المير في عريضته:

-كذب!!

-تدجيل!!

-تآمر!!

-خيانة!!

بدأت تتعالى الأصوات من داخل القفص وقاعة المحكمة، حتى بدا وكأن الزمام سيفلت من يد القاضي.. الأصوات غدت صياحاً وصرخات، لكن مطرقة القاضي أسرعت تدق بقوة وعنف، حركة بواريد وجند نشطت هنا وهناك فران الصمت من جديد.

-إن كان أهلوكم يطالبون بإعدامكم، ماذا تنتظرون؟ توجه إليهم محامي الإدعاء بصوت جهوري حاقد، وإن كان أميركم نفسه يحمل تلك المطالبة، فماذا تتوقعون؟

-هو كاذب!!

-متآمر!!

-عميل!! تعالت الصيحات من جديد ومن جديد تعالت دقات المطرقة ترافقها قعقعة السلاح وطقطقة أحذية الجند.

-سيدي القاضي!! انبرى أحد محامي الدفاع وقد عاد الهدوء للقاعة، هل تأذن لي بالكلام؟

-ولماذا الكلام، إن كان أهل بلدهم أنفسهم قانعين بذنبهم مصرين على حكمهم بالإعدام؟

-فقط لنا طلب واحد سيدي القاضي، وقف محام آخر للدفاع يدعم بصوته الجهوري زميله.

-تفضل.. قل ما هو طلبك؟

-أن تأتوا بعشرة لا على التعيين من أصحاب هذه التواقيع شهوداً.

وأطرق القاضي لحظة ثم التفت إلى اليسار فاليمين، هز كلاهما رأسه بالإيجاب فعاد القاضي إلى محامي الدفاع.

-طلبكم مقبول.. يؤتى بالشهود، عشرة من أصحاب التواقيع لا على التعيين. رفعت الجلسة.

في الجلسة التالية سألهم القاضي:

-أهذه تواقيعكم؟

-نعم.. أجاب الشهود العشرة وهم يستعرضون العريضة التي تحمل تواقيعهم

-أرأيتم؟ توجه القاضي من جديد للمحامين وعلى محياه سيما النصر.

-أتسمح لي بسؤال أوجهه لهم سيدي؟ سأل المحامي جهوري الصوت، أستاذ الحقوق في كلية عواد، البارع في حقوق الوطن والإنسان المتبرع دائماً للدفاع عن حقوق الوطن والإنسان.

-تفضل اسأل.

-على ماذا وقعت؟ سأل المحامي أحد الشهود وقد صار قبالته.

-لا أدري سيدي القاضي، أجاب الشاهد، فجحظت عينا القاضي وانكمش المير في مقعده.

-ماذا في هذه العريضة؟ سأل الشاهد الثاني.

-أنا أمي، لا أعرف القراءة والكتابة سيدي القاضي!

-كيف توقع على عريضة تجهل ما فيها؟ سأله القاضي.

-المير أمرني أن أوقع فوقعت سيدي القاضي.. وجحظت عينا القاضي أكثر فيما انكمش المير أكثر وأكثر حتى بدا كرشه أشبه بإطار سيارة يفرغ شيئاً فشيئاً من الهواء..

الشهود العشرة كلهم أجابوا الإجابة نفسها "لا ندري ما في العريضة"، "لم نقرأها" "لم نسأل المير عنها" هو أمرنا أن نوقع.." ويشير كل منهم إلى المير.

-إذن، أنت ترى يا سيدي القاضي أن العريضة مزورة لا تعبر عن إرادة الشعب ورغبته، بل عن إرادة هذا المفتري ورغبته، وأشار المحامي إلي المير.

حاول المير أن يحتج رافعاً صوته، لكن المحامي الجهوري تابع طاغي الصوت: أنت ترى سيدي القاضي أن الدعوى كاذبة وأن أصحاب التواقيع لا يطالبون بإعدام أبناء بلدتهم. أليس كذلك أيها الشهود؟

-لا.. لا..

-بالعكس..

-نحن نطالب بإطلاق سراحهم، تعالت صرخات من الرجال الذين وقعوا على عريضة لا يعرفون محتواها.. ثم تابع أحدهم بصوت أعلى: بل أهل البلدة كلهم يطالبونكم بإطلاق سراحهم. إنهم أبرياء، لم يطالبوا إلا بحقهم في لقمة العيش..

التفت القاضي إلى صاحبيه كليهما كالعادة ثم علا صوته: براءة.. يطلق سراحهم..

فلم يشعر عزيز إلا وقد هب ملء طوله، وصوته ملء القاعة:

-يحيا العدل!! يسقط الخونة، أعداء الشعب!!

فرحة عظيمة عمت القاعة. الرجال هتفوا، النساء زغردن، ثم اختلط الحابل بالنابل وقد اندفع الكل باتجاه السجناء الذين أطلق سراحهم يعانقونهم ويحتضونهم. بعدئذ اتجهوا جميعاً نحو الخارج في ما يشبه المظاهرة، لولا أن سارع الجند يفرقون الناس بالحراب، فحالة الحرب والطوارئ لا تسمح بالمظاهرات.

لم تكن الحرب قد تركت آثارها على السلمية وحسب فخرج أهلوها يتظاهرون ويحتجون مطالبين برغيف الخبز، بل كانت آثارها في كل مكان من البلاد: فقدان مواد أساسية، نقص مواد أخرى حتى ليبحث المرء عن كيلو من السكر فلا يجده، عن زيت الكاز وقوداً لطباخه فلا يعثر منه على قطرة، ثم غلاء أسعار حتى ليحسب المرء أن القيامة ستقوم.. الحبوب، الأقمشة، البن، المصنوعات، المستوردات كلها اختفت من السوق وكأن جناً شفطتها حتى لم يبق لها أثر. تسأل التاجر عن حاجة فيهز رأسه "سقى الله أيام زمان". تطلب

منه شيئاً فيقول لك" من أين والعالم يشتعل حرباً؟" كانت الغواصات الألمانية تسرح وتمرح في البحار مدمرة هذه السفينة، حارقة تلك حتى بدأت السفن تختبئ في مرافئها فئرانا في جحور. انقطعت الطرق البحرية وتوقفت التجارة، فلا أحد يضمن وصول سفينة إلى وجهتها ولا أحد يغامر بشحن سفينة ستقطع البحار.. الجو أكثر خطراً: طائرات هتلر تهيمن على أجواء أوروبا من الجزر البريطانية شمالاً حتى شواطئ المتوسط جنوباً ومن المحيط الأطلسي غرباً حتى موسكو ولينيغراد شرقاً.. في البر: جنود هتلر في كل مكان، مارشالات يكتسحون سهوب الشرق وصحارى الشمال الافريقي حتى بدا هتلر وكأنه يقبض على العالم قبضة عملاق على عنق قزم. تشرشل يصرخ من لندن ويستغيث.. طائرات هتلر لا تنفك تغير في الليل وفي النهار، تقصف وتدك حتى غدت شوارع لندن خراباً وعماراتها يباباً.. رومل يجتاح سواحل افريقيا العربية وصحاريها داحراً الفرنسيين في الغرب، داحراً الانكليز في الشرق حتى بدا ثعلب الصحراء، وكأنه يطبق فكي الكماشة على أعدائه من الجنوب والشمال. موسكو مدينة ساقطة والجنود النازيون يدقون أبوابها. لينغراد محاصرة ستالينغراد على شفا الهاوية والسوفييت يقاتلون. بالنواجذ، بالأظفار يقاتلون. يائسين يقاتلون. لولا رهان واحد راهنوا عليه: الجنرال الشتاء. جاء الجنرال – الشتاء فلم يخذلهم. الطبيعة أم رؤوم.. أرسلت لهم شتاء كما يبتغون: صقيعاً وجليداً قرصا وثلجاً، أمطاراً وعواصف، حتى بدأت عظام الجند الهتلري تتقصف وتتفتت، وبدأ قبس من أمل يطل من كوة الشتاء. كبر ذلك القبس ثم كبر حتى إذا انتهى الشتاء كانت الكوة كلها تشع بالنور وكان السوفييت قد ربحوا الرهان.

في الجبهة الغربية أجدت صرخات تشرشل واستغاثاته.. الدم لا يصير ماء، وأنجلو – ساكسون أمريكا لا يتخلون عن أنكلو –ساكسون بريطانيا.. هم من دم واحد ولا يهون عليهم أن يحتل هتلر لندن مسقط رأس الأجداد ومنبت الجذور والأصول.. تحركت أمريكا ذلك الوليد الذي ظهر في غفلة من الزمان ثم نما وكبر حتى بدا فجأة بقامة العمالقة.. الأغذية، الأسلحة، العربات، الطائرات، السفن.. الذهب، الفضة.. كل ما يحتاجه أنكلو ساكسون الشرق بات يرسله لهم أنكلو ساكسون الغرب.. وتنفس تشرشل الصعداء.. كان منذ البدء قد راهن على جر أمريكا إلى الحرب.. ذهب إلى روزفلت.. مسد الضرع.. المرة تلو المرة حتى در الضرع وبدأ الحليب بالجريان. الهدف التالي لتشرشل أن

يدفع بالعملاق إلى آخر المطاف: ساحة الحرب.. حين ذاك يكون على يقين من أنه سينتصر.. بسيجاره الضخم الشهير كان تشرشل يتحدى هتلر ولا يفتأ يتهدد ويتوعد، ضارباً أكثر الأمثلة صلابة وإصراراً.. في بيانه الوزاري لم يعد بريطانيا بالرفاه والنعيم، بالبهجة والسرور، بل وعدها بكل ما تجره الحرب من ويلات وأهوال، فظائع ومآسٍ لكنه وعدها بالنصر. ولكي ينتصر، كان تشرشل يعلم أن النسر البريطاني لا يطير إلا بجناحين: أمريكا وفرنسا.. أولهما خامل ساكن فبدأ بتحريكه، والثاني قصه هتلر فبدأ بإنبات ريشه من جديد، وكان ديغول القادمة الأكبر في ريش ذلك الجناح.

–كيف الوضع أستاذ؟ سأل عزيز الأستاذ المناضل الذي لا ينفك يتحسر على لوائه السليب، وقد دعاه وأخته للعشاء.

–من سيء إلى أسوأ، رد الأستاذ بنبرة حزن وتجهم محيا.

–ارتح قليلاً من السياسة أستاذ، وقل لي الثريد ناجح؟ سألت شمس مداعبة محاولة تخفيف التجهم في وجهه.

–ليت العالم ثريد وأنت تصنعينه بيدك البارعة هذه، رد الأستاذ مبتسماً مطرياً السيدة الفريدة من نوعها التي كانت تعلم أنه يحب الثريد فلا تدعوه إلا وهو على مائدتها. دلال، لماذا لا تتعلمين كيف تطبخينه؟ خاطب أخته التي صارت صديقة حميمة لشمس.

–كرمى لعينيك سأتعلمه، قالت الأخت المتعلقة بأخيها حتى العبادة.

–أستاذ!! عاد عزيز للتدخل دعنا الآن من الثريد والطعام وقل لي لماذا من سيء إلى أسوأ؟

–كنا نأمل أن تنهي هذه الحرب فرنسا، فإذا بها تعود للحياة وتتجدد.

–هل انقلبت حكومة فيشي على هتلر؟

–بل حكومات المستعمرات تنقلب على حكومة فيشي.. ديغول وتشرشل يقصان أجنحة بيتان. ريشة ريشة. وها هي ذي المستعمرات تعلن ولاءها لديغول الواحدة بعد الأخرى

–لكن في سوريا ولبنان ماتز... بدأ عزيز لكن الأستاذ لم يدعه يكمل:

–في سوريا ولبنان ستنتهي حكومة فيشي أيضاً.

–ويعود الكولونيل رينو؟ تدخلت شمس مقاطعة شبه خائفة,...

-يعود الكولونيل؟؟ لا يعود!؟ أمر لا يستطيع أحد البت فيه.. لكن الشائعات ملء البلد وكلها تؤكد أن ديغول سيدخل سوريا ولبنان.

-إذن عاد رينو!! يا إلهي!! أي خبر مشؤوم هذا! هتفت شمس بصوت أشبه بالندب..

-من هو رينو هذا؟ وماذا يعني أن يعود؟ سألت دلال باستغراب واضح.. لكن لم يكن باستطاعة شمس ولا عزيز أن يشرحا لها من هو رينو وماذا يعني بالنسبة إليهما أن يعود. كل ما كانا يستطيعان شرحه أنهما مذ تم ترحيله، أحسا وكأن صخرة كبيرة انزاحت عن صدريهما. حاولا بعد ذهابه أن يتقصيا أخباره. الأخبار المؤكدة الوحيدة أنه صار فيشي.. تحت تصرف الحكومة. لكن ماذا فعلت به تلك الحكومة؟ ماذا جرى له، لم يكن أحد يدري ولم يكن عزيز وشمس معنيين إلا بشيء واحد: طي ذكراه فلا يسمعان باسمه أبداً.

-لا يهم رينو هذا، لا يهم!! دعنا منه. عاد عزيز من شروده يرأب صدع الحديث الذي كان يعنيه كثيراً ثم توجه إلى الأستاذ: كيف سيدخل ديغول؟

-مع القوات الانكليزية

- أنا لا أصدق قاطعه عزيز هازاً سبابته.. منذ زمن طويل وهم يقولون.. تحركت القوات الانكليزية... سوف تتحرك...

-لكن هذه المرة، صدق. هي تتحرك الآن باتجاه درعا على رأسها الجنرال نفسه وكل ما استطاع تجميعه من قوات فرنسية.

-إذن هي الحرب، علقت دلال فزعة.. فيما تابعت شمس في الحال:

-وإذا اقتربت الحرب، على الناس أن يبتعدوا.

-شمس، علق عزيز على الفور متعجباً ضاحكاً في الآن نفسه، أنت تخشين الحرب؟ أنت تهربين!؟

-لم لا؟ تدخل الأستاذ مدافعاً، المرأة والحرب عدوان لدودان لا يلتقيان أبداً..

-إيه يا أستاذ! عقب عزيز متنهدا، لو رأيتها يوم كانت فارساً ملثماً، يبارز بالسيف ويطارد على الخيل.

-لا.. أنا لا أصدق.. قاطعته دلال نافية برأسها.. شمس المرأة الجميلة الناعمة تبارز وتطارد.

-لا.. صدقي دلال، تدخلت شمس مبتسمة ملوحة برأسها اثباتاً.. يومـذاك كنت في ميعة الصبا.. وكنت أعيش في الفلاة ولم أكن قد صرت أما ولا عشت حياة المدن..

-تذكرينني بميسون.. بدأ الأستاذ معلقاً مبتسماً، فقاطعته شمس:

-ومن ميسون هذه؟

-زوجة معاوية.. حين ضاقت بحياة القصور والمدن فقالت:

لبيت تخفق الأرواح فيه.. أحب إلي من قصر منيف

ولبس عباءة وتقر عيني.. أحب إلي من لبس الشفوف

وكلب ينبح الأضياف دوني.. أحب إلي من قط أليف

-أي والله أحب وأحب.. هتفت شمس مغتبطة فرحة، ثم انقلب الحديث إلى الأدب والشعر: ميداناً يبرع فيه الأستاذ براعته في السياسة وتحبه شمس حبهـا لذكريات الفارس الملثم.

عند القيلولة، رن الهاتف الذي بات جزءاً لا يتجزأ من حياة دمشق فنهض إليه عزيز:

-ألو!! مناف؟! أهلا بني!

-هنا في المحل رجل يسأل عنك، جاء من الطرف الثاني صوت منـاف، يريد أن يراك.

-من هو؟

-محمد التيناوي..

-ماذا؟ قاطعه بما يشبه الصياح، وقد قف شعر رأسه.

-التيناوي، وهو آت من درعا... هل آتيك به؟

-لا.. لا.. أنا آت.. انتظرني، وللتو انطلق. شتى الأسـئلة تـدق أبـواب جمجمته: كيف عرف عنواني؟ كيف عرف اسمي؟

دخل عزيز المحل، فهب التيناوي واقفاً:

-لا تؤاخذني، أرجوك.. صاحبنا قال لي أين أجدك.. وأشار إلـى البعيـد والوراء فتوقف في الحال دق الأسئلة لأبواب جمجمته.

-لكن ما الأمر؟ ماذا هناك؟ سأله عزيز.

-هو مريض، يريدك في الحل.

-مريض؟ ماذا به؟

-لا أدري.. حمى شديدة أصابته منذ ثلاثة أيام.. أتيت لـــه بالطبيب فقال: "التهاب مرارة لا بد من إجراء عملية جراحية لـــه.. لا بـــد مـــن نقلـــه إلـــى المستشفى.

-هنا.. في دمشق.

-بالتأكيد.. في درعا لا يوجد مستشفى.

-لماذا لم تأت به معك؟ سأل عزيز وقد اضطرب كل ما فيه.

-ينبغي تدبير المستشفى أولاً

-المستشفى!!؟ لا يهم.. المهم نقله..

-وبأقصى سرعة، أكمل التيناوي، بأقصى سرعة.

-ماذا تنتظر إذن؟ هلم نذهب..

في السيارة إلى درعا، حاول عزيز أكثر من مرة أن يسأله عن المـــرض، عن الحمى، عن آخر أخبار درعا، لكن الرجل كان لا ينطق بكلمة أو كلمتـــين جواباً،حتى يعود فيلوذ بالصمت.."أتراه ما يزال متشجناً مني؟ ناقماً علي؟ عرف موقفي منه وشكي فيه فلزم الحذر والبعد".. وعاد عزيز بذهنه إلى الوراء يـــوم التقى به في عش النسر، فوجف قلبه وساورته الشكوك..كان قد أنحى باللائمـــة على البطحيش، لوثوقه برجل كان يعمل لدى المستعمر، لكن صاحبه دافع عنـــه أكثر من مرة. بعد ذلك تجادلا وتحاورا حوله لكن الرجـــل كـــان قـــد قـــرر.. "أتحسبني أهبل، يضحك علي رجل كالتيناوي؟" قال لـــه ذات مـــرة. "وضـــعته على المحك عشرات المرات وعشرات المرات ثبت لي إخلاصه"، "مـــع ذلـــك ينبغي أن تبقى على حذر منه". "وهو كذلك أم تحسب أن ذئبـــاً يعطـــي ظهـــره لذئب؟" لكن أياماً وليالي مرت والتيناوي يرافق البطحيش.. صحيح أنه لا يـــراه مرتين في مكان واحد ولا يعطيه البطحيش ظهره، لكنهما يلتقيان.هنا، هنـــاك، يلتقيان -يذهبان، يأتيان، يأكلان، يشربان، حتى بات ضمير البطحيش يوبخه إن مرت به ظلال شك فيه.."إنه لجدير بالثقة وإنك لظلمته بشكك وارتيابـــك "قـــال لعزيز آخر مرة" يمكنك أن تضعه في عـــب اللحـــم. آمـــن مـــن حيـــة فـــي صقيع".وضحك البطحيش باطمئنان وثقة ناسلاً من صدر عزيـــز آخـــر خـــيط للشك.هذه المهمة تؤكد ثقة البطحيش بالرجل "لو كان في نيته شيء إذن لنفـــذه،

طالما الرجل محموم طريح الفراش لو لم يكن يثق به ثقة مطلقــة لمــا أعطــاه عنواني". و كاد عزيز أن يعتذر من التيناوي. نظر إليه متفحصاً فوجد أصابعه تتراقص على فخذه. "الرجل ملهوف قلق". وعلى الفور أحس بحاجة للتواصــل، للمزيد من الإيضاح:

-أهو في خطر؟

-كبير، رد التيناوي باقتضاب.

-كان على الطبيب أن يتدبر أمره.

-كيف، وهو ليس بجراح؟

وهز عزيز رأسه:

-بيدك حق. لكن خسارة، الوقت الذي ضاع!!

-قلت له، لكنه أصر قائلاً "ليس لي سوى عزيز. عزيز المروءة، عزيــز النخوة.. ثم هو لا يثق إلا بك"، وشعر عزيز برعشة فخار تسري في أوصاله.. رعشة طرب لها، وهو يتصور نفسه ملاذ كل خائف، غوث كل طريــد، لكــن خاطرة لمعت في رأسه أوقفت الرعشة وجعلته يعيد التفكير "البطحيش محبــوب في درعا.. محترم، موضع تقدير. بل الناس كلهم يلتفون حوله، يساعدونه. أكله ، شربه، نفقاته كلها ممن حوله.. أقرباؤه كثر، أصدقاؤه يمدون لــه يد العون.. بل هو سمكة وكل من حوله بحر، يسبح فيه على هــواه يســتمد منــه غــذاءه وشرابه.. فكيف لا يمد له يده وهو على فراش المرض؟ ومن جديد أحس عزيز بصدمة خفيفة من شك.. نظر إلى يساره فأمسك بالتيناوي ينظر إليه خلسة.

-ماذا؟ بادره عزيز على الفور، أهناك ما تريد قوله؟

-لا.. لا.. أجاب الرجل وهو يبتعد بناظريه ويلملم يديه، حية تتكمش على نفسها وقد أحست باقتراب نمس.

عند أول الكرك، أوقف التيناوي السيارة معطياً السائق أوامره بالانتظــار. كان الظلام قد حل وكان المارة قلة. تلفت عزيز حوله بحــذر قبــل أن يــدخل الزقاق الضيق يتقدمه التيناوي.. شاب وفتاة فقط كانا يمران، خوار بضع بقرات من الطرف الآخر كان يجيئ متقطعاً.. خطا التيناوي متعجلة، ظهــره مــنحنٍ، رأسه لا يلتفت يمنة ولا يسرة وكأنما كل حركة منه تقول لعزيز "هيا.. أسرع.. الرجل يحتضر".. وأسرع عزيز وراءه.. وصلا إلى الباب الخشــبي المصــفح

بالتوتياء. تلفت التيناوي يميناً، شمالاً.. لا أحد.. أخرج مفتاحاً من جيبه. "ها هو ذا دليل ثقة آخر"، ثم فتح الباب.

–تفضل، بكل احترام أشار لعزيز مفسحاً له في الطريق. أسرع عزيز بالدخول بعد أن تلفت بدوره.. أيضاً، لا أحد، لكن قبل أن يمضي عزيز أبعد جاء صوت التيناوي.

–سآتي ببعض حاجياتي.. بضع دقائق فقط وأعود. ثم أغلق الباب قبل أن يتسنى لعزيز الرد. صدمة خفيفة أخرى مصحوبة برعشة سرت في أوصاله.. لكنه تابع.. الغرفة منارة.. إذن، لا بد أن صاحبه في الداخل.. غذ عزيز خطاه وحين اقترب من الباب صاح:

–أبا حسن!!

–يا عونك!! جاءه الصوت من الداخل قوياً فرحاً.. ثم لم يلج عزيز الباب حتى كان البطحيش بنفسه يستقبله محتضناً إياه، مؤهلاً به:

–يا هلا بالرفيق. قال بلهجته الحورانية التي كان عزيز يحبها كثيراً فلا يتكلم معه إلا ببدويته.

–لست مريضاً إذن؟ سأله بسرعة؟ متخلصاً من أحضانه بسرعة واندهاش أشد، ليس معك التهاب مرارة؟

–مريض؟ التهاب مرارة؟ ها أنا ذا كالحصان، قال وهو يستعرض عضلات عضديه وصدره ضاحكاً: من قال لك ذلك ؟

–التيناوي، ولست مريضاً فحسب، بل أنت صريع الحمى، لا بد لك من عملية جراحية في المستشفى وقد جئت من الشام لإسعافك.

–ماذا؟ هتف البطحيش فاغر الفم جاحظ العينيين. حمى؟ عملية جراحية؟ مستشفى؟ الكذاب الغادر؟!

–ليس كذاباً غادراً وحسب بل عميل خائن، رد عزيز وقد استنفر كل ما فيه.. أرأيت؟ حدسي كان يقول لي ذلك وقد حذرتك منه..

–اللعنة!! بعد كل هذه المدة؟ صاح وهو يلطم جنبيه ثم يضرب يديه الواحدة بالأخرى.

–لا بد أنه كان ينتظر الفرصة المناسبة.

–للإيقاع بنا كلينا، عقب البطحيش وقد اشتعلت عيناه ندماً وغضباً.

-وها قد جاءت.

-أجل.. قد نصب لنا فخاً عزيز. جاء بك من الشام كي يطبقوا علينا نحن الاثنين. أسرع عزيز.. انجُ بنفسك، عزيز، هتف وهو يسرع إلى بندقيته.

-لنسرع نحن الاثنين. لننُج نحن الاثنين. صاح به عزيز وهو يسرع إلى بندقية أخرى كانت معلقة على الحائط ثم اندفعا كلاهما باتجاه الخارج.

مع اندفاعتهما، كان هناك رجال آخرون يندفعون راكلين باب الدار ظاهرين برؤوسهم فوق الحائط، فأدرك الرجل بأن الفخ قد أطبق وأن أوان النجاة قد فات.

-ألق السلاح بطحيش، سلم بطحيش!! جاء صوت آمر يشق عنان السماء، لكن البطحيش لم يعرف يوماً التسليم. كان ديدنه القتال ومبدأه "المنية ولا الدنية" وأدنى دنية عنده الاستسلام للعدو، فجاء رده رشة من رصاص خرس أثرها الصوت الآمر، فيما لعلع رصاص.. منبطحاً، زاحفاً إلى ساتر أعده من قبل، أطلق البطحيش الرصاص، فهوى من أعلى الحائط رجال.

-اهرب عزيز، تسلق الحائط الآخر عزيز.. أسرع أحم ظهرك.. صاح بعزيز الذي زحف مثله إلى الساتر دون أن يلتفت إليه، فقد كانت عيناه ترصدان الحائط..

-وأتركك؟ رد عزيز مصوباً بندقيته إلى جندي ظهر رأسه، ثم أطلق فاختفى الرأس من جديد.

-هي غلطتي عزيز.. وعليّ أن أتحمل عاقبة غلطتي.. أنا وحدي.. أتحمل الوزر.. صاح بعزيز صياح الهمس، فيما فوهة بندقيته تتحول إلى نبع من نار ينصب على آخرين ظهروا في الجانب الآخر من حائط الدار. عزيز لم يرد.. كانت ركلة قوية للباب قد فتحته وكان رجل أو اثنان يندفعان، عاجلهما رصاص عزيز فهويا على الأرض منكبين على التراب.

-اهرب عزيز، أسرع، ما تزال الفرصة سانحة عزيز، جاءت صرخات البطحيش أقوى هذه المرة.

-أبداً.. لن أتركك.. نعيش معاً أو نموت معاً، رد عزيز دون أن يتوقف عن إطلاق النار، فالباب كان ما يزال مفتوحاً وجنود آخرون كانوا يحاولون اقتحامه.

-أرجوك عزيز، بحق المحبة، بحق الأخوة.. اهرب.. من أجل أن تنتقم

لي، اهرب. كان صوت البطحيش قد تحول إلى توسل وبدت أكثر من رعشة تخالج صوته.

-لا، لا، أستطيع، رد عزيز وقد ازدادت كثافة النيران من فوق الحائط وعلى باب الدار.

-بل تستطيع، صاح برعشته نفسها. من أجل أبنائك، من أجل شمس، من أجل هذا الوطن.. اهرب.. أسرع.. أسرع. لحظة تردد عزيز لكن ليس صوت البطحيش فحسب، بل يده بدأت تدفعه باتجاه الحائط الآخر، فلم يملك إلا أن يندفع.. زاحفاً إلى الوراء.. رش رشة طويلة من بندقيته ثم جمع نفسه قاذفاً بها إلى أعلى الحائط. يداه أمسكتا الطرف الثاني، رجلاه علقتا في منتصفه، ظهره يدفع به إلى الأعلى.. دفعة واحدة وينطلق إلى الطرف الآخر. قلبة واحدة وينجو.. رصاص البطحيش يحميه، غزيراً سريعاً كأنما هو رصاص جبهة "هيا.. اقذف بنفسك عزيز" لكن قبل أن يقذف بنفسه دوى انفجار، أحس به عزيز يرفع الحائط من تحته ممزقاً حجارته محولاً إياها إلى شظايا. هو نفسه شظية من تلك الشظايا، تطير عالياً في الهواء ثم ترتمي كتلة من حجر أصم إلى الجانب الآخر من الحائط.

- 13 -

الفراش بغيض، السقف، الجدران، الباب، النوافذ، كلها بغيضة تثير الكراهية في نفس عزيز، وتولع حفيظته، لكن الأبغض والأشد إثارة للكراهية والحفيظة، ذانك العكازان اللذان يستندان إلى الحائط في الزاوية البعيدة متربصين به، مخرزين يهددان بفقء عينيه:

-لماذا هذان العكازان؟ سأل عزيز الطبيب حين جاء بهما قبل أيام.

-يجب أن تمشي عليهما.. أجاب الطبيب.

-أنا أمشي على عكازين؟ صاح عزيز حانقاً محتجاً.

-يجب أن تدرب طرفيك السفليين.

-ليسا بحاجة إلى تدريب.

-كيف وهما منذ أكثر من سنتين لم يمشيا ولم يتحركا؟ قاطعه الطبيب بلطف ومرح.. عضلات رجليك ذبلت، أعصابك تيبست، بل العظم نفسه ربما لان، صار هشاً.

-لا.. لا.. عظام عزيز لا تلين، عضلاته لا تذبل.. فقط طمئني دكتور.. الفخذ الأيسر تعافى.. عظام الحوض جبرت؟

-يفترض ذلك.. لكن لا بد من المحك.. والمحك هو المشي.

-أمشي إذن، وهم عزيز بالنهوض من فراشه البغيض الذي مل النوم عليه، سئم الاستلقاء على ظهره الليالي الطوال تمر شهراً بعد شهرا حتى بلغت التسعة والعشرين شهراً.

-لا.. لا.. أوقفه الطبيب قبل أن ينهض. لا تتحرك قبل أن آتي إليك

بالعكازين. ثمة خطر شديد إن لم تكن العظام قد جبرت، ربما استنادك الكامل عليها يعيدنا إلى نقطة الصفر..

-إذن، لا أريد العكازين.. لا أريد أن أمشي.. دعني وشأني..

-بل يجب أن تمشي، وعلى هذين العكازين، قال الطبيب وهو يضع العكازين أمامه.

-اسمع كلام الطبيب، عزيز!! تدخلت شمس وهي تدخل الغرفة ذات السقف العالي والزجاج المعشق. لكن، عزيز يكره المرض والأطباء، يكره حتى سماع كلامهم.

-لا.. لن أمشي على عكازين.. دعوني وشأني.. دعوني وشأني.

تبسم الطبيب وهو يشير إلى شمس بأن تدعه وشأنه، ثم خرجا دون أن يراهما عزيز، فقد كان يطرق واضعاً كفيه على عينيه محنقاً من نفسه، مغيظاً من العالم، رافضاً حتى رؤية أحد.

صدره مرجل للقهر والغيظ.. مذ ألقي على هذا السرير وهو مرجل للقهر والغيظ "أنا أقعد في السرير لا أستطيع الحراك؟ أنا أصبح عاجزاً لا أستطيع الوقوف أو السير؟" كان لا يفتأ يسأل نفسه، يسأل القدر الذي لا يرى له وجهاً ولا يلمس له يدا، يسأل دقائق الزمان والمكان من حوله وهو يعلم أن الزمان والمكان أصمان أبكمان.. لكنه يأبى إلا أن يسأل وهو يتذكر كيف كان بقامته العالية ومنكبيه العريضين يزحم المارة في الشارع، يرفع الشيلات الثقيلة التي لا يستطيع سواه من شبان الريحانة رفعها.

.. يستعيد في ذهنه حيويته وقوته وهو يجري على الخيل، يقاتل في ساحات المعارك، يقف في وجه أبي شعيب متحدثاً ساحباً إياه من سوطه ليلقيه أرضاً.. فكيف يذهب ذلك كله؟ كيف يسحب البساط من تحت رجليه، ليجد نفسه أرضاً لا تنهض له هامة ولا تنتصب قامة؟ العجز.. وحش مخيف.. كان دائماً يتمثله أمامه فيدب في قلبه الرعب.. كم من مرة رأى كسيحاً مقعداً فأرعبه ذلك، لكن المقعد غالباً ما يكون قد أصيب في ظهره: فقرة انكسرت، عمود فقري انهرس، نخاع شوكي انقطع، فسقط الرجل عاجزاً عن الحركة. كان عزيز يعرف قيمة الظهر". يضرب المرء على بطنه فيصيح آخ يا ظهري! ألا يقول المثل: "الويل كل الويل لمن ليس له ظهر." الجسم كله يقوم على الظهر، عموده الفقري إن ضربت فقرة واحدة منه تهدم الجسد كله. لكن ظهره سليم،

فقراته كلها صحيحة لم تكسر ولم تهرس!! مع ذلك هو عاجز، لا يستطيع وقوفاً أو مشياً.. الحوض ؟ من تراه يهتم بالحوض؟ كان مذ سقط طريح الفراش لا يفتأ يتساءل "من في حياته يفكر بعظام الحوض؟" ويشعر عزيز بالقهر أكثر كلما فكر بحوضه أكثر. "صحيح كل ما في الجسد هام.. صغيره، كبيره، عاليه، سافله كله هام.. ليس الحوض الذي هو ركيزة العمود الفقري وقاعدته وحسب، بل حتى عظم العص، حتى الإلية.. هذه الالية التي لا يبالي بها أحد، شيء في غاية الأهمية.. بغيرها لا يستطيع المرء أن يقعد وإن لم يستطع القعود، تحولت حياته إلى جحيم، فكيف لم أفكر بهذا من قبل؟".

شيئاً فشيئاً بدأ عزيز يكتشف أهمية الاليتين اللتين أصيبتا لديه، عظم العص الذي ما يزال خدر شديد يسري فيه، حتى لكأن الإصابة وقعت بالأمس، الضلع السائبة في الصدر وقد ظلت منخساً يوجعه كلما تحرك حركة خاطئة لا يستطيع لها طب علاجاً ولا تعرف هي الشفاء.

لكن ذلك كله يهون أمام البلاء الأعظم، والبلاء الأعظم ذلك الحوض الذي لا يتحدث عنه الناس ولا يفكرون به، كماً مهملاً كأنما لا وجود له. مع ذلك هو كل شيء في الجسد، يستند عليه الجذع من أعلى وينشد به الطرفان من أسفل.. هنا حيث يتمفصل الفخذ الأيسر مع قاعدة الحوض.. وحيث يدور عنق الفخذ في مجرى الحوض جاءت الشظية فحطمت المجرى والقاعدة والعنق ممزقة الإلية اليسرى راضة عظم العص، مطيحة بجسده كله أرضاً.

عزيز لا يعرف كيف سقط على الجانب الآخر من الحائط. كل ما يذكره صدمة هائلة جاءته من خلف وشرارة كشرارة الكهرباء خرجت من عينيه ثم غاب عنه كل شيء: الرصاص، القنابل، الصراخ، الزعيق، كله خمد كأنما هي عاصفة مرت فهدمت وخربت، قتلت وصرعت ثم هدأ كل شيء.

ما يذكره بعد ذلك هو غرفة كالجحر، ملؤها البؤس والعتمة وفراش وسخ أرق من لحاف يستلقي عليه.

كانت قد مرت أيام.. ربما سبعة، ربما عشرة وهو على ذلك الفراش. نظر حوله يتفحص، يستطلع فلم يجد ما يفيده بشيء.. تلمس أول ما تلمس رأسه، جذعه، فوجد رأسه وجذعه سليمين. نزل بأصابعه وراحتيه إلى الأسفل فوجد عيداناً وأحزمة وشيئاً كاللفائف يشد فخذه الأيسر. حاول أن يرفع جذعه لكن جذعه ثابت لا يستجيب وانبجس في قلبه الهلع: "أنا مقعد؟ صرت عاجزاً؟ "ودون أن يعرف كيف، أحس بحرقة الدموع، وهي تنحدر على خديه.. تلفت

يمنة، يسرة من جديد لكن لا أحد. الباب مصراع واحد من خشب عتيق تتخلله الشقوق والفتحات. هو مغلق كالمفتوح ومفتوح كالمغلق.

"إيه.. أنتم.. يا من هناك!؟" صاح بأقوى ما لديه من صوت، لكن الصوت خرج ضعيفاً واهناً لم يصل إلا بالكاد إلى أذني صاحبة الدار. "صبحك الله بالخير!! وألف حمد لله على سلامتك، هممت عجوز أكل الدهر عليها وشرب وهي تلبي نداءه داقة الأرض بعكازها، سائرة حتى فراشه.

"من أنت؟ أين أنا؟" غمغم عزيز وهو لا يصدق عينيه.

"ما يهم.. من أنا يا وليدي أو أين أنت؟ المهم عاد وعيك..

وكأنما أشعلت نور مصباح في غرفة معتمة.. اشتعلت الذكرى في ذهنه.

"صحيح... عاد وعيي... نجوت... يعني نجوت؟ لكن ماذا عن أبي حسن؟ ماذا جرى للبطحيش؟"، "لا تسألني يا وليدي". ردت العجوز بوهن وهي تقرفص مستندة على عكازها غير بعيدة عنه. أنا ما سألت عن شيء وما أدري بشيء.. كل ما أدريه أنهم جاؤوا بك هنا، ملاذاً آمناً يخفيك عن أعين الجندرمة.." "الجندرمة! ؟؟ أجل.. الجندرمة دائماً أس البلاء.. فكم فعل الآخرون كي يخفوني عن أعينهم؟" وشرد بذهنه إلى البعيد، حين بدأ منعطف حياته بهم. اصطدم مع أبي شعيب فانقلبت دنياه رأساً على عقب.

"لكن من جاء بي هنا"؟

"ناس رأوك تنقلب عن حائط دارهم فحملوك هاربين بك من مطارديك.." "آ.. الآن فهمت!! وما الذي أصابني خالة؟ عاد لسؤال العجوز التي أكل الدهر عليها وشرب. فيما يداه تتلمسان الحوض المثبت والرجل اليسرى التي لا يستطيع لها حراكاً. "عظام الحوض.. أنا سألت الحكيم يا وليدي!"

"جبرني حكيم هنا؟ "سأل وهو يتفحص الجحر، ملء ناظريه الاستغراب.. "ما كان من ذلك بد يا وليدي.. أنت مكسر.. فاقد الوعي ودمك ينزف.. يا حبة عيني.. ملء الطست دم راح منك.. أشطر حكيم عربي جاؤوا به.. لو كانت الساق، عظم اليد، لكان جباره يشفى بثلاثين يوماً.. لكن الحوض والحوض ماله جبار يا وليدي".

"ما هذا إذن؟ "تساءل، وهو يتلمس العيدان الخشبية التي شدت إلى أسفله كأنها القفص.

"هذه.. ما أدري ايش قالوا.. يمكن حتى لا تتحرك.. "كيف ستجبر كسور

الحوض، إذن؟" سأل العجوز من جديد.." هي تشفى لحالها... بعون الله تشفى يا وليدي.."

لكن موجة من صقيع بارد، أشبه بصقيع القطب، اكتسحته في الحال. "تشفى لحالها!؟" يعني الطب لا يستطيع علاجها!؟ إذن راحت عليك يا عزيز.. صرت كسيحاً عاجزاً يا عزيز"!! ومن جديد أحس بحرقة الدموع على وجنتيه وبهاوية حزن أسود تنفتح تحت قدميه وقوة هائلة تدفعه من خلف كي يسقط فيها.

"خالة.. أرجوك.. قولي لي.. هل عرف بي أهلي؟ هل جاء أحد منهم؟ "قلت لك" أنا عجوز كبيرة، سمعي ثقيل.. نظري خفيف.. ما أعرف من شيء... ما أدري يا وليدي.."

"من يدري إذن؟" سأل بمزيج من الغضب والقهر... "عواد يا وليدي"...

"عواد.. من؟" سأل وهو لا يصدق الظن الذي خطر بباله في الحال.

"ابن حمولتي.. عواد العوايدة.."

"حقاً" هتف بفرح الأطفال..

"ومتى يأتي عواد؟ كيف أراه؟

"الليلة يا وليدي.. هو قال لي.. مع أذان المغرب أجيء"

حين جاء عواد مع أذان المغرب، شهق عزيز، وهو يفتح يديه له، ناسياً نفسه هاماً بالنهوض لكن موجة عارمة من الألم أعادته إلى الاستلقاء ودموعه تنهمر على خديه. أسرع إليه عواد يحتضنه ويقبله: "عمي، حمداً على سلامتك، عمي".

وطوال تلك الليلة لم يرقد لعزيز جفن وهو يستمع لعواد يروي له كل شيء.

كان طوق من رجال الأمن الفرنسيين قد أحكم حول الكرك.

حين وصل إليه عزيز مع التيناوي، لم يرهم فالكل كانوا يتسترون بالأشجار، يتدرؤون بالحيطان. أدخله \التيناوي دار البطحيش ثم أسرع إلى سيده: "اضرب الآن.. العصفوران في الفخ، "وأسرع الكابيتان إلى دار البطحيش، يضرب العصفورين بحجر واحد.. لكن البطحيش ليس مجرد عصفور.. هو أسد هصور.. يدافع عن عرينه.. وخيل للكابيتان أن التيناوي

خدعه.. رصاص غزير كان يواجهه، معركة ضارية اضطر لأن يخوض.. كان في الدار أكثر من فوهة رصاص.. أكثر من مقاتل.. فالبطحيش لم يفتأ يغير من مواقعه في الدار.. يستفيد من السواتر فيها، قتل تسعة وجرح ستة عشر من الجند الفرنسيين قبل أن يسكت رصاصه. أطول أمد حاول أن يستمر، ربما ليغطي عزيزاً وهروبه، لكن عزيزاً لم يستطع الهرب. كانت إصابته على الحائط رصاصة في الكتف، رصاصة في الفخذ وشظية أو أكثر في الإلية والحوض، فلم يهو إلى الجانب الآخر من الحائط إلا وهو فاقد الوعي.. الجيران، الذين أفزعهم الرصاص أسرعوا باتجاه دار البطحيش، هناك وجدوا رجلاً ينزف، متكوما على الأرض.. بلمح البرق حمله اثنان ثم أسرعا به خارج الدار.. كانوا يعلمون أن معركتهم خاسرة. عزل وليس بمستطاعهم مواجهة الجند. إذن عليهم الهرب والاختفاء. ما قدروه حصل.. إذ ما ان صمتت بارودة البطحيش حتى انداح الجند في الدار يفتشون ويبحثون.. لم يكن هناك سوى جثة واحدة. "أين الجثة الثانية؟" هم على ثقة أن إصابتهم كانت قاتلة وأن طوقهم محكم لا يمكن أن ينجو منه أخو العقيدات الذي حدثهم عنه التيناوي.. بحثوا في الدار، قلبوا عاليها سافلها، لكن لا أحد. فانداحوا في الدار المجاورة يفتشون ويبحثون.. أيضاً لا أحد.. وطار صواب الكابيتان: "أين المجرم؟ كيف فر؟ أريده هنا، اخلقوه خلقاً." راح يصيح وهو ينهال بسوطه على كل من يجده في طريقه، رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً.

عواد في درعا تلك الليلة، ودرعا صغيرة. تطلق رصاصة في المحطة فيسمعها كل من في البلد، فكيف ان نشبت معركة في الكرك حامية الوطيس؟

"كنت في مكتبة ابن الشرع، أنت تعرفه؟ "تابع عواد روايته، فهز عزيز رأسه. "ومن لا يعرف ابن الشرع الذي يحب العلم إلى درجة يضحي بكل ما يملك كي ينشر بين أهليه العلم؟"

أجابه عزيز وهو يتنهد. "هو ذاك.. كنت أناقش معه كتاب "الأيام" لطه حسين.. وكنت قد استعرته منه، كالعادة، قبل أسبوعين.. فجأة سمعنا لعلعة رصاص، فوثب قلبي في صدري.. إحساس ما جعلني أنتفض وكأن الرصاص أصاب مقتلا مني. "الرصاص في الكرك" حدد صاحبي المكان، فقلت للتو "لا بد أنه البطحيش إذن" وافقني فتركته وأسرعت إلى حيث دار البطحيش.. لكن قبل أن أصل كان الناس قد تجمهروا.. أهل الكرك كلهم كانوا قد تجمعوا.. الذعر في عيونهم والغضب في صدورهم.. كانت المعركة قد انتهت، وكان الرصاص

قد سكت، فيما كان الجند قد انداحوا يفتشـون الـدور والمغـاور.. "رحـم الله البطحيش"، قتل البطحيش" "فاز الرجل بالشهادة"، "إلى الجنة أبا حسن" كان الكل يقولون وهم يتأسفون مترحمين على الرجل الذي كان قد اختزل الرجال جميعاً.. حمل باسمهم السلاح، ووقف صامداً يقاتل المستعمر.. سنين طويلة يقاتله وحده، أنى ثقفه قتله!! كلهم يحبونه وكلهم يشدون من أزره فكيف لا يتجمعـون علـى موته ويحزنون؟ إيه!! رحمة الله عليك يا أبا حسن "همهم إذ ذاك عزيـز وهـو يزفر أحر الزفرات". كم نبهتك منه! ذلك الخائن الغادر عرفته مذ رأيته.. قلـت لك حذار منه.. ابتعد عنه، لكن وأسفاه!! غلطت يا أبا حسن فوثقت به!! وغلطة الشاطر بألف "بعدئذ تابع عواد "مؤامرة فظيعة دبروها لـه، مكيدة خسيسة حاكوها، خدعوه فانطلت عليه الخدعة"!! و"التيناوى؟" أما يزال هنا في درعـا؟" سأل عزيز وعيناه تقدحان شرراً.." التيناوى في جهنم وبئس المصـير أجابـه عواد ملوحاً برأسه كازاً على أسنانه ثم تابع روايته." كـان بعضـهم قـد رآه يوصلك إلى دار البطحيش وكان الكثيرون يشكون فيه، وسرعان ما صار لديهم يقين تام أنه هو الواشي المفسد.. في الليلة نفسها، قـررت حمولـة البطحـيش الانتقام له وتبرع اثنان من أبناء عمه بتنفيذ ذلك.. في الهزيع الأخير من الليـل تسلقا جدار منزله، دخلا غرفته، وعلى فراشه نفسه أطبقا عليه. أحدهما كم فمه والآخر أعمل في عنقه الخنجر.. ذبح الخروف ذبحه، ثم انسـلا دون صـوت، دون أثر.. وعند الضحى خرجت من درعا جثتان: جثة التيناوي فـي سـيارة عسكرية تنقلها إلى دمشق، وجثمان البطحيش وقد خرجت درعا كلهـا تشـيعه بطلاً تحمله راحات الرجال وترافقه زغردات النساء.

"لكن.. كيف عرفت بي أنا؟ كيف وجدتني؟" سأله عزيز بعـد سـيل مـن الرحمات صبها على روح صاحبه، ذلك الذي ضحى بنفسه كي ينجـو هـو.. "كلهم كانوا يعرفون أن أحداً كان معه" أجابه عواد متابعاً،" وأن الفرنساوي كان يبحث عنه الناس. كلهم كانوا يتساءلون عن مصيرهط..

"شك كبير ساورني في تلك اللحظات.. أهو عمي عزيز؟ "وشرعت أسأل، أبحث إلى أن وقعت على من أنقذوك.. كانوا قد نقلوك إلى مغارة في الطريـق الجنوبي من الكرك وكانوا خائفين، وأنت مصاب إصابات خطرة. دمك ينـزف وأنت فاقد الوعي وليس من طبيب يمكن الوثوق به.. بل في درعـا لا يوجـد طبيب عظام كما تعلم فمن يجبرك.؟

أوه!! يا لها من لحظة!! "ولم يستطع عواد أن يكمل، فجيشان مشاعره هول

الذكرى المؤلمة جعلا حنجرته تغص وعينيه تغرورقان بالدموع. "في الليلة نفسها" تابع عواد روايته،" نقلتك إلى هنا، وجئتك طبيب عام ومجبر عربي. في الصباح التالي توقف النزف، لكن حرارتك ارتفعت وكنت ما تزال في غيبوبة، خشينا معها أن تكون قد فقدت الذاكرة لكن الطبيب كان بارعاً. خلال سبعة أيام هبطت حرارتك وبدأت بالتململ. لكن في كل مرة كان الألم يوقفك مع صرخة مكتومة.. لم تكن تعلم أن جسمك كله كسور ورضوض وكنت وأنت في غيبوبتك، تحاول التحرك فتتوجع وتصرخ.. وها أنت الآن تفتح عينيك، تستعيد وعيك، فكم أنا سعيد! كم أنا سعيد!!"

وانكب عليه يعانقه ويلثمه.. بينما كان عزيز يتمتم مشغول البال. "شمس، هل عرفت بي؟ أولادي هل أخبرتهم؟" اطمئن" قاطعه عواد على الفور، ممسكاً يده مهدئاً. أنا عائد للتو من هناك.. كانوا قلقين يكادون يجنون عليك وقد غبت عنهم هذا الغياب..

قلت لهم إنك مشغول قد تتأخر عنهم بعض الوقت وإنك أنت الذي أرسلتني إليهم أطمئنهم". "يعني.. لم تخبرهم بإصابتي؟ "سأل عزيز بمزيد من التعجب والإعجاب "ولماذا أخبرهم؟ هذا سيزيد الطين بلة.. فقلت أموه وأماطل، علني أكسب بعض الوقت". ولم يملك عزيز إلا أن يمد يده السليمة الكتف فيشده إلى صدره "الحمد لله، لم يخب أملي فيك!!"

كان عواد قد دخل قلب عزيز مذ بدأ، وهو فتى طويل ناحل لم يتجاوز السادسة عشرة، ينقل معه أحمال الحبوب على جمله العجوز الهزيل... وحين اكتشف فيه ذلك الطموح لأن يصبح محامياً ازداد له حباً، وبه تعلقاً. "ربما أتأخر بعض الوقت، لكنني سأصل آخر الوقت." كان الطالب الذي يعمل ويدرس يبرر رسوبه. وكان عزيز يكبر فيه تصميمه وعزيمته، بل يثق به إلى درجة بدأ يبوح له بما يشغل باله وما يكنه من أسرار. من تلك الأسرار، كان عزيز قد أطلعه على معرفته بالبطحيش، وعلى طرف من علاقته به.. ذلك نفسه ما جعله يشك بوجود عزيز في معركة الكرك، بعد أن سمع همسات عن رجل ثان كان مع البطحيش فمضى يبحث عنه إلى أن وجده. لكن ما تراه يقول لشمس؟ هو يعلم أن عزيزاً ما يزال في خطر.. الشرطة ما زالت تفتش عنه.. كان التيناوي قد حاول جاهداً أن يعرف هويته، لكن تكتم عزيز وتحذيره الشديد للبطحيش جعل هذا يمتنع عن إفشاء سره، فظل التيناوي لا يعرف غير أنه أبو العز وأنه من العقيدات.. مهمته في دمشق دامت تسعة أيام وهو يسأل ويراقب إلى أن

عرف محل عزيز.

الخطة التي رسمها له صديقه نجحت، فقد ألقى لعزيز طعماً لم يستطع إلا أن يلتقطه". أبو حسن على فراش الموت.. هو محموم يهذي منادياً باسمك مطالباً بك"، فكيف لا يلبي عزيز نداءه، لا يستجيب لطلبه؟ بعد ذلك لم تسنح الفرصة للتيناوي، كي يضيف شيئاً لمعلومات الفرنساوي عن رجل البطحيش الثاني، فالمعركة احتدمت على الفور، ومع الفجر كان التيناوي ومعلوماته يسيلان دما حاراً على الفراش.

شيء من شفاء الغل أحس به عزيز، وهو يسمع نهاية التيناوى. لكن الألم الذي كان يقبض بيد من حديد على جسده، الخوف من العجز، الحزن على البطحيش، الهم والتفكير بشمس والعائلة، كل هذا جعله ينسى التيناوى ويفكر بالمستقبل. "انقلني إلى دمشق". طلب إلى عواد لكن عواداً جاء له بالمجبر والطبيب ليخبراه معاً". من المستحيل نقلك وأنت في هذه الحالة. "فكبس عزيز الجرح على الملح ولاذ بالصمت يجتر الأفكار والهموم.

بعد شهرين بلغ سيل الزبى.. "لم أعد أطيق صبراً. ائت لي بشمس"، كانت شمس توشك على الجنون. عزيز غائب يرسل لها عبر عواد الرسائل، يطمئنها بخط يده أنه بخير لكن أيكفي هذا؟ شمس التي أحبته حتى العبادة عاشت معه السنين الطوال مقيمة على حبه، ترى الحياة بعينيه، تسمعها بأذنيه، كيف تتحمل غيابه شهوراً دون أن تعرف مسوغاً لذلك الغياب.؟ صحيح أنه كان يقدم السبب تلو السبب، والمبرر إثر المبرر لكن حتام وهي تعلم أن حبهما الراسخ العظيم لا يقبل مثل ذلك الغياب؟ قلبيهما لا يطيقان مثل ذلك البعاد..؟ هي تعلم أن المحب لا يرضى بغير لقاء الحبيب، العين تظل بحاجة لرؤية الحبيب، الأنف لرائحته، الآذان لسماع صوته، والأنامل للمسته، فكيف يتحمل عزيز كل هذا الفراق؟ كانت شمس تتساءل، وكان الكل يتساءلون: صبري، الأستاذ، الجيران في الميدان، الأهل في القرية، كلهم يسأل أين عزيز؟ ماله عزيز لا يظهر؟ بل نسوة الحي كن يسألن عنه يطالبن برؤيته فماذا تقول لهن؟ أم روضة، أم فريد، أم محمود كلهن يستغربن، "غير طبيعي.. لا بد أن في الرز بصلا" بدأن يتقولن بل إن أم روضة قالتها صراحة: "أختي شمس.. إلى متى تظلين ساكتة.؟ غياب عزيز لا يعني إلا شيئاً واحداً". "ما هو؟ "سألتها شمس بلهفة وقلق" متزوج من جديد.. اتخذ لك ضرة خلبت لبه فأقام لديها لا يفارقها". وللتو عاضدتها الأخريات.

"يا أختي.. لا تنسي.. الرجال ما لهم أمان".. "يا أختي.. انقطاعه عنك لا يعني إلا انشغاله بامرأة أخرى" "يا أختي.. المثل يقول يا مؤمنة على الرجال يا مؤمنة على الماء بالغربال".

في ذلك الليل داهمتها الشكوك واستبد بها الأرق" حقاً. لم لا يكون متزوجاً؟ ألا يتحدثون عن جهل الأربعين والخمسين؟ هو في هذه السن فما أدراني أن جهلها داهمه؟ رأى فتاة صغيرة السن فأغوته أو ورطته.. من يدري؟".. "لا.. لا".. مستحيل.. ظهر صوت آخر يجادل "لا.. مستحيل.. عزيز يحبني.. حبنا أعظم من أن يجعله يغدر بي.. أرسخ من أن يسمح له بالتفكير بسواي." مثلما أحبك قد يحب أخرى. الرجال يملون ويسأمون.. ولعله هو سئمك وملك أم نسيت أنكما تزوجتما منذ ربع قرن؟ نسيت أنك صرت كهلة في الخمسين؟"

وفي الصباح أطلقت بوق النفير طلباً لعواد. "أين عزيز؟ أريد أن أراه. "وفوجئ عواد مفاجأة تركته ثواني لا يحير جواباً. "مستحيل الآن"." لماذا مستحيل؟ هو يمنعك من إخباري بمكانه؟ يتذرع بالحججِ كي يسوف ويماطل؟.. إذن صحيح ما سمعت!؟ هو متزوج من درعا.. فتح بيتاً لها هناك!!"

وأدرك عواد أنه لا جدوى من النقاش. هي في خضم الغيرة، والمرأة في خضم الغيرة تصبح صماء عجماء لا تسمع كلاما ولا تعرف حواراً.. ومضى بها إلى جحر العجوز حيث الملاذ الآمن الذي لم تفكر بتفتيشه الشرطة.

في الطرف القصي من بيوت واطئة السقوف كالحة الجدران، شبه متداعية، كان الجحر يقبع. وفي الزاوية المعتمة من ذلك الجحر كان عزيز يستلقي على فراشه.. دون أن يخطر بباله أن الرياح تجري على غير ما تشتهي سفينته.. كان عواد لا يغيب عنه يوماً إلا ليقيم معه يومين وثلاثة. وكان قد وفر له شروط الرعاية والعناية كلها. العجوز في خدمته، الرجال الذين أنقذوه لم يتخلوا عنه، بل ابن الشرع صاحب المكتبة العجيب كان يأتي إليه، محملاً بالجرائد والمجلات، بالكراريس والكتب. لقد اكتشف عزيز، وهو على فراش المرض أن خير جليس في الأنام هو الكتاب.. وأن خير مؤنس في الوحدة وطارد للوحشة هو الكتاب.. ولعواد الفضل، فهو الذي اقترح عليه ذلك. لم يكن الألم، في البداية يسمح له بمجالسة كتاب أو الاستمتاع بمجلة أو جريدة. لكن شيئاً فشيئاً بدأ الألم يخف وأوجاعه تستقر، وبدأ يشعر بالمتعة وهو يطالع أخبار الصحف ويغوص في أعماق الكتب مستمتعاً بدافئ المعرفة ولذيذ العلم.

ذلك الأصيل كان يقرأ في مجلة الرسالة، وكان قلم إبراهيم المازني السيال

يسحره.. بعفوية وبساطة يكتب المازني لكن بعمق وفهم يكتب. فلا يملك عزيز إلا أن يتابعه بتلهف واستغراق.. ولأنه كان في بحران استغراقه لم يسمع وقع خطا ولا شعر بعواد وهو يدخل ليقف إلى جانب العتبة مفسحاً في الطريق لشمس تحني ظهرها وتطأطئ رأسها كيلا يصطدم بعتبة الباب.. في تلك اللحظة فقط أحس عزيز بقلبه يثب من مكانه.. هي رائحة شمس؟ أهي موجتها الكهرطيسية؟ عزيز لا يعلم، ما يعلمه فقط هو أنه أحس بجاذبية مغناطيسية هائلة تجذب عينيه نحو الباب.. في عتمة الجحر التقت الأعين وفي فضائه الضيق وثب القلبان، طارا ليلتقيا هناك في المنتصف تحت السقف، حيث عيدان الخشب وصفيح التوتياء "شمس" "عزيز" هتف كل منهما ثم اندفع الجسد المنتصب إلى الجسد المستلقي ينكب عليه يأخذه بأحضانه، يلتهمه ولا يشبع، يشربه ولا يرتوي. العالم كله ظمأ وجوع وشمس ظمأى، جائعة.. تائهة في بيداء لم تعرف طعاماً ولا شراباً أياماً وليالي.. "يا إلهي!! أنت هنا طريح الفراش وأنا أظن بك الظنون!! رباه!! ما أظلم الإنسان للإنسان!!" وروت له كيف زرعت النسوة في رأسها الأشواك والقتاد ليروي لها هو وعواد كيف سقط الفارس عن ظهر فرسه فتهشمت عظام وتحول الجسد إلى حطام.

"لا.. لا أصدق" قالت وهي تتلمسه بيديها، متفحصه إياه بعينين تكادان تخرجان من محجريهما.. "عزيز لا يتحول إلى حطام.. هذا الجسد الذي عشقت، هذه الروح التي عبدت، لا يمكن إلا أن يظلا ملؤهما الحياة والقوة.. "لكن الحقيقة المرة كانت واضحة كعين الشمس.. كانت الكتف رغم مرور ثلاثة أشهر، ما تزال تؤلمه، ان حركها. وكانت عظمة الفخذ ما تزال في جبارها لم تلتئم، فكيف بالحوض وعظامه التي لا يعرف المجبر لها دواء ولا يستطيع علاجاً!؟ القفص المثبت كان كل علاجه.. لكن هل يشفي القفص الحوض؟ هل تلتئم به عظامه؟ ذلك ما كان يحير عزيزاً بل ما يجعله أقرب إلى القنوط.

طوال تلك الليلة لم تجف لها عين. كانت الدموع تنحدر رغماً عنها. إن نظرت إليه انحدرت دموعها، إن أبعدت عينيها عنه انحدرت دموعها، إن أغمضت، إن فتحت، لم يكن ذهنها يستطيع تصور عزيز وهو طريح الفراش عاجز عن الحركة.. عزيز الذي كان يملأ حياتها حيوية ونشاطاً، مشاعر وعواطف، حباً ووجداً، تراه أمام عينيها ملقى على ظهره لا يملك من جسده سوى العينيين ينظر.... الأذنين يسمع.. جسده المثبت في القفص أشبه بمسيح مصلوب، المسامير في كفه، المسامير في قدميه، فكيف لا تبكي شمس؟

عواد والعجوز تركاهما تلك الليلة.. أمنا لهما الشراب والطعام ثم مضـيا.. طوال ليال سبع لم تنم العجوز في جحرها.. وطوال ليال سبع لم تستطع شـمس النوم.. حتى تورمت أجفانها، واحمرت عيناها واصفرت وجنتاها عصفرا على طبق من أرز.. "لا.. هذا مستحيل.. ستقتلين نفسك إن مكثت على هذه الحـال". "ليتني مت ولم أرك على هذه الحال"، ردت شمس وكل ما في صـدرها هشـيم يحترق بالنار".. أرأيت لماذا كتمت عنك حالي؟" "قتلتني أكثر..، "إن مات أحدنا يجب أن يبقى الآخر." بل نموت معاً كما عشـنا معـاً" و"الأولاد؟" "لهـم رب يرعاهم، أما نحن فروح في جسدين، يصاب أحدهما فيصـاب الآخـر، يعـيش أحدهما فيعيش الآخر.. ولا حياة لأحدهما بغير الآخر". "ألهذه الدرجة تحبينني؟" "بل قل أية درجة لا يبلغها حبي لك؟ قل ليس هناك درجة لا يبلغها حبي لـك.. يا مهجة روحي وحبة قلبي وكل وجودي". "وتستمرين في حبي حتى لو صرت عاجزاً؟" بل يزداد حبي، حتى تعوض روحي ما تحتاجـه روحـك، ويعـوض جسدي ما ينقص جسدك.. ألسنا فلقتي حبة؟ ألسنا كلا واحداً من شطرين، فكيف يعيش شطر بغير شطره الآخر؟ كيف يتخلى شطر عن شطره الآخر؟ "واطمأن عزيز بعد خوف." كيف يقولون المرأة غادرة إن وهن الرجل أو عجز بحثـت عن آخر؟ كيف يقولون انها لا تستطيع العيش بلا رجل فإن ولى رجلهـا كـان همها أن تجد البديل؟ أياماً شغلته تلك التساؤلات" ها أنذا عاجز، قد لا أتحـرك أبداً ولا أنهض أبداً، ألن يموت حب شمس لي؟ ألن تنصرف عني سقط متـاع؟" شمس تلتحم به أكثر وهو مثبت في قفصه.. الليل والنهار لا تفارقه.. رغم قـبح الجحر، رغم ضيق المكان، رغم العفن والنتن، لا تتحرك شـمس مـن جانـب فراشه، لا تنام، لا تأكل.. حتى صارت كأنها هي طريحة الفـراش، صـريعة السقم."شمس، يجب أن تعودي إلى الأولاد، "قال لها وهو يخشى عليها المرض" أعود وأتركك؟ لا.. لا.. نعود معاً أو نمكث معاً"." لكن انتقالي مستحيل وأنـت تعلمين ذلك." "وانتقالي أنا مستحيل". "كيف؟ لماذا؟" "إن كان عظم حوضك قـد كسر فأنا ظهري نفسه قد كسر.. انظر، فقرات ظهري كلهـا محطمـة فكيـف أستطيع الحراك؟" وبدأت تتناشج باكية.. كان المصاب يعظم في عينيها يوماً بعد يوم. هي تشعر أنها بغير عزيز جسد بلا ظهر، بلا فقرات، بـلا حتـى هيكـل عظمي.. هو يرى قلبها المفتت، روحها المسحوقة ويزداد وجعاً "أين الفـارس الملثم وهو على ظهر فرسه يطل فيوقف بإشارة من يده وصرخة مـن صـوته بدوياً كان يسدد بارودته ليطلق عليه النار؟ أين شمس وهي تبارز ابـن عمهـا معجون فتلحق به الهزيمة، تصارع الكابيتان جيرار فترديه صريعاً؟" مع ذلـك،

كان عليها أن تعود عزيز. يعلم أن الحال لا تسمح بغيابهما كليهما، فكبس الملح على الجرح من جديد ثم قال بنبرة الجزم "شمس" أنا آمرك أن تعودي". وبغير نقاش عادت شمس.. هي تحب أن يكون الرجل دائماً، يأمر وينهى، تحب أن تكون المرأة دائماً تسمع وتطيع، فكيف لا تطيع أمره هذه المرة.؟ كيف يخطر ببالها أن تعصاه وهو سطيح طريحٍ، لا يملك قدرة على تنفيذ أمره إن عصته؟ شمس عشقته رجلاً وعبدته رجلاً، فكيف لا تكرس فيه الرجولة التي عشقت؟ كيف تجرح فيه الرجولة التي عبدت؟ في دمشق طمأنت الجميع. "عزيز بخير.. أصيب بحادث سيارة إصابة تحول بينه وبين الانتقال إلى دمشق.. الأصدقاء، الأهل، الجيران، كلهم حدثتهم عن حادث السيارة اللئيم الذي أصابه بكسور لم تشف بعد. والنسوة ردت لهن سوء ظنهن لوماً وعتباً "المرأة، أليست عدوة نفسها بجهلها وقصر نظرها!؟ بغيرتها وسوء ظنها، ألا تخرب بيتها أحياناً بسوء تصرفها، ألا تدمر كل ما بنته أحياناً أخرى.؟"

الأولاد يريدون رؤية أبيهم. الأصدقاء، الأهل، لكن أوامر عزيز صارمة." لا يأت أحد إلى هنا." وانتظر الجميع ستة أشهر أخرى إلى أن يسمح الطبيب بنقله إلى دمشق، ثم مضت عشرون أخرى من الشهور قبل أن تسمح له الطبيب بأن يحاول التحرك.. "وكيف؟ على عكازين؟" عاد عزيز يفكر بحنق وغيظ ثم يقرر "لا.. لن أسير على عكازين.. أجر رجلي جراً وأشلح نفسي شلحاً فيهزأ بي الناس" لكن الطبيب، الأولاد وحتى شمس نفسها كانت تريده أن يسير بأي شكل وكيفما كان. تريده أن ينهض، يقف منتصباً، على رجل، رجلين، عكاز، عكازين، المهم أن تراه يفارق السرير، يغادر الغرفة، يرى النور.. لكنه يأبى.. عزيز يشعر بغيظ لا يسمح له بأن يقبل السير على عكازين، كانت عضلات الرجل اليسرى قد ضمرت ومفصل الفخذ ما يزال يؤلمه إذا ما احتك العظم بالعظم. مع ذلك يقول الطبيب "لا بد من التدريب.. الحركة تفيدك، تنشط الجسم، تعيد للعضلات حيويتها وقوتها، تبين إلى أي مدى تم شفاء الحوض ومفصل الفخذ. "لكن عزيزاً يكره أن يسير على عكازين ويرفض: في أعماقه خوف من حقيقة قاتلة ان تأكدت.. كان أطباء دمشق قد طمأنوه "ستشفى." لكن ماذا إن كان كلامهم كذباً وتدجيلاً؟ ماذا ان ثبت بالدليل القاطع أنه سيظل كسيحاً مدى الحياة؟ أعرج، رجله عاطلة مدى الحياة؟ ألا تكون الضربة القاضية؟ "إذن.. لأصبر.. إلى أن أتأكد من الشفاء"، وأبى أن يستخدم العكازين.

كان قعوده في الفراش يعذبه مع ذلك كان قد اعتاد، والاعتياد أقصر

الطرق إلى التكيف.. عزيز تكيف مع ظروفه الجديدة. هو يقرأ، يستقبل الأصحاب، يسمع المذياع، يتابع الأخبار، وفي كل يوم جديد من الأخبار يثير اهتمامه ويشد انتباهه. كانت الحرب قد دخلت منعطفات وبدلت مسارات: في الصحراء انكفأ ثعلب الصحراء بجيوشه حتى خرجت جيوشه من افريقيا ثم تورط في مؤامرة دفع حياته ثمناً لها. في الشرق كان المارشال جوكوف يدحر جند هتلر الدحرة تلو الأخرى، معيداً إياها إلى الغرب، مقطعاً أوصالها، ممزقاً شرايينها وأوردتها، مندفعاً في رومانيا، هنغاريا، مخترقاً حدود ألمانيا نفسها ونصب عينيه هدف واحد: برلين في الغرب. الجيوش الحليفة قامت بإنزالها في النورماندي، حطمت دفاعات هتلر، آيزنهاور وباتون حطما قوات النازية في الأراضي الواطئة، ديغول حرر فرنسا ثم اندفع الكل باتجاه الشرق ونصب أعينهم أيضاً هدف واحد: "برلين". عزيز يعجب "لم لا يسقط هتلر إزاء هذه الاندحارات كلها؟ كيف لا يتحطم الصنم النازي ومطارق فولاذية هائلة الحجم تكيل له الضربات واحدة إثر الأخرى؟ "لكن المذياع يجيب" ثمة سلاح سري سيستخدمه هتلر.. قنبلة ذرية سيفجرها اليوم أو غداً فينطلق العفريت من قمقمه يحطم الأعداء دفعة واحدة، ويسيطر هتلر على العالم من جديد،" يسمع عزيز ذلك فيساوره الخوف.. الأستاذ نفسه ساوره الخوف، كانت ارتكابات هتلر قد غيرت آراء وبدلت آراء.. فظائعه أوضحت أنه الشيطان الرجيم الذي لا يرجى منه خير ولا يؤمل بخلاص.. "هذه الحرب قذرة.. ينبغي أن تنتهي في الحال، "كان الأستاذ قد بدأ يردد منذ حين، "الاستعمار الفرنسي شر وهتلر شر، لكن الأول أهون الشرين. "لماذا أستاذ؟" سأله عزيز ذات مرة "من يعلم ما تراه يفعل هتلر إن سيطر على العالم؟ إن ملك ذلك السلاح الفتاك الذي يتحدثون عنه، ما الذي لا يفعله بالعالم هتلر؟. كان جنون الفوهرر قد تجلى في أكثر من مكان: التجويع، الاذلال، السحق، المجازر الجماعية الإبادة، كلها كانت قد غدت معروفة للقاصي والداني ولماذا؟ كرمى لعيني التعصب للآرية وللعرق الآري العظيم الذي لا يضاهيه عرق في العالم. "إذن استعمار بغير تعصب عرقي خير من استعمار بتعصب عرقي وشعور بالتفوق والفوقية"، كانت تلك هي الخلاصة التي توصل إليها الأستاذ خاصة وقد جاء الجنرال كاترو ممثلاً لقوات فرنسا الحرة وجنرالها ديغول فاتحاً صفحة جديدة من الدبلوماسية والكياسة السياسية واعداً سورية ولبنان باستقلال قريب، رابطاً بينه وبين وضع الحرب أوزارها فكيف لا يكبر أمل عزيز بالاستقلال؟ وكيف لا يتمنى أن تضع تلك الحرب القذرة الأوزار؟

النهاية تقترب، عزيز يتتبع الأخبار.. مستلقياً على الفراش يستقبل الـــزوار ويستمع إلى المذياع. المذياع رفيق دائم، لا يفرغ من زائـــر إلا ويســـرع إلـــى المذياع." أي اختراع عجيب تفتق عنه الذهن البشري!؟ تدير دولابا صغيراً هنا فيتحدث إليك رجل من لندن أو برلين.. يا إلهي!! ما أعظم العقـــل البشـــري!! "المذياع يأتي كل يوم بجديد.. المارشال جوكوف يتقدم نحو برلين من الشـــرق، الجنرال ايزنهاور يتقدم نحوها من الغرب.. فكـــا الكماشـــة العالميـــة الجديـــدة ينطبقان على هتلر.. روسيا وأمريكا قوتان عظميان أفرزتهما الحـــرب جيوشـــاً جرارة وقوى بشرية هائلة وإمكانات اقتصادية عظيمة، أيـــن منهـــا بريطانيـــا وفرنسا؟ لا.. بريطانيا وفرنسا تنزاحان منحدرتين على السفح، ألمانيا وإيطاليـــا تتسحقان لتظهر القوتان الجديدتان، المارشال جوكوف يتوج انتصـــاره بـــدخول برلين، المذياع يعلن نبأ انتحار هتلر وعشيقته إيفا براون.. الفـــوهرر يمـــوت، الرايخ يسقط والحرب تضع أوزارها فيفرح العالم كله ويرقص العالم كله طرباً وسروراً.

الأخضر نفسه فرح يرقص طرباً. "فرحة لا يعادلها سوى فرحة التحريـــر" كتب في رسالته يصف فرحه، ثم فرح باريس وسرورها." يوم دخـــل ديغـــول على رأس قوات الحلفاء،

خرجت باريس كلها من إهابها.. الناس ملء الشوارع، الساحات، الحدائق، يهزجون، يرقصون، يغنون، يبكون، يضحكون.. نسي الناس مآســـي الحـــرب، فظائعها، هم لا يذكرون سوى شيء واحد "ولى شبح الحرب.. حـــل الســـلام". كانت رسائل الأخضر قد بدأت كالعادة تتوارد.. الانقطاع الطويل الذي ســـببته الحرب والاحتلال النازي انتهى، لتعود رسائله منتظمة مطمئنة تبشر بـــالخير. كانت الحرب قد ضيعت عليه بعض الوقت، وكان قد تعذب، عـــانى، تعـــرض للكثير من السين والجيم، للكثير من مشاكل النازي وتحقيقاته لكنه كان قد تعلـــم مكر الثعلب ودهاءه وكان مصمماً أن يعوض بجده واجتهاده ماضـــيعته عليـــه الحرب. رسالته الأخيرة جاءت تحمل بشرى أكيدة: في هذا الصيف أتخـــرج.. وحين استلم شهادتي أعود..

-حقاً عزيز، أيعود الأخضر حقاً؟ سألته شمس وكأنها لا تصدق ما تسمع.

-الأخضر يعد.. وإن وعد الأخضر وفى!

-إذن طبيباً سيعود!! الله!! ها هو ذا أجمل أحلامك يتحقق يا شمس!!

سنون طويلة كانت قد مرت على فراقها لابنها البكر، وحنين عظيم بطول

تلك السنين كان يعج في صدرها ويضج فكيف لا تنهمر الدموع من عينيها فرحاً وهي تسمع الرسالة ثم تقرأ كلماتها بعينيها ليطمئن قلبها أكثر؟ هي أم.. شمس باتت مجرد أم. لم يعد لها أفراحها الخاصة وأتراحها، بل أفراح أبنائها أفراحها، أتراحهم أتراحها. تعيش بهم وتموت بهم فكيف إذا كان هذا الابن هو ابنها البكر، حبيبها الأول؟

في بداية الحرب كانت قد عرفت اليأس. أخبار الأخضر كانت قد انقطعت ولم يكن أحد يعلم عنه شيئاً.. الكولونيل رينو نفسه كان قد أضاع أهله.. لكن بعدئذ فرجت.. ووجدت الوسيلة للتواصل معه، لإرسال المال له.. كان الكل حريصاً على ألا يعود الأخضر إلا بشهادة الطب، وكان الكل يشعرون أنها الهزيمة الساحقة إن عاد بغير تلك الشهادة. صحيح، كانت الحياة صعبة وباريس تحت نير النازي، لكن الأصعب أن يخفق الأخضر.. أن يعود إلى بلاده بخفي حنين، وكان قراره: "أموت هنا ولا أخفق".

كانت الغربة قد عركته بمرارها والحرب حرقته بأوارها ثم سقته بمائها فحولت حديده إلى فولاذ مرن لا يكسر، صلب لا يعصر، وكان مع الأيام قد أصبح أعرف بباريس من أهل باريس.. هو يعرف الأحياء الآمنة والأخرى الخطرة، الشوارع التي يرتادها والأخرى التي يتجنبها.. وكان له معارف وأصحاب.. عزوة وأصدقاء.. من الجزائر، من تونس، من المغرب، كان العمال المهاجرون يصنعون تجمعات وتجمعات وكان قد تغلغل إلى هذا التجمع وذاك.. رفاقه في الكلية هيئة أمم.. هذا من لبنان، ذاك من السنغال.. ثالث من فيتنام، رابع من إيران، وكان يجد في العروبة أواصر وفي الإسلام أواصر، وكان الأخضر بارعاً في عقد المزيد من الأواصر كل يوم. الشبان، كان باستطاعة الأخضر دائماً أن يعقد معهم الأواصر. ؟؟ الشابات هن أنفسهن كن يسعين كي يعقدن معه الأواصر. جانيت في البداية.. خلصته من خجله..بعد ذلك كانت هناك فيوليت، جورجيت، أنطوانيت، بريجيت وأخريات. كانت الحرب قد صنعت شرائح من المشردين والمشردات، الضائعين والضائعات، وكانت الشوارع تعج ببنات الهوى يصطدن الجند ويصطادهن الجند.. وكان الأخضر يتعرض لمشاكساتهن وملاحقاتهن.. لكنه كان يفر دائماً فليس أبغض على نفسه من بائعة هوى.. المرأة بالنسبة إليه صديقة، رفيقة، إنسانة، أما بائعة هوى فلا.. ثم ما حاجته لبائعة هوى وهو في باريس؟ الفتيات في الجامعة يتوددن إليه. في الصف، في البوفيه في المطعم، دائماً يجد من يرافقها وترافقه،

يدعوها إلى وجبة غداء أو تدعوه إلى فنجان قهوة أو ساندويشة سريعة، ثم يذهبان إلى شقته الصغيرة بمضيان الليل. كانت جانيت مذ أرادت أن تخلصه من الخجل والحزن قد صارت الصديقة التي تلبي حاجته كلما احتاج.. وحين فر إلى الجنوب هربا من جند هتلر ظلا أشهرا معاً لا يفترقان.. لكن الأخضر عاد إلى باريس مع افتتاح العام الدراسي فيما خافت جانيت أن تعود.. كانت تود الذهاب إلى اليونان تتابع دراسة اللغة الإغريقية. النازي يخيفها، الحرب تخيفها، فظلت في الجنوب وكلها حيرة وتردد.. في غضون ذلك تعرف الأخضر إلى فيوليت، بائعة البقالية القريبة، ثم كرت السبحة: صديقات لا يردن منه سوى أن يعشن اللحظة الحاضرة، فالمستقبل في بطن الغيب لا يعرفه أحد ولا يخطط له أحد. كان الأخضر، منذ تجربته الأولى مع جانيت، قد أدرك أن الناس في الغرب حلوا مشكلة ما تزال مستعصية في الشرق. الجنس حاجة طبيعية مثله مثل الطعام، الشراب، ولا بد للذكر والأنثى كليهما من الطعام والشراب، فلماذا اللف والدوران؟ لماذا التأزيم والتعقيد؟ كان جان بول سارتر قد خرج بمقولات يقرأها الأخضر هنا وهناك، "عش كما تشتهي"، "افعل ما تحب"، "الحياة جميلة، الوجود رائع فاعمل كل ما يعزز جمال الحياة وروعة الوجود. "وبدت الوجودية تعبيراً عن التوجه الجديد لأجيال جديدة بدت تتذمر من القيود، تأبى الأغلال، ترغب بالحرية، وبالحرية فقط. "أنا حرة إذن أنا موجودة "هكذا قالت له ذات يوم بريجيت الشقراء طالبة الفلسفة وتلميذة كيركجارد وجان بون سارتر.. "الوجود بلا حرية موت والحياة بلا حرية خواء". كان حلمها الذي طالما حدثته عنه: أن تبني عالماً حراً لا قيود فيه ولا أغلال، لا عادات ولا تقاليد.. بل لا أطر ولا نظم تجعل الإنسان حبيس أقفاص ورهين رقباء وحراس." علاقة بريجيت كانت الأجمل، ألأنها هي نفسها كانت الأجمل، روحاً وجسداً؟ أم لأن أفكارها الجديدة كانت الأجمل، مضموناً وسلوكاً؟ الأخضر يتذكرها فلا يملك إلا أن يبتسم.. لطيفة، خفيفة، ظريفة، إلى درجة لم يشعر معها بثقل.. عبئها تتحمله بنفسها، مشاكلها تحلها بنفسها، تأتي إليه كالنسيم، تغادره كالنسيم.. امرأة مترعة حباً للحرية، حباً للفكر، حباً للحياة فتسعى دائماً لأن تصنع أروع صورة للحياة. الخلود، السماء، الجنة، الآخرة، الحساب، العقاب، كلها مفاهيم كانت قد تجاوزتها بريجيت.. "للإنسان ساعته فليعش الإنسان تلك الساعة".. كانت فلسفتها في الحياة. "بيده السعادة وبيده الشقاء، فلماذا لا يفعل كل شيء من أجل تلك السعادة؟ لماذا لا يعمل على إزالة ذلك الشقاء؟" وكانت بريجيت أذكى بكثير من أن تقول ما لا تفعل، فكانت لا تفتأ ليل نهار تسعى كي تصنع لنفسها السعادة

وتزيح الشقاء.

"ألم تتعرف إلى أحد؟ "كتبت له أمه في آخر رسالة لها، فأدرك الأخضر أنها تقصد بذلك الأحد فتاة.. تخشى أن تتورط معها أو يتزوجها. هو يعلم أنها تكره أن يتزوج بأجنبية.. والده كذلك.. بل لقد أوصاه قبل أن يرحل إلى فرنسا: "حذار أن تتزوج هناك.. أقم علاقات عش حياتك معهن.. لكن لا تتزوج واحدة منهن. "بعدئذ لم تكن رسالة واحدة تخلو من التلميح إلى ذلك والتحذير منه.. هم خائفون عليه.. لكن لم الخوف؟ طوال إقامته في باريس، ورغم الفتيات الكثيرات اللواتي تعرف إليهن لم يشعر مع واحدة منهن بالخوف.. ما من واحدة منهن طرحت عليه فكرة الزواج: "أسوأ مؤسسة أقامها الإنسان". فيوليت، جورجيت، كلهن كن عازفات عن الزواج "وأية حاجة للزواج؟ الجنس؟ ها نحن نعيشه كما نشتهي.. الأولاد؟ ولماذا الأولاد؟ كانت واحدتهن تحلم بتخفيف أعباء الحياة عن كاهلها لا بزيادتها وكانت المؤسسة الزوجية بما فيها من إنجاب وأولاد تزيد تلك الأعباء "الناس تكاثروا إلى درجة ينبغي عليهم معها أن يتوقفوا عن الإنجاب".

كانت نظرية أنطوانيت طالبة الصيدلة التي عاشت معه ثلاثة أشهر ثم تركته". لماذا؟" سألها وهي تودعه معلنة عن نيتها. "ألست سعيدة معي؟" بلى "أجابته أنطوانيت" لكن هذه السعادة جعلتني أنسى نفسي ذات يوم فأحمل.. تصور أنا أحمل وألد، لا.. لا.. لقد أجهضت نفسي ولا أريد أن أنسى نفسي مرة أخرى فأضطر للإجهاض."

بريجيت أنهت علاقتها لسبب آخر. "تعلم؟" قالت له ذات ليلة وقد صالا وجالا على سريرهما العالي العريض الطري الوثير." بدأت تشكل خطراً علي" "أي خطر؟" رد وهو يداعب بطنها الأخمص الضامر، الأملس الناعم كحرير الصين"، "الحب " ماذا تقصدين؟" "أخضر أنا خائفة.. تصور.. بدأت أفكر فيك.. بدأت أحبك".. " وماذا في ذلك؟ أحبيني" "لا.. هو ذا الخطر.. جنس؟ نعم.. أما حب فلا" ولم تمض أيام بعد ذلك حتى اختفت من حياته بريجيت.." أأكتب ذلك لأمي؟ أأقول لها المرأة هنا تختلف كل الاختلاف عن المرأة هناك.. همها هناك الزواج والأولاد وهمها هنا المتعة والعمل.. لا، ليس باستطاعتي أن أكتب لها ذلك.. ربما لن تستوعب.. ربما لن تصدق ما أقول. ثمة قصة قد تصدقها"..
مرة أو مرتين فكر في أن يكتب لها عن "اسعيدة" بنة مؤنس التي تقيم في باريس. كانت اسعيدة تعمل في محل للألبسة، وكان أبوها سرجاناً متقاعداً في

الجيش الفرنسي، خدم في مستعمرات فرنسا بدءاً من تشاد وحتى كوبيك. في محل الألبسة تعرف إليها وإلى المسرح والسينما دعاها. ثم إلى منزلها دعته.. وإلى أبيها قدمته عربياً مسلماً يدرس الطب.. الكسكسي أطعمته أمها، وإلى أكثر من عشاء وغداء دعاه أبوها، وبدأت أواصر علاقة حميمة تنعقد وتشتد.. ذهبا معاً إلى شقته، تبادلا العناق، مارسا الجنس، ثم شيئاً فشيئاً بدأت تتكلم عن الحب، المستقبل المشترك، الحياة الواحدة.. فهل يكتب لأمه عن اسعيدة؟ هو يعلم أن أباه وأمه لن يمانعا. اسعيدة من تونس.. عربية.. مسلمة.. "إذن، هي ليست منهن"، ستقول شمس "هذه منا، عاداتها عاداتنا، تقاليدها تقاليدنا وهي تؤمن بما نؤمن.. فلم لا؟" سيقول عزيز.. لكن الأخضر لم يكتب عن اسعيدة البتة.. كان ذات يوم قد جاء إلى المحل متأخراً عن عادته بعض الشيء.

وكان المحل قد أغلق لتوه. هناك وبأم عينيه رأى اسعيدة تتأبط ذراع أحدهم وتلتحم به مقهقهة ضاحكة "لا.. يا أمي.. هي منهن.. عاشت بينهن فصارت منهن، تعيش أفكارهن، مفاهيمهن، نمط حياتهن، فمالي ومالها؟"

وأحرق الأخضر السفن بينه وبين اسعيدة، ثم لم يكتب لشمس غير جملة واحدة "تعرفت إلى الكثيرات لكن دون أن أرتبط بواحدة. "وسرت شمس" سيعود لي الأخضر حراً خالصاً، سفينته تمخر العباب دون مرساة". ولم يكن عزيز أقل سروراً.

–الحمد لله، قال لشمس وقد قرأ الرسالة، الأخضر يفي بوعده..

–ابن أبيه، ردت شمس وعيناها تبرقان اعتزازاً وفخاراً، فهمها جيداً عزيز فأمسك بيديها امتناناً ووجدا، وقد غمرتهما معاً سحابة غبطة وسرور..

في تلك اللحظة دخل عواد بقامته الطويلة وجسده الممتلئ وشاربيه الأشقرين وقد ارتسما رقم ثمانية على شفتيه.

–الحمد لله.. حظي حسن، عمي، عمتي!! أنتما في هناءة وصفاء!!

–نحن دائماً في هناءة وصفاء، رد عزيز وهو يتأمل الفتى الذي ظل طويلاً لكنه لم يعد ناحلاً. لقد ملأت الأيام جسده وزادت قامته طولاً..

–خير!! لا بد أن وراءك مطالب!! ردت شمس مازحة، وقد تعودت منه أن يطلب منها كلما ألمت به حاجة ابنا باراً تربطه بهما وشائج ود ربما هي أمتن من وشائج القربى.

–صحيح.. لكنها ليست مطالب.. بل هو مطلب واحد، بدأ عواد بشيء من

تعثر وتردد لم يألفهما عزيز فيه.. فالفتى الناحل الذي درس المحاماة أكثر من ست سنين وعمل في الوقت نفسه أعمالاً شتى، تعرف إلى شخصيات ودخل معترك السياسة، كان يبدو له دائماً واثقاً من نفسه لا يعرف التعثر ولا التردد، وكان ذلك يعجبه فيه.. مثلما يعجبه حبه للعمل، طموحه ودأبه اللذان لا يقفان عند حد. راتبه في التعليم كان يكفيه، مع ذلك لم يكن يدعٍ فرصة عمل تفوته، وكان ذلك كله قد أعطاه ثقة بالنفس وخبرة، امتلاء ومالاً. في محل عزيز، في مكتب هذا المحامي، في مكتب ذاك. كان يعمل.. هو يعلم أن عليه أن يجني المال. أمه العجوز في مسقط رأسها هناك، كانت ما تزال بحاجة إليه. هي وحيدة بلا معين سوى الأرض لكن أرضها تعطي عاماً لتأخذ أعواماً فلماذا لا يبذل المستحيل كي يوفر لنفسه وأمه المال.؟ السنة الماضية تخرج وعلى الفور بدأ العمل محامياً يعرف دهاليز قصر العدل ويجوب ساحاته فارساً، سيفه اللسان.

–ما بك؟ حثه عزيز مستغرباً، قل.. تكلم.. أم أن المحامي بات لا يحسن الكلام؟

لكن الشاب بدا أكثر تردداً واضطراباً، وقد احتقنت أوداجه واحمر وجهه. نظرت إليه شمس فتبسمت ابتسامة المرأة التي تفهم بالحدس.. "هو خجلان، إذن، هو آت من أجلها، يريد أن يطلب يدها". كانت الأم قد لاحظت قبل حين من الزمن أن الألفة التي تجمع بين عواد وبدور تتحول إلى شيء آخر.. بحذر راقبتهما، بأناة تفحصت ذلك التحول.. فسلة نخيل صغيرة، غضة رقيقة كانت تنمو، شيئاً فشيئاً كانت تنمو.. ترسل سعفاتها الواحدة بعد الأخرى خضراء زاهية ضاربة جذورها عميقاً في الأرض، مادة فروعها بعيداً في السماء. بدور ترفرف بجناحيها فرحاً كلما جاء عواد في زيارة. تشعر بخافقها نفسه يتواثب غزالا في مرج كلما تبادلا النظرات، تبادلا العبارات، بل باتت الفتاة حريصة كل الحرص على أن لا تظهر إذا جاء إلا وقد مررت الميل على أجفانها.. سرحت شعرها.. لبست أحسن لباسها، فهل ثمة من شك؟ شمس تتذكر نفسها، وقد صارت أنثى، تحلم برؤية عزيز، تعيش بانتظار عزيز.. لم تكن ترضى أن تراه إلا وهي في أروع بهاء.. لم تكن ترضى أن تراه إلا وقد مرت أمام المرآة فأعطتها المرآة الاذن. بدور باتت تكثر من النظر إلى نفسها في المرآة إن كان عواد في المنزل أو على وشك المجيء إلى المنزل. هل فقدت ثقتها بنفسها؟ شمس تعلم أن ابنتها شديدة الثقة بنفسها، فما السر إذن؟ "الحب" كانت شمس قد

استخلصت منذ زمن." الحب وحده هو ما يفعل ذلك في الفتاة وما فعله في بدور.." هما لا يتحدثان بشيء، لا يبوحان بشيء بل كلاهما حريص على التمسك بعروة وثقى من الاستقامة والعفاف فلا يؤذيان مشاعر أم ولا يمسان كرامة أب ".. هو محامٍ تخرج قبل عام وهي معلمة تتخرج هذا العام، فما الذي يحول بينهما وبين أن يبنيا عشا للزوجية؟" وعادت شمس تصغي فيما كان عواد قد بدأ حديثاً كثير الالتفافات والتعرجات وكأنه يخشى أن يسلك الطريق المستقيمة فيصطدم بصخورها.

–عواد.. ما من عادتك أن تلف وتدور.. قل بصراحة.. ماذا تريد؟ قال عزيز أخيراً وقد نفد صبره..

–بصراحة.. عمي.. أ.. أنا.. أ. أ..أ طلب القرب.. نطق أخيراً فلمعت عينا شمس أكثر.

–القرب ممن؟

–من ابنة عمي.. بصراحة عمي، أنا أطلب يد بدور.. أفصح أخيراً وعيناه في الأرض، ربما تخشيان مواجهة عيني العم.

بدوره، أطرق العم إلى الأرض، لا خجلاً كعواد بل تفكيراً وتأملاً." ها أنت ذا تكبر عزيز، ها أنت ذا يطلب الناس يد ابنتك كما طلبت ذات يوم يد شمس من الشيخ نواف." ورغماً عنه شرد عزيز بعيداً.. إلى ذلك العجوز في مضافة الشيخ نواف وهو يرد على طلب علي المر. "إي... نوافق لكن المهر ثلاثمائة ليرة ذهب وثلاثمائة نعجة ومائة ناقة.." كم كانت تلك الأرقام فلكية؟ كم شعر بها خناجر حادة تنغرس في قلبه!! "إن أردت ألا تعطي ابنتك غلّ مهرها "يقول المثل، وقد أدرك عزيز مذ نطق العجوز أرقامه الفلكية تلك، أنهم يغلّون المهر كي لا يعطوه ابنتهم.

–عمي.. عمتي.. عاد عواد للكلام من جديد وقد ثقل عليه الصمت الذي ران، ودبت في أوصاله رعشة من خوف.. أنا آسف.. إن كنت قد تجرأت وطلبت طلبي بنفسي.. لكن عمي أنت تعلم.. لا أب لي ولا عم.. فقلت أنت أبي وعمي.. ولست بحاجة لوسيط لدى أبي وعمي..

–هذا صحيح.. أنت بمثابة ابننا وأقرب الناس إلينا.. قال عزيز وهو يتفحص الشاب الذي استعاد رباطة جأشه، محامياً طيع اللسان حاضر الذهن.

–والأقربون أولى بالمعروف عمي!! عمتي! عقب للتو وهو ينتقل بناظريه

من عزيز إلى شمس.

لم تجب شمس، بل نظرت إلى عزيز.. فيما نظر عزيز إلى عـواد. "مـن يصدق؟ ذلك الفتى اليتيم الفقير الناحل الطويل الذي كان يعمـل جمـالاً لـدي، يخطب ابنتي الآن؟" لكن عزيزاً يطرد أفكاره وتساؤلاته فقد كان مـديناً للفتـى بحياته وقد اعترف له أكثر من مرة "لولاك لقضيت نحبي. أنت منقذي".

-لا بأس.. دعنا نسأل الفتاة فقط.

-إي عواد،.. أكدت، بدورها، شمس، لا بد من معرفة رأي بدور.

بدور موافقة، فقد سبق واعترفت لأمها أنها تحب المحامي الذكي الواعـد، تحترم الرجل الشهم الأبي فيه، معلنة أخيراً أنها لن تجد خيراً منه.. لكن حـين سألها والدها الرأي، لاذت بالصمت فأدرك عزيز أن الحياء وحده يمنعهـا مـن الكلام، وأن السكوت علامة الرضى..

بعد ثلاثة أيام، مضى عواد ببدور وأمها إلى الصـالحية يشـترون خـاتم الخطبة، لكن سوء الحظ وحده حال دون ذلك.. إذ ما أن وصلوا إلـى البوابـة حتى اهتزت الأرض تحت أقدامهم وأصم دوي انفجار هائل آذانهم. لحظة مـن الزمان تسمروا في أماكنهم لا يعلمون ما الخبر.. لكن دوي انفجـارات أخـرى ولعلعة رصاص جديد في منتصف طريقه الصالحية، ثم أمواج النـاس وهـي تتدفق هاربة، دفعت بهم هم أنفسهم إلى الهرب بعيداً عن قنابل المدفعية التي بدا واضحاً أنها تنصب على مبنى البرلمان، شمالي الصالحية، شرقيها، مشعلة فيها النيران باثة في نفوس الناس الهلع والذعر.

في المنزل فقط، عرفوا السر.

-ألم أقل لك؟ قال الأستاذ لعزيز معقباً على حديث سابق، مؤكـداً وجهـة نظره.. فرنسا لن تعطينا الاستقلال.. ها هي تنكث بوعدها..

-معقول؟ ديغول نفسه وعد بإعطائنا الاستقلال، كاترو أعلـن فـي بيـان رسمي ذلك..

-الآن يذهب ديغول وكاترو وتتحرر فرنسا من وعودها، فيدك جنرالاتهـا البرلمان، يقصفون أحياء دمشق ويقتلون سكانها العزل.

-لكن لماذا؟

-الحرب انتهت ورجال البرلمان يطالبون بالاستقلال. الحكومة السـورية تطالب بتنفيذ الوعود، لكن فرنسا الآن منتصرة.. قوة أساسية من القوى العظمى

في العالم فما الذي يردعها؟ من تراه يرغمها على تنفيذ الوعود؟

لكن الأستاذ نسي في تلك اللحظة أن هيئة للأمم المتحدة كانت قد قامت، وأن قوتين عظميين جديدتين كانتا قد نشأتا وأن ما تريده هيئة الأمم وهاتان القوتان ليس تماماً ما تريده فرنسا.. إذ لم تمض أسابيع حتى عقدت هيئة الأمم اجتماعاً حضره مندوب سوريا مطالباً بحق بلاده في الحرية والاستقلال فلم يكن من العالم الجديد إلا أن اتخذ قراراً بإرغام فرنسا على إعطاء سورية الحرية والاستقلال.

-عمي.. عمتي.. هل تسمحان بتحديد موعد العرس؟ سأل عواد، المحامي الذي لم يعد يعرف تلعثما أو تلكؤا، وقد جاء اليوم الذي اشترى فيه لبدوره خاتم الخطبة، وألبسها إياه في حفل عائلي بسيط..

-ألست مستعجلاً قليلاً؟ أجاب العم وقد ساوره شعور الضن بابنته كأنما لا يتمنى أن تفارقه.

-أربعة أشهر مضت على الخطبة: قال عواد معاتباً محتجاً: الشقة جاهزة، الأثاث جاهز.. تعيينها صدر.. معلمة قد الدنيا.. فلماذا ننتظر؟

-من أجل الأخضر ننتظر.. ردت هذه المرة شمس، وفي ذهنها برقية الأخضر ينبئهم فيها أنه على وشك أن يعود.

-هو ذاك.. ثنى عزيز على الفكرة.. العرس مع عودة الأخضر.. وقبل عواد على مضض. لكن ما كان أشد فرحه حين وصل الأخضر إلى دمشق محملاً بشهادة الطب، مكللاً بغار النصر، فقد لبس الحي أزهى حلله ثم خرج بطبوله وزموره يستقبل العائد بعد طول غياب ويفرح بعد ذلك ببدور، مقيماً عرسين في عرس واحد.. لم يعرفه الميدان منذ أزمان..

-14-

إذا كان الفرح يصنع أجنحة للإنسان فقد صنع لشمس جناحي عقفاء حلقت بهما إلى الأعالي ملؤها الزهو والكبرياء. عرسان في عرس واحد عاشتهما شمس.

هي أم عروس حقاً. تذهب، تجيء، فرحة إلى حد النشوة، سعيدة إلى حد الطيران. مزيج من المشاعر العجيبة كانت تختلط في نفسها.. ابنتها فرحة بعريسها، سعيدة بزفافها إليه فتنتقل تلك المشاعر كلها بالعدوى إلى الأم التي ترى نفسها في ابنتها ليس امتدادا وحسب بل تجدداً واستعادة. شمس تعود ثلاثين عاماً إلى الوراء تعيش لحظات عرسها هناك في أم العيون ومضارب الشيخ نواف. سبعة أيام بسبع ليال ظل عرسها لا أحد يأكل أو يشرب إلا من عرس ابنة شيخ القبيلة وابن شيخ القرية. يومذاك كانت الفرحة مزدوجة. لقد جمع عزيز وشمس مالا يجتمع: البدو والحضر، عدوين لدودين يفرقهما الصراع الدائم على الحياة والبقاء، فجاء عزيز وشمس ليربطا بينهما بروابط الحياة والبقاء. عرس بدور نقلة أخرى هو يجمع بين الريف والمدينة، يقيم بينهما الجسور، يشد الروابط.

.. عواد من حوران، بدور من المدينة.. حماة مسقط رأسها، دمشق مرباها، في الميدان عاشت، على مرابعه تدرجت، في مدارسه تعلمت وها هي ذي تعود من جديد معلمة إليه، ابنة من بناته، تتحدث بلهجته وتتخلق بأخلاقه فكيف لا يحتفي بها الميدان؟

في المدينة لا يحبون الإطالة والمطمطة.. سبعة أيام بسبع ليال؟ لماذا؟ .. ليلة واحدة دام العرس. رقصت فيها الفتيات، هزج الفتيان، دبكوا وغنوا، لعبوا بالسيف والترس، قاموا بالعراضات الفولكلورية البهيجة:

"شنك ليلة.. شنك ليلة

من ها الليلة صار له عيلة"

ثم مضوا بالعروس إلى عريسها في الشقة الجديدة حيث يمضيان شهر العسل منفردين بعيدين عن كل الناس، تماماً كما ينفرد العروسان في مضارب الخيام فينصبون لهما خيمة بعيدة لا يقربها أحد..

صحيح، شمس فرحت بابنتها، شعرت بنفسها تتجدد، لكن الصحيح أيضاً أنها شعرت عليها بالحزن، بل بكت عليها الدموع الغزار عندما حانت لحظة الفراق. ومثلما بكت الأم على ابنتها بكت الابنة على الأم.. إنه الحزن الذي لا بد سيعتري كلا منهما وهما تطويان مرحلة من العمر لتبدأ مرحلة جديدة، ربما لا ترى فيها الواحدة الأخرى.. لكن إن شعرت شمس بمزيج من الفرح والحزن على بدور وهم يخرجون بها من منزلها، فإن فرحها بعودة الأخضر كانت خالصة لا يخالطها حزن.. الأخضر يعود إليها فكيف لا تطير فرحاً؟ هو رجل طويل عريض ناضج مزود بسلاح العلم والخبرة.. فكيف لا ترقص نشوة وطرباً؟ الكل جاؤوا لاستقبال الأخضر. كبار القوم جاؤوا يسلمون على الطبيب الجراح الذي صمد وتحمل، سنين من العذابات والمعاناة، سنين من الحرب وأهوال الحرب كيلا يعود بخفي حنين.. "أهلاً بالطبيب الجراح"، قال له صبري وهو يأخذه بالأحضان. "أنا معجب بجلدك وصمودك، بدأبك ومثابرتك"..

الأستاذ، فخري بك، فارس بك، كلهم فرحوا بعودته ظافراً منتصراً. شهراً كاملاً وليس يوماً وليلة ظلوا يستقبلون الناس الذين يريدون المباركة له بشهادته الكبيرة وتهنئتهم هم بعودة الحكيم الفهيم الذي يستطيع القيام بأصعب الأعمال الجراحية. عمه يونس من القرية، أخوه نواف، لفيف الأقرباء كلهم جاؤوا مسلمين مهنئين. خاله سلطان من البادية، أولاد أخواله، وجوه القبيلة هم الآخرون أدلوا بدلائهم حتى خيل لشمس أن العالم كله يشاركها فرحتها وهي تطير عالياً بجناحي عقفاء.

فرح الأخضر كفرح أمه كبير أيضاً.. هو فرح بالعودة إلى الوطن، برؤية الأهل، الأصدقاء، مرابع الصبا، لكن شيئاً واحداً عكره.. كان، مذ وطئت قدماه رصيف محطة الحجاز قد افتقد أباه.. بحث بين المستقبلين فلم يجده، سأل عنه فغمغم الجميع وتمتموا بالجواب.. هو مشوق لرؤيته متلهف لحضنه يضمه، ليده يقبلها لكنه لا يظهر.. "أين أبي"؟ ألح على أمه. "ستراه في المنزل". وأغرقته باللهفة والقبل.. هو يحب أمه صحيح، لكن حبه لأبيه شيء آخر..

تعلقه به شديد حتى ليشعر أن خيال أبيه لا يفارقه أبداً. طوال إقامته في باريس، كان خيال الأب معه، صورته في عينيه، كلامه في أذنيه... "العمل العمل يا بني، قيمة الإنسان بما يعمل... بالإرادة والتصميم يصنع الإنسان المعجزات". "بالدأب والمثابرة نحقق المطامح. "وكان ذلك كله دافعاً يدفعه باستمرار لأن يدأب ويثابر.. حافزاً يحفزه على الصبر والتحمل.. كان الأخضر يشعر أن أباه مثله الأعلى يقتدي به ويحذو حذوه.. ألم يشق طريقه في الصخر؟ ألم يعرض حياته نفسها للخطر عشرات المرات؟ ألم يكن مثال الطموح والدأب؟ الشجاعة والمغامرة؟ إذن، كيف لا يكون الأخضر كذلك؟ "لكن لماذا لم يأت أبي؟ "سأل أمه من جديد وهو في الطريق إلى المنزل. "هو غضبان مني؟ زعلان؟ مريض؟" لكن الأم عادت تغمغم بالجواب، تلف حوله وتدور.

في المنزل فقط، أمسكت أمه بيده وقادته إلى غرفة الأب حيث كان يجلس على سريره وكله حرقة لرؤية الأخضر. "أبي!!" "ولدي!" تبادل الأب وابنه هتاف اللقاء، ثم ألقى كل منهما بنفسه في حضن الآخر والدموع تنهمر مدرارا على وجنتيه. "أبي، لماذا أنت في الفراش؟ لماذا لا تنهض؟ "سأل الابن أباه وهو يفحصه مكفهر الوجه "أنهض؟ "رد الأب زافرا ملوحاً برأسه" أدفع عمري كله لو أستطيع أن أنهض. "وزعق الأخضر مرعوباً، "ماذا؟ أنت.. عا.. مقـ ـ ـ.." وتعثر دون أن يستطيع إكمال أي من الكلمتين.. حينذاك روى الأب لابنه القصة كاملة فضرب الأخضر كفاً بكف" ولا تخبرونني!؟ معقول هذا! أبي يصاب!! يقعد في الفراش، ولا أعلم أنا الطبيب الجراح؟" "لم تكن قد صرت جراحاً يا بني!! ولم نكن نريدك أن تقطع دراستك، "أجابت الأم شارحة مفسرة.. لكن الابن لم يرتح للشرح ولم يخف حزنه. "لا، ما كان ينبغي أن تخفوا عني الحقيقة"، ثم جلس على حافة السرير وقد هدت المفاجأة ظهره.. "كسور في الحوض؟ في الفخذ؟ في الكتف!!؟ يا إلهي!! لو أخبرتموني إذن لأخذته إلى باريس نفسها". "في البداية لم يكن باستطاعته أن يظهر.. لو عرف الفرنساوي به، ربما أعدمه "شرحت له الأم من جديد "لكن.. لماذا؟ ماذا فعل للفرنساوي كي يعدمه؟ "وتبسم عزيز" لا.. بني.. هذه قصة أخرى.." "كلي آذان صاغية.. احكها لي"، لكن الأب ربت كتف الابن، ثم شده إلى صدره وفمه على خده، ماء عذبا يريد أن يروي عطشه منه. "ماذا أقول له؟ "وتنهد عزيز وهو ما يزال يشد ابنه إلى صدره، "أأحكي له قصتي مع البطحيش؟ عملياتنا معا عبر السنين الطوال.. طعنات خناجرنا في خاصرته، صدره، ظهره؟ لا.. لا.. ليس

الآن، أخضر.. ليس الآن يا بني".. واكتفى عزيز بصب جام غضبه على المستعمر الذي يحسب الآخرين مجرد حشرات أو بهائم يمكنه أن يذبحها أو يسلخها على هواه.. "حتى على العكازين لا تستطيع السير؟ "سأله الأخضر وهو ينظر إلى العكازين المرميين في الزاوية". هو لا يريد أن يسير عليهما، رفض استخدامهما، "تذمرت الأم موجهة الاتهام إلى الأب الذي كان ما يزال يأبى استخدام العكازين. "معقول؟" قاطع الأخضر أمه وهو يتطلع بعتب وملامة إلى أبيه. "لا تريد أن تسير؟ أيعجبك قعودك في الفراش؟ "وهز عزيز رأسه انكاراً "بل لقد حاولت.. لكن آلاماً شديدة منعتني.. أشعر أن العظام هنا في حوضي تضرب بعضها بعضاً فتؤلمني ألماً لا أقوى معه على الحراك".

منذ ذلك الحين، صار ديدن الأخضر علاج أبيه. كان عجزه عن الحركة قد انغرس كالخنجر في صدره فبدا قلبه وكأنه ينزف دما وألماً جعلاه يصمم على إعادته للحركة بأي شكل من الأشكال. "أبي العزيز القوي يقعد كسيحاً أشل؟" وعاد إلى كتبه يبحث فيها، أرسل إلى الأساتذة في باريس يسأل، يستفسر.. وكان ثمة اجماع: "تكلس عظام وتصلبها من جهة وضمور عضلات وضعفها من جهة أخرى. والعلاج؟ "دوائي وفيزيائي"... الأخضر يشرف على الدوائي بنفسه وزميل آخر يشرف على الفيزيائي. في الصباح، وقبل أن يذهب إلى عيادته، يعطيه الأخضر الدواء، عند العصر يقف على يد المعالج الفيزيائي، وفي كل حين يحث الرجل الذي لم يعرف القعود من قبل، يرفع من معنوياته. كان يريد أن يعود أبوه كما كان، وكان حانقاً على الفرنساوي الذي فعل ذلك به. يريد الانتقام منه لكن لا يدري كيف.. هو يكرههم. مذ كان في باريس كان يرى تعاليهم وصلفهم.. يعرفونك من مستعمراتهم يعاملونك معاملة الإذلال والمهانة!! مرات عديدة ثار على مثل تلك المعاملة خاصة معاملة السود أولئك الذين جاؤوا من المستعمرات الافريقية وكل منهم يريد أن يحصل العلم، طبيباً أو مهندساً، فيزيائياً أو كيميائياً، لكن على أشواك التمييز العنصري. هم يرون الابتسامات الساخرة منهم، النظرات الشزراء إلى العبد الأسود الذي يريد أن يتعلم علوم السادة، بل بآذانهم يسمعون نداءاتهم فيما بينهم: "انظر العبد الأسود.. ها هو ذا النيجرو اللعين". بلونه الحنطي وبشرته المائلة للبياض، كان الأخضر غالباً ما يضيع فلا يعرفونه أصلاً ولا فصلاً، لكن كيف ينجو الزنجي أسود اللون؟ ذلك، ربما ما جعله يدرس ليل نهار.. بجد ودأب لا ينقطعان، عله يتخرج بأسرع ما يستطيع، فيخلص من التمييز العنصري والمستعمر كله.. لكن

المستعمر كان ما يزال في وطنه. هناك في فرنسا، كانوا يقولون "الانتداب انتهى". "فرنسا تخرج من سوريا ولبنان"، لكن ها هو ذا يجيء فإذا فرنسا ما تزال.. ليس في البلاد وحسب، بل في بيته نفسه، عجزاً أقعد أباه عن الحراك.

الأخضر لا يعرف اليأس.. بحماسة راح يعالج أباه، يعمل في العيادة، يشرف على المحل. كان يحاول أن يحل محل أبيه.. فيسد الثغرة التي أحس بها تفغر فاها في وجهه، بل لقد ذهب إلى القرية حيث كان يشده الحنين إلى الأهل والأقرباء. كان يريد أن يلقي نظرة على الأرض والأملاك، الأخ الذي آثر حياة الطبيعة والريف.. شمس معه.. في ذهنها أشياء وأشياء.. "الأخضر لم يعد صغيراً.. لو تزوج لكان لديه الآن خمسة أولاد، "كانت تفكر خفية "فلماذا لا أسعى لتزويجه؟" ولقد سعت شمس.. لم يكن قد مضى عليه أسبوعان حتى فاتحته. "ها قد عدت إلى الوطن.. إلى الاستقرار.. ولا استقرار للرجل إلا بالزواج. "وضحك الأخضر" لا، أمي.. استقراري الآن بشفاء أبي.. بنجاحي في عملي..".

"هذا لا يتعارض مع الزواج". "ربما بالنسبة إلى الآخرين.. لكن بالنسبة إلي يتعارض. أنا لا يهمني الآن سوى أن أعمل، أبني قاعدة، أصنع سمعة وشهرة.. يعني.. بصريح العبارة.. ما يزال باكراً علي التفكير بالزواج".. وثنى عزيز على فكرة الأخضر" صحيح المهم أن يشق الأخضر طريقه.. أن يعرفه الناس فيشتهر". لكن الأم لم تقنط بسهولة.. بل كانت لا تفتأ تناوشه. "ثمة فريدة ابنة عمك صبري.. فتاة حلوة تسألني دائماً عنك". وتغمز الأم بعينها، "ما رأيك أن تلتقي بها؟" ويجد الأخضر حيلة للتملص فلا يلتقي بفريدة. "هذه هدية ابنة أم روضة، أتتذكرها؟" تسأله شمس التي تحولت إلى مجرد أم وهي تقدم له صبية في الرابعة عشرة من عمرها، "أتذكرها وهي بجدائل صغيرة، ربما لا تتجاوز الخامسة من العمر". "ما رأيك بها؟" تقترب من أذنه هامسة". أمي أنا في ضعف عمرها، أيعقل ذلك". ولم لا؟ الأنثى تصلح للذكر أيا كان عمرها". "لكنها طفلة، أمي، وأنا طبيب لي خبرتي ومكانتي.. أريد امرأة كاملة ناضجة لا سعدانة تنط وتلعب". ويسرع الأخضر مبتعداً. لو كانت روضة لكانت معقولة هو يعرفها وهي تعرفه، بل كانا في يوم من الأيام قريبين بينهما جسور وروابط. لكن روضة تزوجت، صار لديها أولاد وكانت قد زارته.. خفية جاءت تعاتبه "أهكذا تركتني؟" "وماذا أفعل إن كنت لا أستطيع دراسة الطب إلا في باريس؟" "لكنها خيانة للعهد" أنا لم أعطك عهداً لأخونه" "لكنني كنت أحبك.. لساني انعقد حين

أرادوا أن يزوجوني سواك" "ربما هو حب من طرف واحد، أنا لم أحدثك يوماً عن حب ولا وعدتك بزواج" "أنت، ككل الرجال، ليس معكم اطمئنان وليس لكم أمان" مع ذلك كانت روضة تزوره من حين إلى حين. في البيت، في العيادة، بهذه الحجة أو تلك، مع أمها أو بغير أمها، وكأنها لا تستطيع إلا أن تراه.

كانت أم روضة قد زوجت ثلاثاً من بناتها، وكانت خيرية، الابنة الرابعة، قد خطبت لمناف فلماذا لا يخطب الأخضر الخامسة؟ "طبيب قد الدنيا، فأية ضربة حظ ستكون يا أم روضة، إن أوقعته في شراك هدية!" وبدأت أم روضة استراتيجية متكاملة. هي تعلم أنه ما يزال يكن الود لروضة، فلماذا لا ترسلها له تحدثه عن هدية وتمهد لها الطريق؟ شمس أيضاً ذات تأثير كبير عليه.. أم روضة لا تريد مهراً وليس لها شروط، حسب الأخضر أن يتزوج هدية فلا يظل لديها بنات عازبات ولا هم تدبير زيجات.

شمس تضغط على الأخضر.. هي تريده أن يتزوج، وهدية فتاة ساحرة.. غضة بضة كورق الياسمين.. عيناها خضراوان، شعرها كالذهب.. "سيأتي نسلك جميلاً، ثم هي عجينة يمكنك أن تصنع منها ما تشاء. رغيفاً، كماجة، فطيرة.. "ويضحك الأخضر "أمي، الزواج اقتران ندين: ذكر وأنثى، وليس تنوراً تخبزين فيه الخبز، أو مصنع فخار تصنعين فيه الفخارة على هواك".

"حسن، في المدينة لم تجذبه أحد، ربما تجذبه واحدة في القرية". وذهبا معاً إلى القرية.. "مزنة ابنة عمتك، نرجس تأخذ العقل"، تقول له فيبتسم "لا أخفيك.. هي جميلة لكن قلت لك.. لا أريد الزواج الآن.. لا أفكر في ذلك" "تدري!؟ ابنة عمك خديجة تريدك، حدثتني صراحة عنك"، تقول له في ليلة أخرى فيهز رأسه.. "خديجة ابنة عمي وأنا لا أكره كزواج الأقارب وأبناء العم.. هي مثل أختي ومن المحال أن أفكر فيها". "لكن، أخوك نواف فكر بابنة عمه وتزوجها". "هذا خطأ أمي وهو خطأ فظيع.. زواج الأقارب لا يورث إلا ضعف النسل وسوء الذرية.. فهل تريدين لنسلي أن يكون سيئاً ضعيفاً؟" وبدا الطريق مسدوداً في وجه شمس..

في البادية، وبين قومها، عادت تناوشه من جديد "ما رأيك بصبحة، ابنة خالك سلطان؟" "ما رأيك بندوة ابنة خالتك فوز؟" ويعيد الأخضر الأسطوانة: زواج الأقارب، وفارق السن، اختلاف البيئة ونمط الحياة.. لكن حين رأى "سوحة" بدا وكأنه نسي كل ذلك. كانت سوحة فارعة القامة، هيفاء، دعجاء كتلك التي تتحدث عنها الأشعار وتصفها القصائد.. رآها فخيل إليه أنها صورة طبق

الأصل عن أمه.. البشرة البيضاء والشعر الفاحم، القد الممشوق والعينان السوداوان.. ثم الذكاء اللماح واللسان الفصيح. "ماذا؟ أعجبتك؟ "سألته الأم وقد رأت الانبهار في عينيه "كثيراً" "أخطبها لك؟" "أجل" فضحكت الأم وقد سجلت أول نصر.. "لا تنس.. هي بدوية، لا تقرأ ولا تكتب.." "أعلم ذلك" "عمرك في ضعف عمرها" "أعلم" "بيئتها مختلفة ونمط حياتها مختلف؟ "تابعت ضاحكة... "أمي!؟"... احتج وفي عينيه لوم وعتاب.. "أخطبها لك الليلة" وهز الأخضر رأسه وهو أكثر حماساً واندفاعاً، ثم بدأ يذرع الخيمة جيئة وذهاباً وقد تركته أمه كي تزور سوحة. "أبي وقع في حب بدوية فيحدث لي الأمر ذاته أهو التاريخ يعيد نفسه أم هي عقدة أوديب يا ترى؟ سوحة تشبه أمي فأحبها.. ألأنني أحب أمي؟ ألأنها تشبهها فأجد فيها البديل والعوض.؟ "وأحس بنوع من وخز الضمير".. أنا معقد!؟ أعاني من عقدة أوديب ولا أعلم؟ لا.. لا.. يجب أن أتخلص منها.. ينبغي ألا أفكر بسوحة.." عادت الأم فهم الابن بنقل قراره لها، لكنها كانت الأسبق وقد اكتسبت سيماها أسى: "سوحة مخطوبة لابن عمها.. عرسها بعد أيام.." ووجدها الأخضر مناسبة كي يسرع في العودة إلى دمشق .

في دمشق، عاد الأخضر المغناطيس الجاذب لبرادة الحديد.. وغدت شمس أسعد بكثير وهي تستقبل نساء الحي وكلهن يسألن عن الطبيب الجراح الذي لما يتزوج بعد". متى ستزوجينه؟" "من سيتزوج؟" "ألقيت له عروساً؟"

كانت الأسئلة تترى عليها.. حتى نساء الرابطة التي ما انقطعت عنها مذ عرفت نازك وعايدة، سألنها عن الطبيب الجراح الذي "تعشقه أخته." وبدا الأخضر حلم كل فتاة.. كلهن يحمن حوله.. بيتها صار محط الأنظار. بحجة مراجعة الطبيب، ظهور علائم مرض، كن جميعاً يأتين "ها هو ذا الأخضر يعيد العز لبيت العز!!" وترتفع معنويات عزيز بعد أن فت في عضده طول القعود وأذبل روحه العجز عن الحراك، فيما كانت شمس تزهو، وقد كثرت زائراتها وطالبات ودها. "صحيح.. يسقط الطير حيث ينتثر الحب، وأي حب أكثر إغراء من الأخضر؟" ثم تشيل برأسها وهي تعود إلى الماضي مستعيدة صورة الحبيب الذي خلب لبها فتتساءل من جديد "ألم يكن عزيز كذلك؟ تتصارع عليه الفتيات ويخططن لنيله؟" هو نفسه كان قد روى لها أشياء وأشياء عن سعدى وبنات الريحانة، عن عليا وسكينة.. فكيف لا يكون الولد سر أبيه؟

-اسمع، البنات أهلكنني.. قالت له ذات ليلة وقد جاءها أكثر من ثلاث منهن، كلهن يردنك.. حسبك تدللا.. اختر واحدة وأرحني..

-لا.. أمي.. لافراغ لدي الآن للزواج،

-لكنك كنت ستتزوج سوحة.. كيف؟ ردت مقطبة محتجة.

-تعلمين؟ أنا نفسي لا أعرف كيف.. قال بنبرة المستغرب المتعجب. بعدئذ تأملها قليلاً ثم عقب، ربما لأن التاريخ يعيد نفسه، هي تشبهك أنت، وأنا أشبه أبي..

-المعنى؟

-المعنى: أتزوج حين ألتقي بالفتاة التي تخلب لبي، كما خلبت شمس لب عزيز، قال مداعباً شادا ذراعه حول كتفها، مقبلاً صفحة خدها، فشدت بدورها ذراعها حول عنقه مقبلة إياه.

-لكن أسراب القطا كثيرة وكلها تريد المنهل.. قالت بلهجتها البدوية اللماحة الملغزة.

-وأنت سعيدة بالطبع!! قبلة الأنظار صرت، مجمع الفتيات بت، فماذا تريدين أكثر من ذلك؟

-أخضر.. الله!! كم أنا فخورة بك.. كم أحبك يا أجمل شبان الدنيا!!

-القرد في عين أمه غزال!! عاود مزاحه وضحكه، فقاطعته وراحة كفها على فمه.

-لا تقل ذلك.. أخضر.. أنت هكذا في عين كل فتاة.. بل أنت حلم كل فتاة.

-إذن.. دعيني أظل حلماً.. حلما أجمل من الواقع..

لكن إن أراد هو أن يظل حلماً، أتريد الفتيات ذلك؟ أترضى الأخريات بأقل من الواقع؟ جانيت لن تفعل حتى لو طلب إليها ذلك، هي فتاة حرة مستقلة الرأي لا تفعل إلا ما يحلو لها وقد حلا لها، وهي في أثينا، أن ترى الأخضر.

-قلت في نفسي، شرحت له وهو يستقبلها في محطة السكك الحديدية قادمة من بيروت، يا بنت، أنت قريبة من دمشق فلماذا لا تستغلين هذه الفرصة؟

-جئت أهلاً ووطئت سهلاً، قال بالعربية مازحاً ففغرت فاها.

-ترادوي.. سيل فوبلي..

وترجم لها الأخضر كيف يرحب العربي بضيفه وكم يشتهر العربي بحسن الضيافة منفرداً عن خلق الله جميعاً، فمن حق الضيف أن يظل سبعة أيام دون أن يسأله أحد عن سبب مجيئه أو موعد مغادرته..

-فقط سبعة أيام!؟ قاطعته جانيت مداعبة. أنا أطمع بأكثر من ذلك..

-ولك ما تطمعين به: سبعة أشهر.. سبعة أعوام..

-لا.. لا.. أنا أريد فقط أن أتعرف إلى بلادكم.. سورية التي يقولون انها مهد الحضارات وملتقى الحضارات..

-وهو كذلك.. أكون لك دليلاً سياحياً.. يا أجمل السائحات.. وأوفى الصديقات.

لكن لدى شمس لم تكن جانيت سائحة جميلة ولا صديقة وفية، بل مصدر ازعاج وتشنج.. إذ ما إن رأتها حتى تراءى لها الكولونيل رينو بلحمه وشحمه يهددها بحبل المشنقة فانكمشت منقبضة الوجه.

-لا تخافي، طمأنها الأخضر في الحال، جانيت شيء والكولونيل شيء آخر ولا علاقة لواحدهما بالآخر.

-كيف لا علاقة وهما أخت وأخ؟

-وماذا يعني ذلك؟

-يعني الكثير.. بل أنا خائفة أن يكون هو الذي أرسلها كي تتابع مهمته..

-أية مهمة؟ سأل الأخضر ضاحكاً مستغرباً. لكن لم يكن باستطاعة شمس أن تشرح له، هو الذي لا يعلم شيئاً عن الأمر كله...

-لا أدري.. ردت أخيراً يعتمل في نفسها الخوف، لكن ظني أن لمجيئها علاقة بأخيها...

-أمي.. صدقيني.. هما لا يلتقيان إلا إذا التقى الشمس بالقمر.. ولكي يؤكد لها ذلك سأل جانيت عن أخبار الكولونيل..

-لا.. لا أعلم شيئاً! لم أره منذ شهور طويلة بل ربما أكثر من سنة. ردت جانيت ضاحكة، فيما كانت شمس تسمع دون أن تفهم.. ترجم لها الأخضر فطلبت إليه:

-سلها.. ماذا يستلم الآن؟ هل في نيته أن يعود إلى سورية؟

-يستلم؟ يعود؟ ردت جانيت باستغراب!! لا.. هو مذ خرج من سجن حكومة فيشي.. زهد في الجيش والسلطة.. لم يستطع حتى ديغول إقناعه بالعمل معه.. فترك كل شيء وتفرغ للصناعة..

-يعني لم يعد له علاقة بالأمن والاستخبارات، بالحكم والسلطة هنا؟

عاد الأخضر يسألها بناء على سؤال أمه، وهو لا يفهم سر ذلك الاهتمام

برينو!!

-جامي.. ردت جانيت مؤكدة على كل حرف.. علاقته بمصنع السيارات فقط، والمصنع يدر عليه الأرباح الطائلة فلماذا يهتم بشيء آخر؟

وتنفست شمس الصعداء، شاعرة ربما لأول مرة، أن الأنشوطة انفكت عن عنقها وأن حبل المشنقة لم يعد يهددها

-لقد طوي ملف جيرار.

-هذه بشرى سارة، قال عزيز وقد نقلت له الخبر.

-لكنني أكاد لا أصدق، عزيز!! انتهت مشكلة جيرار؟ أكاد لا أصدق..

-بل صدقي!! الزمن أنهاها والزمن كفيل بإنهاء كل مشكلة..

غير أن مشكلة جديدة ظهرت.. "من أين جاءتني هذه الجنية، جانيت؟ ماذا تريد من ابني؟ لماذا هو بالذات؟ "لقد أحست شمس بالمشكلة مذ أراد الأخضر أن تحل جانيت في غرفة بدور وطوال إقامتها في دمشق.. "ليس من المستحسن أن ننزلها في فندق، "شرح لأمه وأبيه ولم يملكا إلا أن يؤمنا على قوله، لكن العلاقة الحميمة بين جانيت والأخضر جعلت الأم تتكمش وتتحفز، "هما زوج وزوجة.. يسهران معاً، ينامان معاً، فماذا إن كانت قد جاءت لتتزوجه؟ "وكانت تعبس وتقطب وهي ترى ابنها وضيفته طيري حمام متناغمين يلتف منقاراهما غردين.. أفصحت لعزيز عن همها فهز رأسه استنكاراً:

-لا تخافي.. الأجنبية هكذا، تعيش حريتها دون قيد أو شرط.

-وماذا ان حبلت؟ ألا تكون قد ورطته؟ ألا تفرض عليه الزواج فرضاً؟

-أيضاً، لا تخافي.. هي نفسها لا تريد أن تحبل أو تتزوج..

-كيف عرفت؟

-سألت الأخضر..

وكان الأخضر قد شرح له علاقته بجانيت فعل الرجل للرجل. الأخضر مطمئن، سعيد.. فرح بجانيت يريد أن يرد لها الجميل. "ألم تعمل ذات يوم كي تخلصني من خجلي وحزني؟ ألم تأخذ بيدي في باريس؟ ألم تهرب بي وقت الاجتياح إلى الجنوب؟ "هي بالنسبة إليه صديقة حميمة لكن صديقة دون التزام، دون ارتباط.. تسبح في فلكها ويسبح في فلكه فإذا ما تقاطع الفلكان التقيا، ناما معاً، مارسا الحب وكأنهما لم ينفصلا قط. كانت جانيت قد تخرجت، صارت دكتورة في الآداب الكلاسيكية، تدرّس في الجامعة، مع ذلك لم تكف يوماً عن

البحث.. ظمأها للمعرفة، للتنقيب، للكشف، أكبر من أن يطفئه عمل روتيني، فتنتهز كل فرصة تسافر فيها إلى بلاد الإغريق وإلى بلاد الرومان، تستكشف وتفتش. لكن قبل أن تأتي إلى بلاد الإغريق كانت تعرف الكثير عن حضارة الشرق، عن علاقة الإغريق بالشرق، عن فضله على حضارتهم.. هي التي مدت جذورها إلى هناك فامتصت منه النسغ وجاءت بالماء والغذاء ليتحولا إلى فلاسفة وأدباء. أبجديتها، حروفها، علومها، رياضياتها، فلكها، هندستها، كلها جاءت من الشرق ثم تطورت كما هو شأن البشرية وحضاراتها: مشعل يحمله عداء ماراثون إلى أن يوصله إلى عداء آخر يجري به شوطاً جديداً إلى أن يأتي من يستلمه.. وصار لديها دافعان: تلتقي بالأخضر وترى حضارة الشرق. بأم عينها رأت الآثار العظيمة في دمشق، بصرى، تدمر، أوغاريت، أفاميا، حلب.. رأت المدن الميتة هنا، هناك، ولما يكشف عنها التراب بعد.

-ما بلدكم هذا؟ قالت للأخضر، وهما يمران بإحدى المدن الميتة في الشمال. "سورية كلها متحف كأنها بلد الزمانين: الماضي والحاضر.. يعيشان معاً وعلى سطح واحد.

-الحمد لله ان اعترفت؟

-أعترف؟ كيف لا، وأنا أرى بأم عيني؟ حيثما ذهبت، ثمة الماضي إلى جانب الحاضر.. هذا فوق الأرض وذلك تحت الأرض حتى ليخيل إلي أنه لا يوجد شبر في سورية إلا وفيه أثر من حضارة وبقايا من عمران..

-مع ذلك، جاء قومك يستعمروننا وكل زعمهم: ليس لدينا من الوعي الحضاري ما يؤهلنا لإقامة دولة؟

-أي زعم!؟ أي باطل!! بل كيف يفكرون كذلك وفي كل مكان أدلة دامغة على أنكم أمة عظيمة، صانعة حضارات؟

-قولي ذلك لهم، هناك في باريس..

ولم تملك جانيت وهي ترى الأبجدية الأولى في أوغاريت إلا أن تهتف إعجاباً:

-لا، أمة تخترع الأبجدية هي أعرق أمم التاريخ، أعظمها مدنية وأكثرها حضارة. وكان ذلك يدغدغ مشاعر الأخضر، يجعله يزهو شيئاً فشيئاً، بل بدا وكأنه يداوي الجراح التي تركها الفرنسيون في نفسه طوال ثماني سنين، وهم يعملون فيه نصال غرورهم وسهام صلفهم. شعوره بالدونية، ذاك الذي بدا في وهلة من الزمن يضرب جذوره عميقاً في نفسه، بدأ بالانزياح.. لم يعد هو

البدائي "السوفاج"، الذي ينظر إليه أبناء باريس من علٍ.. بل تنظر إليه جانيت نفسها من علٍ.. ها هو ذا يستعيد مكانته مجسداً لحضارة عريقة عراقة التاريخ، منتسباً لأمة عظيمة وضعت أسس الحضارة ثم رفعت دعائمها وأطلقت عجلة التاريخ..

–أخضر.. لا أخفيك، قالت له وقد عادا، إلى دمشق، أنا مأخوذة اللب مسحورة.

–هو ذا سحر الشرق لا ينجو منه أحد.. رد ضاحكاً مداعباً شعرها الأشقر، وقد افترش الوسادة ريش طاووس.

–أنا أعبد هذا الشرق!! أموت في سحره!!

–ماذا تعنين؟ لكأني أرى في عينيك بريق فكرة!!

–أجل.. أخضر.. أفكر أن أبقى هنا، حيث هذا السحر..

–وفرنسا؟ الغرب؟ قال مداعباً دون أن يأخذ كلامها مأخذ الجد..

–أتخلى عن كل شيء لقاء طمأنينة الشرق.. يقين الشرق.. سحر الشرق..

–تتخلين؟ كيف؟

–نتزوج!؟ نعيش هنا.. ننجب أطفالاً.. قالت وقد جلست بعد استلقاء، ربما كي تعطي كلامها طابع الجد..

–نتزوج؟ رد الأخضر وهو يتفحصها ربما غير مصدق أذنيه، أنت تتزوجين؟ تابع مشيراً بسبابته، مؤكداً على كل حرف..

–أجل.. أنا أتزوج .. وأتزوجك.. أنت.. أخضر.. أنت رجل رائع.. عظيم لا تملك المرأة إلا أن تحبه..

–جانيت أتعلمين ما تقولين؟ تحبين..؟ أنت تحبين؟

–أجل.. الحب.. هو ما أشعر به تجاهك.. إني أعترف.. أنا جانيت رينو التي لم تكن تؤمن بالحب، باتت الآن تؤمن به.. بل تؤكد أن حبك يتملك قلبها، فلماذا لا نتزوج؟

–أنت واقعة تحت تأثير الشرق، كلامك نتاج سحره ولا يؤخذ بكلام المسحور..

–هبني مسحورة بالشرق، مسحورة بك،.. مفتونة حتى اللب فلماذا لا ننتهز هذه الفرصة؟

–جانيت، مسحورة مفتونة.. ننتهز..ما الذي تقولينه؟ لا شك أنك لست

جادة؟

-بل أنا جادة كل الجد.. وان شئت نذهب الساعة إلى الكنيسة فنتكلل..

بلغ الاقتراح مسامع شمس، فلعلع رصاصها، فاتحة عليها النار.

-لا، لن تتزوج هذه الجنية.. لن تتزوج امرأة لا تعرف هي نفسها عدد الرجال الذين نامت معهم.

وانكمش شيء في داخل الأخضر.. "صحيح.. امرأة كجانيت عاشت حياتها بالطول والعرض كيف أنسى ماضيها؟ كيف آخذها زوجة تحمل اسمي؟ أما لأطفالي؟ "ولم يكن الرصاص قد توقف.. شمس تطلق زخات متصلة لا تعرف انقطاعاً، تنقض وقد تحولت إلى مخالب وأنياب، لبؤة تشهد لبؤة أخرى تقترب من عرينها.. غيرة!؟ كراهية!؟ خوف!؟ شمس لا تدري أي مزيج من الأحاسيس كان يعتمل في داخلها.. ما تعلمه أن ثمة بركاناً في داخلها كان قد تفجر حمماً لاهبة.

-أرأيت؟ ما كنت أخشاه قد وقع!! قالت لعزيز بعد أن روت له القصة.

-مفاجأة.. هي مفاجأة حقاً!! كرر عزيز وهو في غاية الاستغراب والدهشة.. تأتي إليه هنا كي تتزوجه.. أية نساء!! أي زمن!.؟

-قلت لك ذلك.. مذ وقع عليها ناظري عرفت أنها تريد أن تخطفه.. أن تضع يدها عليه. ولم يجد عزيز جواباً فلاذ بالصمت.. كان يعلم أن المرأة تفهم المرأة أكثر مما يفهمها الرجل. هي تملك حدساً لا يملكه الرجل، وبحدسها ذلك تسبق منطق الرجل.. الأخضر فسر الأمر على نحو آخر فبدأ ممازحاً:

-اظهري الآن!! اظهري على حقيقتك!! حماة تغار من كنة!!

-كنة؟ أجابت شمس غير مازحة، وهل يمكن لهذه الجنية أن تكون كنة؟ لا.. لا.. إن هي إلا نمرة تريد افتراسك أمام عيني فكيف أسكت؟

ولم تسكت شمس..

-اطردها في الحال.. ختمت نقاشها معه.. لا أريدها ساعة واحدة في هذا البيت..

لكن حسن الضيافة، إضافة إلى الشهامة العربية، منعا الأخضر من أن يطرد جانيت.. عزيز ساعده في ذلك، عله يصل إلى حسن التخلص فلا يموت الذئب ولا يفنى الغنم..

-كسكوسي.. شيري؟ سألته جانيت وقد همدا بعد ثورة حب، أنت لم تجبني

على اقتراحي؟ لم تقل لي متى نتزوج؟

-أخشى أن تكوني قد تسرعت، أن تندمي فيما بعد.. فكري قليلاً، تـروي أكثر..

-ماذا تعني؟ ردت وفي صوتها أثر من رعشة..

-أعني.. عودي إلى باريس، راجعي حساباتك بعيداً عن سحر الشـرق.. عن تأثير الشرق.. هناك.. خذي قرارك على مهل..

-أفهم أن أهلك لم يوافقوا؟ قاطعته بشيء من حدة وحنق..

-لا، ليس الأمر أمر أهلي، رد الأخضر وصورة واحدة تسـكن عينيـه: جانيت تعانق هذا الشاب وتتأبط ذراع ذاك..

-إذن، هو عقل الشرق: يقبلني صديقة لكنه يرفضني زوجة؟ قالت، وكثير من العتب في عينيها.

-جانيت، أرجو أن تفهميني، رد الأخضر، في صوته تلعثم وفـي عينيـه خجل وحيرة. لو كنت في باريس لما كانت هناك مشكلة.. لكن أنـا هنـا فـي الشرق حيث الماضي والحاضر يعيشان معاً، وعلى سطح واحد.. أنت بنفسـك رأيت ذلك. هنا الماضي جزء لا يتجزأ من الحاضر، فكيف لأحدنا أن يتجاوزه؟ كيف له أن يغفله؟

-كيف نغفله هناك؟ كيف نتجاوزه؟

-لأنكم الغرب ونحن الشرق.. الشرق الذي يضرب جـذوره عميقـاً فـي التاريخ فينشد إلى التاريخ، يسحره الماضي أكثر من الحاضر فيعيش الماضـي أكثر من الحاضر..

-وأنت أخضر!؟

-أنا إنسان والإنسان ابن بيئته..

-لكن هذه ازدواجية. أخضر.. هذا خطأ..

-لا.. جانيت.. قاطعها قبل أن تزداد حدة، وبصوت طغى على صـوتها، البيئة تفرض نفسها عليك.. والذكي من يتكيف مع بيئته.. أنا ابـن الشـرق ولا أستطيع إلا أن أكون ابن هذا الشرق حتى نتمكن من تغييره..

-حسن إذن!! أسافر غداً!! قالت وفي حلقها غصة منعتها حتى من الكلام..

لم يعترض الأخضر ولم يستمهل.. كان قد مضى على ضيافته لها أكثـر من سبعة أيام بكثير ومن حق الضيف أن يتخذ القرار الذي يشاء بعد سبعة أيـام

بقليل..

برداً وسلاماً نزل القرار على قلب شمس، بل لم تغادر جانيت عتبة البيت حتى صاحت:

-وضحة، هاتي فخارة فاكسريها..

وكسرت وضحة الفخارة، فيما كان عزيز يقهقه، ربما للمرة الأولى مذ أصابه رصاص الفرنسيين وشظاياهم. ضحك عزيز أيضاً لكن بغير قهقهة، حين جاءه مناف باقتراح:

-أبي.. أريد أن أتزوج..

-حسناً تفعل.. أجابه الأب، وهو يتصوركم ستفاجأ الأم التي لم يكن يشغلها غير زواج الأخضر، فيطلع لها زواج مناف..

-لكن بغير عرس، تابع مناف بنبرة الحذر..

-أحسن وأحسن.. رد الأب وقد خالط سروره شيء من إعجاب...

-الناس كلهم يطالبون بالأعراس، كان رأي الأم حين عرض عليها الأمر، فلماذا أنت العكس؟

-بنفقات العرس نذهب إلى يافا.. نقضي شهر عسلنا هناك..

-فكرة بارعة لا يتفتق عنها إلا ذهن تاجر بارع، علق الأب وهو يتفحص الابن الذي كان قد يئس منه ذات يوم وهو يراه يكره الدرس، يهرب من المدرسة، يبتكر أغرب الحجج والمبررات كي يبرر رسوبه في صفه ويعلن المرة تلو المرة أنه لا يريد أن يكون معلماً كبدور، ولا طبيباً كالأخضر بل تاجراً كأبيه. لا يملك الأب ما يدفع به حجته، فيلتحم به مناف، يساعده في العمل ثم يحل محله ما أن يقع المصاب ويفلح في التجارة حيث أخفق في الدراسة.

بلا عجيج ولا ضجيج، عقد مناف قرانه على خيرية، ثم تأبط ذراعها ترافقها أمها والبقية الباقية من أخواتها إلى محطة السكك الحديدية. ودع الأخضر أخاه وودعت روضة ابنتها إلى يافا، حيث جذورها تمتد هناك أعماماً وأخوالاً ومناف لا يريد من شهر عسله إلا أن يساعده في إقامة جسور مع يافا ومن فيها من تجار فلسطينيين ومتعهدين انكليز يحتاجون لحبوب حوران ويدفعون أثمانها بسخاء.

-يافا؟ تساءل الأستاذ بمزيج من لوم واحتجاج. كيف تسمح له بالذهاب إلى هناك، ويافا غير آمنة؟

-صحيح!! شهقت شمس وقد ساورها الخوف، كيف فاتنا ذلك؟

-لا.. لا أظن أن هناك من خطر!! تدخل عزيز وهو يرشف فنجان قهوته متكئاً على وسادته.

-لا تظن.. وفلسطين كلها على حافة بركان قد يثور في أية لحظة!! قال الأستاذ بنبرة تشاؤمه المعتادة وتنبؤاته السوداوية التي ألفوها. هو مذ جاء من اللواء طريداً شريداً لم يهنأ له عيش ولم يعد يرى غير نصف الزجاجة الفارغ. عزيز يعرف ذلك لكنه يحبه، يكبر فيه ثقافته.

هو موسوعة المعرفة.. يسأله عزيز عن أي شيء وفي أي شيء فيلقى الجواب الشافي..

الأستاذ، مذ وقع عزيز، لم يتركه. كل يومين أو ثلاثة يمر به، يجالسه، يحدثه، يتغديان، يتعشيان، ويناقشان قضايا الساعة ومسائل السياسة. عواد يحبه هو الآخر.. في غدواته، روحاته، كثيراً ما يلازمه.. آراء الأستاذ، كتاباته، مقالاته كلها تجذب الاهتمام، تلف حوله المريدين والتلاميذ حتى صار من حوله لفيف من التلاميذ والمريدين.. الأخضر معجب هو الآخر به، مثلما الأستاذ معجب بالأخضر، وهو وحده من يدخل معه بنقاش، يجادله، يأخذ ويعطي معه ويتكشف الأخضر عن ثقافة كبيرة أيضاً وسعة إطلاع. كان الأستاذ لا يفتأ يتحدث عن فلسطين والشر الذي ينتظر فلسطين. "الإنكليز ينفذون وعد بلفور بندا بندا ومرحلة مرحلة." كان قد قال مذ جاء من اللواء ثم شيئاً فشيئاً صار يطلق بوق الانذار "اليهود يقيمون المستوطنات" "اليهود يشترون الأرض" "اليهود يتوسعون" وكان عزيز يعجب دائماً من أين يأتي الأستاذ بمعلوماته وإحصائياته تلك التي كانت الأيام التالية تتكشف عن صحتها. "صار لليهود مؤسساتهم المستقلة وإداراتهم، منظماتهم العسكرية وأسلحتهم، "تل أبيب صارت مدينة كاملة لليهود ستبتلع في يوم من الأيام يافا". وكان ذلك ما بث الرعب في قلب شمس..

-حقاً؟ هناك خطر على مناف؟ سألته وهو ما يزال يشرب قهوته.

-من يدري.؟ يكون المكان آمناً، فجأة تأتي عصابة من رجال شتيرن أو الأرغون. يتحرشون بالعرب ويفتعلون معهم مشكلة لها أول وليس لها آخر..

-ويلي عليك يا مناف!! صاحت الأم وهي تتصور ابنها أمامها قتيلاً أو جريحاً.

-توكلي بالله، شمس، هتف بها عزيز لائماً مشجعاً، من له عمر لا تقتلــه شدة..

-صحيح.. تدخل الأستاذ بكثير من القهر، لكن اليهــود أشــرار، يحيلــون فلسطين كلها إلى جحيم ونصب أعينهم هدف واحد..

-أي هدف؟ سألت شمس وكأنها نسيت الغاية الأساسية من وعد بلفور.

-طرد العرب.. كل العرب.. فتبقى فلسطين كما يزعمــون: أرضــاً بــلا شعب لشعب بلا أرض..

-وهذه هي الطامة!! قال عواد الذي كان قد غدا حوارياً من حوارييه.

-وهل هي الطامة الوحيدة!؟ تابع الأستاذ، ثمة طامات.. تركيا سلبت لواء اسكندرون، إيران نهبت عربستان، فرنسا تفرنس الجزائــر.. والحبــل علــى الجرار!! الحبل على الجرار!!

-كم الصورة قاتمة!! علق عزيــز وهــو يتــذكر أحلامــاً عاشــها هــو واليوزباشي صبري في الزرقاء وحوران ثم في الطريق إلى دمشق..

-كيف لا تكون كذلك والوطن كله ما يزال خارطة من الرقع: كل رقعــة مختلفة عن الأخرى، مضادة لها.. وكلها ترسف بأغلال العبودية والاستعمار؟

-لا.. أستاذ.. لا تتشاءم كثيراً.. ثمة بلدان استقلت، اعترض عزيز محاولاً تحسين الصورة قليلاً..

-صحيح، لكن أكثر البلدان، ماذا؟ بحرقة ولوعة تساءل الأستاذ..

-الأستاذ على حق، تدخل عواد الذي تشرب أفكار أستاذه جيداً.. ثــم بــدأ يعدد: المغرب، الجزائر، تونس، كلها ما تزال تحت نير الاستعمار الفرنســي.. السودان، فلسطين، عدن، بلدان الخليج العربي، كلها ما تزال ترزح تحت نيــر الاستعمار البريطاني.

-سيأتي يوم وتستقل.. علق عزيز بنبرة من تفاؤل.. هي تكافح من أجــل الاستقلال، وكما استقلت مصر والعراق لا بد أن يأتي يوم وتستقل..

-ربما، لكن أي استقلال؟ بل ما الجدوى من مثل هــذا الاســتقلال؟ عــاد الأستاذ لأفكاره العويصة، تلك التي بدت لشمس وكأنها لغــز.. فارتــدت إلــى لهجتها البدوية تسأل:

-ما تعني أستاذ؟ ما به فايدة من الاستقلال؟

-شمس، يا عزيزتي، أجاب الأستاذ مؤكداً على مخارج ألفاظه.. يكون الاستقلال حقيقياً، مفيداً بقدر ما تكون الدولة قوية، لكن إن كانت ضعيفة، صغيرة، تفتقر لأدنى مقومات الدولة، ماذا سيكون استقلالها؟

-هشا، ضعيفاً، سارع عواد للإجابة.

-وهذا ما أراده الاستعمار.. هذا ما خطط له منذ البدء.

-كيف أستاذ؟ تابعت شمس تساؤلها وقد ازداد كلام الأستاذ ألغازا..

-حين حل الاستعمار الغربي محل الاستعمار العثماني وجزأ هذا الوطن المسكين إلى مستعمرات ومحميات، كان يريد أن يفرض أمراً واقعاً، حتى بعد الاستقلال..

-أجل، هتف عواد متحمساً، يسلم فمك أستاذ.. الأمر الواقع هذا هو المخطط الفظيع..

-بدلاً من أن نكون وطناً واحداً من المحيط إلى الخليج، تابع الأستاذ وكأنه لم يقاطع، يحولنا إلى شراذم يستعمرنا أجزاء، يرسخ حدوداً بينها وحواجز وحين يخرج نجد أنفسنا كما صنعنا مزقا وشراذم، ضعفاء، فقراء، فماذا نملك إلا أن نظل تابعين له؟ نستمد نسغنا منه، ندور في فلكه، نأتمر بأمره؟.. ويكون استقلالنا أجوف فارغاً أبعد ما يكون عن الاستقلال..

-أنا أخالفك الرأي أستاذ، احتج عزيز وقد ضربت آخر ذرة تفاؤل لديه..

-كيف؟ ماذا ترى؟ سأل الأستاذ بابتسامة من يرغب في أن يرى نفسه على خطأ..

-حين تستقل البلدان العربية كلها ما الذي يمنعها من أن تتحد؟

-ما يمنعها الآن..

-الآن.. هناك استعمار..

-وغداً سيكون استعمار.. وما هو أدهى من الاستعمار، قاطعه الأستاذ ممعناً فيه النظر..

-أدهى من الاستعمار؟ إيش هو أستاذ؟ تدخلت شمس بحب استطلاع جديد..

-الحكام..

-لا، أستاذ، تنطع له عزيز من جديد، لا أعتقد أن هناك حاكماً لا يؤمن

بوحدة العرب وضرورة وحدة العرب.

-وأنا أعتقد ذلك أيضاً.. لكن يؤمن بمصالحه أكثر، يريد أن يحافظ على كرسيه أكثر، فيرسخ الحدود ويعمق التجزئة حتى ليبدو أكثر تمسكاً بها من الاستعمار..

-والجامعة العربية أستاذ؟ عادت شمس تسأل، وقد سمعت الكثير عن تلك الجامعة من الناس والإذاعات.. سبع دول عربية الآن في الجامعة.. ما هي وحدة، أستاذ؟

-الجامعة!؟ رد الأستاذ وهو يلوح برأسه متنهداً، آه من بريطانيا كم تخترع من أشكال وأطر!!

-ما الشكل الصحيح، إذن.. أستاذا؟ سأل هذه المرة عواد وقد صمت طويلاً.

-من المحيط إلى الخليج دولة واحدة.. بلا حواجز، بلا حدود.. يرفرف في كل مكان منها علم واحد، فيها جيش واحد ولها رئيس واحد..

-يا سيدي.. أنا أرضى بولايات عربية متحدة.. مثل أمريكا.. علق عزيز متحسراً

-دولة واحدة، ولايات متحدة.. تدخل عواد.. المشكلة.. كيف؟

-بالكفاح.. بالتضحية.. اندفع الأستاذ متحمساً يجيب..

-أيضاً.. كفاح وتضحية!! قاطعته شمس مستغربة..

-تعلمين شمس؟ انتهينا من الاستعمار يعني انتهينا من الجهاد الأصغر.. فماذا يكون أمامنا؟

-الجهاد الأكبر، أجاب عواد للتو وقد سمع الجواب من قبل..

-أجل.. ما بعد الاستقلال هو الجهاد الأكبر.. مهمات كثيرة أمامنا: نهضة، تطور، لحاق بركب الأمم، صنع حضارة.. لكن قبل ذلك كله التحرير والوحدة!!

-التحرير!! الوحدة!! الله ما أعظم أن يتحقق هذا الحلم، هتف عواد بحماسة أستاذه وقد تشرب حلمه نفسه!!

-تعلمون؟ همي الآن أن يتحقق حلم استقلالنا هنا.. أن يجلو الاستعمار عن بلادنا!!

لم يكن ذلك هم الأستاذ وحده.. بل كان هم الناس جميعاً: الجلاء..

الاستقلال. كانت فرنسا قد وعدت أكثر من مرة بإعطاء سورية ولبنان الاستقلال، لكنها كل مرة كانت تكذب وتراوغ، تسوف وتماطل.. حتى قرار هيئة الأمم المتحدة، حاولت الالتفاف عليه، قصفت البرلمان السوري، ضربت دمشق، طرحت مشاريع معاهدات وأفكار اتفاقيات تلغي كلها الاستقلال، لكن كان ثمة رجال سياسة يعرفون كيف يدافعون عن حق بلدهم في الحرية والاستقلال، وكيف يدفعون الاستعمار إلى الجلاء، وكانت هناك قوى جديدة تريد أن تطيح بالقوى القديمة جانباً..

آليات فرنسا بدأت بالانسحاب: طيرانها، مدفعيتها، دباباتها، جيش الشرق كله ينبغي أن يعود إلى الغرب.. كل في أرضه وكل في موقعه، الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان إلا ندين متكافئين متكاملين.. الكل على نار. ثمة تساؤل ولهفة.. متى تنهي فرنسا انسحابها؟ متى يجلو آخر جندي عن أرض الوطن؟

-الحمد لله!! الجلاء صار وشيكاً، جاءت شمس لعزيز بخبر طازج نقلته لها عايدة بيهم للتو.

-أنا لا أصدق حتى أرى بعيني وأسمع بأذني!!

-بل صدق.. خبر يقين لا يأتيه باطل من أمام ولا من خلف..

-إيه.!! تأوه عزيز وكأنما أقر بصدق الخبر. اللعنة على الاستعمار: عصملي وفرنساوي.. قد ذهبا بعمرنا..

-العمر كله ما يزال أمامنا.. عزيز!!

-ونحن ندنو من الغروب، شمس!؟ عاد عزيز للتنهد حابساً دمعة توشك على الانفلات..

-لا.. لا تقل ذلك، حبيبي!! احتجت شمس وهي تشعر بنوع من القهر بعد أن رأت الدمعة في عينه. شمسك لا تزال في الجوزاء!!

-كم أود ذلك حبيبتي!! لكن كيف وها نحن نعود وحيدين؟ تساءل وهو ينظر حوله فلا يرى بدورا ولا منافا.. أولادنا يطيرون من حولنا لنعود كما بدأنا.. أنا وأنت فقط.

-والأخضر!؟ احتجت بقوة أكثر، أنسيته؟ انه يملأ علينا حياتنا..

-صحيح.. لكن الأخضر لعيادته، لمرضاه، للناس وليس لنا..

-بل هو لنا.. من صنعنا.. وأنا فرحة به، فرحة بما صنعنا..

-وماذا صنعنا؟ يخيل إلي أن العمر مضى دون أن نصنع شيئاً!!

-عزيز.. قالت بنبرة كلها لوم، ما الذي تقوله؟ انظر حولك يا رجل!! الأصدقاء.. المحبون.. الساسة.. الزعماء.. المحل، القرية.. الأولاد.. مال وبنون، ومازينة الحياة الدنيا؟ مال وبنون.. عزيز.. صدقني.. لقد صنعنا الكثير، أنجزنا الكثير وحري بنا أن نرفع رؤوسنا فخاراً، نزهو على الناس جميعاً..

-نرفع رؤوسنا؟ نزهو؟ قال زافراً وهو يشير إلى جسده الممدد على السرير... كيف، وعزيز، الذي كانت ترتج الأرض تحت قدميه، لا يستطيع الوقوف على قدميه.؟

-ستقف.. أنا واثقة أنك ستقف.. ستمشي..

-أقف؟ أمشي؟ وأنا منذ سنين ما زلت مكاني، طريح الفراش، صريع الألم إن أتيت بأدنى حركة.

لكنك تتحسن.. قاطعته شمس واضعة راحتها على شفتيه.. مذ بدأ الأخضر علاجك، أنت تتحسن.. فقط لو تطيعه فتبدأ بالعكازين.. تتدرب على المشي بلا عكازين..

-لا، صاح عزيز محتجاً، كل شيء إلا العكازين.. اللعنة عليهما، لا أريد أن أقف على عكازين.. أتسمعين؟ أريد أن أمشي برجلي عزيز فقط، لا بعكازين.

-والعجلة؟ لماذا لا تخرج بها؟ تشم الهواء، ترى النور على الأقل..

-ولا عجلة أيضاً.. قلت لك، لا عكازين ولا عجلة..

بعد ثلاثة أيام، أفاقت دمشق على طلقات المدافع ولعلعة الرصاص.. فتح عزيز الإذاعة المحلية، فجاءه صوت يرتعش فرحا وغبطة: هذا يوم الجلاء!! هذا يوم الحرية.. هذا يوم الاستقلال!!

وخرج الأخضر يستطلع.. كان آخر جندي فرنسي قد جلا عن تراب الوطن، وكانت دمشق تخرج عن بكرة أبيها، تتنسم هواء الحرية.. تعب أنسام الاستقلال.. نساء، رجالاً، صغاراً، كباراً، خرجت دمشق.. الكل يهزجون، يرقصون، يعانقون بعضهم بعضاً، يضحكون.. الفرحة غامرة، الزينات في كل مكان.. علم سورية رباعي الألوان: أحمر، أخضر، أبيض، أسود.. هو يرفرف

خفاقاً في كل مكان، يكلل هامات الأبنية، يزين الشرفات، الشوارع.. حلقات الدبكة في الساحات، هنا وهناك العراضات، أعراس الوطن تحيي، أفراح الوطن تعيش.. يعود الأخضر يكاد يطير فرحاً.. يكاد عزيز يطير هو الآخر فرحاً.. يمتلئ حماسة وحمية وهو يسمع الزغاريد، الهتافات.. قرع الطبول، عزف المزامير، ثم يشتد حماسة حين ينقل له الأخضر خبر العرض العسكري.

–لنخرج، يصيح بشمس والأخضر.

في العجلة الخاصة التي صنعها له ذات يوم، يضعه الأخضر ثم يدفعه إلى الخارج، عينا شمس ترقبانه.. بعجب ودهشة تتابعانه، ولا تملك إلا أن تبتسم وهي تغمغم.. "لا عكازين ولا عجلة".. كم حاولت معه شمس!! كم ألح عليه الأخضر لكنه كان لا يفتأ يردد "عزيز يركب عجلة مقعد!!

"لا، لن أخرج إلى النور إلا على قدمي، حرام علي الخروج، إلا واقفاً". لكن ها هو ذا ينسى. فرحه ينسيه حتى نفسه، ويدفع الأخضر بالعجلة عبر أزقة الميدان، شارعه الرئيسي، باب الجابية، نزولاً إلى الحميدية، فالسراي، حيث الجماهير تحتشد والعرض العسكري يبدأ..

ساحة المرجة تغص بالناس، ضفتا بردى تغصان بالناس، والكل يرقبون أن يظهر الرئيس.. الهتافات مدوية، الأهازيج فرحة، الزغاريد ملء دمشق.. فدمشق كلها تعيش عرس الجلاء..

يظهر الرئيس في الشرفة.. من حوله وزراء وضباط، يمسك بحبل السارية حيث العلم ما زال مطوياً. في طرف الساحة تربض عجلة عزيز، من هذا الجانب الأخضر، ومن ذاك الجانب شمس. يشد الرئيس الحبل، يبدأ علم الاستقلال بالارتفاع.. "آه لو كنت معنا الآن، كم ستكون فرحتك كبيرة أيها الزعيم الشهبندر!! "وتنحدر دمعة على خد عزيز" بعضهم يزرعون والآخرون يحصدون!؟" ببطء يرتفع العلم، بسرعة تعود إلى ذهن عزيز ذكرى يوم آخر تسلق عزيز فيه سطح السراى.. يرفع بنفسه العلم العربي وقد خرج آخر "عصملي" من أرض الوطن. طبول الجوقة العسكرية تدق، الأبواق تعزف، الصنج يرن.. تملأ الموسيقى أذني عزيز، تملأ الهتافات رأسه، تلهب الزغاريد دمه.. وتفور قدور في داخله، تثور براكين، تضطرم حمم.. ولا يشعر عزيز إلا وهو يرتفع بيديه في الهواء، يرتفع بكتفيه، بعجزه كله ثم لا تعود هناك عجلة.. تندفع الرجلان إلى أمام.. على مهل.. تندفعان.. بحذر تندفعان.. عينا شمس تنفتحان دهشة، عينا الأخضر تلمعان فرحا، يداه تشيران:

-أمي!! ها هو ذا يقف!! ها هو ذا يمشي!!

-حمداً لك يا رب!! تهتف شمس رافعة يديها إلى السماء، لاحقة بالرجل الذي يمشي قدماً، شاقاً بيديه الزحام.

-أبي!! أبي!! مهلاً!! أبي!! يصيح الابن، لكن الأب يمضي قدماً.. يريد أن يصل إلى السارية، أن يرفع العلم بيديه..

-عزيز!! تهتف به شمس وقد أمسكت بذراعه. ها هي ذي المعجزة تتحقق، ها أنت ذا تمشي!! تتابع وهي تتلمسه، كأنها لا تصدق ما ترى، فيما دموع ساخنة تنحدر على خديها شآبيب مطر صيفي.

-أمشي!!؟ يرد عزيز ناظراً إلى نفسه، ثم إلى شمس، وجهه هالة من إشراق، عيناه كوكبة من بروق، يفرش ذراعيه جناحي نسر ينضوي تحتهما الأخضر وشمس، يتطلع إلى الأعلى، حيث العلم والشمس. للتو يشعر أنه نسر.. جناحاه قويان وهو يطير.. يحلق عالياً في السماء، بل يخيل إليه أنه يكاد يلامس الشمس، يكاد يبلغ الجوزاء.

❑❑❑

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

الطريق إلى الشمس: ثلاثية روائية: الجوزاء/ عبد الكريم ناصيف– [دمشق]: اتحاد الكتاب العرب، 2000 – 338 ص؛ 25سم.

1- 813.03 ن ا ص ط
2- 813.009561 ن ا ص ط
3- العنوان
4- ناصيف

ع- 2000/10/1820- مكتبة الأسد

❑❑

هذا الكتاب

ترصد الرواية تبلور الوعي الفكري في سورية من خلال تأثير الشخصيات بالأحداث وتأثيرها، وصولاً إلى الوعي القومي من خلال إشارات إلى شخوص فاعلةً، إضافةً إلى عرض تباين في أسلوب التفكير والحياة بين كل من الشرق والغرب..

❑❑